النبــوات

عند الإمام ابن تيمية

ضبط وتحقيق

الدكتور أشرف عبد الرافع الدرفيلي

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

النبــوات

عند الإمام ابن تيمية

ضبط وتحقيق

د. أشرف عبد الرافع الدرفيلي

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة

للتواصل مع المحقق:

جوال:٠٠٢٠١٠٠٦٠٥٣٠٩٣

بريد إلكتروني:

ashrafrafaa٨@gmail.com

الإخراج الفني

الدكتور أحمد علي سليمان

من لوحات الفنان الخطاط الأستاذ محمد الدهنة

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٧
فصل في معجزات الأنبياء، التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين	٢٣
فصل الآيات مختصة ومتعلقة بالأنبياء	٣٩
فصل تأييد الأنبياء بالنصر	٦٢
فصل في آيات الأنبياء وبراهينهم	٦٧
باب القول في الفصل بين المعجزة والسحر	٧١
فصل بيان الرسول لدئلال صدق ما أُخبر به	٨١
فصل في محبة الله وما يراد لذاته، وما يراد لغيره ثم ذلك الغير لابد أن يكون مراداً لذاته	١٤٠
فصل الرد على من ينفي المحبة والحكمة والإرادة ويقال لهم:لم فررتم من إثبات المحبة، والحكمة، والإرادة والفعل؟	١٦٥
فصل عدل الله وحكمته وتعليل أفعاله	١٧٣
فصل طريقة الأشاعرة في إثبات المعجزات	١٧٧
فصل طريقة المعتزلة في إثبات المعجزات	١٧٩
فصل المعجزات دليل على النبوة	٢٠٤
فصل أقوال الباقلاني في المعجزات	٢١٠
فصل الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم	٢١٦
فصل ما يخالف الكتاب والسنة فهو باطل	٢١٨
فصل أصول الدين وأصول أهل الأهواء	٢٤٢
فصل الحكمة من جعل الرسول من البشر	٢٧١
فصل: دلالة المعجزة على صدق الرسول	٢٧٤
فصل العلامة والدليل هما الآية والبرهان	٢٩٢
فصل أقسام الدليل وأجناسه	٢٩٨

فصل الدلالـة القصديـة	٣٠٩
فصل الدليل مستلزم للمدلول	٣١٦
فصل دلالات الخالق لعباده	٣١٨
فصل آيات الأنبياء دلـيل وبرهان	٣٢١
فصل الأقـوال في الآيات والبراهين والخـوارق	٣٢٣
فصل حـد الدليل	٣٤٢
فصل معنى خرق العادة	٣٤٣
فصل التمييز بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم	٣٥٣
فصل الاختلاف في مسمى العـادة	٣٦٣
فصل ارتباط الدليل بالمدلول عليه	٣٦٦
فصل دلالة معـجزات الأنبـياء	٣٧٢
فصل من أعظم الإفتراء على الله.. دعوى النبوة كذباً	٣٧٩
فصل الاسـتدلال بالحكمة	٣٨٤
فصل آيات الله تدل على صدق الأنبياء	٤٠٣
فصل الاسـتدلال بسنـة الله وعادته	٤١١
فصل آيات الأنبياء تستلزم وجود الأنبياء	٤٢١
فصل أفعال السحرة والكهان مناقض لآيات الأنبياء	٤٢٧

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، سبحانه لا مانع لما وهب ولا معطي لما سلب، تفرد بالملك والبقاء، والعزة والكبرياء، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهو سبحانه قائم بلا عمد، ودائم بلا أمد، بالبر سبحانه معروف، وبالإحسان موصوف، معروف بلا غاية، وموصوف بلا نهاية، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله، فصلي اللهم حبيبك ومصطفاك ومن أرسلته رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.. وبعد،،،

التعريف بالمؤلف:

الإمام ابن تيمية هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، تقي الدين أبو العباس النميري العامري، ولقبه «شيخ الإسلام» ولد يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١هـ أحد علماء الحنابلة.

ولد في حران، وهي بلدة تقع حاليا في الجزيرة الفراتية بين دجلة والفرات، وحين استولى المغول على بلاد حران، وجاروا على أهلها، انتقل مع والده وأهله إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ فنشأ فيها وتلقى على أبيه وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام، وكانت جدته لوالده تسمى تيمية، وعرف بها.

وقدم مع والده إلى دمشق وهو صغير، قرأ الحديث والتفسير واللغة، وشرع في التأليف من ذلك الحين، بَعُدَ صيته في تفسير القرآن، واستحق الإمامة في العلم والعمل، وكان من مذهبه التوفيق بين المعقول والمنقول.

يقال عنه: أنه كان مقترحاً متحمساً للجهاد والحكم الشرعي، وقد كان أيضا شخصاً مؤثراً في نمو حركة الإسلام السياسي..

كَثُرَ مناظروه ومخالفوه من علماء عصــره، ومن جاء بعدهم (١) وانتقدوا عليه أموراً يعتقدون أنه قد خرج بها على إجماع علماء عصره، منها: القول بقدم العالم بالنوع، والنهي عن زيارة قبور الأنبياء، وشد الرحال لزيارة القبور والتوسل بأصحابها، ومسألة في الطلاق بالثلاثة هل يقع ثلاثة' حتى اشــتكوا عليه في مصــر، فطُلِبَ هناك، وعُقِدَ مجلس لمناظرته ومحاكمته، حضره القضاة وأكابر رجال الدولة والعلماء، فحكموا عليه وحبسوه في قلعة الجبل سنةً ونصفاً مع أخويه، وعاد إلى دمشق، ثم أعيد إلى مصر وحبس في برج الإسكندرية ثمانية أشهر، وأُخرج بعدها واجتمع بالسلطان في مجلس حافل بالقضاة والأعيان والأمراء، وتقررت براءته، وأقام في القاهرة مدة ثم عاد إلى دمشق، وعاد فقهاء دمشق إلى مناظرته في ما يخالفهم فيه، وتقرر حبسه في قلعة دمشق، ثم أفرج عنه بأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون، واستمر في التدريس والتأليف إلى أن توفي في سجن قلعة دمشق عن ٦٧ عاما.

صــنف كثيراً من الكتب،منها ما كان أثناء اعتقاله، من تصــانيفه: (فتاوى ابن تيمية) و(الجمع بين العقل والنقل) و(منهاج السنة النبوية في نقض الشيعة والقدرية) و(الفرقان بين أولياء الله والشيطان).

حضّ على جهاد المغول وحرّض الأمراء على قتالهم، وكان له دور بارز في انتصــار المسلمين في معركة شقحب

ترجع نسب أسرته إلى جده الأكبر محمد بن الخضر، ولم يذكر المؤرخون اسم قبيلته، بل ينسبونه إلى حران، والبعض ينسبه إلى قبيلة نمير'

أما سبب شهرة الأسرة بابن تيمية ؛ فهو أن جده محمد بن الخضر حج وله امرأة حامل، ومر في طريقه على درب تيماء، فرأى هناك جارية طفلة قد خرجت من خبائها، فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد ولدت بنتاً، فلما رآها قال: يا تيمية فلُقِبَ بذلك.

وقيل: أن جده محمداً هذا كانت أمه تسمى تيمية،وكانت واعظة،فنسب إليها هو وبنوه.

---

(٢) ذكر منهم ابن حجر الهيتمي: تقي الدين السبكي، وتاج الدين السبكي، والعز ابن جماعة، وابن حجر الهيتمي نفسه، وغيرهم من بعض علماء الشافعية والمالكية والحنفية

وأسرة الإمام تقي الدين أحمد عريقة في التدين والمعرفة والعلم، وقد عرفوا بذلك من زمن طويل، ويعتبرون من حماة المذهب الحنبلي؛ فجده أبو البركات مجد الدين من أئمة المذهب الحنبلي، وسمي بالمجتهد المطلق

وقال عنه الإمام الذهبي:"حكي لي شيخ الإسلام ابن تيمية بنفسه، أن الشيخ ابن مالك كان يقول: لقد ألان الله الفقه لمجد الدين ابن تيمية، كما ألان الحديد لداود عليه السلام، وقد توفي سنة ٦٥٢هـ.

ووالده هو عبد الحليم بن مجد الدين عبد الله بن عبد الله ابن أبي القاسم ابن تيمية الحراني، وكان له كرسي بجامع دمشق، وولي مشيخة دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان سكنه؛ وقد توفي سنة ٦٨٢هـ بدمشق ودفن في مقابر الصوفية.

ولعبد الحليم العديد من الأبناء منهم: تقي الدين صاحبنا الذي ولد سنة ٦٦١هـ، وزين الدين الذي كان تاجراً وعاش بعد وفاة أخيه تقي الدين، وشرف الدين المولود بحران سنة ٦٦٦هـ.

طفولته وشبابه

ولد تقي الدين أحمد بن تيمية يوم الاثنين ١٠ ربيع الأول ٦٦١ هـ الموافق ٢٢ يناير ١٢٦٣م في حران، وهي بلدة تقع حاليا في الجزيرة الفراتية بين دجلة والفرات، وعاش فيها إلى أن أتم السن السابعة في سنة ٦٦٧هـ، حيث بدأت التهديدات المغولية على تلك المناطق، والفظائع التي ارتكبتها تلك الجيوش بالظهور بشكل ألزم العديد من الأهالي بالنزوح إلى مناطق أكثر أمناً، فهاجرت أسرة ابن تيمية، حاملة متاعها إلى دمشق، فما أن وصلوا إليها حتى بدأ عبد الحليم والد تقي الدين بالتدريس في الجامع الأموي في دار الحديث السكرية بالقصاعين، ولم يفارقها إلا أن تُوفى.

بداية عمله بالتدريس

بدأ تقي الدين حياته بتعلم القرآن، فحفظه صغيراً، وتعلم التفسير والفقه، وقد أفتى وله تسع عشرة سنة، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت.

وما كاد أن يبلغ من العمر الحادية والعشرين حتى توفي والده عبد الحليم فقيه الحنابلة سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م فخلفه فيها ابنه تقي الدين أبو العباس وقد كان عمره إذ ذاك ٢٢

سـنة، وقد كان يجلس بالجامع الأموي بعد صـلاة الجمعة على منبر قد هيئ له لتفسـير القرآن العزيز.

حروب المغول للشام:

بدأ سلطان مغول الإلخانات محمود غازان بالمسير مع جيوشه إلى الشام في محرم ٦٩٩ هـ / أكتوبر ١٢٩٩م. وتمكن جيشـه من الاسـتيلاء على حلب، وقد هزم المغول وحلفائهم المماليك في معركة وادي الخزندار بتاريخ ٢٧ ربيع الأول ٦٩٩هـ / ٢٣ أو ٢٤ ديسمبر من عام ١٢٩٩، ونهب المغول الأغوار حتى بلغوا القدس، ووصـلوا إلى غزة، حيث قتلوا بعض الرجال في جامعها وتقدمت جيوش غازان ودخلت دمشـق في الفترة ما بين ٣٠ ديسـمبر ١٢٩٩ و٦ يناير ١٣٠٠ ونهبوها، ولكن صـمدت أمامهم قلعتها، ورفض الأمير علم الدين سنجر المنصوري نائب قلعة دمشق المعروف بأرجواش الخضوع لغازان وتحصن في القلعة.

لقاء غازان مع ابن تيمية

بعد انتصـار جيش غازان عاث جنوده في البلاد، فدبت الفوضـى فيها خاصـة بعد أن فر والي دمشـق ومحتسبها إلى مصـر، لذا فقد اجتمع ابن تيمية بأعيان دمشـق يوم الاثنين ٣ ربيع الآخر ٦٩٩هـ / ٢٨ ديسمبر ١٢٩٩م واتفقوا على السير إلى السلطان غازان الموجود في بلدة النبك المجاورة والتحدث إليه.

فلما وصـلوا إلى غازان ودخلوا عليه، أخذ ابن تيمية يحث السـلطان بقول الله ورسـوله بالعدل، ويرفع صـوته ويقرب منه في أثناء حديثه، حتى قرب إن تلاصـق ركبته ركبة السـلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه، ومصغ لما يقوله.

وقال ابن تيمية للترجمان: "قل لغازان أنك تزعم أنك مسـلم ومعك قاض وإمام وشـيخ ومؤذنون على ما بدا لنا، فغزوتنا، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجُرت"

ومع أنه حصـل على وثيقة أمان من غازان، إلا أنهم نقضـوها واسـتمروا في نهب المدينة، عدا القلعة التي أرسـل قبجق إلى نائبها ليسـلمها إلى التتار، فرفض ارجواش تسـليمها، وامتنع أشـد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضـا فلم يجبهم إلى ذلك، وصـمم على عدم تسليمها إليهم وبها عين تطرف.

وكان الشيخ تقي الدين بن تيمية قد أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك: لو لم يبق فيها إلا حجر واحد، فلا تسلمهم ذلك إن استطعت.

ولما نكب دير الحنابلة في ثاني جمادى الأولى، قتلوا خلقاً من الرجال، وأسروا من النساء كثيراً، ونال قاضي القضاة تقي الدين أذى كثير، ويقال إنهم قتلوا من أهل الصالحية قريباً من أربعمائة، وأسروا نحواً من أربعة آلاف أسير، ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري والضيائية، وخزانة ابن البزوري، وكانت تباع وهي مكتوب عليها الوقفية، وفعلوا بالمزة مثل ما فعلوا بالصالحية، مما حدا بابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه يوم الخميس ٢٠ ربيع الآخر لمقابلة محمود غازان ليشكو إليه ما جرى من المغول بعد زمان الأمان الذي منحه لأهل الشام، غير أنه لم يتمكن من مقابلة غازان، فاجتمع بوزيره سعد الدين محمد الساوجي ورشيد الدين الهمذاني فذكروا له: أن جماعة من المقدمين الأكابر –أي المغول– لم يصل إليهم من مال دمشق شيء، ولابد من إرضائهم

ابن تيمية المجاهد

مع اقتراب المغول لغزو دمشق من جديد عام ١٣٠٣ بعهد المماليك بدأ ابن تيمية تحريض أهل الشام في دمشق وحلب، وانتدبه الناس للسفر إلى مصر لملاقاة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون، وحثه على الجهاد، وأعاد نشر فتاويه في حكم جهاد الدفع ورد الصائل، ثم سافر إلى أمير العرب مهنا بن عيسى الطائي، فلبى دعوة ابن تيمية لملاقاة التتار.

وبعد استكمال الاستعدادات، اجتمعت جيوش المسلمين من الشام ومصر وبادية العرب في شقحب، أو مرج الصفر جنوبي دمشق في شهر رمضان، فأفتى ابن تيمية بالإفطار، وأنه خير من الصيام، وأخذ يلف على الجند يأكل من طعام في يده يشجعهم على الأكل ، واندلعت الحرب بقيادة السلطان الناصر، والخليفة المستكفي بالله، الذي كان يقيم في القاهرة، فدامت المعركة يومين انتهت بانتصار المسلمين، وبانتهاء معركة شقحب لم يدخل التتار الشام والعراق ومصر والحجاز.

وتعتبر معركة شقحب من المعارك الفاصلة بالتاريخ الإسلامي ضد المغول بعد عين جالوت، وهي الوحيدة التي شارك فيها الشيخ ابن تيمية، وكان له الفضل في تشجيع الناس والشد على عزيمة الحكام وجمع الأموال من تجار دمشق لتمويل جيش الدفاع عن دمشق، وكان

على رأس جيش دمشق الذي حارب وهزم المغول وطاردهم شرقاً في داخل سورية حتى نهر الفرات.

كان ابن تيمية أول الواصلين إلى دمشق يبشر الناس بنصر المسلمين، ولما أحس بخوف السلطان من أن يستغل ابن تيمية حب الناس له فيثور عليه قال: أنا رجل ملة لا رجل دولة

وفاته: دخل السجن في شهر شعبان سنة ٧٢٦هـ ومكث فيه حتى مرض الشيخ أياما يسيرة، فاستأذن الكاتب شمس الدين الوزير بالدخول عليه، فأذن له في ذلك، فلما جلس عنده اخذ يعتذر له ويلتمس منه أن يحله مما وقع منه في حقه من تقصير أو غيره، فأجابه ابن تيمية بأني قد أحللتك وجميع من عاداني

وقد مات في ٢٦ من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه حتى فوجئوا بموته.

ذكر خبر وفاته مؤذن القلعة على منارة الجامع، وتكلم به الحرس على الأبراج، فتسامع الناس بذالك واجتمعوا حول القلعة حتى أهل الغوطة والمرج، وفتح باب القلعة، فامتلأت بالرجال والنساء، وكانت جنازته عظيمة جداً، وأقل ما قيل في عددهم خمسون ألفا، والأكثر أنهم يزيدون على خمسمائة ألف

وقال العارفون بالنقل والتاريخ: لم يسمع بجنازة بمثل هذا الجمع إلا جنازة الإمام احمد بن حنبل.

غزارة علومه ومؤلفاته ومصنفاته وسعة نقله في فتاويه ودروسه:أما غزارة علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره واستشهاده بدلائله وما أودعه الله تعالى فيه من عجائبه وفنون حكمه وغرائب نوادره وباهر فصاحته وظاهر ملاحته فإنه فيه من الغاية التي ينتهي إليها والنهاية التي يعول عليها.

ولقد كان إذا قريء في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملته والدرس برمته وهو في تفسير بعض آية منها وكان مجلسه في وقت مقدر بقدر ربع النهار يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئا معينا يبيته ليستعد لتفسيره بل كان من حضر يقرأ ما تيسر ويأخذ هو في القول على تفسيره وكان غالبا لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء أخر في معنى ما هو فيه من التفسير لكن

يقطع نظرا في مصالح الحاضرين ولقد أملى في تفسير [قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ] (الإخلاص:١) مجلدا كبيرا، وقوله تعالى [الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى] (طه:٥) نحو خمس وثلاثين كراسة،ولقد بلغني انه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلدا.

أما معرفته وبصره بسنة رسول الله وأقواله وأفعاله وقضاياه ووقائعه وغزواته وسراياه وبعوثه وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه وبقية المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاويهم وأحوالهم وأحوال مجاهداتهم في دين الله وما خصوا به من بين الأمة فإنه كان رضي الله عنه من أضبط الناس لذلك وأعرفهم فيه وأسرعهم استحضارا لما يريده منه فإنه قل أن ذكر حديثا في مصنف أو فتوى أو استشهد به أو استدل به إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو ومن أي قسم من الصحيح أو الحسن أو غيرهما وذكر اسم رواية من الصحابة، وقل أن يسأل عن اثر إلا وبين في الحال حاله وحال أمره وذاكره

ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجن وحيل بينه وبين كتبه صنف عدة كتب صغارا وكبارا وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم وعزا كل شئ من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها وأي موضع هو منها كل ذلك بديهة من حفظه لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه ونقبت واختبرت واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغير ومن جملتها كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول وهذا من الفضل الذي خصه الله تعالى به، ومنها ما منحه الله تعالى من معرفة اختلاف العلماء ونصوصهم وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل وما روي عن كل منهم من راجح ومرجوح ومقبول ومردود في كل زمان ومكان وبصره الصحيح الثاقب الصائب للحق مما قالوه ونقلوه وعزوه ذلك إلى الأماكن التي بها أودعوه حتى كان إذا سئل عن شئ من ذلك كأن جميع المنقول عن الرسول وأصحابه والعلماء فيه من الأولين والآخرين متصور مسطور بإزائه يقول منه ما شاء الله ويذر ما يشاء وهذا قد اتفق عليه كل من رآه أو وقف على شئ من علمه ممن لا يغطي عقله الجهل والهوى وأما مؤلفاته ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملة أسمائها بل هذا لا يقدر عليه غالبا أحد لأنها كثيرة جدا كبارا وصغارا وهي منشورة في البلدان فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه.

فمنها ما يبلغ إثني عشر مجلدا كتلخيص التلبيس على أساس التقديس وغيره

ومنها ما يبلغ سبع مجلدات ك الجمع بين العقل والنقل ومنها ما يبلغ خمس مجلدات ومنها منهاج الاستقامة والاعتدال ونحوه ومنها ما يبلغ ثلاث مجلدات ك الرد على النصارى وشبهه ومنها مجلدان ك نكاح المحلل وإبطال الحيل وشرح العقيدة الأصبهانية ومنها مجلد ودون ذلك وهذان القسمان من مؤلفاته فهي كثيرة جدا لا يمكنني استقصاؤها لكن اذكر بعضها إستئناسا.

كتاب تفسير سورة الإخلاص مجلد، كتاب الكلام على قوله عز وجل (الرحمن على العرش استوى) كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول مجلد، كتاب الفرقان المبين بين الطلاق واليمين، كتاب الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، كتاب اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، كتاب الكلم الطيب، كتاب إثبات الكمال، كتاب الرد على تأسيس التقديس، كتاب الجمع بين العقل والنقل، كتاب نقض أقوال المبتدعين، كتاب الرد على النصارى، كتاب منهاج الاستقامة، كتاب إبطال الحيل ونكاح المحلل، كتاب شرح العقيدة الأصبهانية، كتاب الفتاوي، كتاب الدر الملتقط، كتاب أحكام الطلاق، كتاب الرسالة، كتاب اعتقاد الفرقة الناجية، كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام، كتاب تقرير مسائل التوحيد، كتاب الاستغاثة والتوسل كتاب المسائل الحموية، كتاب المسائل الجزرية، كتاب المسائل المفردة،ولا يليق هذا المختصر بأكثر من هذا القدر من مؤلفاته وإلا فيمكن تعداد ما ينيف على المأتين لكن لم نر الإطالة بذكره.

وأما فتاويه ونصوصه وأجوبته على المسائل فهي أكثر من أن اقدر على إحصائها لكن دون بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مجلدا وهذا ظاهر مشهور وجمع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة وقل أن وقعت واقعة وسئل عنها إلا وأجاب فيها بديهة بما بهر واشتهر وصار ذلك الجواب كالمصنف الذي يحتاج فيه غيره إلى زمن طويل ومطالعة كتب وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله.

أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمد المعروف بابن الدوري انه حضر مجلس الشيخ رضى الله عنه وقد سأله يهودي عن مسألة في القدر قد نظمها شعرا في ثمانية أبيات فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة وانشأ يكتب جوابها وجعل يكتب ونحن نظن انه يكتب نثرا فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه وإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها تقرب من مائة وأربعة

وثمانين بيتا وقد ابرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاء شرحه مجلدين كبيرين هذا من جملة بواهره وكم من جواب فتوى لم يسبق إلى مثله.

وأما ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بدمشق لا أفوتها وكان لا يهيىء شيئا من العلم ليلقيه ويورده بل يجلس بعد أن يصلي ركعتين فيحمد الله ويثني عليه ويصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم على صفة مستحسنة مستعذبة لم اسمعها من غيره ثم يشرع فيفتح الله عليه إيراد علوم وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونُقُول واستدلالات بآيات وأحاديث وأقوال العلماء، ونصر بعضها وتبين صحته أو تزييف بعضها وإيضاح حجته واستشهاد بأشعار العرب وربما ذكر اسم ناظمها، وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل ويفيض كما يفيض البحر ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين مغمضا عينيه وذلك كله مع عدم فكر فيه أو روية من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن بل فيض الهي حتى يبهر كل سامع وناظر فلا يزال كذلك إلى أن يصمت وكنت أراه حينئذ كأنه قد صار بحضرة من يشغله عن غيره ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد القلوب ويحير الأبصار والعقول وكان لا يذكر رسول الله قط إلا ويصلي ويسلم عليه ولا والله ما رأيت أحدا اشد تعظيما لرسول الله ولا احرص على أتباعه ونصر ما جاء به منه حتى إذا كان ورد شيئا من حديثه في مسألة ويرى انه لم ينسخه شيء غيره من حديثه يعمل به ويقضي ويفتي بمقتضاه ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائنا من كان وقال رضي الله عنه كل قائل إنما يحتج لقوله لا به ألا الله ورسوله،وكان إذا فرغ من درسه يفتح عينيه ويقبل على الناس بوجه طلق بشيش وخلق دمث كأنه قد لقيهم حينئذ وربما اعتذر إلى بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال ولقد كان درسه الذي يورده حينئذ قدر عدة كراريس وهذا الذي ذكرته من أحوال درسه أمر مشهور يوافقني عليه كل حاضر بها وهم بحمد الله خلق كثير لم يحصر عددهم علماء ورؤساء وفضلاء من القراء والمحدثين والفقهاء والأدباء وغيرهم من عوام المسلمين.

بعض شيوخه: الشيخ زين الدين ابن المنجا، ومجد الدين ابن عساكر وابن أبي اليسر والجمال بن يحي الصيرفي، وأبو القاسم بن علان وشمس الدين بن أبي عمر، وغيرهم.

بعض تلامذته:

- شمس الدين ابن قيم الجوزية.
- أبو عبد الله محمد الذهبي صاحب (ميزان الاعتدال).

- إسماعيل بن عمر بن كثير.
- محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي.
- أبو العباس أحمد بن الحسن الفارسي المشهور بقاضي الجبل.
- زين الدين عمر الشهير بابن الوردي.
- محمد بن شاكر الكتبي.
- عمر بن علي البزار.
- عمر بن مظفر الوردي المصري الحلبي.
- عمر بن سعدالله الحراني.
- أحمد بن حسن بن عبدالله بن قدامة.
- وغيرهم

في ذكر تعبده: أما تعبده رضـي الله عنه فإنه قل إن سمع بمثله لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه حتى انه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما يراد له لا من أهل ولا من مال.

كان في ليله متفردا عن الناس كلهم خاليا بربه عز وجل ضـارعا مواظبا على تلاوة القرآن العظيم مكررا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية وكان إذا ذهب الليل وحضـر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم وكان إذا احرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام فإذا دخل في الصـلاة ترتعد أعضـاؤه حتى يميله يمنة ويسـرة وكان إذا قرأ يمد قراءته مدا كما صـح في قراءة رسـول الله وكان ركوعه وسـجوده وانتصابه عنهما من أكمل ما ورد في صلاة الفرض.

وكان يخفف جلوسه للتشهد الأول خفة شديدة ويجهر بالتسليمة الأولى حتى يسمع كل من حضر.

فإذا فرغ من الصـلاة أثنى على الله عز وجل هو ومن حضـر بما ورد من قوله اللهم أنت السـلام ومنك السـلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام ثم يقبل على الجماعة، ثم يأتي بالتهليلات الواردات حينئذ ثم يسبح الله ويحمده ويكبره ثلاثا وثلاثين ويختم المائة بالتهليل كما ورد وكذا الجماعة ثم يدعو الله تعالى له ولهم وللمسلمين أجناس ما ورد.

وكان غالب دعائه: "اللهم انصـرنا ولا تنصـر علينا وامكر لنا ولا تمكر علينا وأهدنا ويسر الهدى لنا اللهم اجعلنا لك شاكرين لك ذاكرين لك أواهين لك مخبتين إليك راغبين

إليك راهبين لك مطاويع ربنا تقبل توباتنا واغسل حوباتنا وثبت حججنا واهد قلوبنا اسلل سخيمة صدورنا، يفتتحه ويختمه بالصلاة على النبي ثم يشرع في الذكر".

وكان قد عرفت عاده لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر فلا يزال في الذكر يسمع نفسه وربما يسمع ذكره من إلى جانبه مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهي عن الصلاة.

وكنت مدة إقامتي بدمشق ملازمه جل النهار وكثيرا من الليل وكان يدنيني منه حتى يجلسني إلى جانبه وكنت اسمع ما يتلو وما يذكر حينئذ فرأيته يقرأ الفاتحة ويكررها ويقطع ذلك الوقت كله اعني من الفجر إلى ارتفاع الشمس في تكرير تلاوتها،ففكرت في ذلك لم قد لزم هذه السورة دون غيرها فبان لي والله اعلم ان قصده بذلك ان يجمع بتلاوتها حينئذ بين ما ورد في الأحاديث وما ذكره العلماء هل يستحب حينئذ تقديم الأذكار الواردة على تلاوة القرآن أو العكس فرأى رضي الله عنه ان في الفاتحة وتكرارها حينئذ جمعا بين القولين وتحصيلا للفضيلتين وهذا من قوة فطنته وثاقب بصيرته،ثم انه كان يركع، فإذا أراد سماع حديث في مكان آخر سارع إليه من فوره مع من يصحبه،فقل أن يراه أحد ممن له بصيرة إلا وانكب على يديه يقبلهما حتى انه كان إذا رآه أرباب المعايش يتخطون من حوانيتهم للسلام عليه والتبرك به وهو مع هذا يعطي كلا منهم نصيبا وافرا من السلام وغيره،وإذا رأى منكراً في طريقه أزاله أو سمع بجنازة سارع إلى الصلاة عليها، أو تأسف على فواتها، وربما ذهب إلى قبر صاحبها بعد فراغه من سماع الحديث فصلي عليه، ثم يعود إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس وتارة في قضاء حوائجهم حتى يصلي الظهر مع الجماعة ثم كذلك بقية يومه. وكان مجلسه عاما للكبير والصغير والجليل والحقير والحر والعبد والذكر والأنثى قد وسع على كل من يرد عليه من الناس يرى كل منهم في نفسه ان لم يكرم أحدا بقدره،ثم يصلي المغرب ثم يتطوع بما يسره الله ثم اقرأ عليه من مؤلفاته أو غيري فيفيدنا بالطرائف ويمدنا باللطائف حتى يصلي العشاء ثم بعدها كما كنا وكان من الإقبال على العلوم إلى أن يذهب هوي من الليل طويل وهو في خلال ذلك كله في النهار والليل لا يزال يذكر الله تعالى ويوحده ويستغفره.

وكان رضي الله عنه كثيرا ما يرفع طرفه إلى السماء لا يكاد يفتر من ذلك كأنه يرى شيئا يثبته بنظره فكان هذا دابة مدة إقامتي بحضرته.

فسبحان الله ما اقصر ما كانت يا ليتها كانت طالت ولا والله ما مر على عمري إلى ألان زمان كان أحب إلى من ذلك الحين ولا رأيتني في وقت أحســـن حالا مني حينئذ وما كان إلا ببركة الشيخ رضي الله عنه.

وكان في كل أسبوع يعود المرضى خصوصا الذين بالمارستان،واخبرني غير واحد ممن لا يشك في عدالته أن جميع زمن الشيخ ينقضي على ما رأيته فأي عبادة وجهاد أفضل من ذلك فسبحان الموفق من يشاء لما يشاء.

من مؤلفات ابن تيمية:

في التفسير

- رسالة في منهاج التفسير وكيف يكون.
- كيفية الخلاص في تفسير سورة الإخلاص.
- جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القران.
- تفسير المعوذتين.

في العقيدة

- الإيمان الكبير: تكلم فيه ابن تيمية عن مسائل الإيمان.
- الإيمان الأوسط.
- الاستقامة.
- بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول (طبع في ١١ مجلدا).
- السبعينية لابن تيمية وله اسم آخر هو: (بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد) يرد فيه على ابن سبعين أحد أعلام الصوفية وأمثاله من الفلاسفة القائلين بالجمع بين الفلسفة والشريعة، ويحتوي الكتاب على حكاية مذاهب الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام والمقارنة بينها ومناقشتها والرد عليها.
- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: تكلم فيه عن مسائل التشبه باليهود والنصارى وأعيادهم وهو شرح لحديث الرسول صلى الله عليه وعلى اله وسلم "من تشبه بقوم فهو منهم"

- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
- رسالة في علم الباطن والظاهر
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.
- الفتوى الحموية.
- الرسالة التدمرية.
- العقيدة الواسطية
- رسالة مراتب الإدارة.
- الاحتجاج بالقدر.
- بيان الهدى من الضلال.
- الجواب الصحيح فيمن بدل دين المسيح.
- معتقدات أهل الضلال.
- معارج الوصول.
- السؤال عن العرش.
- بيان الفرقة الناجية.
- درء تعارض العقل والنقل: هو كتاب من أشهر كتب ابن تيمية في مناقشة الفلاسفة وأهل الكلام وقد ألفه في الرد على القانون الكلي لفخر الدين الرازي.
- العبودية
- السياسة الشرعية لإصلاح الراعي والرعية
- الصارم المسلول لشاتم الرسول
- منهاج السنة النبوية: كتاب ألفه للرد على الإمامية وهو أشهر كتاب في الرد على الشيعة، وقد ألفه ابن تيمية في الرد على ابن المطهر الحلي – أحد أشهر علماء الشيعة الإمامية الإثنى عشرية – وكتابه (منهاج الكرامة).
- بيان تلبيس الجهمية: كتاب لابن تيمية في الرد الفلاسفة وأهل الكلام وكافة الطوائف المنتسبة للإسلام المخالفة للسلفية ومناقشة مذاهبهم والمقارنة بينها، وهو من أعظم كتب ابن تيمية وأوسعها، وقد ناقش فيها على الكثير من علماء الكلام والفلاسفة إبطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية.
- مجموع فتاوى ابن تيمية: جمعها عبد الرحمن بن قاسم وتقع في (٣٧) مجلدا.
- شرح حديث النزول.
- نقض المنطق.

- الرد على المنطقيين: كتاب لابن تيمية في الرد على علماء المنطق والفلاسـفة وبيان أنه لا توجد منفعة من علم المنطق.
- رفع الملام عن الأئمة الأعلام يدافع فيها على المذاهب الأربعة.
- الواسطة بين الحق والخلق.
- فتوي ابن تيمية عن كتاب فصوص الحكم.
- الوصية الصغرى.
- ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً (النبوات موضوع تحقيقنا)

في الفقه

- رسالة القياس.
- القواعد.
- رسالة الحسبة.
- الأمر بالمعروف.
- العقود.
- المظالم المشتركة.
- حقيقة الصيام.
- قصائده:
- ياسائلي عن مذهبي وعقيدتي
- القصيدة التائية.
- ومن مؤلفاته (رسائله):
- الأربعين التي رواها شيخ الإسلام بالسند
- الإكليل في المتشابه والتأويل
- التبيان في نزول القرآن
- الرسالة الاكمليه
- الرسالة العرشية
- القاعدة المراكشية
- رسالة إلى أهل البحرين في رؤية الكفار ربهم
- رسالة إيضاح الدلالة في عموم الرسالة.
- رسالة في أمراض القلوب وشفاؤها.

- العقيدة الواسطية.
- صارم المسلول لشاتم الرسول.
- اقتضاء الصراط المستقيم.

الغاية من تحقيق الكتاب:

١- يعتبر كتاب النبوات للإمام ابن تيمية من الكتب الفريدة، وجوهرة عزيزة، ودرة يتيمة، حيث غاص في جميع ما يتعلق بقضايا النبوة، التي تخبط فيها علماء الكلام والفلاسفة والمتصوفة، فنجا منها بعضهم بقول حسن مستساغ، يتلامس في بعض جوانبه مع ما نص به الكتاب والسنة ووقع كثيرهم في الخطأ والزلل، فأنبرى لهم تقي الدين بن تيمية مدافعاً عن أهم قضايا الإيمان والعقيدة، فغاص في بحر العلوم والمعرفة يجمع اللآئل والدرر، وكشف عن عور مغالطهم، وضيق فكرهم وقصر نظرهم، فبين الصحيح من السقيم، والصواب من الخطأ، مستنداً في كل هذا على نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، بنقد بناء، وبأسلوب رصين، وعين ثاقبة، وفكر نافذ، وشرح وافي غير مطول ممل، ولا موجز مخل، مبتعداً في الوقت نفسه عن التجريح والإنقاص ممن ناقش آرائهم وزلاتهم، بل أراد من وراء ذلك إستكمال ما لم يستطيعوا الوصول إليه لقلة زادهم وخفوت رؤية بصرهم وبصيرتهم، ولتمام ما لم تتوصل إليه عيونهم وأفكارهم ملتزماً في كل هذا بأداب المناقشة والحوار الإسلامي، ومبتغياً الأجر والثواب من الحنان المنان.

٢- حاجة المكتبة الإسلامية إلى كتب الإمام ابن تيمية لغزارة فوائدها وتشعب معارفها، واحتوائها على فكر نير مستنير بنور القرآن والسنة ولعل كتاب "النبوات" هو من الكتب التي يحتاج إليها كل مسلم في عصرنا الحاضر وخاصة الباحثين في أمور العقيدة وعلم الكلام والفلسفة الإسلامية.

٣- على الرغم من تحقيق كتاب "النبوات" من قبل،إلا أنني وجدت أن الهدف لم يكن التحقيق من أجل التحقيق،ولكن تم استغلال هذا التحقيق للتكفير والتبديع والتضليل والتفسيق،والحكم على البعض بخروجه عن دائرة الإسلام،وذلك في الشروح والحواشي،مستغلين أسم ابن تيمية وفكره النقي السمح المعتدل ودفاعه عن الدين،والزج بأفكارهم من خلال تحقيق كتبه ومؤلفاته،وهو من ذلك كله بريء،ولو كان بين أظهرنا الأن لنفى عن نفسه وفكره مظاهر التبديع والتكفير وغيرها، لأن ذلك مخالف لنصوص القرأن والسنة،والأدهى من ذلك

أن من يعملون ذلك تحت مظلة فكر بن تيمية يسمون أنفسهم بمسميات ما أنزل الله بها من سلطان.

٤- لأجل ذلك شمرت عن ساعد الجد،لكي أبرىء ساحة ابن تيمية مما يتهم به زوراً وعدواناً،بأنه رمز للفكر المتشدد،ومنبع الفكر المتطرف،وذلك بتنقية هذا الكتاب مما علق به من تكفير وتبديع وتضليل،وما دس في حواشيه من خلال ما تم تحقيقه من قبل،مسائل وقضايا يتم شرحها بفهم من حققوا،دسوا فيها نواياهم الخبيثة،ويظن من يقرأ،ومن ليس له دراية،أنها عصارة فكر ابن تيمية وآراؤه،دون أن يدري أن من قام بوضعها أناس يحملون أفكاراً هدامة،تسيء للإسلام والمسلمين،وتفرق ولا تجمع.

٥- أعتمدت في تحقيقي "للنبوات" على تخريخ الآيات والأحاديث والتعريف بالأئمة والأعلام، مع بعض الإيضاحات الطفيفة،دون الخوض في إثارة النقاش في مسائل فرعية أفرضها على الكِتاب والقارىء،وذلك حتى لا أكون كمن سبقوني،بطرح قضايا ودسها – في الحواشي – وإلصاقها بفكر ابن تيمية

اسأل الله العلي الكريم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم،وأن ينقي أعمالنا من الرياء والنفاق،وأن يغفر لنا ولولدينا وعلمائنا والمسلمين أجمعين،وأن يجعله لي ولوالدي ذخيرة يوم الدين، وأن لا يعاملنا بعدله وميزانه،ونسأله أن يعمالنا بفضله وكرمه وجوده وعفوه ومغفرته وإحسانه،وأستغفر الله من أقوالنا التي تخالف أعمالنا،ومن كل تصنع تزينا به للناس،وكل عمل قصدناه وجهك فخالطه ما يكدره،وأن يمن على الأمة الإسلامية بالنصر والوحدة والهداية والتوفيق،وأن يمن علينا ويعيننا للعمل بكتابه وسنة نبية وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه إلى يوم الدين.

ضبط وتحقيق

د. أشرف عبدالرافع الدرفيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ر ب العالمين

فصل

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية (رحمه الله)

في معجزات الأنبياء، التي هي آياتهم وبراهينهم كما سماها الله آيات وبراهين

فإن لهم طرقاً (١) في التمييز بينها وبين غيرها، وفي وجه دلالتها.

أما الأول: فان منهم من رأى، أن كل ما يخرج عن الأمر المعتاد فإنه معجزة، وهو الخارق للعادة، إذا إقترن بدعوى النبوة.

وقد علموا أن الدليل مستلزم للمدلول، فيلزم أن يكون كل من خرقت له العادة نبياً.

فقالت طائفة (٢): لا تخرق العادة إلا لنبي، وكذبوا بما يذكر من خوارق السحرة والكهان، وبكرامات الصالحين.

وهذه طريقة أكثر المعتزلة (٣) وغيرهم، كأبي محمد بن حزم (٤) وغيره.

بل يحكى هذا القول عن أبي إسحاق الاسفراييني (٥) وأبي محمد بن أبي زيد (٦) ولكن كأن في الحكاية عنهما غلطاً

وإنما أرادوا الفرق بين الجنسين (٧).

وهؤلاء يقولون: إن ما جرى لمريم، وعند مولد الرسول فهو إرهاص.

أي: توطئة وإعلام بمجيء الرسول، فما خرقت في الحقيقة إلا لنبي.

---

(١) طرق النظار في التمييز بين المعجزة وغيرها

(٢) وهم بعض المعتزلة.

(٣) المعتزلة: تم تسميتهم بذلك، من اجل اعتزال واصل بن عطاء مجلس الإمام الحس البصري (رضي الله عنهم أجمعين)

(٤) ابن حزم: هو علي بن احمد بن سعيد بن حزم القرطبي، ولد في قرطبة عام ٣٨٤هـ - وتوفي عام ٤٥٦هـ، أنظر: سير أعلام النبلاء.

(٥) أبي إسحاق: هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفراييني الشافعي، أنظر سير أعلام النبلاء.

(٦) أبي محمد: هو عبدالله بن أبي زيد القيرواني، المسمى بمالك الصغير، انظر سير أعلام النبلاء، وشذرات الذهب

(٧) يقصد: تفريقهم بين جنس المعجزات وجنس خوارق الكهان والسحرة.

فيقال لهم: وهكذا الأولياء، إنما خرقت لهم لمتابعتهم الرسـول فكما أن ما تقدمه هو من معجزاته، فكذلك ما تأخر عنه.

وهؤلاء (١) يستثنون ما يكون أمام الساعة.

لكن هؤلاء كذبوا بما تواتر من الخوارق لغير الأنبياء.

والمنازع لهم يقول: هي موجودة مشهودة لمن شهدها، متواترة عند كثير من الناس، أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء، وقد شهدها خلق كثير لم يشهدوا معجزات الأنبياء

فكيف يكذبون بما شهدوه،ويصدقون بما غاب عنهم،ويكذبون بما تواتر عندهم،أعظم مما تواتر غيره؟

وقالت طائفة (٢): بل كل هذا حق، وخرق العادة جائز مطلقاً وكل ما خرق لنبي من العادات، يجوز أن يخرق لغيره من الصالحين بل ومن السحرة والكهان.

لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوة النبوة؛ وهو التحدي.

وقد يقولون: إنه لا يمكن أحد أن يعارضها، بخلاف تلك.

وهذا قول من إتبع جهماً(٣) على أصله في أفعال الرب من الجهمية(٤)، وغيرهم؛حيث جوزوا أن يفعل كل ممكن فلزمهم جواز خرق العادات مطلقاً على يد كل أحد.

واحتاجوا مع ذلك، إلى الفرق بين النبي وغيره، فلم يأتوا بفرق معقول.

بل قالوا: هذا يقترن به التحدي، فمن إدعى النبوة وهو كاذب لم يجز أن يخرق الله له العادة، أو يخرقها له، ويكون دليلاً على صدقه، لـما يقترن بـها مما يناقض ذلك ؛ فان هذين قولان لهم.

فقيل لهم: لم أوجبتم هذا في هذا الموضع، دون غيره، وأنتم لا توجبون على الله شيئا؟

فقالوا: لأن المعجزة علم الصدق ؛ فيمتنع أن تكون لغير صادق.

---

(١) أي المعتزلة، ومن وافقهم.

(٢) وهم الأشاعرة

(٣) هو الجهم بن صفوان الراسبي مولاهم، أبو محرز السمرقندي. رأس الفرقة الجهمية. قتله مسلم بن أحوز نائب اصبهان سنة ثمان وعشرين مائة.انظر " الفرق بين الفرق " و " سير أعلام النبلاء "

(٤) هي فرقة تنتسب إلي الجهم بن صفوان الراسبي و قد تبعته في معتقداته كلها.

فالمجموع هو الممتنع، وهو خارق العادة ودعوى النبوة أو هذان مع السلامة عن المعارض.

فقيل لهم: ولم قلتم: إنه علم الصدق على قولكم؟

فقالوا: إما لأنه يفضي منع ذلك إلى عجزه، وإما لأنه علم دلالته على الصدق بالضرورة.

فقيل لهم: إنما يلزم العجز، لو كان التصديق على قولكم ممكنا.

وكون دلالتها معلومة بالضرورة ؛ هو مسلم، لكنه يناقض أصولكم، ويوجب أن يكون أحد الشيئين معلوماً بالضرورة دون نظيره، وهذا ممتنع.

فإنكم تقولون: يجوز أن يخلق على يد مدعي النبوة، والساحر والصالح، لكن إن إدعى النبوة، دلت على صدقه، وإن لم يدع النبوة،لم تدل على شيء، مع أنه لا فرق عند الله بين أن يخلقها على يد مدعي النبوة، وغير مدعي النبوة، بل كلاهما جائز فيه.

فإذا كان هذا مثل هذا، فلم كان أحدهما دليلا دون الآخر؟ ولم إقترن العلم بأحد المتماثلين دون الآخر؟ ومن أين علمتم أن الرب لا يخرقها مع دعوى النبوة إلا على يد صادق وأنتم تجوزون على أصلكم كل فعل مقدور، وخلقها على يد الكذاب مقدور؟!

ثم هؤلاء(١) جوزوا كرامات الصالحين،ولم يذكروا بين جنسها (٢) وجنس كرامات الأنبياء فرقاً.

بل صرح أئمتهم: أن كل ما خرق لنبي،يجوز أن يخرق للأولياء حتى معراج محمد (٣)،وفرق البحر لموسى، وناقة صالح، وغير ذلك.

ولم يذكروا بين المعجزة والسحر فرقاً معقولاً، بل قد يجوزون أن يأتي الساحر بمثل ذلك، لكن بينهما فرق دعوى النبوة، وبين الصالح والساحر، البر والفاجر.

وحذاق الفلاسفة الذين تكلموا في هذا الباب ؛ مثل إبن سينا(٤) وهو أفضل طائفتهم، ولكنه أجهل من تكلم في هذا الباب فإنهم جعلوا ذلك كله من قوى النفس،لكن الفرق: أن النبي والصالح نفسه طاهرة، يقصد الخير، والساحر نفسه خبيثة.

---

(١) أي: الأشاعرة

(٢) أي: معجزات الرسل

(٣) المعراج: الطريق الذي تصعد فيه الملائكة. انظر " تهذيب اللغة " وهو بمنزلة السلم. ولكن لا نعلم كيف هو. وحكمه كحكم غيره من المغيبات ، نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته. انظر "شرح الطحاوية "

(٤) هو الحسين بن عبدالله بن سينا أبو علي الملقب بالرئيس الحكيم. انظر:" لسان الميزان" لابن حجر.

وأما الفرق بين النبي والصالح، فمتعذر على قول هؤلاء.

ومن الناس(١) من فرق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الأولياء بفروق ضعيفه ؛ مثل قولهم: الكرامة يخفيها صاحبها أو الكرامة لا يتحدى بها.

ومن الكرامات ما أظهرها أصحابها ؛ كإظهار العلاء بن الحضرمي (٢) المشي على الماء، وإظهار عمر مخاطبة سارية (٣) على المنبر (٤) وإظهار أبي مسلم (٥) لما ألقي في النار أنها صارت عليه برداً وسلاماً.

وهذا بخلاف من يدخلها بالشياطين، فإنه قد يطفئها، إلا أنها لا تصير عليه برداً وسلاماً، وإطفاء النار مقدور للإنس والجن.

ومنها ما يتحدى بها صاحبها، أن دين الإسلام حق كما فعل خالد بن الوليد لما شرب السم (٦) ؛ وكالغلام الذي أتى الراهب وترك الساحر، وأمر بقتل نفسه بسهمه باسم ربه،وكان قبل ذلك قد خرقت له العادة فلم يتمكنوا من قتله. ومثل هذا كثير.

فيقال المراتب ثلاثة: آيات الأنبياء، ثم كرامات الصالحين، ثم خوارق الكفار والفجار؛ كالسحرة والكهان، وما يحصل لبعض المشركين، وأهل الكتاب والضلال من المسلمين.

---

(١) أي: الاشاعرة

(٢) هو العلاء بن عبدالله عماد الحضرمي ، من سادة المهاجرين ، ولاه رسول الله صلي الله عليه وسلم البحرين، ثم وليها لابي بكر،وعمر رضي الله عنهما.انظر:"سير أعلام النبلاء" و "البداية والنهاية"

(٣) هو سارية بن زنيم بن عمرو الكناني ، قال ابن عساكر: له صحبه ،كان في الجاهلية كثير الغرات ، يسبق الفرس عدوا علي رجليه،ولما ظهر الإسلام اسلم، وقال الواقدي: امره عمر علي جيش وسيره إلي فارس سنة ثلاث وعشرين ، وفتح بلادا منها اصبهان ، توفي سنة ٣، هـ.

(٤) وذلك لما كان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يخطب علي المنبر في المدينة ، وسارية بن زنيم يجاهد في العراق ، فتذكر عمر سارية ، فنادي: يا سارية الجبل ، يقول سارية: سمعت صوت عمر فصعدت الجبل. اورده ابن كثير في" البداية والنهاية " وقال اسناده جيد وحسن.

(٥) هو عبدالله بن ثوب الخولاني من خولان ببلاد اليمن. دعه الاسود العنسي إلي إن يشهد انه رسول الله ، فقال له: اتشهد أني رسول الله؟ فقال: لا اسمع ، اشهد إن محمدا رسول الله،فاجج له نارا والقاه فيها ، فلم تضره وانجاه الله منها ، فكان يشبه بابراهيم عليه السلام،ثم هاجر، فوجد رسول الله صلي الله عليه وسلم قد مات ، فقدم علي الصديق أبو بكر رضي الله عنه فاجلسه بينه وبين عمر، وقال له عمر: الحمد لله الذي لم يمتني حتي اري في امة محمد من فعل له كما فعل بابراهيم الخليل عليه السلام. توفي أبو مسلم الخولاني سنة ٦،هـ.انظر "مجموع الفتاوي"،وانظر "حلية الأولياء" و "سير أعلام النبلاء"

(٦) وذلك لما نزل الحيرة – بالعراق – واراد الاعاجم إن يسقوه السم فأخذه بيده ثم اقتحمه ، وقال: بسم الله وشرف ، فلم يضره شيئا،انظر " مجموع الفتاوي " لابن تيميه.

أما الصالحون،الذين يدعون إلى طريق الأنبياء،لا يخرجون عنها،فتلك خوارقهم من معجزات الأنبياء.

فإنهم يقولون: نحن إنما حصل لنا هذا باتباع الأنبياء، ولو لم نتبعهم،لم يحصل لنا هذا.

فهؤلاء: إذا قدر أنه جرى على يد أحدهم، ما هو من جنس ما جرى للأنبياء، كما صارت النار برداً وسلاماً على أبي مسلم، وكما صارت على إبراهيم (١) عليه السلام، وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى في بعض المواطن للنبي صلى الله عليه وسلم، أو إحياء الله ميتا لبعض الصالحين (٢) كما أحياه للأنبياء (٣).

فهذه الأمور (٤) هي مؤكدة لآيات الأنبياء، وهي أيضاً من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص.

ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين،فلا تبلغ كرامات أحد قط مثل معجزات المرسلين.

كما أنهم لا يبلغون في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم ولكنهم قد يشاركونهم في بعضها، كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم.

وكرامات الصالحين، تدل على صحة الدين، الذي جاء به الرسول، لا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه تجب طاعته في كل ما يقوله.

ومن هنا ضل كثير من الناس، من النصارى وغيرهم ؛ فإن الحواريين وغيرهم، كانت لهم كرامات،كما تكون الكرامات لصالحي هذه الأمة، فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم، كما يستلزم عصمة الأنبياء، فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون.

---

(١) قال تعالي " قلنا يا نار كوني بردا وسلاما علي إبراهيم " (الأنبياء: ٦٩)

(٢) من ذلك احياء الله تعالي لصلة بن اشيم العدوي فرسه بعد إن ماتت وهو في الغزو ، فاحياها الله له ، ووصل إلي اهله ، وقال ربنه: الق السرج عن الفرس فانها عارية ، فلما القي السرج عنها سقطت ميتة. وهذه كرامة ثابتة. انظر " حلية الأولياء " لابي نعيم و " طبقات الشافعية " للسبكي.

(٣) مثل عيسي عليه السلام قال الله تعالي عنه " وأحي الموتي بإذن الله " (أل عمران: ٤٩) وكذلك عزيز عليه السلام الذي اماته الله وحماره مائة عام ثم بعثهما. قال الله تعالي " فأماته الله مائة عام ثم بعثه " (البقرة: ٢٥٩)

(٤) يقصد كرامات الأولياء.

وهذا غلط ؛ فإن النبي وجب قبول كل ما يقول، لكونه نبياً إدعى النبوة، ودلت المعجزة على صدقه، والنبي معصوم.

وهنا المعجزة: ما دلت على النبوة، بل على متابعة النبي وصـــحة دين النبي، فلا يلزم أن يكون هذا التابع معصوماً.

ولكن الذي يحتاج إلى الفرقان، الفرق بين الأنبياء وأتباعهم وبين من خالفهم من الكفار والفجار؛ كالســـحرة، والكهان وغيرهم؛ حتى يظهر الفرق بين الحق والباطل، وبين ما يكون دليلاً على صدق صاحبه؛ كمدعي النبوة، وبين مالا يكون دليلاً على صدق صاحبه.

فإن الدليل لا يكون دليلاً، حتى يكون مســـتلزماً للمدلول متى وجد المدلول، وإلا فإذا وجد تارة مع وجود المدلول وتارة مع عدمه، فليس بدليل.

فآيات الأنبياء وبراهينهم، لا توجد إلا مع النبوة، ولا توجد مع ما يناقض النبوة.

ومدعي النبوة: إما صادق، وإما كاذب.

والكذب يناقض النبوة، فلا يجوز أن يوجد مع المناقض لها مثل ما يوجد معها.

وليس هنا شيء مخالف لها؛ ولا مناقض، فإن الكفر، والسحر والكهانة،كل ذلك يناقض النبوة، لا يجتمع هو والنبوة.

والناس رجلان: رجل موافق لهم، ورجل مخالف لهم.

فالمخالف: مناقض.

وإذا كان كذلك، فيقال: جنس آيات الأنبياء خارجة عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان.

وأما خوارق مخالفيهم، كالسحرة، والكهان ؛ فإنها من جنس أفعال الحيوان، من الإنس، وغيره من الحيوان والجن ؛ مثل:قتل الســاحر، وتمريضــه لغيره،فهذا أمر مقدور، معروف للناس بالسحر، وغير السحر.

وكذلك ركوب المكنسة، أو الخابية، وغير ذلك؛ حتى تطير به وطيرانه في الهواء من بلد إلى بلد؛ هذا فعل مقدور للحيوان فإن الطير يفعل ذلك، والجن تفعل ذلك.

وقد أخبر الله أن العفريت قال لسليمان: (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ) (١)

وهذا تصـــرف في أعراض الحي؛ فان الموت، والمرض والحركة أعراض، والحيوان يقبل في العادة مثل هذه الأغراض ليس في هذا قلب جنس إلى جنس،ولا في هذا ما يختص الرب بالقدرة عليه، ولا ما تختص به الملائكة

وكذلك إحضار ما يحضر من طعام، أو نفقة، أو ثياب أو غير ذلك من الغيب.

وهذا إنما هو نقل مال من مكان إلى مكان، وهذا تفعله الإنس والجن، لكن الجن تفعله، والناس لا يبصرون ذلك.

وهذا بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الأصابع، من غير زيادة يزادها، فهذا لا يقدر عليه أنسي ولا جني.

وكذلك الإخبار ببعض الأمور الغائبة، مع الكذب في بعض الأخبار.

فهذا تفعله الجن كثيراً مع الكهان (٢) وهو معتاد لهم مقدور،بخلاف إخبارهم بما يأكلون،وما يدخرون، مع تسمية الله على ذلك، فهذا لا تظهر عليه الشياطين (٣).

وبنو إسرائيل كانوا مسلمين يسمون الله (٤).

وأيضاً فخبر المسيح (٥)، وغيره من الأنبياء، ليس فيه كذب قط، والكهان لابد لهم من الكذب، والرب قد أخبر في القرآن، أن الشياطين تنزل على بعض الناس فتخبره ببعض الأمور الغائبة.

---

(١) سورة النمل: الآية (٣٩).

(١) مثل حال ابن صياد لما قال له رسول الله صلي الله عليه وسلم " أني خبأت لك خبيئا " فقال هو: الدخ، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم " اخسأ، فلن تعدو قدرك " الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب: الفتن وأشرطة الساعة، باب: ذكر ابن صياد.

(٣) قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: " إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله ، وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ولا عشاء.." الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٤) قال الله في شأنهم: " أم كنتم شهداء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ "(البقرة:١٣٣) أما عن تسميتهم الله ، فقد قال الله تعالي " وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ "(المائدة:٥) ومعلوم أنهم لم يكونوا يسمون الله تعالي عند الذبح ، لم يكن طعامهم حل لنا ، لان الله تعالي يقول " وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ " (الأنعام ١٢١).

(٥) وهو اخباره عليه السلام عما يأكل بنو اسرائيل وما يدخرون في بيوتهم، قال الله تعالي عن معجزات عيسي عليه السلام " وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ "(آل عمران: ٤٩)

لكن ذكر الفرق، فقال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (١).

كذلك مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم،من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى،ليريه الرب من آياته(٢) فخاصة الرسول،ليست مجرد قطع هذه المسافة،بل قطعها ليريه الرب من الآيات الغائبة ما يخبر به

فهذا لا يقدر عليه الجن، وهو نفسه لم يحتج بالمسرى على نبوته، بل جعله مما يؤمن به ؛ فأخبرهم به ليؤمنوا به.

والمقصود: إيمانهم بما أخبرهم من الغيب الذي رآه تلك الليلة وإلا فهم كانوا يعرفون المسجد الأقصى.

ولهذا قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا) (٣)

قال ابن عباس رضى الله عنه: هي رؤيا عين، أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسري به.

وهذا كما قال في الآية: (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(٤).

وكذلك ما يخبر به الرسول من أنباء الغيب ؛ قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا) (٥).

فهذا غيب الرب الذي اختص به ؛ مثل علمه بما سيكون من تفصيل الأمور الكبار، على وجه الصدق، فإن هذا لا يقدر عليه إلا الله.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١ – ٢٢٣).

(٢) قال تعالي (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (١) سورة الإسراء.

(٣) سورة الإسراء: الآية (٦).

(٤) سورة النجم: الآيات (١٣– ١٨).

(٥) سورة الجن: الآيتان (٢٦ – ٢٧).

والجن غايتها: أن تخبر ببعض الأمور المستقبلة ؛ كالذي يسترقه الجن من السماء (١) ؛ مع ما في الجن من الكذب فلابد لهم من الكذب، والذي يخبرون به هو مما يعلم بالمنامات وغير المنامات، فهو من جنس المعتاد للناس.

وأما ما يخبر به الرسول من الأمور البعيدة الكبيرة مفصلاً مثل إخباره: إنكم تقاتلون الترك، صغار الأعين، ذلف الأنف ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجان المطرقة.

وقوله: " لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى " ونحو ذلك، فهذا لا يقدر عليه جني ولا إنسي.

والمقصود:أن ما يخبر به غير النبي من الغيب معتاد،معروف نظيره من الجن والإنس،فهو من غيب الله،الذي قال فيه:(فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ)(٢).

والآيات الخارقة جنسان:

- جنس في نوع العلم.
- وجنس في نوع القدرة.

فما اختص به النبي من العلم، خارج عن قدرة الإنس والجن وما اختص به من المقدورات، خارج عن قدرة الإنس والجن.

وقدرة الجن في هذا الباب، كقدرة الإنس، لأن الجن هم من جملة من دعاهم الأنبياء إلى الإيمان، وأرسلت الرسل اليهم،قال تعالى (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) (٣).

ومعلوم أن النبي إذا دعا الجن إلى الإيمان به، فلابد أن يأتي بآية خارجة عن مقدور الجن ؛ فلابد أن تكون آيات الأنبياء خارجة عن مقدور الإنس والجن.

وما يأتي به الكاهن من خبر الجن، وغايته: أنه سمعه الجني لما استرق السمع ؛ مثل الذي يستمع إلى حديث قوم وهم له كارهون.

---

(١) قال تعالي يحكي عن الجن " وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمعِ فَمَن يستَمِعِ الآن يَجِد لَهُ شِهَابًا رَّصَدً "
(٢) سورة الجن: الآيتان (٢٦ – ٢٧).
(٣) سورة الأنعام: الآية (١٣٠).

وما أعطاه الله سليمان مجموعه، يخرج عن قدرة الانس والجن كتسخير الرياح والطير.

وأما الملائكة: فالأنبياء لا تدعو الملائكة إلى الإيمان بهم بل الملائكة تنزل بالوحي على الأنبياء، وتعينهم، وتؤيدهم.

فالخوارق التي تكون بأفعال الملائكة، تختص بالأنبياء وأتباعهم لا تكون للكفار، والسحرة، والكهان.

ولهذا أخبر الله تعالى، أن الذي جاء بالقرآن، ملك لا شيطان فقال تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) (١)

وقال تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ) (٢)

وقال تعالى (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (٣)

وقال تعالى (قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (٤)

وقال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (٥).

فينبغي أن يتدبر هذا الموضع، وتعرف الفروق الكثيرة، بين آيات الأنبياء، وبين ما يشتبه بها.

كما يعرف الفرق بين النبي، وبين المتنبي، وبين ما يجيء به النبي، وما يجيء به المتنبي.

فالفرق الحاصل بين صفات هذا، وصفات هذا، وأفعال هذا وأفعال هذا، وأمر هذا، وأمر هذا، وخبر هذا، وخبر هذا وآيات هذا، وآيات هذا، إذ الناس محتاجون إلى هذا الفرقان أعظم من حاجتهم إلى غيره، والله تعالى يبينه، وييسره.

---

(١) سورة التكوير: الآيات (١٩ – ٢٥).
(٢) سورة الشعراء: الآيتان (١٩٣ – ١٩٤)
(٣) سورة النحل: الآية (١٠٢)
(٤) سورة البقرة: الآية (٩٧)
(٥) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١ – ٢٢٣)

ولهذا أخبر أنه أرسل رسله بالآيات البينات.

وكيف يشبه خير الناس، بشر الناس؟

ولهذا لما مثلوا الرسول بالساحر، وغيره.

قال تعالى (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) (١)

وقد تنازع الناس في الخوارق: هل تدل على صلاح صاحبها وعلى ولايته لله؟

والتحقيق: أن من كان مؤمنا بالأنبياء،لم يستدل على الصلاح بمجرد الخوارق، التي قد تكون للكفار والفساق، وإنما يستدل بمتابعة الرجل للنبي.

فيميز بين أولياء الله، وأعدائه، بالفروق التي بينها الله ورسوله كقوله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) (٢).

وقد علق السعادة بالإيمان والتقوى في عدة مواضع، كقوله لما ذكر السحرة (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) (٣)

وقوله عن يوسف (وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَوَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ) (٤)

وقوله في قصة صالح (وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (٥) وهذه طريقة الصحابة والسلف.

أما دلالتها على ولاية المعين، فالناس متنازعون:

هل الولي والمؤمن من مات على ذلك؛ بحيث إذا كان مؤمنا تقيا، وقد علم أنه يموت كافرا، يكون في تلك الحال عدوا لله؟ أو ينتقل من إيمان وولاية، إلى كفر وعداوة؟ وهما قولان معروفان.

فمن قال بالأول: فالولي عنده كالمؤمن، عند من علم أنه يموت على تلك الحال، والخوارق لا تدل على ذلك.

---

(١) سورة الفرقان: الآية (٩)

(٢) سورة يونس: الآيتان (٦٢ – ٦٣)

(٣) سورة البقرة: الآية (١٠٣)

(٤) سورة يوسف: الآيتان (٥٦–٥٧)

(٥) سورة فصلت: الآية (١٨)

ولهذا قال هؤلاء: كالقاضي أبي بكر (١)، وأبي يعلى (٢) وغيرهما: أنها لا تدل.

وأما من قال: الولاية تتبدل، فالولاية هنا كالإيمان.

وقد يعلم أن الرجل مؤمن في الباطن، تقي بدلائل كثيرة، وقد يطلع الله بعض الناس على خاتمة غيره، فهذا لا يمتنع.

لكن هذا مثل الشهادة لمعين بالجنة، وفيها ثلاثة أقوال:

قيل: لا يشهد بذلك لغير النبي، وهو قول أبي حنيفة، والأوزاعي وعلى بن المديني، وغيرهم.

وقيل: يشهد به لمن جاء به نص، إن كان خبراً صحيحاً كمن شهد له النبي بالجنة فقط، وهذا قول كثير من أصحابنا، وغيرهم.

وقيل: يشهد به لمن استفاض عند الأمة أنه رجل صالح؛ كعمر بن عبد العزيز، والحسن البصري، وغيرهما.

وكان أبو ثور (٣) يشهد لاحمد بن حنبل بالجنة.

وقد جاء في الحديث الذي في المسند: " يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار قالوا: بماذا يا رسول الله، قال:بالثناء الحسن والثناء السيء " (٤).

وفي الصحيحين: " أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال: وجبت وجبت، ومر عليه بجنازة فأثنوا عليها شراً، فقال: وجبت وجبت.

---

(١) الباقلاني. هو أبو بكر محمد بن طيب بن محمد بن جعفر البصري.

(٢) هو القاضي أبو يعلي ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي الفراء ، شيخ الحنابلة ، وعالم العراق في زمانه. توفي سنة ٤٥٨هـ. انظر " سير أعلام النبلاء "

(٣) هو إبراهيم بن خالد ، الإمام الحافظ الحجة المجتهد ، مفتي العراق ، أبو ثور.ولد في سنة ١٧هـ. قال الإمام احمد لما سئل عنه: اعرفه بالسنة منذ خمسين سنة ، وهو عندي في مسلاخ سفيان الثوري. وقال النسائي:ثقة مأمون ، احد الفقهاء ، توفي في صفر ٢٤،هـ. انظر " سير أعلام النبلاء " و" البداية والنهاية "

(٤) حديث شريف رواه الإمام احمد في المسند.

فقيل: يا رسول الله! ما قولك: وجبت وجبت؟ قال:هذه الجنازة أثنيتم عليها الخير، فقلت: وجبت لها الجنة وهذه الجنازة أثنيتم عليها شراً، فقلت: وجبت لها النار،أنتم شهداء الله في الأرض"(١)

وفي حديث آخر: " إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت فقد أحسنت وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت فقد، أسأت " (٢).

وسئل عن الرجل:يعمل العمل لنفسه،فيحمده الناس عليه، فقال:"تلك عاجل بشرى المؤمن"(٣)

والتحقيق: أن هذا قد يعلم بأسباب، وقد يغلب على الظن.

ولا يجوز للرجل أن يقول بما لا يعلم؛ولهذا لما قالت أم العلاء الأنصارية (٤):لما قدم المهاجرون المدينة، أقترعت الأنصار على سكناهم، فصار لنا عثمان ابن مظعون (٥) في السكنى فمرض، فمرضناه، ثم توفي.

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدخل، فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي أن قد أكرمك الله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: وما يدريك أن الله قد أكرمه قالت: لا والله، لا أدري.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما هو، فقد أتاه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي ولا بكم.

قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً.

قالت: ثم رأيت لعثمان بعد في النوم، عيناً تجري، فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ذاك عمله " (٦).

---

(١) حديث شريف أخرجه البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه
ورواه الإمام احمد في المسند.
(٣) حديث شريف أخرجه مسلم في صحيحه.
(٤) هي أم العلاء بنت الحارس بن ثابت الخزرجية، يقال إنها والدة خارجة بن زيد بن ثابت. احدي الصحابيات رضي الله عنها. انظر " الإصابة في تمييز الصحابة " لابن حجر.
(٥) هو عثمان ابن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي ، أبو السائب ، من سادة المهاجرين وممن فازوا بوفاتهم في حياة نبيهم صلى الله عليه وسلم فصلي عليهم، وكان أول من دفن بالبقيع. انظر "حلية الأولياء" و "سير أعلام النبلاء"
(٦) حديث شريف أخرجه البخاري في صحيحه.

وأما من لم يكن مقراً بالأنبياء، فهذا لا يعرف الولي من غيره إذ الولي لا يكون ولياً إلا إذا آمن بالرسل،لكن قد تدل الخوارق، على أن هؤلاء على الحق، دون هؤلاء لكونهم من أتباع الأنبياء.

كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدين؛ فيؤيد الله المؤمنين، بخوارق تدل على صحة دينهم ؛كما صارت النار على أبي مسلم برداً وسلاماً؛وكما شرب خالد السم،وأمثال ذلك، فهذه الخوارق هي من جنس آيات الأنبياء.

وقد يجتمع كفار، ومسلمون، ومبتدعة، وفجار؛ فيؤيدهؤلاء بخوارق تعينهم عليها الجن والشياطين.

ولكن جنهم وشياطينهم، أقرب إلى الإسلام؛ فيترجحون بها على أولئك الكفار، عند من لا يعرف النبوات،كما يجري لكثير من المبتدعة، والفجار، مع الكفار،مثل ما يجري للأحمدية (١) وغيرهم، مع عباد المشركين البخشية قدام التتار، كانت خوارق هؤلاء أقوى، لكونهم كانوا أقرب إلى الإسلام.

وعند من هو أحق بالإسلام منهم، لا تظهر خوارقهم، بل تظهر خوارق من هو أتم إيماناً منهم.

وهذا يشبه رد أهل البدع على الكفار، بما فيه بدعة؛ فإنهم وإن ضلوا من هذا الوجه، فهم خير من أولئك الكفار.

لكن من أراد أن يسلك إلى الله على ما جاء به الرسول، يضره هؤلاء، ومن كان جائراً نفعه هؤلاء بل كلام أبي حامد (٢) ينفع المتفلسف، ويصير أحسن؛ فإن المتفلسف يُسلم به إسلام الفلاسفة، والمؤمن يصير به إيمانه مثل إيمان الفلاسفة، وهذا بخلاف ذاك.

والخوارق ثلاثة أنواع:

---

(١) الأحمدية و الرفاعية: من الطرق الصوفية، وتنسب إلي احمد الرفاعي بن سلطان علي ، ويوصل أتباعه نسبه إلي موسي الكاظم بن جعفر الصادق إلي علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ولد احمد الرفاعي في قرية حسن بالقرب من أم عبيدة بالعراق سنة ٥١٢هـ ، وتوفي سنة ٥٧٨هـ ودفن في قرية أم عبيدة. انظر: " سير أعلام النبلاء " و" البداية والنهاية "

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسي الشافعي الغزالي.توفي سنة ٥٠٥ هـ انظر " سير أعلام النبلاء "

الأول: إما أن تعين صاحبها على البر والتقوى؛ فهذه أحوال نبيناً ومن أتبعه، خوارقهم لحجة في الدين، أو حاجة للمسلمين.

والثاني: أن تعينهم على مباحات؛ كمن تعينه الجن على قضاء حوائجه المباحة؛ فهذا متوسط، وخوارقه لا ترفعه ولا تخفضه وهذا يشبه تسخير الجن لسليمان.

والأول: مثل إرسال نبينا إلى الجن، يدعوهم إلى الإيمان،فهذا أكمل من إستخدام الجن في بعض الامور المباحة كاستخدام سليمان لهم في محاريب، وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات.

قال تعالى:(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (١)

وقال تعالى (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ) (٢)

ونبينا صلى الله عليه وسلم أُرسل إليهم، يدعوهم إلى الإيمان بالله وعبادته؛ كما أرسل إلى الإنس، فإذا اتبعوه، صاروا سعداء، فهذا أكمل له ولهم من ذاك.

كما أن العبد الرسول، أكمل من النبي الملك، ويوسف وداود، وسليمان، أنبياء ملوك.

أما محمد فهو عبد رسول؛ كابراهيم، وموسى، والمسيح وهذا الصنف أفضل، وأتباعهم أفضل.

والثالث: أن تعينه على محرمات، مثل: الفواحش، والظلم والشرك، والقول الباطل؛ فهذا من جنس خوارق السحرة والكهان،والكفار، والفجار؛ مثل أهل البدع من الرفاعية وغيرهم؛ فإنهم يستعينون بها على الشرك، وقتل النفوس بغير حق، والفواحش.

وهذه الثلاثة هي التي حرمها الله في قوله:(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَمَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّوَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) (٣).

ولهذا كانت طريقهم من جنس طريق الكهان، والشعراء والمجانين.

---

(١) سورة سبأ: الآية (١٣)

(٢) سورة سبأ: الآية (١٢)

(٣) سورة الفرقان: الآية (٦٨)

وقد نزه الله نبيه عن أن يكون مجنوناً، وشاعراً، وكاهناً (١).

فإن إخبارهم بالمغيبات، عن شياطين تنزل عليهم، كالكهان وأقوى أحوالهم لمؤلهيهم، وهم من جنس المجانين.

وقد قال شيخهم: إن أصحاب الأحوال، منهم يموتون على غير الإسلام.

وأما سماعهم، ووجدهم، فهو شعر الشعراء، ولهذا شبههم من رآهم بعباد المشركين؛ من الهند الذين يعبدون الأنداد.

---

(١) قال تعالي " فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فاني معكم من المتربصين " (الطور: ٢٩: ٣١)

فصل
الآيات مختصة ومتعلقة بالأنبياء

وحقيقة الأمر: أن ما يدل على النبوة، هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصاً بها، لا يكون مشتركاً بين الأنبياء وغيرهم.

فإن الدليل هو مستلزم لمدلوله، لا يجب أن يكون أعم وجوداً منه،بل إما أن يكون مساوياً له في العموم والخصوص، أو يكون أخص منه. وحينئذ فآية النبي، لا تكون لغير الأنبياء، لكن إذا كانت معتادة لكل نبي، أو لكثير من الأنبياء، لم يقدح هذا فيها، فلا يضرها أن تكون معتادة للأنبياء.

وكون الآية خارقة للعادة، أو غير خارقة: هو وصف لم يصفه القرآن والحديث، ولا السلف.

وقد بينا في غير هذا الموضع، أن هذا وصف لا ينضبط، وهو عديم التأثير،فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء، خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم.

إن كون الشخص يخبره الله بالغيب، خبراً معصوماً، هذا مختص بهم، وليس هذا موجوداً لغيرهم، فضلا عن كونه معتاداً.

فآية النبي لابد أن تكون خارقة للعادة.

بمعنى: أنها ليست معتادة للآدميين؛ وذلك لأنها حينئذ لا تكون مختصة بالنبي، بل مشتركة.

وبهذا احتجوا: على أنه لابد أن تكون خارقة للعادة.

لكن ليس في هذا ما يدل، على أن كل خارق آية؛ فالكهانة والسحر: هو معتاد للسحرة والكهان، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم كما أن ما يعرفه أهل الطب، والنجوم (١) والفقه، والنحو هو معتاد لنظرائهم، وهو خارق بالنسبة إلى غيرهم.

---

(١) التنجيم نوعان: أولاً: علم التأثير عرفه شيخ الإسلام رحمه الله بأنه: الاستدلال علي الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوي الفلكية والقوابل الأرضية، وقال رحمه الله عن حكمه: صناعة محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة بل هي محرمة علي لسان جميع المرسلين في جميع الملل" مجموع الفتاوي ") ١٩٢/٣٥). وعرفه ابن خلدون رحمه الله بأنه: ما بزعمه أصحاب هذه الصناعة من أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها من قبل معرفة قوي الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعه ، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة علي ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية " مقدمة ابن خلدون " ص ٥١٩-٥٢.

ولهذا إذا أخبر الحاسب، بوقت الكسوف والخسوف، تعجب الناس إذا كانوا لا يعرفون طريقه؛ فليس في هذا ما يختص بالنبي.

وكذلك قراءة القرآن، بعد أن بعث محمد صلى الله عليه وسلم صارت مشتركة بين النبي وغيره.

وأما نفس الإبتداء به، فهو المختص بالنبي.

وكذلك ما يرويه من أنباء الغيب عن الأنبياء،لما صار مشتركاً بين النبي وغيره،لم يبق آية، بخلاف الابتداء.

فالكهانة مثلا: وهو: الإخبار ببعض الغائبات عن الجن أمر معروف عند الناس.

وأرض العرب كانت مملوءة من الكهان، وإنما ذهب ذلك بنبوة محمد (١) صلى الله عليه وسلم.

وهم يكثرون في كل موضع نقص فيه أمر النبوة؛ فهم كثيرون في أرض عباد الأصنام، ويوجدون كثيراً عند النصارى ويوجدون كثيراً في بلاد المسلمين؛حيث نقص العلم والإيمان بما جاء به الرسول، لأن هؤلاء أعداء الأنبياء.

والله تعالى قد ذكر الفرق بينهم وبين الأنبياء؛ فقال تعالى(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (٢).

فهؤلاء لابد أن يكون في أحدهم كذب وفجور، وذلك يناقض النبوة.

فمن ادعى النبوة، وأخبر بغيوب من جنس أخبار الكهان كان ما أخبر به، خرقاً للعادة عند أولئك القوم، لكن ليس خرقا لعادة جنسه من الكهان.

وهم إذا جعلوا ذلك آية لنبوته، كان ذلك لجهلهم بوجود هذا الجنس لغير الأنبياء

---

(١) لما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الجن – فيما ذكره الله تعالي عنهم(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) الجن (٨–١٠)

(٢) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١ – ٢٢٣)

كالذين صدقوا مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والحارث الدمشقي وبابا الرومي، وغير هؤلاء من المتنبئين الكذابين.

وكان هؤلاء يأتون بأمور عجيبة، خارقة لعادة أولئك القوم لكن ليست خارقة لعادة جنسهم، ممن ليس بنبي.

فمن صدقهم، ظن أن هذا مختص بالأنبياء، وكان ذلك من جهله، بوجود هذا لغير الأنبياء، كما أنهم كانوا يأتون بأمور تناقض النبوة.

ولهذا يجب في آيات الأنبياء، أن لا يعارضها من ليس بنبي، فكل من عارضها، صادراً ممن ليس من جنس الأنبياء، فليس من آياتهم.

ولهذا طلب فرعون، أن يعارض ما جاء به موسى، لما ادعى أنه ساحر، فجمع السحرة، ليفعلوا مثل ما يفعل موسى فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة.

وأمرهم موسى عليه السلام أن يأتوا أولاً بخوارقهم، فلما أتت وابتلعتها العصا، التي صارت حية، علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيماناً جازماً،ولما قال لهم فرعون (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) (١).

وقالوا (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى) (٢).

فكان من تمام علمهم بالسحر: أن السحر معتاد لأمثالهم،وأن هذا ليس من هذا الجنس، بل هذا مختص بمثل هذا؛ فدل على صدق دعواه.

وفرعون وقومه، بين معاند وجاهل، استخفه فرعون، كما قال تعالى (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (٣).

فإذا قيل لهم: المعجزة هي الفعل الخارق للعادة.

أو قيل: هي الفعل الخارق للعادة، المقرون بالتحدي.

---

(١) سورة طه: الآيتان (٧١-٧٢)

٢ سورة طه: الآية (٧٠)

(٣) سورة الزخرف: آية رقم (٥٤)

أو قيل: مع ذلك الخارق للعادة، السليم عن المعارضة؛ فكونه خارقاً للعادة، ليس أمراً مضبوطاً.

فإنه إن أريد به، أنه لم يوجد له نظير في العالم، فهذا باطل فإن آيات الأنبياء بعضها نظير بعض، بل النوع الواحد منه كإحياء الموتى: وهو آية لغير واحد من الأنبياء.

وإن قيل: إن بعض الأنبياء، كانت آيته لا نظير لها؛ كالقرآن، والعصا والناقة، لم يلزم ذلك في سائر الآيات.

ثم هب أنه لا نظير لها في نوعها، لكن وجد خوارق العادات للأنبياء غير هذا، فنفس خوارق العادات، معتاد جميعه للأنبياء بل هو من لوازم نبوتهم، مع كون الأنبياء كثيرين.

وقد روي أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، وما يأتي به كل واحد من هؤلاء، لا يكون معدوم النظير في العالم بل ربما كثر نظيره.

وإن عني بكون المعجزة هي الخارقة للعادة، أنها خارقة لعادة:أولئك المخاطبين بالنبوة؛ بحيث ليس فيهم من يقدر على ذلك فهذا ليس بحجة؛ فإن أكثر الناس لا يقدرون على الكهانة والسحر ونحو ذلك.

وقد يكون المخاطبون بالنبوة، ليس فيهم هؤلاء، كما كان أتباع مسيلمة، والعنسي، وأمثالهما؛ لا يقدرون على ما يقدر عليه هؤلاء.

والمبرز في فن من الفنون، يقدر على ما لا يقدر عليه أحد في زمنه وليس هذا دليلاً على النبوة.

فكتاب سيبويه (١) مثلاً، مما لا يقدر على مثله عامة الخلق وليس بمعجز؛ إذ كان ليس مختصاً بالأنبياء، بل هو موجود لغيرهم، وكذلك طب أبقراط.

بل وعلم العالم الكبير، من علماء المسلمين، خارج عن عادة الناس، وليس هو دليلاً على نبوته.

وأيضاً: فكون الشيء معتاداً، هو مأخوذ من العود، وهذا يختلف بحسب الأمور.

فالحائض المعتادة: من الفقهاء من يقول: تثبت عادتها بمرة،ومنهم من يقول: بمرتين.

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر، مولي بني الحارث أبو البشر من تلاميذ الخليل، توفي سنة ١٧٧ هـ وعمره نيف وأربعين سنة.انظر " البداية والنهاية " لابن كثير

ومنهم من يقول: لا تثبت إلا بثلاث.

وأهل كل بلد لهم عادات في طعامهم، ولباسهم، وأبنيتهم، لم يعتدها غيرهم، فما خرج عن ذلك، فهو خارق لعادتهم لا لعادة من اعتاده من غيرهم.

فلهذا لم يكن في كلام الله، ورسوله، وسلف الأمة، وأئمتها وصف آيات الأنبياء، بمجرد كونها خارقة للعادة.

ولا يجوز أن يجعل مجرد خرق العادة هو الدليل؛ فإن هذا لا ضابط له، وهو مشترك بين الأنبياء وغيرهم.

ولكن إذا قيل: من شرطها أن تكون خارقة للعادة؛ بمعنى أنها لا تكون معتادة للناس، فهذا ظاهر يعرفه كل أحد.

ويعرفون أن الأمر المعتاد؛ مثل: الأكل، والشرب، والركوب والسفر، وطلوع الشمس، وغروبها، ونزول المطر في وقته وظهور الثمرة في وقتها، ليس دليلا، ولا يدعي أحد أن مثل هذا دليل له؛ فإن فساد هذا ظاهر لكل أحد.

ولكن ليس مجرد كونه خارقاً للعادة، كافياً لوجهين:

أحدهما: أن كون الشيء معتاداً، وغير معتاد، أمر نسبي إضافي ليس بوصف مضبوط، تتميز به الآية، بل يعتاد هؤلاء،ما لم يعتد هؤلاء؛ مثل كونه مألوفاً، ومجرباً، ومعروفاً، ونحو ذلك من الصفات الإضافية.

الثاني: أن مجرد ذلك، مشترك بين الأنبياء وغيرهم، وإذا خص ذلك بعدم المعارضة، فقد يأتي الرجل بما لا يقدر الحاضرون على معارضته، ويكون معتاداً لغيرهم، كالكهانة، والسحر.

وقد يأتي بما يمكن معارضته، وليس بآية لشيء؛ لكونه لم يختص بالأنبياء.

وقد يقال في طب أبقراط، ونحو سيبويه، إنه لا نظير له، بل لابد أن يقال: إنه مختص بالأنبياء، و الطب، و النحو، و الفقه.

وإن أتى الواحد بما لا يقدر غيره على نظيره، فليس مختصا بالانبياء بل معروف أن هذا تعلم بعضه من غيره، واستخرج سائره بنظره.

وإذا خص الله طبيباً، أو نحوياً، أو فقيهاً، بما ميزه به على نظرائه لم يكن ذلك دليلاً على نبوته، وإن كان خارقاً للعادة فإن ما يقوله الواحد من هؤلاء، قد علمه بسماع، أو تجربة، أو قياس.

وهي طرق معروفة لغير الأنبياء.

والنبي قد علمه الله من الغيب الذي عصمه الله فيه عن الخطأ ما لم يعلمه إلا نبي مثله.

فإن قيل: فحينئذ لا يعرف أن الآية مختصة بالنبي، حتى تعرف النبوة؟.

قيل: أما بعد وجود الأنبياء في العالم، فهكذا هو.

ولهذا يبين الله عز وجل نبوة محمد في غير موضع، باعتبارها بنبوة من قبله.

وتارة يبين أنه لم يرسل ملائكة، بل رجالاً من أهل القرى ليبين أن هذا معتاد معروف، ليس هو أمراً لم تجر به عادة الرب كقوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (١)

كما ذكره في سورة النحل والأنبياء،وقال في يوسف (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) (٢).

فإن الكفار كانوا يقولون: إنما يرسل الله ملكا، أو يرسل مع البشر ملكا كما قال فرعون (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) (٣).

وقال قوم نوح (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) (٤).

وقال: مشركو العرب لمحمد (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًاأَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا) (٥).

---

(١) سورة الأنبياء: الآية (٧)

(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٩)

(٣) سورة الزخرف: الآيتان (٥٢-٥٣)

(٤) سورة المؤمنون: الآية (٢٤)

(٥) سورة الفرقان: الآيتان (٧ – ٨)

وقال تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً. قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً) (١).

وقال تعالى (وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ) (٢)

بين أنهم لا يطيقون الأخذ عن الملائكة، إن لم يأتوا في صورة البشر، ولو جاءوا في صورة لبشر لحصل اللبس.

وقال تعالى (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) (٣)

وكانت العرب لا عهد لها بالنبوة من زمن إسماعيل، فقال الله لهم:(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ) يعني أهل الكتاب (إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (٤) هل أرسل إليهم رجالاً أو ملائكة.

ولهذا قال له (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٥)

وقال (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ)(٦) بين أن هذا الجنس من الناس معروف، قد تقدم له نظراء وأمثال.

وهو سبحانه أمر أن يسأل أهل الكتاب، وأهل الذكر، عما عندهم من العلم، في أمور الأنبياء؛ هل هو من جنس ما جاء به محمد، أو هو مخالف له؟ ليتبين بإخبار أهل الكتاب المتواترة، جنس ما جاءت به الأنبياء، وحينئذ فيعرف قطعاً أن محمداً نبي، بل هو أحق بالنبوة من غيره.

والثاني: أن يسألوهم عن خصوص محمد، وذكره عندهم.

---

(١) سورة الإسراء: الآيتان (٩٤ – ٩٥)
(٢) سورة الأنعام: الآيتان (٨ – ٩)
(٣) سورة يونس: الآية (٢)
(٣) سورة النحل: الآية (٤٣)
(٤) سورة الأحقاف: الآية (٩)
(٦) سورة آل عمران: الآية (١٤٤)

وهذا يعرفه الخاصة منهم، ليس هو معروفا كالأول، يعرفه كل كتابي.

قال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١).

وقوله: " شهد شاهد ": ليس المقصود شاهداً واحداً معيناً بل ولا يحتم كونه واحداً.

وقول من قال:إنه عبد الله بن سلام (٢)ليس بشيء؛فإن هذه نزلت بمكة،قبل أن يعرف إبن سلام.

ولكن المقصود: جنس الشاهد؛ كما تقول: قام الدليل وهو الشاهد الذي يجب تصديقه، سواء كان واحداً، قد يقترن بخبره ما يدل على صدقه، أو كان عدداً يحصل بخبرهم العلم بما تقول، فإن خبرك بهذا صادق.

وقوله: " على مثله ": فإن الشاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن؛ وهو أن الله بعث بشراً، وأنزل عليه كتاباً أمر فيه بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهى فيه عن عبادة ما سواه، وأخبر فيه أنه خلق هذا العالم وحده، وأمثال ذلك.

وقد ذكر في أول هذه السورة (٣) التوحيد، وبين أن المشركين ليس معهم على الشرك، لا دليل عقلي، ولا سمعي؛ فقال تعالى (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ.قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ.وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ.وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ

---

(١) سورة الأحقاف: الآية (١٠)

(٢) هو عبدالله بن سلام بن الحارث الإمام الحبر المشهود له بالجنة أبو الحارث الإسرائيلي حليف الأنصار من خواص أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم، أسلم وقت هجرة النبي صلي الله عليه وسلم وقدومه المدينة توفي بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. انظر " سير أعلام النبلاء "

(٣) يقصد أول سورة الأحقاف.

مُّبِينٌ.قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (١).

ومثل ذلك قوله تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (٢)

فمن عنده علم الكتاب، شهد بما في الكتاب الأول، وهو يوجب تصديق الرسول لأنه يشهد بالمثل (٣)، ويشهد أيضاً بالعين (٤) وكل من الشهادتين كافية، فمتى ثبت الجنس (٥)، علم قطعاً أن المعين منه.

وقال تعالى (فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (٦).

وهذا سواء كان خطاباً للرسول والمراد به غيره، أو خطاباً له وهو لغيره بطريق الأولى.

والتقدير قد يكون معدوماً أو ممتنعاً، وهو بحرف (إن) كقوله:(قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) (٧) و (إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) (٨)

والمقصود: بيان الحكم على هذا التقدير: إن كنت قلته، فأنت عالم به وبما في نفسي، وإن كان له ولد فأنا عابده، وإن كنت شاكاً فاسأل، إن قُدر إمكان ذلك.

فسؤال الذين يقرءون الكتاب قبله إذا أخبروا، فما عندهم شاهد له، ودليل، وحجة.

---

(١) سورة الأحقاف: الآيات (٣-١٠).

(٢) سورة الرعد: الآية (٤٣)

(٣) أمثال الأنبياء وحاجة الأمم إليهم، ولأن الله سبحانه وتعالي لابد أن يقيم الحجة علي عباده فيرسل إليهم الرسل يدلونهم علي عبادته وحده.

(٤) أنه يخص ويعين رسولنا صلي الله عليه وسلم أسمه وصفاته كما قال عيسي بن مريم عليه السلام " إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه " (الصف:٦)

(٥) جنس الأنبياء

(٦) سورة يونس: الآيتان رقم (٩٤-٩٥)

(٧) سورة الزخرف: الآية رقم (٨١)

(٨) سورة المائدة: الآية رقم (١٦)

ولهذا نهى بعد ذلك عن الإمتراء (١) والتكذيب.

وأما تقدير الممتنع بحرف (إن) فكثير، ومن ذلك قوله تعالى (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (٢)

وقوله تعالى (فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ) (٣)

وقوله (أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٤)

وقوله تعالى (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٥)

وقوله تعالى(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٦).

وقد قال تعالى (أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ) (٧)

وقال تعالى (أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)(٨)

وقال تعالى (قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا.وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً)(٩)

---

(١) الامتراء: الشك
(٤) سورة الأنعام: الآية رقم (٣٥)
(٣) سورة المرسلات: الآية رقم (٣٩)
٤ سورة النمل الآية: ٦٤
٥ سورة البقرة الآية: ١١١
٦ سورة يونس الآية: ٣٨
٧ سورة الشعراء الآية: ١٩٧
٨ سورة الأنعام الآية: ١١٤
٩ سورة الإسراء الآية: ١، ٨-١، ٨

وقال تعالى (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَوَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (١). وهذا كله في السور المكية.

والمقصود: الجنس، فإذا شهد جنس هؤلاء، مع العلم بصدقهم، حصل المطلوب.

لا يقف العلم على شهادة كل واحد، واحد، فإن هذا متعذر.

ومن أنكر، أو قال: لا أعلم، لم يضر إنكاره، وإن قال: بل أعلم عدم ما شهدوا به، علم افتراؤه في الجنس، وعلم في الشخص، إذ كان لم يحط علماً بجميع نسخ الكتب المتقدمة وما في النبوات كلها، فلا سبيل لأحد من أهل الكتاب، أن يعلم إنتفاء ذكر محمد في كل نسخة، بكل كتاب من كتب الأنبياء إذ العلم بذلك متعذر.

ثم هذه النسخ، الموجود فيها ذكره، في مواضع كثيرة، قد ذكر قطعة منها في غير هذا الموضع.

ومما ينبغي أن يعلم: أن أعظم ما كان عليه المشركون قبل محمد وفي مبعثه: هو دعوى الشريك لله، والولد، والقرآن مملوء من تنزيه الله عن هذين، وتنزيهه عن المثل، والولد، يجمع كل التنزيه.

فهذا في سورة الإخلاص، وفي سورة الأنعام، في مثل قوله (وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) (٢)

وفي سورة الإسراء (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) (٣)

وفي سورة الكهف في أولها (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) (٤)

وفي آخرها (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا) (٥).

---

(١) سورة القصص: الآيات رقم (٥٢-٥٤)
(٢) سورة الأنعام: الآية رقم (١٠٠)
(٣) سورة الإسراء: الآية رقم (١١١)
(٤) سورة الكهف: الآية رقم (٤)
(٥) سورة الكهف: الآيات رقم (١٠٢)

وفي مريم تنزيهه عن الولد في أول السورة (١)، وآخرها (٢) ظاهر.

وعن الشريك: في مثل قصة إبراهيم (٣)، وفي تنزيل (٤)، وغير ذلك.

وفي الأنبياء: تنزيهه عن الشريك والولد، وكذلك في المؤمنون (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)(٥)

وأول الفرقان (الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (٦).

وأما طه، والشعراء، مما بسط فيه قصة موسى.

فالمقصود الأعظم بقصة موسى، إثبات الصانع، ورسالته إذ كان فرعون منكراً.

ولهذا عظم ذكرها في القرآن، بخلاف قصة غيره؛ فإن فيها الرد على المشركين المقرين بالصانع،ومن جعل له ولداً من المشركين، وأهل الكتاب.

ومذهب الفلاسفة الملحدة، دائر بين التعطيل، وبين الشرك والولادة؛ كما يقولونه في الإيجاب الذاتي؛ فإنه أحد أنواع الولادة، وهم ينكرون معاد الأبدان.

وقد قرن بين هذا وهذا، في الكتاب والسنة، في مثل قوله (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا.أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (٧).

إلى قوله (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) (٨).

وهذه في سورة مريم، المتضمنة خطاب النصارى، ومشركي العرب؛ لأن الفلاسفة داخلون فيهم؛ فإن اليونان اختلطوا بالروم، فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء.

---

(١) كما في قوله جل وعلا " ما كان الله إن يتخذ ولدا سبحانه " (مريم: ٣٥)

(٢) كما في قوله جل وعلا " ما ينبغي للرحمن إن يتخذ ولدا " (مريم: ٩٢)

(٣) أنظر سورة مريم: الآيات رقم (٤٢-٤٨)

(٤) قال تعالي "تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين"(الزمر ١ – ٢)

(٥) سورة المؤمنون: الآية رقم (٩١)

(٦) سورة الفرقان: الآية (٢)

(٧) سورة مريم: الآيتان رقم (٦٦-٦٧)

(٨) سورة مريم: الآية رقم (٨٨)

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله تعالى: " شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك.

فأما شتمه إياي: فقوله:إني اتخذت ولدا،وأنا الأحد، الصمدلم ألد،ولم أولد،ولم يكن لي كفوا أحد.

وأما تكذيبه إياي: فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته "(١).

ولما كان الشرك أكثر في بني آدم من القول بأن له ولداً كان تنزيهه عنه أكثر، وكلاهما يقتضي إثبات:"مثل" و "ند" من بعض الوجوه؛ فإن الولد من جنس الوالد، ونظير له وكلاهما يستلزم الحاجة والفقر، فيمتنع وجود قادر بنفسه.

فالذي جعل لله شريكاً، لو فرض مكافئاً، لزم إفتقار كل منهما وهو ممتنع، وإن كان غير مكافئ، فهو مقهور،والولد يتخذ المتَّخذ لحاجته، إلى معاونته له؛ كما يتخذ المال فإن الولد إذا اشتد، أعان والده،قال تعالى (قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) (٢).

وقال تعالى(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا)(٣) إلى قوله (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (٤) وقال تعالى(وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) (٥).

فإن كون المخلوق مملوكاً لخالقه، وهو مفتقر إليه من كل وجه، والخالق غني عنه، يناقض إتخاذ الولد، لأنه إنما يكون لحاجته إليه في حياته، أو ليخلفه بعد موته.

والرب غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه وهو الحي الذي لا يموت.

---

(٣)رواه البخاري عن ابن عباس:كتاب التفسير باب تفسير "قل هو الله احد" وأخرجه الإمام احمد في المسند عن أبي هريرة.

(٢) سورة يونس: الآية رقم (٦٨).

(٣) سورة مريم: الآيتان رقم (٨٨-٨٩)

(٤) سورة مريم: الآية رقم (٩٣)

(٥) سورة البقرة: الآية رقم (١١٦)

والوالد في نفسه مفتقر إلى ولد مخلوق، لا حيلة له فيه بخلاف من يشتري المملوك، فإنه بإختياره ملكه، ويمكنه إزالة ملكه، فتعلقه به، من جنس تعلقه بالأجانب، والولادة بغير اختيار الوالد، والرب يمتنع ان يحدث شيء بغير اختياره.

واتخاذ الولد، هو عوض عن الولادة لمن لم يحصل له، فهو أنقص في الولادة.

ولهذا: من قال بالإيجاب الذاتي بغير مشيئته وقدرته،فقوله من جنس قول القائلين: بالولادة الحاصلة بغير الاختيار

بل قولهم شر من قول النصارى، ومشركي العرب من بعض الوجوه؛ كما قد بسط الكلام على هذا في تفسير (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) (١) وغيره.

والمقصود: أن الله قال لمحمد (قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ) (٢)

وقال تعالى (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) (٣)

فبين أن هذا الجنس من الناس معروف، قد تقدم له نظراء وأمثال؛ فهو معتاد في الآدميين، وإن كان قليلاً فيهم.

وأما من جاءهم رسول، ما يعرفون قبله رسولاً؛ كقوم نوح،فهذا بمنزلة ما يبتدئه الله من الأمور.

وحينئذ فهو يأتي بما يختص به، مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله.

فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص؛ إذ النوع قد عرف قبل هذا.

والمقصود: أن آيته وبرهانه، لابد أن يكون مختصاً بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع.

---

(١) سورة الإخلاص: الآية رقم (١)
(٢) سورة الأحقاف: الآية رقم (٩)
(٣) سورة آل عمران: الآية رقم (١٤٤)

وقد قلنا: إن ما يأتي به أتباع الأنبياء من ذلك، هو مختص بالنوع فأنا نقول: هذا لا يكون إلا لمن اتبع الأنبياء، فصار مختصا بهم.

وأما ما يوجد لغير الأنبياء وأتباعهم، فهذا هو الذي لا يدل على النبوة؛ كخوارق السحرة، والكهان.

وقد عرف الناس، أن السحرة لهم خوارق، ولهذا كانوا إذا طعنوا في نبوة نبي، واعتقدوا علمه، قالوا: هو ساحر كما قال الملأ من قوم فرعون لموسى (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ.يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) (١)

وقال للسحرة لما آمنوا (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) (٢)

و (قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (٣) كل هذا من كذب فرعون.

وكانوا يقولون (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ) (٤)

وكذلك المسيح؛ قال تعالى (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (٥)

وقال تعالى عن كفار العرب (وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ) (٦).

وإن نسبوه إلى عدم العلم، قالوا: مجنون، كما قالوا عن نوح (مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) (٧).

وقالوا عن موسى (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) (٨)

---

(١) سورة الشعراء: الآيتان رقم (٣٤-٣٥)

(٢) سورة طه: الآية رقم (٧١)

(٣) سورة الأعراف: الآية رقم (١٢٣)

(٤) سورة الزخرف: الآية رقم (٤٩)

(٥) سورة الصف: الآية رقم (٦)

(٦) سورة القمر: الآية رقم (٢)

(٧) سورة القمر: الآية رقم (٩)

(٨) سورة الشعراء: الآية رقم (٢٧)

وقال عن مشركي العرب (وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ) (١)

وقد قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ.أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) (٢)

فالسحر أمر معتاد في بني آدم، كما أن النبوة معتادة في بني آدم والمجانين معتادون فيهم.

فإذا قالوا عن الشخص: إنه مجنون.

فإنه يعلم: هل هو من العقلاء؟ أو من المجانين بنفس ما يقوله ويفعله؟.

وكذلك يعرف: هل هو من جنس الانبياء؟ أو من جنس السحرة؟.

وكذلك لما قالوا عن محمد: إنه شاعر؛ فان الشعراء جنس معروفون في الناس.

وقالوا: إنه كاهن.

وشبهة الشعر: أن القرآن كلام موزون، والشعر موزون.

وشبهة الكهانة: أن الكاهن يخبر ببعض الأمور الغائبة فذكر الله تعالى الفرق بين هذين، وبين النبي، فقال (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (٣)

ثم قال (وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ.أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ.وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ.إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ)(٤)

وقال تعالى (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ)(٥)

وقال تعالى (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ.وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ.تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) (٦).

---

(١) سورة القلم: الآية رقم (٥١)

(٢) سورة الذاريات: الآيتان (٥٢-٥٣)

(٣) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١-٢٢٣)

(٤) سورة الشعراء: الآيات (٢٢٤-٢٢٧)

(٥) سورة يس: الآية رقم (٦٩)

(٦) سورة الحاقة: الآيات (٤١-٤٣)

ولهذا لما عرض الكفار على كبيرهم الوحيد أن يقولوا للناس: هو شاعر، ومجنون، وساحر، وكاهن، صار يبين لهم، أن هذه أقوال فاسدة، وأن الفرق معروف بينه وبين هذه الأجناس.

فالمقصود: أن هذه الأجناس كلها موجودة في الناس، معتادة معروفة، وكل واحد منها يعرف بخواصه المستلزمة له، وتلك الخواص آيات له، مستلزمة له.

فكذلك النبوة لها خواص مستلزمة لها، تعرف بها، وتلك الخواص خارقة لعادة غير الأنبياء، وإن كانت معتادة للأنبياء،فهي لا توجد لغيرهم، فهذا هذا، والله أعلم.

فإذا أتى مدعي النبوة بالأمر الخارق للعادة، الذي لا يكون إلا لنبي، لا يحصل مثله لساحر، ولا كاهن، ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته.

وكل من الساحر، والكاهن، يستعين بالشياطين؛ فإن الكهان تنزل عليهم الشياطين تخبرهم؛ والسحرة تعلمهم الشياطين قال تعالى (وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) (١).

والساحر لا يتجاوز سحره الأمور المقدورة للشياطين؛ كما تقدم بيانه،والساحر كما قال تعالى(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى)(٢)

وقال تعالى (وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ) (٣)

فهم يعلمون أن السحر لا ينفع في الآخرة، ولا يقرب إلى الله،وأن من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق؛ فإن مبناه على الشرك، والكذب، والظلم، مقصود صاحبه الظلم، والفواحش.

وهذا مما يعلم بصريح العقل أنه من السيئات؛ فالنبي لا يأمر به ولا يعمله، يستعين على ذلك صاحبه بالشرك والكذب.

وقد علم بصريح العقل، مع ما تواتر عن الأنبياء أنهم حرموا الشرك.

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم (١٠٢)
(٢) سورة طه: الآية رقم (٦٩)
(٣) سورة البقرة: الآية رقم (١٠٢)

فمتى كان الرجل يأمر بالشرك، وعبادة غير الله، أو يستعين على مطالبه بهذا، وبالكذب، والفواحش، والظلم علم قطعاً أنه من جنس السحرة، لا من جنس الأنبياء.

وخوارق هذا يمكن معارضتها، وإبطالها من بني جنسه وغير بني جنسه.

وخوارق الأنبياء، لا يمكن غيرهم أن يعارضها، ولا يمكن أحدا إبطالها، لا من جنسهم، ولا من غير جنسهم فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضاً، فلا يتصور أن نبياً يبطل معجزة آخر، وإن أتى بنظيرها، فهو يصدقه.

ومعجزة كل منهما آية له، وللآخر أيضاً.

كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم، بخلاف خوارق السحرة؛ فإنها إنما تدل على أن صاحبها ساحر، يؤثر آثاراً غريبة، مما هو فساد في العالم، ويسر بما يفعله من الشرك، والكذب، والظلم، ويستتعين على ذلك بالشياطين.

فمقصوده: الظلم، والفساد.

والنبي مقصوده: العدل، والصلاح.

وهذا: يستعين بالشياطين.

وهذا: بالملائكة.

وهذا: يأمر بالتوحيد لله، وعبادته وحده لا شريك له.

وهذا: إنما يستعين بالشرك، وعبادة غير الله.

وهذا: يعظم إبليس وجنوده.

وهذا: يذم إبليس وجنوده.

والإقرار بالملائكة، والجن، عام في بني آدم، لم ينكر ذلك إلا شواذ من بعض الأمم.

ولهذا قالت الامم المكذبة (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)(١)

حتى قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم فرعون.

قال قوم نوح (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)(٢)

---

(١) سورة المؤمنون: الآية رقم (٢٤)

(٢) سورة المؤمنون: الآية رقم (٢٤)

وقال(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ.إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) (١)

وفرعون وإن كان مظهراً لجحد الصانع، فإنه ما قال (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) (٢) إلا وقد سمع بذكر الملائكة؛ إما معترفاً بهم، وإما منكراً لهم.

فذكر الملائكة، والجن، عام في الأمم.

وليس في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عاماً،وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم؛مثل:من قد يتفلسف، فينكرهم لعدم العلم،لا للعلم بالعدم.

فلا بد في آيات الأنبياء، من أن تكون مع كونها خارقة للعادة، أمراً غير معتاد لغير الأنبياء، بحيث لا يقدر عليه إلا الله، الذي أرسل الأنبياء، ليس مما يقدر عليه غير الأنبياء، لا بحيلة، ولا عزيمة، ولا استعانة بشياطين، ولا غير ذلك.

ومن خصائص معجزات الانبياء: أنه لا يمكن معارضتها فإذا عجز النوع البشري غير الأنبياء عن معارضتها، كان ذلك أعظم دليل على اختصاصها بالأنبياء، بخلاف ما كان موجوداً لغيرها، فهذا لا يكون آية البتة.

فأصل هذا:أن يعرف وجود الأنبياء في العالم،وخصائصهم كما يعلم وجود السحرة،وخصائصهم.

ولهذا من لم يكن عارفاً بالأنبياء من فلاسفة اليونان، والهند وغيرهم،لم يكن له فيهم كلام يعرف.

كما لم يعرف لارسطو، وأتباعه فيهم كلام يعرف.

بل غاية من أراد أن يتكلم في ذلك؛ كالفارابي (٣) وغيره،أن يجعلوا ذلك من جنس المنامات المعتادة.

ولما أراد طائفة؛ كأبي حامد، وغيره، أن يقرروا إمكان النبوة على أصلهم، احتجوا بأن مبدأ الطب، ومبدأ النجوم ونحو ذلك، كان من الانبياء؛ لكون المعارف المعتادة لا تنهض بذلك.

---

(١) سورة فصلت: الآيتان رقم (١٣-١٤)

(٢) سورة الزخرف: الآية رقم (٥٣)

(٣) هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان التركي الحكيم صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى وغيرهما وهو اكبر فلاسفة المسلمين وقد أتقن اللغة العربية وكان مولده سنة ٢٥٦هـ ووفاته سنة ٢٩٩هـ. انظر " وفيات الأعيان ".

وهذا إنما يدل على اختصاص من أتى بذلك بنوع من العلم،وهذا لا ينكره عاقل.

وعلى هذا بنَى ابن سينا أمر النبوة؛ أنها من قوى النفس وقوى النفوس متفاوتة.

وكل هذا كلام من لا يعرف النبوة، بل هو أجنبي عنها،وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أن في الدنيا فقهاء، وأطباء،وهو لم يعرف غير الشعراء؛ فاستدل بوجود الشعراء على وجود الفقهاء، والاطباء.

بل هذا المثال أقرب؛ فإن بعد النبوة عن غير الانبياء، أعظم من بعد الفقيه، والطبيب عن الشاعر.

ولكن هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع، فأرادوا تخريج ذلك، على أصول قوم لم يعرفوا الانبياء.

فإن قيل: موسى، وغيره، كانوا موجودين قبل أرسطو،فإن أرسطو كان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة.

وأيضاً فقد قال الله تعالى(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (١)

وقال(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (٢) فهذا يبين أن كل أمة قد جاءها رسول، فكيف لم يعرف هؤلاء الرسل؟

قلت عن هذا جوابان:

أحدهما: أن كثيراً من هؤلاء لم يعرفوا الرسل؛ كما قال (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (٣) فلم تبق أخبار الرسول وأقواله معروفة عندهم.

---

(١) سورة النحل: الآية رقم (٣٦)
(٢) سورة فاطر: الآية رقم (٢٤)
(٣) سورة النحل: الآية رقم (٣٦)

الثاني: أنه قال تعالى (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (١) فإذا كان الشيطان قد زين لهم أعمالهم، كان في هؤلاء من درست أخبار الأنبياء عندهم، فلم يعرفوها، وأرسطو لم يأت إلى أرض الشام.

ويقال: إن الذين كانوا قبله، كانوا يعرفون الأنبياء، لكن المعرفة المجملة لا تنفع؛ كمعرفة قريش، كانوا قد سمعوا بموسى، وعيسى، وإبراهيم، سماعاً من غير معرفة بأحوالهم.

وأيضاً: فهم وأمثالهم المشاءون (٢) أدركوا الإسلام وهم من أكفر الناس بما جاءت به الرسل.

إما أنهم لا يطلبون معرفة أخبارهم، وما سمعوه: حرفوه أو حملوه على أصولهم.

وكثير من المتفلسفة: هم من هؤلاء.

فإذا كان هذا حال هؤلاء في ديار الإسلام، فما الظن بمن كان ببلاد لا تعرف فيها شريعة نبي؟!

بل طريق معرفة الأنبياء، كطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص، يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم؛ كما يعرف الأطباء، والفقهاء.

ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة، وإثبات جنسها، بما وقع في العالم؛ من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وغيرهم، فيذكر وجود هؤلاء، وأن قوماً صدقوهم، وقوماً كذبوهم، ويبين حال من صدقهم، وحال من كذبهم.

فيعلم بالاضطرار حينئذ ثبوت هؤلاء، ويتبين وجود آثارهم في الارض فمن لم يكن رأى في بلدة آثارهم، فليسر في الارض، ولينظر آثارهم، وليسمع أخبارهم المتواترة.

يقول الله تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ.وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ.وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ.أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى

---

(١) سورة النحل: الآية رقم (٦٣)

(٢) المشاءون: هم أتباع أرسطو وسموا مشلئين لأنهم كانوا يمشون ويلقون دروسهم وهم سائرون في الطريق. انظر (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) للقفطي: ص ١٤

الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ.وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) (١).

ولهذا قال مؤمن آل فرعون، لما أراد إنذار قومه (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) (٢).

ولهذا لما سمع ورقة بن نوفل والنجاشي وغيرهما القرآن،قال ورقة بن نوفل: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى عليه السلام.

وقال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة.

فكان عندهم علم بما جاء به موسى؛ اعتبروا به، ولولا ذلك لم يعلموا هذا.

وكذلك الجن لما سمعت القرآن، ولوا إلى قومهم منذرين (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)(٣)

ولما أراد سبحانه تقرير جنس ما جاء به محمد، قال (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)(٤) وقال تعالى (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ) (٥).

فهو سبحانه يثبت وجود جنس الأنبياء ابتداء؛ كما في السور المكية،حيث يثبت وجود هذا الجنس، وسعادة من اتبعه وشقاء من خالفه.

ثم نبوة عين هذا النبي تكون ظاهرة؛ لأن الذي جاء به أكمل مما جاء به جميع الأنبياء.

---

(١) سورة الحج: الآيات رقم (٤٢-٤٨)
(٢) سورة غافر: الآيتان رقم (٣٠-٣١)
(٣) سورة الأحقاف: الآية رقم (٣٠)
(٤) سورة المزمل: الآيتان رقم (١٥-١٦)
(٥) سورة الأنعام: الآيتان رقم (٩١-٩٢)

فمن أقر بجنس الأنبياء، كان إقراره بنبوة محمد في غاية الظهور أَبين مما أَقر أن في الدنيا نحاة، وأطباء، وفقهاء.

فإذا رأى نحو سيبويه،وطب أبقراط،وفقه الأئمة الاربعة ونحوهم،كان إقراره بذلك من أبين الامور.

ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد: إما أن يكون لجهله بما جاء به، وهو الغالب على عامتهم أو لعناده، وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم.

والعرب عرفوا ما جاء به محمد، فلما أقروا بجنس الأنبياء لم يبق عندهم في محمد شك.

وجميع ما يذكره الله تعالى في القرآن من قصص الأنبياء، يدل على نبوة محمد بطريق الأولى؛ إذ كانوا من جنس واحد ونبوته أكمل، فينبغي معرفة هذا، فإنه أصل عظيم.

ولهذا جميع مشركي العرب آمنوا به، فلم يحتج أحد منهم أن تؤخذ منه جزية، فإنهم لما عرفوا نبوته، وأنه لا بد من متابعته أو متابعة اليهود والنصارى، عرفوا أن متابعته أولى.

ومن كان من أهل الكتاب: بعضهم آمن به، وبعضهم لم يؤمن جهلاً وعناداً.

وهؤلاء كان عندهم كتاب، ظنوا استغناءهم به، فلم يستقرئوا أخبار محمد، وما جاء به خالين من الهوى، بخلاف من لم يكن له كتاب فإنه نظر في الأمرين، نظر خال من الهوى، فعرف فضل ما جاء به محمد، على ما جاء به غيره.

ولهذا لا تكاد توجد أمة لا كتاب لها، يعرض عليها دين المسلمين واليهود، والنصارى، إلا رجحت دين الاسلام؛ كما يجري لأنواع الامم التي لا كتاب لها.

فأهل الكتاب مقرون بالجنس، منازعون في العين.

والمتفلسفة من اليونان، والهند، منازعون في وجود كمال الجنس وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء، فإنما أقروا منها، بما لا يختص بالأنبياء، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم.

فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء البتة.

هذا هو الذي يجب القطع به، ولهذا يذكرون معهم ذكر الجنس الخارج عن أتباعهم.

فيقال:قالت الأنبياء، والفلاسفة،واتفقت الأنبياء،والفلاسفة كما يقال:المسلمون،واليهود،والنصارى.

فصل
تأييد الأنبياء بالنصر

وقال أيضا رضي الله عنه:ومن آياته: نصر الرسل على قومهم.

وهذا على وجهين:

– تارة: يكون بإهلاك الأمم، وإنجاء الرسل وأتباعهم كقوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى.

ولهذا يقرن الله بين هذه القصص في سور الأعراف، وهود والشعراء، ولا يذكر معها قصة (١) إبراهيم عليه السلام وإنما ذكر قصة إبراهيم في سورة الأنبياء (٢) ومريم (٣) والعنكبوت (٤) والصافات (٥) فإن هذه السور لم يقتصر فيها على ذكر من أهلك من الأمم.

بل في سورة الأنبياء، كان المقصود ذكر الأنبياء، ولهذا سميت سورة الأنبياء؛ فذكر فيها إكرامه للأنبياء، وإن لم يذكر قومهم.

كما ذكر قصة داود، وسليمان (٦)، وأيوب (٧)، وذكر آخر الكل (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)(٨) وبدأ فيها بقصة إبراهيم (٩) إذ كان المقصود ذكر إكرامه للأنبياء قبل محمد وإبراهيم؛أكرمهم على الله تعالى،وهو خير البرية،وهو أبو أكثرهم،إذ ليس هو أب نوح

---

(١) ذكر الله سبحانه وتعالي قصة إبراهيم عليه السلام في سورة الشعراء بعد قصة موسي وإهلاك فرعون وقومه قال تعالي "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ " الآيتان رقم (٦٩- ٧٠)

(٢) قال تعالي " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ"(الأنبياء: ٥١- ٧٣)

(٣) قال تعالي " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا " (مريم: ٤١-٥٠)

(٤) قال تعالي " وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ " (العنكبوت: ١٦-٢٧)

(٥) قال تعالي"وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ.إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ"(الصافات:٨٣-١١٣)

(٦) قال تعالي " وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ..." إلي قوله " وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ " (الأنبياء:٧٨-٨٢)

(٧) قال تعالي " وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ " (الأنبياء:٨٣-٨٤)

(٨) سورة الأنبياء: الآية رقم (٩٢)

(٩) قال تعالي " وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ " (الأنبياء:٥١-٧٣)

ولوط، لكن لوط من أتباعه (١) وأيوب من ذريته؛بدليل قوله في سورة الأنعام (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (٢).

وأما سورة مريم: فذكر الله تعالى فيها، إنعامه على الأنبياء المذكورين فيها:فذكر فيها رحمته زكريا، وهبته يحيى عليه السلام وأنه ورث نبوته، وغيرها من علم آل يعقوب، وأنه آتاه الحكم صبيا (٣) وذكر بدء خلق عيسى، وما أعطاه الله تعالى من تعليم الكتاب وهو التوراة، النبوة، وأن الله تعالى جعله مباركا أينما كان وغير ذلك (٤)

وذكر قصة إبراهيم، وحسن خطابه لأبيه، وأن الله تعالى وهبه إسحاق ويعقوب نبيين، ووهبه من رحمته، وجعل له لسان صدق عليا (٥)

ثم ذكر موسى، وأنه خصه الله تعالى بالتقريب والتكليم، ووهبه أخاه، وغير ذلك (٦)

وذكر إسماعيل، وأنه كان صادق الوعد (٧)، وكأنه والله أعلم من ذلك، أو أعظمه صدقه فيما وعد به أباه، من صبره عند الذبح فوفى بذلك

وذكر إدريس، وأن الله تعالى رفعه مكاناً علياً (٨) ثم قال تعالى (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا*) (٩).

---

(١) قال تعالي " فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ " (العنكبوت: ٢٦-٢٧)

(٢) سورة الأنعام: الآية رقم (٨٤)

(٣) قال تعالي "كهيعص. ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا...." إلي قوله عن يحيي عليه السلام " وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا "(مريم من ١– ١٥)

(٤) قال تعالي " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا "إلي قوله " ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ "(مريم: ١٦ – ٣٤)

(٥) قال تعالي " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا "إلي قوله"وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا" (مريم:٤١– ٥٠)

(٦) قال تعالي "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا"(مريم: ٥١–٥٣)

(٧) قال تعالي " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَّبِيًّا " (مريم:٥٤)

(٨) قال تعالي " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا "(مريم:٥٦ – ٥٧)

(٩) سورة مريم: الآية رقم (٥٨)

وأما سورة العنكبوت: فإنه ذكر فيها إمتحانه للمؤمنين، ونصره لهم وحاجتهم إلى الصبر والجهاد.

وذكر فيها حسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة من كذب الرسل فذكر قصة إبراهيم، لأنها من النمط الأول، ونصرة الله له على قومه (١).

وكذلك سورة الصافات قال فيها (وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ.فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ) (٢).

وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة؛ إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا.

ولهذا ذكر فيها قصة إلياس، ولم يذكرها في غيرها، ولم يذكر هلاك قومه.

بل قال (فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ.إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ)(٣) وإلياس قد روي أن الله تعالى رفعه، وهذا يقتضي عذابهم في الآخره؛ فان إلياس لم يقم فيهم.

وإلياس المعروف بعد موسى من بني إسرائيل، وبعد موسى لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال، وبعد نوح لم يهلك جميع النوع، وقد بعث في كل أمة نذيراً.

والله تعالى لم يذكر قط عن قوم إبراهيم أنهم أهلكوا، كما ذكر عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وأرادوا به كيدا، فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين.

وفي هذا: ظهور برهانه وآيته، وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم وأظهره أيضاً بالقدرة؛حيث أذلهم ونصره.

وهذا من جنس المجاهد، الذي هزم عدوه، وتلك من جنس المجاهد الذي قتل عدوه.

وإبراهيم بعد هذا لم يقم بينهم،بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين ظهراني قومهم حتى هلكوا،فلم يوجد في حق قوم إبراهيم سبب الهلاك؛وهو إقامته فيهم وانتظار العذاب النازل.

وهكذا محمد مع قومه لم يقم فيهم، بل خرج عنهم، حتى أظهره الله تعالى عليهم بعد ذلك.

ومحمد وإبراهيم أفضل الرسل، فإنهم إذا علموا الدعوة حصل المقصود.

---

(١) قال تعالي " وَإِبْرَاهِيمَ إِذْقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ " (العنكبوت: ١٦)

(٢) سورة الصافات: الآيات رقم (٧١-٧٣)

(٣) سورة الصافات: الآيتان رقم (١٢٧-١٢٨)

وقد يتوب منهم من يتوب بعد ذلك كما تاب؛ من قريش من تاب.

وأما حال إبراهيم، فكانت إلى الرحمة أميل، فلم يسعى في هلاك قومه، لا بالدعاء، ولا بالمقام، ودوام إقامة الحجة عليهم.

وقد قال تعالى(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) (١) وكان كل قوم يطلبون هلاك نبيهم فعوقبوا.

وقوم إبراهيم أوصوله إلى العذاب، لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً، ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب إذ الدنيا ليست دار الجزاء التام، وإنما فيها من الجزاء ما تحصل به الحكمة والمصلحة، كما في العقوبات الشرعية.

فمن أراد أعداؤه من أتباع الأنبياء أن يهلكوه فعصمه الله وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه، ولم يهلك أعداءه بل أخزاهم، ونصره؛ فهو أشبه بإبراهيم.

وإذا عصمه من كيدهم، وأظهره حتى صارت الحرب بينه وبينهم سجالاً، ثم كانت العاقبة له، فهو أشبه بحال محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن محمداً سيد الجميع (٢) وهو خليل الله (٣)؛ كما أن إبراهيم خليله.

والخليلان: هما أفضل الجميع، وفي طريقتهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريقة غيرهما.

ولم يذكر الله عن قوم إبراهيم ديناً غير الشرك، وكذلك عن قوم نوح.

وأما عاد: فذكر عنهم التجبر، وعمارة الدنيا.

وقوم صالح: ذكر عنهم الاشتغال بالدنيا عن الدين، لم يذكر عنهم من التجبر ما ذكر عن عاد، وإنما أهلكهم لما عقروا الناقة.

وأما أهل مدين: فذكر عنهم الظلم في الأموال، مع الشرك(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (٤).

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان رقم (١٣-١٤)

(٢) قال صلي الله عليه وسلم " أنا سيد ولد ادم يوم القيامة واول من ينشق عنه القبر واول شافع واول مشفع " أخرجه الإمام البخاري في صحيحه،وقال صلي الله عليه وسلم " أنا سيد ولد ادم ولا فخر" أخرجه الإمام احمد في مسنده

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً " أخرجه الإمام مسلم في صحيحه

(٤) سورة هود: الآية رقم (٨٧)

وقوم لوط ذكر عنهم استحلال الفاحشة، ولم يُذكروا بالتوحيد بخلاف سائر الأمم.

وهذا يدل على أنهم لم يكونوا مشركين، وإنما ذنبهم استحلال الفاحشة، وتوابع ذلك، وكانت عقوبتهم أشد إذ ليس في ذلك تدين، بل شر يعلمون أنه شر (١).

وهذه الأمور تدل على حكمة الرب، وعقوبته لكل قوم بما يناسبهم، فإن قوم نوح أغرقهم،إذ لم يكن فيهم خير يرجى.

وقد وصفهم الله تعالي بصفات قبيحة، منها: صفة العدوان علي حدود الله، فقال تعالي " أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ" (الشعراء: ١٦٥-١٦٦) ووصفهم بالجهل فقال تعالي " أَئِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْم تَجْهَلُونَ "(النمل: ٥٥)

ووصفهم بالاسراف في الشهوات فقال تعالي "إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْم مُّسْرِفُونَ" (الاعراف: ٨١) وقال تعالي "أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ" (العنكبوت: ٢٩)

فصل
في آيات الأنبياء وبراهينهم

وهي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم.

والدليل لا يكون إلا مستلزماً للمدلول عليه، مختصاً به، لا يكون مشتركاً بينه وبين غيره؛ فإنه يلزم من تحققه تحقق للمدلول وإذا انتفى المدلول انتفى هو؛ فما يوجد مع وجود الشيء ومع عدمه، لا يكون دليلاً عليه، بل الدليل لا يكون إلا مع وجوده.

فما وجد مع النبوة تارة، ومع عدم النبوة تارة، لم يكن دليلاً على النبوة، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها.

وهنا اضطرب الناس، فقيل: دليلها جنس يختص بها، وهو الخارق للعادة.

فلا يجوز وجوده لغير نبي؛ لا ساحر، ولا كاهن، ولا ولي كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة، وغيرهم؛ كابن حزم وغيره.

وقيل: بل الدليل هو الخارق للعادة، بشرط الاحتجاج به على النبوة والتحدي بمثله.

وهذا منتف في السحر، والكرامة.

كما يقول ذلك من يقوله من متكلمي أهل الإثبات كالقاضيين:أبي بكر، وأبي يعلى،وغيرهما.

وقد بسط القاضي أبو بكر الباقلاني الكلام في ذلك، في كتابه المصنف في الفرق بين المعجزات، والكرامات، والحيل والكهانات، والسحر، والنيرنجيات.

وهؤلاء جعلوا مجرد كونه خارقاً للعادة هو الوصف المعتبر.

وفرق بين أن يقال: لا بد أن يكون خارقاً للعادة، وبين أن يقال: كونه خارقاً للعادة هو المؤثر.

فإن الأول يجعله: شرطاً لا موجباً.

والثاني: يجعله موجبا.

وفرق بين أن يقال: العلم، والبيان، وقراءة القرآن،لا يكون إلا من حي وبين أن يقال:كونه حياً يوجب أن يكون عالماً قارئاً، ومن هنا دخل الغلط على هؤلاء.

وليس في الكتاب والسنة تعليق الحكم بهذا الوصف، بل ولا ذكر خرق العادة، ولا لفظ المعجز، وإنما فيه آيات وبراهين،وذلك يوجب اختصاصها بالأنبياء.

وأيضاً: فقالوا في شرطها: أن لا يقدر عليها إلا الله، لا تكون مقدورة للملائكة، ولا للجن، ولا للإنس، بأن يكون جنسها مما لا يقدر عليه إلا الله، كإحياء الموتى، وقلب العصا حية.

وإذا كانت من أفعال العباد، لكنها خارقة للعادة؛ مثل:حمل الجبال، والقفز من المشرق إلى المغرب، والكلام المخلوق الذي يقدر على مثله البشر، ففيه لهم قولان:

أحدهما: أن ذلك يصح أن يكون معجزة.

والثاني:أن المعجزة إنما هي إقدار المخلوق على ذلك؛بأن يخلق فيه قدرة خارجة عن قدرته المعتادة.

وهذا اختيار القاضي أبي بكر، ومن اتبعه، كالقاضي أبي يعلى وظنوا أن هذا يوجب طرد قولهم: إنها لا تكون مقدورة لغير الله، بخلاف القول الأول؛فإنه تقع فيه شبهة،إذ كان الجنس معتاداً، وإنما الخارق: هو الكثير، الخارج عن العادة.

وهذا الفرق الذي ذكره ضعيف، فإنه إذا كان قادراً على اليسير، فخرق العادة في قدرته، حتى جعله قادراً على الكثير فجنس القدرة معتاد مثل جنس المقدور.

وإنما خرقت العادة، بقدرة خارجة عن العادة؛ كما خرقت بفعل خارج عن القدرة.

وعنده أن خلق القدرة، خلق لمقدورها، والقدرة عنده مع الفعل، فلا فرق.

وهذا القول، وهو: أن المعجزة لا تكون إلا مقدورة للرب لا للعباد: قول كثير من أهل الكلام؛ من القدرية والمثبتة للقدر، وغيرهم.

ثم إنهم لما طُولبوا بالدليل، على أنه لا يجوز أن تقدر العباد على مثل: إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، ونحو ذلك مما ذكروا أنه يمتنع أن يكون مقدوراً لغير الله اعتمدوا في الدلالة، على أن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده.

فلو جاز أن يكون العبد قادراً على هذه الأمور،لوجب أن لا يخلو من ذلك ومن ضده؛وهو العجز

أو القدرة على ضد ذلك الفعل؛ كما يقولونه في فعل العبد: إنه إذا لم يقدر على الفعل، فلا بد أن يكون عاجزاً أو قادراً على ضده.

هذا احتجاج من يقول القدرة مع الفعل؛ والقدرة عنده لا تصلح للضدين؛ كالاشعرية، فيقول: لا يخلو من القدرة أو العجز، فهذه مقدمة.

والمقدمة الثانية: ونحن لا نحس من أنفسنا عجزاً عن إبراء الأكمه، والأبرص، وإحياء الموتى، ونحو هذه الأمور لكنا غير قادرين عليها، ولا يجوز أن نقدر عليها.

وهؤلاء يقولون: لا يكون الشيء عاجزاً إلا عما يصح أن يكون قادراً عليه، بخلاف مالا يصح أن يكون قادراً عليه فلا يصح أن يكون عاجزاً عنه.

ولهذا قالوا:لا ينبغي أن تسمى هذه معجزات؛ لأن ذلك يقتضي أن الله أعجز العباد عنها، وإنما يعجز العباد عما يصح قدرتهم عليه.

هذا كلام القاضي أبي بكر ومن وافقه.

وكلا المقدمتين دعوى مجردة، لم يقم على واحدة منها حجة فكيف يجوز أن يكون الفرق بين المعجزة وغيرها، مبنياً على مثل هذا الكلام،الذي ينازعه فيه أكثر العقلاء،ولو كان صحيحاً،لم يفهم إلا بكلفة،ولا يفهمه إلا قليل من الناس فكيف إذا كان باطلاً.

والذين آمنوا بالرسل لما رأوه،وسمعوه من الآيات،لم يتكلموا بمثل هذا الفرق،بل ولا خطر بقلوبهم.

ولهذا لما رأى المتأخرون ضعف هذا الفرق؛ كأبي المعالي (١) والرازي (٢)، والآمدي (٣) وغيرهم، حذفوا هذا القيد وهو كون المعجزة مما ينفرد الباري بالقدرة عليها وقالوا: كل حادث، فهو مقدور للرب، وأفعال العباد هي أيضاً مقدورة للرب،وهو خالقها،والعبد ليس خالقاً لفعله.

---

(١) هو عبدالملك بن عبدالله يوسف الجويني الشافعي الملقب امام الحرمين أعلم المتاخرين من أصحاب الشافعي، متفنن في العلوم من الاصول و الفروع، والف العقيدة النظامية علي طريقة اهل التفويض ويعتبر من أعلام الأشاعرة، كان مولده سنة ٤١٩ هـ وتوفي سنة ٤٧٨هـ ودفن بنيسابور. انظر (البداية والنهاية) و (وفيات الأعيان)

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري الرازي الإمام المفسر كان يحسن الفارسية، وكان واعظاً بارعاً بها وبالعربية أيضاً له كتاب (مفاتيح الغيب) في تفسير القرآن الكريم، وله مؤلفات عديدة وهو من علماء الأشاعرة، ولد في الري سنة ٥٤٤هـ وتوفي في وهران سنة ٦٠٦هـ. أنظر (وفيات الأعيان) و(شذرات الذهب)

(٣) هو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سلم التغلبي الفقيه الملقب سيف الدين، كان حنبلياً، ثم صار شافعياً، ويعتبر من علماء الاشاعرة، وله نحو من عشرين مؤلفاً، قال عنه ابن كثير:كان حسن الاخلاق، سليم الصدر، كثير البكاء، تكلموا فيه باشياء الله اعلم بصحتها، والذي يغلب علي الظن: أنه ليس لغالبها صحة ولد سنة ٥٥١هـ ومات سنة ٦٣١هـ. أنظر (وفيات الأعيان) و (البداية والنهاية)

فالاعتبار بكونها خارقة للعادة، قد استدل بها على النبوة وتحدى بمثلها، فلم يمكن أحداً معارضته هذه القيود الثلاثة وحذفوا ذلك القيد.

وزعم القاضي أبو بكر: أن ما يستدل به على أن المعجزات يمتنع دخولها تحت قدرة العباد،لا يصح على أصول القدرية.

بسط القول في ذلك بكلام يصح بعضه دون بعض؛ كعادته في أمثال ذلك.

ثم جعل هذا الفرق: هو الفرق بين المعجزات، وبين السحر،الحيل،فقال: وأما على قولنا إن المعجز لا يكون إلا من مقدورات القديم، مما يستحيل دخوله، ودخول مثله تحت قدرة العباد.

فإذا كان كذلك،استحال أن يفعل أحد من الخلق شيئا من معجزات الرسل،أو ما هو من جنسها،لأن المحتال إنما يحتال ويفعل ما يصح دخوله تحت قدرته،دون ما يستحيل كونه مقدوراً له.

قال:وأما القائلون بأنه يجوز أن يكون في معجزات الرسل ما يدخل جنسه تحت قدرة العباد، وان لم يقدروا على كثيره وما يخرق العادة منه.

فإنهم يقولون: قد علمنا أنه لا حيلة، ولا شيء من السحر يمكن أن يتوصل به الساحر، والمشعوذ، إلى فعل الصعود في السماء،ولا قفز من المشرق إلى المغرب،وقفز الفراسخ الكثيرة،والمشي على الماء، وحمل الجبال الراسيات: هذا أمر لا يتم بحيلة محتال، ولا سحر ساحر.

وتكلم على إبطال قول من قال:إن السحر لا يكون إلا تخييلاً لا حقيقة له.

وذكر أقوال العلماء،والآثار عن الصحابة،بأن الساحر يقتل بسحره.

وقول:إنه يقتل حداً عند أكثرهم،وقصاصاً عند بعضهم.

باب
القول في الفصل بين المعجزة والسحر

وهو لم يفرق بين الجنسين، بل يجوز أن يكون ما هو معجزة للرسول، يظهر على يد الساحر.

لكن قال الفرق:هو تحدي الرسول بالإتيان بمثله، وتقريع مخالفه، بتعذر مثله عليه.

فمتى وجد الذي ينفرد الله بالقدرة عليه، من غير تحد منه واحتجاج لنبوته بظهوره،لم يكن معجزاً.

وإذا كان كذلك،خرج السحر عن أن يكون معجزاً ومشبهاً لآيات الأنبياء.

وكان ما يظهر عند فعل الساحر، من جنس بعض معجزات الرسل، وما يفعله الله عند تحديهم به.

غير أن الساحر إذا احتج بالسحر، وادعى به النبوة، أبطله الله بوجهين:

أحدهما: أن ينسيه عمل السحر،أولا يفعل عند سحره شيئاً في المسحور؛من موت،أو سقم،أو بغض، ولم يخلق فيه الصعود إلى جهة العلو، والقدرة على الدخول في بقرة، فإذا منعه هذه الأسباب بطل السحر.

والثاني: أن الساحر تمكن معارضته؛ فإن أبواب السحر معلومة عند السحرة.

فإذا تحدى ساحر بشيء يفعل عند سحره، لم يلبث أن يجد خلقاً من السحرة يفعلون مثل فعله، ويعارضونه بأدق وأبلغ مما أورده.

والرسول إذا ظهر عليه مثل ذلك، وادعاه آية له،قال لهم:هذا آيتي وحجتي،ودليل ذلك:أنكم لا تقدرون على مثله ولا يفعله الله في وقتي هذا،ومع تحدي ومطالبتي بمثله عند سحر ساحر،وفعل كاهن،وقد كان يظهر من سحرتكم وكهانكم،وهي آية لا تظهر اليوم على أحد من الخلق،وإن دقَّ سحره، وعظم في الكهانة علمه.

فإذا ظهر ذلك عليه، وامتنع ظهور مثله على يد ساحر أو كاهن مع أنه قد كان يظهر من قبل، صار هذا خرق عادة البشر وعادة السحرة والكهنة خاصة.

قال:ولم يبعد أن يقال:هذه الآية أعظم من غيرها،وإن لها فضل مزية.

ذكر هذا بعد أن قال:فإن قال قائل:فإذا أجزتم أن يكون من عمل السحر،ما يفعل الله عنده سقم الصحيح وموته ويفعل عنده بغض المحب،وحب المبغض، وبغض الوطن والرد إليه من

السفر، وضيق الصدر، والعجز عن الوطء بالربط والشد الذي يعلمه السحرة، والصعود في جهة العلو على خيط أو بعض الآلات في الفصل بين هذا، وبين معجزات الرسل؟ وكيف تنفصل مع ذلك المعجزات من السحر؟ ويمكن الفرق بين النبي والساحر؟

أَوليس لو قال نبي مبعوث:أني أصعد على هذا الخيط نحو السماء وأدخل جوف هذه البقرة وأخرج، وأني أفعل فعلاً أفرق به بين المرء وزوجه،وأفعل فعلاً أقتل به هذا الحي،وأسقم هذا الصحيح.

فهل كان يكون ذلك،لو ظهر على يده آية ودليلاً على صدقه؟وما الفصل إذاً بين السحر والمعجز.

ثم قال في الجواب:يقال له:جواب هذا قريب،وذلك أنا قد بينا في صدر هذا الكتاب،أن من حق المعجز ألا يكون معجزاً،حتى يكون واقعاً من فعل الله،على وجه خرق عادة البشر،مع تحدي الرسول بالإتيان...... إلى آخر ما كتب.

قلت: هذا عمدة القوم، ولهذا طعن الناس في طريقهم، وشنع عليهم ابن حزم وغيره.

وذلك أن هذا الكلام مستدرك من وجوه:

أحدها: أنه إذا جوز أن يكون ما ينفرد الرب بالقدرة عليه على قوله: يأتي به النبي تارة، والساحر تارة، ولا فرق بينهما إلا دعوى النبوة، والاستدلال به، والتحدي بالمثل.

فلا حاجة إلى كونه مما انفرد الباري بالقدرة عليه، لاسيما وقد ظهر ضعف الفرق، بين ما يمتنع قدرة العباد عليه وما لا يمتنع.

ولهذا أعرض المتأخرون عن هذا القيد.

الوجه الثاني: وبه تنكشف حقيقة طريقهم، أنه على هذالم تتميز المعجزات بوصف تختص به، وإنما امتازت باقترانها بدعوى النبوة، وهذا حقيقة قولهم، وقد صرحوا به.

فالدليل والبرهان،إن استدل به كان دليلاً،وإن لم يستدل به لم يكن دليلاً، وإن اقترنت به الدعوى، كان دليلاً،وان لم تقترن به الدعوى،لم يكن دليلاً عندهم.

ولهذا لم يجعلوا دلالة المعجز دلالة عقلية، بل دلالة وضعية كدلالة الألفاظ بالإصطلاح.

وهذا مستدرك من وجوه:

منها: أن كون آيات الأنبياء مساوية في الحد، والحقيقة لسحر السحرة، أمر معلوم الفساد بالاضطرار من دين الرسل.

الثاني: أن هذا من أعظم القدح في الأنبياء، إذا كانت آياتهم من جنس سحر السحرة، وكهانة الكهان.

الثالث: أنه على هذا التقدير لا تبقى دلالة؛ فإن الدليل ما يستلزم المدلول، ويختص به.

فإذا كان مشتركاً بينه وبين غيره،لم يبق دليلاً، فهؤلاء قدحوا في آيات الأنبياء، ولم يذكروا دليلاً على صدقهم.

الرابع: أنه على هذا التقدير، يمكن الساحر دعوى النبوة.

وقوله: إنه عند ذلك يسلبه الله القدرة على السحر، أو يأتي بمن يعارضه: دعوى مجردة.

فإن المنازع يقول: لا نسلم أنه إذا ادعى النبوة، فلابد أن يفعل الله ذلك، لاسيما على أصله؛ وهو: أن الله يجوز أن يفعل كل مقدور، وهذا مقدور للرب، فيجوز أن يفعله وادعى أن ما يخرق العادة من الأمور الطبيعية، والطلمسات، هي كالسحر.

فقال: ولأجل ذلك،لم تلتبس آيات الرسل بما يظهر من جذب حجر المغناطيس، وما يوجد ويكون عند كتب الطلمسات.

قال: وذلك أنه لو ابتدأ نبي بإظهار حجر المغناطيس، لوجب أن يكون ذلك آية له.

ولو أن أحداً أخذ هذا الحجر، وخرج إلى بعض البلاد وادعى أنه آية له عند من لم يره، ولم يسمع به، لوجب أن ينقضه الله عليه بوجهين:

أحدهما: أن يؤثر دواعي خلق من البشر، إلى حمل جنس تلك الحجارة إلى ذلك البلد.

وكذلك سبيل الزناد الذي يقدح النار، وتعرفه العرب.

وكذلك سبيل الطلمسات، التي يقال أنها تنفي الذباب،والبق، والحيات.

والوجه الآخر: أن لا يفعل الله عند ذلك ما كان يفعله من قبل،فيقال: هذه دعوى مجردة، ومما يوضح ذلك.

الوجه الخامس:وهو أن جعل قدح الزناد،وجذب حجر المغناطيس والطلمسات،من جنس معجزات الأنبياء، وأنه لو بعث نبي ابتداء، وجعل ذلك آية له، جاز ذلك: غلط عظيم،وعدم علم بقدر معجزات الأنبياء وآياتهم.

وهذا إنما أتاهم حيث جعلوا جنس الخارق هو الآية؛ كما فعلت المعتزلة.

وأولئك كذبوا بوجود ذلك لغير الأنبياء، وهؤلاء ما أمكنهم تكذيب ذلك، لدلالة الشرع، والأخبار المتواترة، والعيان على وجود حوادث من هذا النوع، فجعلوا الفرق افتراق الدعوى والاستدلال، والتحدي دون الخارق.

ومعلوم أن ما ليس بدليل، لا يصير دليلاً بدعوى المستدل أنه دليل،وقد بسط الكلام في ذلك.

وجوز أن تظهر المعجزات على يد كاذب،إذا خلق الله مثلها على يد من يعارضه؛ فعمدته سلامتها من المعارضة بالمثل، مع أن المثل عنده موجود.

وآيات الأنبياء لها أمثال كثيرة لغير الأنبياء، لكن يقول: إن من ادعى الإتيان:

فإما أن لا يظهرها الله على يديه.

وإما أن يقيض من يعارضه بمثلها.

هذا عمدة القوم، وليس فرقاً حقيقياً بين النبي والساحر، وإنما هو مجرد دعوى.

وهذا يظهر بالوجه السادس: وهو أن من الناس من ادعى النبوة وكان كاذباً، وظهرت على يده بعض هذه الخوارق، فلم يمنع منها، ولم يعارضه أحد، بل عرف أن هذا الذي أتى به، ليس من آيات الأنبياء، وعرف كذبه بطرق متعددة؛ كما في قصة الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، والحارث الدمشقي وبابا الرومي، وغير هؤلاء ممن ادعى النبوة.

فقولهم: إن الكذاب لا يأتي بمثل هذا الجنس، ليس كما ادعوه.

الوجه السابع: أنه إنما أوجب أن لا يظهر الله الخوارق على يد الكذاب لأن ذلك يفضي إلى عجز الرب،وهذه عمدة الأشعري في أظهر قوليه، وهي المشهورة عند قدمائهم وهي التي سلكها القاضي أبو يعلى، ونحوه.

قال القاضي أبو بكر: فإن قال قائل من القدرية: فلم لا يجوز أن تظهر المعجزات على يد مدعي النبوة، ليلبس بذلك على العباد ويضل به عن الدين، وأنتم تجوزون خلقه الكفر في قلوب الكفار، وإضلالهم، فما الفصل بين إضلالهم بهذا، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على يد الكاذبين؟

قال: فيقال لمن سأل عن هذا من القدرية: الفصل بين الأمرين ظاهر معلوم، وقد نص القرآن والأخبار بأنه يضل ويهدي (١) ويختم على القلوب، والأسماع، والأبصار (٢).

فأما مطالبتهم بالفرق بين إضلال العباد بهذه الضروب من الأفعال، وبين إضلالهم بإظهار المعجزات على أيدي الكذابين؟

فجوابه: أنا لم نحل إضلالهم بهذا الضرب، لأنه إضلال عن الدين، أو لقبحه من الله لو وقع، أو لإستحقاقه الذم عليه تعالى عن ذلك، أو لكونه ظالماً لهم بالتكليف مع هذا الفعل.

كل ذلك باطل محال من تمويههم، وإنما أحلناه، لأنه يوجب عجز القديم، عن تمييز الصادق من الكاذب.

وتعريفنا الفرق بين النبي والمتنبي من جهة الدليل؛ إذ لا دليل في قول كل أحد، أثبت النبوة على نبوة الرسل وصدقهم،إلا ظهور أعلام المعجزة على أيديهم، أو خبر من ظهرت المعجزة على يده، عن نبوة آخر مرسل.

فهذا إجماع لا خلاف فيه، فلو أظهر الله على يد المتنبي الكاذب ذلك، لبطلت دلائل النبوة، وخرجت المعجزات عن كونها دلالة على صدق الرسول، ولوجب لذلك عجز القديم عن الدلالة على صدقهم.

ولما لم يجز عجزه، وارتفاع قدرته عن بعض المقدورات،لم يجز لذلك ظهور المعجزات على أيدي الكذابين، بخلاف خلق الكفر في قلوب الكافرين.

قلت: هذا عمدة القوم، والمتأخرون عرفوا ضعف هذا،فلم يسلكوه،كأبي المعالي،والرازي، وغيرهما.

بل سلكوا الجواب الآخر: وهو أن العلم بالصدق عند المعجز يحصل ضرورة، فهو علم ضروري، وبين ضعف هذا الجواب مع أنه يحتج به.

وقال: فهذا هذا من وجوه:

---

(١) قال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ " (الرعد: ٢٧)

(٢) قال تعالي " خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (البقرة: ٧)

أحدها: أن يقال: إن كان الأمر كما زعمتم، فإنما يلزم العجز إذا كان خلق الدليل دال على صدقهم جنسه لا يدل، بل جنسه يقع مع عدم النبوة، ولم يبق عندكم جنس من الأدلة يخص النبوة.

فلم قلتم: إن تصديقهم والحال هذه ممكن؟

ولا ينفعكم هذا الاستدلال بالإجماع ونحوه من الأدلة السمعية لأن كلامكم مع منكري النبوات.

فيجب أن تقيموا عليهم، كون المعجزات دليلاً على صدق النبي.

وأما من أقر بنبوتهم بطريق غير طريقكم، فإنه لا يحتاج إلى كلامكم.

فإذا قال لكم منكرو النبوة: لا نسلم إمكان طريق يدل على صدقهم لم يكن معكم ما يدل على ذلك.

وقد أورد هذا السؤال، وأجاب عنه: بأنه يمكنه تصديقهم بالقول والمعجزات تقوم مقام التصديق بالقول، بل التصديق بالفعل أوكد.

وضرب المثل بمدعي الوكالة، إذا قال: قم، أو اقعد، ففعل ذلك عند استشهاد وكيله؛ فإن العقلاء كلهم يعلمون، أنه أقام تلك الأفعال مقام القول.

قلت: وهذا يعود إلى الإحتجاج بالطريقة الثانية، وهي العلم بالتصديق ضرورة، فلا حاجة إلى طريقة المعجزات.

الثاني: أنه يمكن أن يخلق علماً ضرورياً بصدقهم.

وقد سلم القاضي أبو بكر ذلك، لكن قال: إذا اضطررنا إلى العلم بصدق مدعي النبوة، وأنه أرسله إلينا، كان في ضمن هذا العلم إضطراره لنا، إلى العلم بذاته، وإلى أنه قد أرسل مدعي النبوة.

وإذا علمنا ذلك إضطراراً،لم يكن للتكليف بالعلم بصدقه وجهاً وخرجنا بذلك عن أن نكون مكلفين بالعلم بالدين.

وهذا كلام يؤدي إلى خروجنا عن حد المحنة والتكليف.

فيقال له:إذا حصل العلم الضروري،بوجود الخالق، وبصدق رسوله، كان التكليف بالإقرار بالصانع، وعبادته وحده لا شريك له وبتصديق رسله، وطاعة أمره.

وهذا هو الذي أمرت به الرسل؛ أمرت الخلق أن يعبدوا الله وحده وأن يطيعوا رسله، ولم يأمروا جميع الخلق بأن يكتسبوا علماً نظرياً بوجود الخالق، وصدق رسله،لكن من جحد الحق، أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه وبينوا معاندته، وأنه جاحد للحق الذي يعرفه.

وكذلك الرسول كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه.

فليتدبر هذا الموضع؛ فانه موضع عظيم.

الوجه الثالث: أن يقال: نحن نسلم أن المعجزات تدل على الصدق،وأنه لا يجوز إظهارها على يد الكاذب.

لكن هو لأن الله منزه عن ذلك، وأن حكمته تمنع ذلك، ولا يجوز عليه كل فعل ممكن، وأنتم مع تجويزكم عليه كل ممكن، يلزمكم تجويز خلق المعجزة على يد الكاذب، فما علم بالعقل والإجماع من امتناع ظهورها على يد الكاذب، يدل على فساد أصلكم.

الوجه الرابع: أن يقال: لم قلتم إنه لا دليل على صدقهم إلا المعجزات،وما ذكرتم من الإجماع على ذلك، لا يصح الإستدلال به لوجهين:

أحدهما: أنه لا إجماع في ذلك، بل كثير من الطوائف يقولون: إن صدقهم بغير المعجزات.

الثاني:أنه لا يصح الإحتجاج بالإجماع في ذلك،فإن الإجماع إنما يثبت بعد ثبوت النبوة،والمقدمات التي تعلم بها النبوة لا يحتج عليها بالإجماع.

وقولكم: لا دليل سوى المعجز: مقدمة ممنوعة.

وذكر عن الأشعري، أنه ذكر جواباً آخر،فقال:وأيضاً فإن قول القائل:ما أنكرتم من جواز إظهار المعجزات على أيدي الكذابين: قول متناقض، والله على كل شيء قدير.

ولكن ما طالب السائل بإجازته محال، لا تصح القدرة عليه ولا العجز عنه؛ لأنه بمنزلة كونه أظهر المعجزات على أيديهم فإنه أوجب أنهم صادقون؛لأن المعجز دليل على الصدق، ومتضمن له.

وقوله: مع ذلك إنهم كاذبون: نقض لقوله: إنهم صادقون قد ظهرت المعجزات على أيديهم.

فوجب إحالة هذه المطالبة، وصار هذا بمثابة قول من قال:ما أنكرتم من صحة ظهور الأفعال المحكمة، الدالة على علم فاعلها والمتضمنة لذلك من جهة الدليل، من الجاهل بها، في أنه قول باطل متناقض.

فيجب إذا كان الأمر كذلك، إستحالة ظهور المعجزات على يدي الكاذبين، واستحالة ثبوت قدرة قادر عليه.

وكيف يصح على هذا الجواب أن يقال:ما أنكرتم وزعمتم أنه من فعل المحال، الذي لا يصح حدوثه، وتناول القدرة له هو من قبيل الجائز قياساً على صحة خلق الكفر، وضروب الضلال التي يصح حدوثها، وتناول القدرة لها.

قلت: هذا كلام صحيح، إذا علم أنها دليل الصدق يستحيل وجوده بدون الصدق، والممتنع غير مقدور، فيمتنع أن يظهر على أيدي الكاذبين ما يدل على صدقهم.

لكن المطالب يقول: كيف يستقيم على أصلكم، أن يكون ذلك دليل الصدق، وهو أمر حادث مقدور، وكل مقدور يصح عندكم أن يفعله الله، ولو كان فيه من الفساد ما كان؛ فإنه عندكم لا ينزه عن فعل ممكن، ولا يقبح منه فعل.

فحينئذ إذا خلق على يد الكاذب مثل هذه الخوارق، لم يكن ممتنعاً على أصلكم، وهي لا تدل على الصدق البتة على أصلكم ويلزمكم إذا لم يكن دليل إلهي، ألا يكون في المقدور دليل على صدق مدعي النبوة، فيلزم أن الرب سبحانه لا يصدق أحداً ادعى النبوة.

وإذا قلتم:هذا ممكن،بل واقع،ونحن نعلم صدق الصادق إذا ظهرت هذه الأعلام على يده ضرورة.

قيل: فهذا يوجب أن الرب لا يجوز عليه إظهارها على يد كاذب.

وهذا فعل من الأفعال، هو قادر عليه، وهو سبحانه لا يفعله، بل هو منزه عنه.

فأنتم بين أمرين: إن قلتم لا يمكنه خلقها على يد الكاذب،وكان ظهورها ممتنعاً، فقد قلتم: إنه لا يقدر على إحداث حادث قد فعل مثله، وهذا تصريح بعجزه.

وأنتم قلتم: فليست بدليل، فلا يلزم عجزه، فصارت دلالتها مستلزمة لعجزه على أصلكم.

وإن قلتم: يقدر، لكنه لا يفعل، فهذا حق، وهو ينقض أصلكم.

وحقيقة الأمر: أن نفس ما يدل على صدق الصادق بمجموعه امتنع أن يحصل للكاذب، وحصوله له ممتنع غير مقدور.

وأما خلق مثل تلك الخارقة على يد الكاذب، فهو ممكن،والله سبحانه وتعالى قادر عليه، لكنه لا يفعله لحكمته؛ كما أنه سبحانه يمتنع عليه أن يكذب، أو يظلم.

والمعجز تصديق، وتصديق الكاذب هو منزه عنه، والدال على الصدق، قصد الرب تصديق الصادق.

وهذا القصد يمتنع حصوله للكاذب؛ فيمتنع جعل من ليس برسولٍ رسولاً، وجعل الكاذب صادقاً.

ويمتنع من الرب قصد المحال، وهو غير مقدور، وهو إذا صدق الصادق بفعله، علم بالإضطرار والدليل أنه صدقه،وهذا العلم يمتنع حصوله للكاذب.

واستشهادكم بالعلم:هو من هذا الباب،فأنتم تقولون:إن الرب لا يخلق شيئاً لشيء،وحينئذ:فلا يكون قاصداً لما في المخلوقات من الإحكام.

فلا يكون الإحكام دالاً على العلم على أصلكم؛ فإن الإحكام: إنما هو جعل الشيء محصلاً للمطلوب؛ بحيث يجعل لأجل ذلك المطلوب وهذا عندهم لا يجوز؛ فإثباته علمه، وتصديق رسله مشروط بأن يفعل شيئا لشيء، وهذا عندكم لا يجوز.

فلهذا يقال: إنكم متناقضون، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الوجه الثامن: أن حقيقة الأمر على قول هؤلاء، الذين جعلوا المعجزة: الخارق، مع التحدي: أن المعجز في الحقيقة ليس إلا منع الناس من المعارضة بالمثل؛ سواء كان المعجز في نفسه خارقاً، أو غير خارق، وكثير مما يأتي به الساحر والكاهن أمر معتاد لهم.

وهم يجوزون أن يكون آية للنبي، وإذا كان آية، منع الله الساحر والكاهن، من مثل ما كان يفعل، أو قيض له من يعارضه.

وقالوا: هذا أبلغ؛ فإنه منع المعتاد.

وكذلك عندهم: أَحد نوعي المعجزات، منعهم من الأفعال المعتادة،وهو مأخذ من يقول بالصرفة.

وإذا كان كذلك، جاز أن يكون كل أمر؛ كالأكل، والشرب والقيام، والقعود، معجزة، إذا منعهم أن يفعلوا كفعله.

وحينئذ:فلا معنى لكونها خارقاً،ولا لإختصاص الرب بالقدرة عليها،بل الإعتبار بمجرد عدم المعارضة، وهم يقرون بخلاف ذلك،والله أعلم.

الوجه التاسع: أنه إذا كانت المعجزة هي مجموع دعوى الرسالة مع التحدي، فلا حاجة إلى كونه خارقاً؛ كما تقدم.

ويجب إذا تحدى بالمثل أن يقول: فليأت بمثل القرآن من يدعي النبوة،فإن هذا هو المعجز عندهم، وإلا كان القرآن مجرداً ليس بمعجز، فلا يطلب مثل القرآن إلا ممن يدعي النبوة.

كما في الساحر والكاهن، إذا ادعى النبوة سلبه الله ذلك، أو قيض له من يعارضه.

وإذا لم يدع النبوة، جاز أن يظهر على يده مثل ما يظهر على يد النبي.

فكذلك يلزمهم مثل هذا في القرآن، وسائر المعجزات، والله أعلم.

فصل

بيان الرسول لدئلال صدق ما أُخبر به

وهي: البراهين الدالة على أن ما يقوله حق؛ من الخبر والأمر،فلابد أن يكون قد بين الدلائل على صدقه في كل ما أخبر ووجوب طاعته في كل ما أوجب وأمر.

ومن أعظم أصول الضلال: الإعراض عن بيان الرسول للأدلة والآيات والبراهين والحجج؛فإن المعرضين عن هذا؛ إما أن يصدقوه، ويقبلوا قوله، ويؤمنوا به بلا دليل أصلاً ولا علم، وإما أن يستدلوا على ذلك بغير أدلته.

فإن لم يكونوا عالمين بصدقه:فهم ممن يقال له في قبره:ما قولك في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟

فأما المؤمن أو الموقن، فيقول: هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه.

وأما المنافق أو المرتاب، فيقول: هاء، هاء، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً، فقلته، فيضرب بمرزبة من حديد، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء، إلا الثقلين (١).

وإن استدل على ذلك، بغير الآيات والأدلة، التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدعاً، لابد أن يخطئ ويضل.

فإن ظن الظان، أنه بأدلة وبراهين، خارجة عما جاء به، تدل على ما جاء به، فهو من جنس ظنه، أنه يأتي بعبادات غير ما شرعه توصل الى مقصوده.

وهذا الظن وقع فيه طوائف من النظار الغالطين، أصحاب الإستدلال، والإعتبار، والنظر؛ كما وقع في الظن الأول طوائف من العباد الغالطين، أصحاب الإرادة، والمحبة، والزهد.

وقوله صلى الله عليه وسلم في خطبته يوم الجمعة: "خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة " (٢) يتناول هذا وهذا.

وقد أرى الله تعالى عباده الآيات في الآفاق، وفي أنفسهم حتى تبين لهم أن ما قاله هو حق؛ فأن أرباب العبادة، والمحبة، والإرادة والزهد الذين سلكوا غير ما أمروا به، ضلوا كما ضلت النصارى.

---

(١) الثقلان: الإنس والجن.

(٢) أخرجه الإمام احمد في مسنده، والبخاري في صحيحه، كتاب: الجمعة.

ومبتدعة هذه الأمة من العباد،وأرباب النظر،والاستدلال الذين سلكوا غير دليله وبيانه أيضاً ضلوا.

قال تعالى (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى.قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) (١).

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة: دال ودليل، ومبين، ومستدل.

فالدال: هو الله.

والدليل: هو القرآن.

والمبين: هو الرسول؛ قال الله تعالى " لتبين للناس ما نزل إليهم " (٢) والمستدل: هم أولو العلم، وأولو الألباب، الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم..

وقد ذكره ابن المنى (٣) عن أحمد، وهو مذكور في العدة للقاضي أبي يعلى، وغيرها، إما أن أحمد قال له، أو قيل له، فاستحسنه.

ولهذا صار كثير من النظار، يوجبون العلم، والنظر والإستدلال (٤)، وينهون عن التقليد.

ويقول كثير منهم:إن إيمان المقلد لا يصح،أو أنه وإن صح لكنه عاص بترك الإستدلال،ثم النظر.

والإستدلال الذي يدعون إليه، ويوجبونه،ويجعلونه أول الواجبات وأصل العلم: هو نظر واستدلال ابتدعوه، ليس هو المشروع؛ لا خبراً ولا أمراً، وهو إستدلال فاسد، لا يوصل إلى العلم.

---

(١) سورة طه: الآيات رقم (١٢٣-١٢٦)

(٢) سورة النحل: جزء من الآية رقم (٤٤)

(٣) ابن المنى: هو أبو الفتح نصر بن قتيان بن مطر بن المني النهرواني الحنبلي شيخ الحنابلة ولد سنة ٥٠١هـ كان ورعاً عابداً حسن السمت علي منهج السلف، توفي سنة ٥٨٣هـ انظر كتاب (سير أعلام النبلاء) و(البداية والنهاية)

(٤) علماء الكلام من المعتزلة والماتريدية والأشعرية فإنهم يوجبون العلم والنظر والإستدلال علي كل أحد، بل يجعلونه أول واجب علي المكلف.

فإنهم جعلوا أصل العلم بالخالق، هو الإستدلال على ذلك بحدوث الأجسام.

والإستدلال على حدوث الأجسام، بأنها مستلزمة للأعراض لا تخلو عنا، ولا تنفك منها.

ثم استدلوا على حدوث الأعراض، قالوا: فثبت أن الأجسام مستلزمة للحوادث، لا تخلو عنها، فلا تكون مثلها.

ثم كثير منهم قالوا: وما لم يخل من الحوادث، أو ما لم يسبق الحوادث فهو حادث، وظن أن هذه مقدمة بديهية، معلومة بالضرورة لا يطلب عليها دليل.

وكان ذلك بسبب أن لفظ الحوادث يشعر بإن لها ابتداء كالحادث المعين، والحوادث المحدودة.

ولو قدرت ألف ألف ألف حادث،فإن الحوادث إذا جعلت مقدرة محدودة،فلابد أن يكون لها ابتداء؛فإن مالا ابتداء له ليس له حد معين ابتدأ منه،إذ قد قيل لا إبتداء له بل هو قديم أزلي دائم.

ومعلوم أن هذه الحوادث، ما لم يسبقها فهو حادث؛ فإنه يكون: إما معها، وإما بعدها.

وكثير منهم يفطن للفرق بين جنس الحوادث، وبين الحوادث المحدودة فالجنس: مثل أن يقال: ما زالت الحوادث توجد شيئاً بعد شيء أو ما زال جنسها موجوداً،أو ما زال الله متكلماً إذا شاء أو ما زال الله فاعلاً لما يشاء، أو ما زال قادراً على أن يفعل قدرة يمكن معها اقتران المقدور بالقدرة، لا تكون قدرة يمتنع معها المقدور فإن هذه في الحقيقة ليست قدرة.

ومثل أن يقال في المستقبل:لابد أن الله يخلق شيئاً بعد شيء ونعيم أهل الجنة دائم لا يزول، ولا ينفد،وقد يقال في النوعين:كلمات الله لا تنفذ، ولا نهاية لها لا في الماضي، ولا في المستقبل، ونحو ذلك (١).

فالكلام في دوام الجنس وبقائه، وأنه لا ينفد، ولا ينقضي ولا يزول، ولا ابتداء له، غير الكلام فيما يقدر، محدوداً له إبتداء، أو له ابتداء وانتهاء.

---

(١) وهذا هو التسلسل الذي أجازه السلف – رحمهم الله تعالي – ورأوا أن إثباته ضروري لإثبات أفعال الله الإختيارية، وعليه يشهد قوله تعالي " قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا " أقرأ (سورة الكهف: ١-٩)

فإن كثيراً من النظار من يقول: جنس الحوادث إذا قدر له إبتداء وجب أن يكون له إنتهاء؛ لأنه يمكن فرض تقدمه على ذلك الحد فيكون أكثر مما وجد، ومالا يتناهى لا يدخله التفاضل.

فإنه ليس وراء عدم النهاية شيء أكثر منها، بخلاف مالا إبتداء له ولا إنتهاء؛ فإن هذا لا يكون شيء فوقه، فلا يفضي إلى التفاضل فيما لا يتناهى، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن هؤلاء جعلوا هذا أصل دينهم وإيمانهم وجعلوا النظر في هذا الدليل، هو كالنظر الواجب على كل مكلف وأنه من لم ينظر في هذا الدليل؛ فإما أنه لا يصح إيمانه، فيكون كافراً على قول طائفة منهم، وإما أن يكون عاصياً على قول آخرين وإما أن يكون مقلداً لا علم له بدينه، لكنه ينفعه هذا التقليد ويصير به مؤمناً غير عاص.

والأقوال الثلاثة باطلة؛ لأنها مفرعة على أصل باطل، وهو أن النظر الذي هو أصل الدين والإيمان، هو هذا النظر في هذا الدليل فإن علماء المسلمين يعلمون بالإضطرار، أن الرسول لم يدع الخلق بهذا النظر، ولا بهذا الدليل؛ لا عامة الخلق، ولا خاصتهم فامتنع أن يكون هذا شرطاً في الإيمان والعلم،وقد شهد القرآن والرسول، لمن شهد له من الصحابة وغيرهم بالعلم وأنهم عالمون بصدق الرسول، وبما جاء به، وعالمون بالله وبأنه لا إله إلا الله.

ولم يكن الموجب لعلمهم، هذا الدليل المعين؛ كما قال تعالى (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (١)

وقال تعالى (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (٢) وقال تعالى (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ) (٣)

وقد وصف باليقين والهدى والبصيرة في غير موضع؛ كقوله (والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (٤)

وقوله تعالى (أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٥)

---

(١) سورة سبأ: الآية رقم (٦)
(٢) سورة آل عمران: الآية رقم (١٨)
(٣) سورة الرعد: الآية رقم (١٩)
(٤) سورة البقرة: الآية رقم (٤)
(٥) سورة البقرة: الآية رقم (٥)

وقوله تعالى (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (١) وأمثال ذلك.

فتبين أن هذا النظر والإستدلال الذي أوجبه هؤلاء،وجعلوه أصل الدين ليس مما أوجبه الله ورسوله.

ولو قدر أنه صحيح في نفسه، وأن الرسول أخبر بصحته،لم يلزم من ذلك وجوبه؛ إذ قد يكون المطلوب أدلة كثيرة.

ولهذا طعن الرازي، وأمثاله، على أبي المعالي في قوله: إنه لا يعلم حدوث العالم إلا بهذا الطريق.

وقالوا: هب أنه يدل على حدوث العالم، فمن أين يجب أن لا يكون ثم طريق آخر،وسلكوا هم طرقاً أخر.

فلو كانت هذه الطريق صحيحة عقلاً، وقد شهد لها الرسول والمؤمنون، الذين لا يجتمعون على ضلالة، بأنها طريق صحيحة لم تتعين، مع إمكان سلوك طرق أخرى.

كما أنه في القرآن سور وآيات، قد ثبت بالنص والإجماع أنها من آيات الله الدالة على الهدى.

ومع هذا، فإذا اهتدى الرجل بغيرها، وقام بالواجب، ومات ولم يعلم بها، ولم يتمكن من سماعها، لم يضره، كالآيات المكية، التي اهتدى بها من آمن، ومات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، قبل أن ينزل سائر القرآن،فالدليل يجب طرده، ولا يجب عكسه.

ولهذا أنكر كثير من العلماء على هؤلاء، إيجاب سلوك هذه الطريق مع تسليمهم أنها صحيحة؛ كالخطابي (٢)، والقاضي أبي يعلى وابن عقيل، وغيرهم.

والأشعري نفسه، أنكر على من أوجب سلوكها أيضاً في رسالته إلى أهل الثغر،مع اعتقاده صحتها، واختصر منها طريقة ذكرها في أول كتابه المشهور المسمى بـ "اللمع" في الرد على أهل البدع، وقد اعتنى به أصحابه، حتى شرحوه شروحاً كثيرة.

---

(١) سورة يوسف: الآية رقم (١٠٨)

(٢) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، إمام وصاحب تصانيف، توفي سنة ٣٨٨هـ. أنظر (وفيات الأعيان) لابن خلكان و (سير أعلام النبلاء) للذهبي

والقاضي أبو بكر شرحه،ونقض كتاب عبد الجبار الذي صنفه في نقضه وسماه "نقض نقض اللمع"

وأما أكابر أهل العلم من السلف والخلف: فعلموا أنها طريقة باطلة في نفسها، مخالفة لصريح المعقول، وصحيح المنقول وأنه لا يحصل بها العلم بالصانع، ولا بغير ذلك، بل يوجب سلوكها اعتقادات باطلة توجب مخالفة كثير مما جاء به الرسول، مع مخالفة صريح المعقول؛ كما أصاب من سلكها من الجهمية والمعتزلة، والكلابية، والكرامية، ومن تبعهم من الطوائف وإن لم يعرفوا غورها وحقيقتها.

فإن أئمة هؤلاء الطوائف، صار كل منهم يلتزم ما يراه لازماً ليطردها، فيلتزم لوازم مخالفة للشرع والعقل، فيجيء الآخر فيرد عليه، ويبين فساد ما التزمه، ويلتزم هو لوازم أخر لطردها فيقع أيضاً في مخالفة الشرع والعقل.

فالجهمية: التزموا لإجلها نفي أسماء الله وصفاته، إذ كانت الصفات أعراضاً تقوم بالموصوف، ولا يعقل موصوف بصفة إلا الجسم،فإذا اعتقدوا حدوثه، اعتقدوا حدوث كل موصوف بصفة.

والرب تعالى قديم،فالتزموا نفي صفاته،وأسماؤه مستلزمة لصفاته،فنفوا أسماءه الحسنى وصفاته العلى

والمعتزلة:استعظموا نفي الأسماء،لما فيه من تكذيب القرآن تكذيباً ظاهر الخروج عن العقل والتناقض

فإنه لابد من التمييز بين الرب وغيره،بالقلب واللسان،فما لا يميز من غيره،لا حقيقة له،ولا إثبات، وهو حقيقة قول الجهمية، فإنهم لم يثبتوا في نفس الأمر شيئاً قديماً البتة.

كما أن المتفلسفة: الذين سلكوا مسلك الإمكان والوجوب،وجعلوا ذلك بدل الحادث والقديم، لم يثبتوا واجباً بنفسه البتة،وظهر بهذا فساد عقلهم، وعظيم جهلهم، مع الكفر،وذلك أنه يشهد وجود السماوات وغيرها.

فهذه الأفلاك، إن كانت قديمة واجبة، فقد ثبت وجود الموجود القديم الواجب، وإن كانت ممكنة، أو محدثة، فلا بد لها من واجب قديم.

فإن وجود الممكن بدون الواجب، والمحدث بدون القديم، ممتنع في بدائه العقول،فثبت وجود موجود قديم، واجب بنفسه على كل تقدير.

فإذا كان ما ذكروه من نفي الصفات،عن القديم والواجب يستلزم نفي القديم مطلقاً،ونفي الواجب: علم أنه باطل.

وقد بسط هذا في مواضع،وبين أن كل من نفى صفة،مما أخبر به الرسول،لزمه نفي جميع الصفات.

فلا يمكن القول بموجب أدلة العقول، إلا مع القول بصدق الرسول،فأدلة العقول مستلزمة لصدق الرسول؛ فلا يمكن مع عدم تصديقه القول بموجب العقول، بل من كذبه، فليس معه لا عقل ولا سمع؛ كما أخبر الله تعالى عن أهل النار:

قال تعالى (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ.قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ.وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ.فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ) (١) وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن المعتزلة لما رأوا الجهمية قد نفوا أسماء الله الحسنى استعظموا ذلك، وأقروا بالأسماء.

ولما رأوا هذه الطريق توجب نفي الصفات: نفوا الصفات فصاروا متناقضين.

فإن إثبات حي، عليم، قدير، سميع، بصير، بلا حياة ولا علم، ولا قدرة، ولا حكمة، ولا سمع، ولا بصر:مكابرة للعقل؛ كإثبات مصل بلا صلاة، وصائم بلا صيام وقائم بلا قيام، ونحو ذلك من الأسماء المشتقة؛ كأسماء الفاعلين والصفات المعدولة عنها.

ولهذا ذكروا في أصول الفقه: أن صدق الإسم المشتق، كالحي والعليم، لا ينفك عن صدق المشتق منه؛ كالحياة، والعلم.

وذكروا النزاع مع من ذكروه من المعتزلة؛ كأبي علي، وأبي هاشم،فجاء ابن كلاب، ومن اتبعه كالأشعري، والقلانسي، فقرروا: أنه لا بد من إثبات الصفات، متابعة للدليل السمعي والعقلي مع إثبات الأسماء.

---

(١) سورة الملك: الآية رقم (٨-١١)

وقالوا: ليست أعراضاً، لأن العرض لا يبقى زمانين، وصفات الرب باقية.

سلكوا في هذا الفرق، وهو أن العرض لا يبقى زمانين، مسلكاً أنكره عليهم جمهور العقلاء.

وقالوا:إنهم خالفوا الحس وضرورة العقل،وهم موافقون لأولئك على صحة هذه الطريقة،طريقة الإعراض.

قالوا: وهذه تنفي عن الله، أن يقوم به حادث، وكل حادث فإنما يكون بمشيئته وقدرته.

قالوا: فلا يتصف بشيء من هذه الأمور؛لا يتكلم بمشيئته وقدرته،ولا يقوم به فعل إختياري يحصل بمشيئته وقدرته؛ كخلق العالم، وغيره.

بل منهم من قال: لا يقوم به فعل، بل الخلق هو المخلوق كالأشعري ومن وافقه.

ومنهم من قال: بل فعل الرب قديم أزلي، وهو من صفاته الأزلية،وهو قول قدماء الكلابية (١)، وهو الذي ذكره أصحاب ابن خزيمة لما وقع بينه وبينهم بسبب هذا الأصل،فكتبوا عقيدة اصطلحوا عليها،وفيها: إثبات الفعل القديم الأزلي.

وكان سبب ذلك، أنهم كانوا كلابية، يقولون: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، بل كلامه المعين، لازم لذاته، أزلاً وأبداً.

وكان ابن خزيمة وغيره، على القول المعروف للمسلمين وأهل السنة:أن الله يتكلم بمشيئته وقدرته.

وكان قد بلغه عن الإمام أحمد،أنه كان يذم الكلابية، وأنه أمر بهجر الحارث المحاسبي (٢) لما بلغه أنه على قول ابن كلاب.

وكان يقول: حذروا عن حارث الفقير؛ فإنه جهمي، واشتهر هذا عن أحمد.

وكان بنيسابور (٣) طائفة من الجهمية والمعتزلة، ممن يقولون:إن القرآن وغيره من كلام الله مخلوق.

---

(١) الكلابية: هم أتباع أبي محمد عبدالله بن عيد القطان المعروف بأبي كلاب، توفي سنة ٢٤٠هـ.

(٢) هو الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبدالله من شيوخ الصوفية قال عنه الذهبي: صدوق في نفسه، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه أنظر (اسير أعلام النبلاء)

(٣) نيسابور: مدينة عظيمة من بلاد خراسان، سميت بذلك: لأن سابور بن أزدشير بن بابك مر بها، ومنها ما لا يحصي من العلماء والأئمة كالإمام مسلم وغيره وقد دخلها التتار سنة ٦١٨ هـ فدمروها. أنظر (معجم البلدان)

ويطلقون القول: بأنه متكلم بمشيئته وقدرته، لكن مرادهم بذلك، أنه يخلق كلاماً بائناً عنه، قائماً بغيره؛ كسائر المخلوقات. وكان من هؤلاء من عرف أصل ابن كلاب، فأراد التفريق بين ابن خزيمة، وبين طائفة من أصحابه، فأطلعه على حقيقة قولهم، فنفر منه.

وهم كانوا قد بنوا ذلك على أصل ابن كلاب، واعتقدوا أنه لا تقوم به الحوادث بناء على هذه الطريقة؛ طريقة الأعراض.

وابن خزيمة شيخهم، وهو الملقب بإمام الأئمة، وأكثر الناس معه،ولكن لا يفهمون حقيقة النزاع؛ فاحتاجوا لذلك إلى ذكر عقيدة لا يقع فيها نزاع بين الكلابية، وبين أهل الحديث والسنة فذكروا فيها: أن كلام الله غير مخلوق، وأنه لم يزل متكلماً،وأن فعله أيضاً غير مخلوق؛ فالمفعول مخلوق، ونفس فعل الرب له قديم غير مخلوق.

وهذا قول الحنفية، وكثير من الحنبلية، والشافعية، والمالكية،وهو اختيار القاضي أبي يعلى وغيره في آخر عمره، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود: التنبيه على افتراق الأمة بسبب هذه الطريقة.

ولما عرف كثير من الناس، باطن قول ابن كلاب، وأنه يقول: إن الله لم يتكلم بالقرآن العربي، وأن كلامه شيء واحد، هو معنى آية الكرسي، وآية الدين، عرفوا ما فيه من مخالفة الشرع والعقل؛ فنفروا عنه، وعرفوا أن هؤلاء يقولون: أنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته، فأنكروه.

وكان ممن أنكر ذلك الكرامية (١)، وغير الكرامية كاصحاب أبي معاذ التومني (٢)، وزهير البابي، وداود بن علي (٣)، وطوائف.

فصار كثير من هؤلاء يقولون: أنه يتكلم بمشيئته وقدرته، فانكروه، لكن يراعى تلك الطريقة، لإعتقاده صحتها.

---

(١) الكرامية: فرقة من فرق المرجئة، تنتسب إلي محمد بن كرام قال عنه الذهبي: عابد متكلم شيخ الكرامية، مات بالشام سنة ٢٥٥هـ

(٢) أبو معاذ التومني: ينتسب إلي قرية تومن، من قري مصر، من ائمة المرجئة، ورأس الفرقة التومنية، لا يعرف تاريخ وفاته، وأشار كل من الاشعري والشهرستاني و البغدادي إلي أقواله وأرائه بالتفصيل.أنظر (المقالات) لأبي الحسن الاشعري، و (الملل والنحل) للشهرستاني.

(٣) هو داود بن علي بن خلف الأصبهاني أبو سليمان، الملقب بالظاهري،قال عنه الخطيب: هو امام أصحاب الظاهر وكان ورعاً ناسكاً زاهداً، مات سنة ٢٧٠ هـ، وقيل: سنة ٢٧٥هـ أنظر (البداية و النهاية)

فيقول: إنه لم يكن في الأزل متكلماً؛ لأنه إذا كان لم يزل متكلماً بمشيئته لزم وجود حوادث لا تتناهى.

وأصل الطريقة أن هذا ممتنع، فصار حقيقة قول هؤلاء، إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً.

فخالفوا قول السلف والأئمة، إنه لم يزل متكلماً إذا شاء،وبسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن كثيراً من أهل النظر، صار ما يوجبونه من النظر والاستدلال، ويجعلونه أصل الدين والايمان، هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع، المخالفة للعقل، التي أنفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها.

فذمهم للجهمية الذين ابتدعوا هذه الطريقة أولاً، متواتر مشهور قد صنف فيه مصنفات (١)، وذمهم للكلام والمتكلمين، مما عني به أهل هذه الطريقة؛ كذم الشافعي لحفص الفرد، الذي كان على قول ضرار بن عمرو، وذم أحمد بن حنبل لأبي عيسى؛ محمد بن عيسى برغوث (٢)، الذي كان على قول حسين النجار (٣) وذمهما، وذم أبي يوسف (٤)، ومالك، وغيرهم لأمثال هؤلاء الذين سلكوا هذه الطريقة.

وقد صنف في ذم الكلام وأهله، مصنفات أيضاً، وهو متناول لأهل هذه الطريقة قطعاً.

فكان إيجاب النظر بهذا التفسير باطلاً قطعاً، بل هذا نظر فاسد يناقض الحق والإيمان.

---

(١) فالإمام نعيم بن حماد، قال عنه الذهبي: وضع ثلاثة عشر كتاباً في الرد علي الجهمية) أنظر (اسير أعلام النبلاء) ويضاف إلى ما ذكره الذهبي أن الإمام احمد بن حنبل صنف كتابا في الرد علي الجهمية والزنادقة والإمام الطوسي والإمام بن قتيبه والدرامي وغيرهم كثير.

(٢) برغوث: هو أبو عبدالله محمد بن عيسي، وكان علي مذهب النجار،قال عنه الذهبي: وهو رأس البدعة..الجهمي، أحد من كان يناظر الإمام أحمد وقت البدعة، أنظر (سير أعلام النبلاء)

(٣) هو أبوعبدالله الحسين بن محمد بن عبدالله النجار وكان حائكاً في حراز العباس بن محمد الهاشمي، من كبار المجبرة ومتكلميهم والسبب في موته: أنه اجتمع مع إبراهيم النظام فأفحمه النظام في مناظرات جرت بينهما، فانصرف محموماً، فكان ذلك سبب علته التي مات فيها، أنظر (الفهرست) لأبن النديم.

(٤) هو القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي تلميذ أبي حنيفة، عالم فقيه محدث، قال عنه يحيي بن معين: ما رأيت من أصحاب الرأي أثبت في الحديث، ولا أحفظ ولا أصلح رواية من أبي يوسف، توفي رحمه الله سنة ١٨٢هـ. أنظر (تذكرة الحفاظ)

ولهذا صار من يسلك هذه الطريقة من حذاق الطوائف، يتبين لهم فسادها؛ كما ذكر مثل ذلك أبو حامد الغزالي، وأبو عبد الله الرازي وأمثالهما.

ثم الذي يتبين له فسادها: إذا لم يجد عند من يعرفه من المتكلمين في أصول الدين غيرها، بقي حائراً مضطرباً.

والقائلون بقدم العالم؛ من الفلاسفة، والملاحدة، وغيرهم تبين لهم فسادها فصار ذلك من أعظم حججهم على قولهم الباطل؛ فيبطلون قول هؤلاء إنه صار فاعلاً، أو فاعلاً ومتكلماً بمشيئته بعد أن لم يكن ويثبتون وجوب دوام نوع الحوادث، ويظنون أنهم إذا أبطلوا كلام أولئك المتكلمين بهذا حصل مقصودهم (١).

وهم أضل وأجهل من أولئك (٢) فإن أدلتهم لا توجب قدم شيء بعينه من العالم، بل كل ما سوى الله فهو محدث مخلوق، كائن بعد أن لم يكن، ودلائل كثيرة غير تلك الطريقة.

وإن كان الفاعل لم يزل فاعلاً لما يشاء، ومتكلماً بما يشاء،وصار كثير من أولئك، إذا ظهر له فساد أصل أولئك المتكلمين المبتدعين، وليس عنده إلا قولهم،وقول هؤلاء، يميل الى قول هؤلاء الملاحدة، ثم قد يبطن ذلك، وقد يظهره لمن يأمنه.

وابتُلى بهذا كثير، من أهل النظر والعبادة والتصوف، وصاروا يظهرون هذا في قالب المكاشفة، ويزعمون أنهم أهل التحقيق والتوحيد والعرفان.

فأخذوا من نفي الصفات، أن صانع العالم لا داخل العالم، ولا خارجه.

ومن قول هؤلاء: أن العالم قديم، ولم يروا موجوداً سوى العالم فقالوا: إنه هو الله.

وقالوا: هو الوجود المطلق، والوجود واحد، وتكلموا في وحدة الوجود، وأنه الله، بكلام ليس هذا موضع بسطه.

ثم لما ظهر أن كلامهم يخالف الشرع والعقل،صاروا يقولون:يثبت عندنا في الكشف، ما يناقض صريح العقل.

ويقولون: القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا، ومن أراد أن يحصل له هذا العلم اللدني الأعلى، فليترك العقل والنقل.

---

(١) أي: مقصود الفلاسفة.

(٢) أي: من المتكلمين.

وصار حقيقة قولهم الكفر بالله، وبكتبه، ورسله، وباليوم الآخر من جنس قول الملاحدة، الذين يظهرون التشيع.

لكن أولئك لما كان ظاهر قولهم، هو ذم الخلفاء: أبي بكر وعمر، وعثمان (رضي الله عنهم أجمعين) صارت وصمة الرفض تنفر عنهم خلقاً كثيراً،لم يعرفوا باطن أمرهم.

وهؤلاء صاروا ينتسبون إلى المعرفة والتوحيد،وأتباع شيوخ الطرق، كالفضيل (١) وإبراهيم بن أدهم (٢) والتستري (٣) والجنيد (٤)، وسهل بن عبد الله (٥)، وأمثال هؤلاء،ممن له في الأمة لسان صدق، فاغتر بهؤلاء من لم يعرف باطن أمرهم وهم في الحقيقة، من أعظم خلق الله خلاقاً لهؤلاء المشايخ السادة ولمن هو أفضل منهم من السابقين الأولين، والأنبياء المرسلين.

وكان من أسباب ذلك، أن العبادة، والتأله،والمحبة،ونحو ذلك مما يتكلم فيه شيوخ المعرفة والتصوف، أمر معظم في القلوب.

والرسل إنما بعثوا بدعاء الخلق إلى أن يعرفوا الله، ويكون أحب إليهم من كل ما سواه، فيعبدوه ويألهوه، ولا يكون لهم معبود مألوه غيره.

وقد أنكر جمهور أولئك المتكلمين، أن يكون الله محبوباً، أو أنه يحب شيئاً أو يحبه أحد.

وهذا في الحقيقة، إنكار لكونه إلهاً معبوداً، فإن الإله هو المألوه الذي يستحق أن يؤله ويعبد.

والتأله والتعبد: يتضمن غاية الحب، بغاية الذل.

---

(١) هو الفضيل بن عياد بن مسعود التميمي اليربوعي، الإمام القدوة الثبت،ولد بسمرقند، وأصله من الكوفة، وسكن مكة، يعد من العباد الصالحين،كان ثقة نبيلاً فاضلاً عابداً ورعاً كثير الحديث، توفي بمكة عام ١٨٧هـ أنظر (سير أعلام النبلاء)

(٢) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي، قال عنه ابن كثير رحمه الله (أحد مشاهير العباد، كانت له همة عالية في ذلك رحمه الله) توفي سنة ١٦٢هـ. أنظر (سير أعلام النبلاء) و (طبقات الصوفية) ص ٢٧

(٣) والتستري هو: سهل بن عبدالله بن يونس التستري أبو محمد الصوفي الزاهد وهو من كبار الصوفية مات سنة ٢٨٣هـ أنظر (سير أعلام النبلاء) و (طبقات الصوفية) ص ٢، ٦

(٤) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد أبوالقاسم، قال عنه الخطيب: نشأ ببغداد وسمع بها الحديث ثم اشتغل بالعبادة ولازمها، مات سنة ٢٩٨هـ. أنظر (سير أعلام النبلاء) و (طبقات الصوفية)

(٥)أبو طاهر سهل بن عبد الله بن الفرخان الأصبهاني، قال عنه الذهبي: أحد الثقات، وكان من حملة الحجة، كبير القدر، قال ابن نعيم: لقيت اصحابه وكان مجاب الدعوة، وهو أول من حمل مختصر حرملة من علم الشافعي، مات في سنة ست وسبعين ومائتين. أنظر (سير أعلام النبلاء) و (حلية الأولياء)

ولكن غلط كثير من أولئك، فظنوا أن الإلهية هي القدرة على الخلق،وأن الإله بمعنى الآله، وأن العباد يألهم الله، لا أنهم هم يألهون الله،كما ذكر ذلك طائفة، منهم الأشعري وغيره.

وطائفة ثالثة، لما رأت ما دل على أن الله يحب أن يكون محبوباً من أدلة الكتاب والسنة، وكلام السلف، وشيوخ أهل المعرفة صاروا يقرون بأنه محبوب، لكنه هو نفسه لا يحب شيئاً إلا بمعنى المشيئة، وجميع الأشياء مرادة له، فهي محبوبة له.

وهذه طريقة كثير من أهل النظر والعبادة والحديث كأبي إسماعيل الأنصاري (١) وأبي حامد الغزالي، وأبي بكر بن العربي (٢).

وحقيقة هذا القول: أن الله يحب الكفر، والفسوق، والعصيان ويرضاه.

وهذا هو المشهور من قول الأشعري وأصحابه.

وقد ذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك، وكذلك ذكر ابن عقيل أن أول من قال إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان هو الأشعري وأصحابه.

وهم قد يقولون: لا يحبه ديناً، ولا يرضاه ديناً، كما يقولون:لا يريد أن يكون فاعله مأجوراً، وأما هو نفسه، فهو محبوب له كسائر المخلوقات.

فإنها عندهم محبوبة له؛ إذ كان ليس عندهم إلا إرادة واحدة شاملة لكل مخلوق؛ فهو عندهم محبوب مرضي.

وجماهير المسلمين يعرفون، أن هذا القول معلوم الفساد بالضرورة من دين أهل الملل، وأن المسلمين واليهود والنصارى متفقون على أن الله لا يحب الشرك، ولا تكذيب الرسل، ولا يرضى ذلك، بل هو يبغض ذلك ويمقته ويكرهه.

---

(١) هو أبو إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي الهروي الأنصاري ولد سنة ٣٩٦هـ وتوفي سنة ٤٨١هـ، قال عنه الذهبي: شيخ الإسلام، الإمام، القدوة، الحافظ الكبير، وشيخ خراسان، من ذرية صاحب النبي صلي الله عليه وسلم أبي أيوب الأنصاري. أنظر (سير أعلام النبلاء)

(٢) هو أبوبكر بن العربي: محمد بن عبدالله بن محمد بن احمد بن العربي الأندلسي الاشبيلي المالكي، ولد في اشبيلية سنة ٤٦٨هـ وتوفي سنة ٥٤٣هـ رحل إلي المشرق وأخذ من العلماء، وأشهرهم الغزالي، ثم رجع إلي الأندلس وتولي قضاء أشبيلية، يعد من أئمة المالكية ومن كبار حفاظهم وعلمائهم. أنظر (سير أعلام النبلاء) و (البداية والنهاية)

كما ذكر الله في سورة بني إسرائيل ما ذكره من المحرمات، ثم قال (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) (١)، وبسط هذه الأمور له مواضع أخر.

والمقصود هنا: أن الذين اعرضوا عن طريق الرسول، في العلم والعمل، وقعوا في الضلال والزلل.

وأن أولئك لما أوجبوا النظر الذي ابتدعوه، صارت فروعه فاسدة إذ قالوا: إن من لم يسلكها كفر أو عصى، فقد عرف بالإضطرار من دين الإسلام، أن الصحابة والتابعين لهم باحسان،لم يسلكوا طريقهم، وهم خير الأمة.

وإن قالوا: إن من قاله ليس عنده علم، ولا بصيرة بالإيمان بل قاله تقليداً محضاً من غير معرفة، يكون مؤمناً، فالكتاب والسنة يخالف ذلك.

ولو أنهم سلكوا طريقة الرسول، لحفظهم الله من هذا التناقض فإن ما جاء به الرسول، جاء من عند الله، وما ابتدعوه، جاءوا به من عند غير الله.

وقد قال تعالى (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا) (٢)

وهؤلاء (٣) بنوا دينهم على النظر، والصوفية بنوا دينهم على الإرادة وكلاهما لفظ مجمل، يدخل فيه الحق والباطل.

فالحق: هو النظر الشرعي، والإرادة الشرعية.

فالنظر الشرعي:هو النظر فيما بعث به الرسول من الآيات والهدى كما قال تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (٤).

والإرادة الشرعية: إرادة ما أمر الله به ورسوله.

---

(١) سورة الإسراء: الآية رقم (٣٨)

(٢) سورة النساء: الآية رقم (٨٢)

(٣) أي: المتكلمون.

(٤) سورة البقرة: الآية رقم (١٨٥)

والسماع الشرعي:سماع ما أحب الله سماعه، كالقرآن.

والدليل الذي يستدل به، هو الدليل الشرعي، وهو الذي دل الله به عباده، وهداهم به إلى صراط مستقيم (١).

فإنه لما ظهرت البدع، والتبس الحق بالباطل، صار اسم النظر والدليل، والسماع، والإرادة، يطلق على ثلاثة أمور:

منهم:من يريد به البدعي دون الشرعي؛فيريدون بالدليل:ما ابتدعوه من الأدلة الفاسدة،والنظر فيها.

ومن السماع والإرادة:ما ابتدعوه من اتباع ذوقهم ووجدهم وما تهواه أنفسهم، وسماع الشعر والغناء، الذي يحرك هذا الوجد التابع لهذه الإرادة النفسانية، التي مضمونها اتباع ما تهوى الأنفس بغير هدى من الله.

ومنهم:من يريد مطلق الدليل والنظر،ومطلق السماع والإرادة من غير تقييدها لا بشرعي ولا ببدعي

فهؤلاء يفسرون قوله تعالى (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) (٢) بمطلق القول الذي يدخل فيه القرآن والغناء، ويستمعون إلى هذا وهذا وأولئك يفسرون الإرادة، بمطلق المحبة للآله، من غير تقييدها بشرعي ولا بدعي، ويجعلون الجميع من أهل الإرادة؛ سواء عَبد الله بما أمر الله به ورسوله من التوحيد وطاعة الرسول أو كان عابداً للشيطان مشركاً، عابداً بالبدع، وهؤلاء أوسطهم وهم أحسن حالاً من الذين قيدوا ذلك بالبدعي.

وأما القسم الثالث: فهم صفوة الأمة، وخيارها المتبعون للرسول علماً وعملاً، يدعون إلى النظر، والإستدلال، والاعتبار بالآيات، والأدلة، والبراهين، التي بعث الله بها رسوله وتدبر القرآن وما فيه من البيان، ويدعون إلى المحبة والإرادة الشرعية، وهي محبة الله وحده، وإرادة عبادته وحده لا شريك له، بما أمر به على لسان رسوله.

---

(١) كالتفكر والنظر في مخلوقات الله والمعجزات للأنبياء.

(٢) سورة الزمر: الآية رقم (١٨)

فهم لا يعبدون إلا الله، ويعبدونه بما شرع وأمر، ويستمعون ما أحب استماعه، وهو قوله الذي قال فيه (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ) (١)

وهو الذي قال فيه (فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ) (٢)

كما قال تعالى (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) (٣)

وقال تعالى (وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ) (٤).

والله سبحانه بين القدرة على الابتداء؛ كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (٥)

ومثل قوله تعالى (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (٦)

ومثل قوله تعالى (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ.قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (٧) وغير ذلك.

فالإستدلال على الخالق بخلق الانسان، في غاية الحسن والإستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة.

---

(١) سورة المؤمنون: الآية رقم (٦٨)
(٢) سورة الزمر: الآيتان رقم (١٧– ١٨)
(٣) سورة الزمر: الآية رقم (٥٥)
(٤) سورة الأعراف: الآية رقم (١٤٥)
(٥) سورة الحج: الآية رقم (٥)
(٦) سورة مريم: الآيتان رقم (٦٦–٦٧)
(٧) سورة يس: الآية رقم (٧٨– ٧٩)

وهي شرعية؛ دل القرآن عليها، وهدى الناس إليها، وبينها وأرشد اليها.

وهي عقلية؛ فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ومولوداً ومخلوقاً من نطفة، ثم من علقة، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم؛ سواء أخبر به الرسول، أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به، ودل به، وبينه، واحتج به،فهو دليل شرعي؛ لأن الشارع استدل به، وأمر أن يستدل به وهو عقلي؛ لأنه بالعقل تعلم صحته.

وكثير من المتنازعين في المعرفة: هل تحصل بالشرع؟ أو بالعقل لا يسلكونه، وهو عقلي شرعي.

وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن؛ مثل الإستدلال بالسحاب والمطر هو مذكور في القرآن في غير موضع.

وهو عقلي شرعي؛ كما قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ) (١)؛ فهذا مرئي بالعيون.

وقال تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (٢).

فالآيات التي يريها الناس، حتى يعلموا أن القرآن حق، هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق.

وهي شرعية؛ دل الشرع عليها، وأمر بها.

والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقلية، التي يستدل بها العقل وهي شرعية، لأن الشرع دل عليها، وأرشد اليها، ولكن كثيرا من الناس لا يسمي دليلاً شرعياً، إلا ما دل بمجرد خبر الرسول، وهو اصطلاح قاصر.

ولهذا يجعلون أصول الفقه، هو لبيان الأدلة الشرعية: الكتاب، والسنة والإجماع.

والكتاب يريدون به: أن يعلم مراد الرسول فقط.

---

(١) سورة السجدة: الآية رقم (٢٧)

(٢) سورة فصلت: الآية رقم (٥٣)

والمقصود من أصول الفقه: هو معرفة الأحكام الشرعية العملية فيجعلون الأدلة الشرعية: ما دلت على الأحكام العملية فقط ويخرجون ما دل بأخبار الرسول عن أن يكون شرعياً، فضلاً عما دل بإرشاده وتعليمه.

ولكن قد يسمون هذا دليلاً سمعياً، ولا يسمونه شرعياً، وهو اصطلاح قاصر.

والأحكام العملية، أكثر الناس يقولون: إنها تعلم بالعقل أيضاً،وأن العقل قد يعرف الحسن والقبح، فتكون الأدلة العقلية دالة على الأحكام العملية أيضاً.

ويجوز أن تسمى شرعية؛ لأن الشرع قررها، ووافقها، أو دل عليها، وأرشد إليها؛ كما قيل مثل ذلك في المطالب الخبرية كإثبات الرب، ووحدانيته، وصدق رسله، وقدرته على المعاد:إن الشرع دل عليها، وأرشد إليها، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن الأشعري، بنى أصول الدين في "اللمع" و "رسالة الثغر" على كون الانسان مخلوقاً محدثاً، فلابد له من محدث، لكون هذا الدليل مذكوراً في القرآن، فيكون شرعياً عقلياً.

لكنه في نفس الأمر، سلك في ذلك طريقة الجهمية بعينها؛ وهو الإستدلال على حدوث الإنسان بأنه مركب من الجواهر المفردة فلم يخل من الحوادث،ومالم يخل من الحوادث فهو حادث.

فجعل العلم بكون الإنسان محدثاً، وبكون غيره من الأجسام المشهودة محدثاً، إنما يعلم بهذه الطريقة؛ وهو أنه مؤلف من الجواهر المفردة.

وهي لا تخلو من إجتماع وافتراق، وتلك أعراض حادثة، وما لم ينفك من الحوادث، فهو محدث.

وهذه الطريقة أصل ضلال هؤلاء؛ فإنهم أنكروا المعلوم بالحس والمشاهدة، والضرورة العقلية؛ من حدوث المحدثات المشهود حدوثها وادعوا أنه إنما يشهد حدوث أعراض لا حدوث أعيان، مع تنازعهم في الأعراض.

ثم قالوا: والأجسام لا تخلوا من الأعراض، وهذا صحيح

ثم قالوا: والأعراض حادثة، فاضطربوا هنا.

ثم قالوا: وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، وهذا أصل دينهم وهو أصل فاسد، مخالف للسمع والعقل، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والمتفلسفة أشد مخالفة للعقل والسمع منهم،لكنهم عرفوا فساد طريقتهم هذه العقلية،فاستطالوا عليهم بذلك،وسلكوا ما هو أفسد منها،كطريقة الإمكان والوجوب؛كما قد بسط في موضع آخر

فلبسوا هذا الباطل بالحق الذي جاء به الرسول؛ وهو الاستدلال بحدوث الإنسان، وغيره من المحدثات التي يشهد حدوثها.

فصار في كلامهم حق وباطل،من جنس ما أحدثه أهل الكتاب حيث لبسوا الحق بالباطل، واحتاجوا في ذلك إلى كتمان الحق الذي جاء به الرسول،الذي يخالف ما أحدثوه، فصاروا يكرهون ظهور ما جاء به الرسول، بل يمنعون عن قراءة الأحاديث وسماعها وقراءة كلام السلف وسماعه.

ومنهم من يكره قراءة القرآن وحفظه.

والذين لا يقدرون على المنع من ذلك، صاروا يقرءون حروفه ولا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله،بل إن اشتغلوا بعلومه، اشتغلوا بتفسير من يشركهم في بدعتهم، ممن يحرفون الكلم؛ كلم الله عن مواضعه.

والأصل العقلي، الحسي، الذي به فارقوا العقل والسمع، هو:حدوث ما يشهد حدوثه؛ مثل حدوث الزرع، والثمار، وحدوث الإنسان، وغيره من الحيوان،وحدوث السحاب،والمطر،ونحو ذلك من الأعيان القائمة بنفسها،غير حدوث الأعراض؛كالحركة،والحرارة،والبرودة،والضوء،والظلمة، وغير ذلك، بل تلك الأعيان التي يسمونها أجساما وجواهر، هي حادثة فإنه معلوم أن الانسان مخلوق من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة وأن الثمار تخلق من الأشجار، وأن الزرع يخلق من الحب، والشجر يخلق من النوى.

قال تعالى (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ.فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا

مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (١).

فهذا الإنسان، والشجر، والزرع المخلوق من مادة، قد خلق منها عين قائمة بنفسها.

وهم يقولون: إنما هي من الجسم القائم، بنفسه وهو الجوهر العام في اصطلاحهم، الذي يقولون: إنه مركب من الجواهر المفردة.

وهل الذي خلق من المادة هو أعيان، أم لم يخلق إلا أعراض قائمة بغيرها.

وأما الأعيان: فهي الجواهر المفردة، وتلك منها شيء في هذه الحوادث ولكن أحدث فيها جمع وتفريق؛ فكان خلق الإنسان وغيره هو تركيب تلك الجواهر، وأحداث هذا التركيب، لا أحداث تلك الجواهر.

وأما حدوث تلك الجواهر، فإنما يعلم بالإستدلال، فيستدل عليه بأن الجواهر التي تركبت منها هذه الأجسام، لا تخلو من اجتماع وافتراق.

والإجتماع والإفتراق حادث، وما لم يخل من الحوادث، فهو حادث.

فهذه طريق هؤلاء الجهمية، أهل الكلام المحدث.

وأما جمهور العقلاء فيقولون: بل نحن نعلم حدوث هذه الأعيان القائمة بنفسها، لا نقول إنه لم يحدث إلا عرض؛ فإن هذا القول يقتضي: أن تلك الجواهر التي ركب منها آدم، باقية لم يزل في كل آدمي منها شيء.

وهذا مكابرة، فإن بدن آدم لا يحتمل هذا كله، لا يحتمل أن يكون فيه جواهر بعدد ذريته، لاسيما وكل آدمي، إنما خلق من مني أبويه.

وهم يقولون: تلك الجواهر التي في مني الأبوين، باقية بأعيانها في الولد. وهم يقولون: إن الجواهر لا تفنى، بل تنتقل من حال الى حال.

وكثير منهم يقول: إنها مستغنية عن الرب، بعد أن خلقها.

وتحيروا فيما إذا أراد أن يفنيها: وكيف يفنيها؟ كما قد ذكر في غير هذا الموضع.

---

(١) سورة الأنعام: الآيات رقم (٩٥-٩٩)

إذ المقصود هنا:التنبيه على أن أصل الأصول،معرفة حدوث الشيء من الشيء؛ كحدوث الإنسان من المني، فهؤلاء ظنوا أنه لا يحدث إلا الأعراض.

ولهذا لما ذكر أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في كتبه "الكبار والصغار" الطرق الدالة على إثبات الصانع،لم يذكر طريقاً صحيحاً وليس في كتبه، وكتب أمثاله، طريق صحيح لإثبات الصانع،بل عدلوا عن الطرق العقلية، التي يعلمها العقلاء بفطرتهم،وهي التي دلتهم عليها الرسل، إلى طرق سلكوها مخالفة للشرع والعقل،لاسيما من سلك طريقة الوجوب والإمكان،متابعة لابن سينا كالرازي،فإن هؤلاء من أفسد الناس استدلالاً، كما قد ذكرنا طرق عامة النظار في غير هذا الموضع؛ مثل كتاب "منع تعارض العقل والنقل" وغير ذلك.

والمقصود هنا: أن الرازي ذكر، أن ما يستدل به على إثبات الصانع:

- إما حدوث الأجسام.
- وإما حدوث صفاتها.
- وإما إمكانها.
- وإما إمكان صفاتها.
- وذكر في بعض المواضع: وإما الإحكام والإتقان.

لكن الإحكام والإتقان، يدل على العلم إبتداء، والإستدلال بحدوث الأجسام، وإمكانها، وإمكان صفاتها، طرق فاسدة، فإن دلالة حدوثها، مبنية على امتناع حوادث لا أول لها ودلالة إمكانها، مبنية على أن ما قامت به الصفات، يمتنع أن يكون واجباً بنفسه؛ لأنه مركب؛ ودلالة صفاتها مبنية على تماثلها، فلابد لتخصيص بعضها بالصفات من مخصص.

وهذه كلها طرق باطلة.

قال: وأما الإستدلال بحدوث الصفات، فهو الإستدلال بحدوث الأعراض.

وهذه الطريق أجود ما سلكوه من الطرق، مع أنها قاصرة؛ فإن مدارها على أنهم لم يعرفوا حدوث شيء من الأعيان، وإنما علموا حدوث بعض الصفات.

وهذا يدل على أنه لا بد لها من محدث.

قال: وهذا لا ينفي كون المحدث جسماً، بخلاف تلك الطرق.

وهذه الطريق تدل على أن الأعراض؛ كتركيب الإنسان، لابد له من مركب، ولا ينفي بها شيء من قدم الأجسام والجواهر،بل يجوز أن يكون جميع جواهر الإنسان وغيره قديمة أزلية، لكن حدثت فيها الأعراض، ويجوز أن يكون المحدث للأعراض، بعض أجسام العالم.

فهذه الطريق، لا تنفي أن يكون الرب بعض أجسام العالم.

وتلك باطلة، مع أن مضمونها، أن الرب لا يتصف بشيء من الصفات، فهي لاتدل على صانع، وإن دلت على صانع فليس بموجود، بل معدوم، أو متصف بالوجود والعدم؛ كما قد بسط في غير موضع.

ولهذا يقول الرازي في آخر مصنفاته: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي غليلاً، ولا تروي غليلاً ورأيت أقرب الطرق، طريقة القرآن.

إقرأ في الإثبات (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ) (١) (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (٢)

وأقرأ في النفي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (٣) (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) (٤).

قال: ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي.

ولما ذكر الرازي الإستدلال بحدوث الصفات، كالحيوان، والنبات والمطر،ذكر أن هذه طريقة القرآن.

ولا ريب أن القرآن يذكر فيه الإستدلال بآيات الله؛ كقوله تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٥).

---

(١) سورة فاطر: الآية رقم (١٠)

(٢) سورة طه: الآية رقم (٥)

(٣) سورة الشوري: الآية رقم (١١)

(٤) سورة طه: الآية رقم (١١٠)

(٥) سورة البقرة: الآية رقم (١٦٤)

وهذا مذكور بعد قوله (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (١)

وقبل قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (٢).

لكن القرآن لم يذكر أن هذه صفات حادثة، وأنه ليس فيها أحداث عين قائمة بنفسها.

بل القرآن يبين،أن في خلق الأعيان القائمة بنفسها آيات.

ويذكر الآيات في خلق الأعيان والأعراض؛ كقوله (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِوَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ) وهي أعيان.

ثم قال (وَمَا أَنزَلَ اللّهُمِنَ السَّمَاء مِن مَّاء) والماء عين قائمة بنفسها.

وقوله (فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) هو بما يخلقه فيها من النبات وهو أعيان.

وكذلك قوله (وَبَثَّ فِيهَامِن كُلِّ دَآبَّةٍ)

وقوله (وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ) فالرياح أعيان، وتصريفها أعراض.

وقوله (وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءوَالأَرْضِ) والسحاب أعيان.(لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (٣).

وقد تقدم أن أصل الإشتباه في هذا،أن خلق الشيء من مادة هل هو خلق عين،أم إحداث إجتماع، وافتراق، وأعراض فقط؟.

والناس مختلفون في هذا على ثلاثة أقوال:

فالقائلون بالجواهر المفردة،من أهل الكلام، القائلون: بأن الأجسام مركبة من الجواهر الصغار، التي قد بلغت من الصغر، إلى حد لا يتميز منها جانب عن جانب.

يقولون: تلك الجواهر باقية، تنقلت في الحوادث، ولكن تعتقب عليها الأعراض الحادثة.

والإستدلال بالأعراض، على حدوث ما يلزمه من الجواهر ثم الإستدلال بذلك على المحدث، غير الإستدلال بحدوث هذه الأعراض على المحدث لها.

---

(١) سورة البقرة: الآية رقم (١٦٣)

(٢) سورة البقرة: الآية رقم (١٦٥)

(٣) سورة البقرة: الآية رقم (١٦٤)

فتلك هي طريقة الجهمية المشهورة، وهي التي سلكها الأشعري في كتبه كلها، متابعة للمعتزلة.

ولهذا قيل: الأشعرية مخانيث المعتزلة.

وأما الإستدلال بالحوادث على المحدث، فهي الطريقة المعروفة لكل أحد.

لكن تسمية هذه أعراضاً، هو تسمية القائلين بالجوهر الفرد مع أن الرازي توقف في آخر أمره فيه، كما ذكر ذلك في " نهاية العقول " (١).

وذكر أيضاً عن أبي الحسين البصري (٢)، وأبي المعالي، أنهما توقفا فيه.

والمقصود: أن القائلين بالجوهر الفرد، يقولون: إنما أحدث أعراضاً، كجمع الجواهر وتفريقها.

فالمادة التي هي الجواهر المنفردة، باقية عندهم بأعيانها، ولكن أحدث صوراً، هي أعراض قائمة بهذه الجواهر.

وأما المتفلسفة فيقولون: أحدث صوراً، في مواد باقية، كما يقول هؤلاء.

لكن يقولون:أحدث صوراً،هي جواهر في مادة هي جوهر.

وعندهم ثم مادة باقية بعينها،والصور الجوهرية؛كصورة الماء والهواء،والتراب،والمولدات تعتقب عليها.

وهذه المادة عندهم: جوهر عقلي.

وكذلك الصورة المجردة: جوهر عقلي.

ولكن الجسم: مركب من المادة والصورة.

ولهذا قسموا الموجودات، فقالوا: إما أن يكون الموجود حالاً بغيره أو محلاً، أو مركباً من الحال والمحل، أو لا هذا ولا هذا.

فالحال في غيره: هو الصورة.

---

(١) وهو واحد من مؤلفات الإمام الرازي.

(٢) هو أبو الحسين محمد بن علي الطيب البصري، ولد في البصرة ودرس في بغداد علي القاضي عبدالجبار، من متأخري المعتزلة مات سنة ٤٣٦هـ أنظر (شذرات الذهب)

والمحل: هو المادة.

والمركب منهما: هو الجسم.

وما ليس كذلك؛ إن كان متعلقاً بالجسم: فهو النفس، وإلا فهو العقل.

وهذا التقسيم فيه خطأ كثير من وجوه، ليس هذا موضعها؛ إذ المقصود أنهم يقولون أيضاً: إنه لم يُحدث جسماً قائماً بنفسه،بل إنما أحدث صورة في مادة باقية.

ولا ريب أن الأجسام بينها قدر مشترك: في الطول، والعرض، والعمق وهو المقدار المجرد، الذي لا يختص بجسم بعينه.

ولكن هذا المقدار المجرد، هو في الذهن، لا في الخارج؛ كالعدد المجرد والسطح المجرد، والنقطة المجردة، وكالجسم التعليمي،وهو: الطويل، العريض، العميق، الذي لا يختص بمادة بعينها.

فهذه المادة المشتركة التي أثبتوها، هي في الذهن، وليس بين الجسمين في الخارج شيء اشتركا فيه بعينه،فهؤلاء جعلوا الأجسام مشتركة في جوهر عقلي،وأولئك جعلوها مشتركة في الجواهر الحسية.

وهؤلاء قالوا: إذا خلق كل شيء من شيء، فإنما أحدثت صورة مع أن المادة باقية بعينها، لكن أفسدت صورة، وكونت صورة.

ولهذا يقولون عما تحت الفلك: عالم الكون والفساد.

ولهذا قال ابن رشد (١): إن الأجسام المركبة من المادة والصورة هي في عالم الكون والفساد، بخلاف الفلك؛ فإنه ليس مركباً من مادة وصورة عند الفلاسفة.

قال: وإنما ذكر أنه مركب من هذا، وهذا ابن سينا.

---

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي الفيلسوف ولد سنة ٥٢٠ هـ من أهل قرطبة، وهو المعروف بابن رشد الحفيد،تمييزاً له عن جده شيخ المالكية، عني بكلام أرسطو وترجمه إلي العربية، وزاد عليه زيادات، قربه المنصور أولاً، ثم اتهمه خصومه بالزندقة، والإلحاد، فنفاه إلي مراكش واحرق بعض كتبه ثم رضي عنه وأذن له بالعودة فعاجلته الوفاة بمراكش سنة ٥٩٥هـ من مصنفاته:" تهافت التهافت " و " مناهج الأدلة " أنظر (شذرات الذهب) و (سير أعلام النبلاء)

وهؤلاء، وهؤلاء، تحيروا في خلق الشيء من مادة؛ كخلق الإنسان من النطفة، والحب من الحب، والشجرة من النواة وظنوا أن هذا لا يكون إلا مع بقاء أصل تلك المادة؛إما الجواهر عند قوم (١) وإما المادة المشتركة عند قوم (٢).

وهم في الحقيقة، ينكرون أن يخلق الله شيئاً من شيء، فإنه عندهم لا يحدث إلا الصورة، التي هي عرض عند قوم، أو جوهر عقلي عند قوم، وكلاهما لم يخلق من مادة، والمادة عندهم باقية بعينها لم يخلق، ولن يخلق منها شيء.

وقد ذكروا في قوله (أم خلقوا من غير شيء) (٣) ثلاثة أمور:

قال ابن عباس والأكثرون: أم خلقوا من غير خالق، وهو الذي ذكره الخطابي (٤).

وقال الزجاج (٥)، وابن كيسان (٦): أم خلقوا عبثاً وسدى فلا يبعثون، ولا يحاسبون، ولا يؤمرون، ولا ينهون؛ كما يقولون: فعلت هذا من غير شيء، أي: لغير علة.

وقيل: أم خلقوا من غير مادة؛ أي: من غير أب وأم.

ثم من هؤلاء من قال: فهم كالجماد.

ومنهم من قال: كالسماوات؛ ظناً منه أنها خلقت من غير مادة.

ذكر الأربعة أبو الفرج (٧).

وذكر البغوي (٨) الوجهين الاولين.

---

(١) يشير إلى المتكلمين.

(٢) يشير إلى الفلاسفة.

(٣) سورة الطور: الآية رقم (٣٥)

(٤) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي أبو سليمان، فقيه محدث من أهل بست، من بلاد كابل، من نسل زيد بن الخطاب. أنظر "البداية و النهاية ".

(٥) هو إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، مات سنة ٣١١هـ أنظر " البداية و النهاية ".

(٦) هو محمد بن أحمد بن كيسان النحوي، توفي سنة ٢٩٩هـ. أنظر "البداية و النهاية" و "سير أعلام النبلاء"

(٧) هو عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي القرشي البكري الحنبلي، ينتهي نسبه إلي أبي يكر الصديق، توفي سنة ٥٩٥هـ. أنظر (ذيل طبقات الحنابلة).

(٨) هو الحسين بن مسعود بن محمد البغوي، صاحب التفسير و شرح السنة والتهذيب في الفقه، توفي سنة ٥١٦هـ. أنظر (تذكرة الحفاظ) و (البداية والنهاية)

والذي ذكرناه من قول أولئك المتكلمين والفلاسفة معنى آخر،وهو: أن من قال: المادة الباقية بعينها، وإنما حدث عرض أو صورة، وذلك لم يخلق من غيره، ولكن أحدث في المادة الباقية.

فلا يكون الله خلق شيئاً من شيء؛ لأن المادة عندهم لم تخلق.

أما المتفلسفة: فعندهم المادة قديمة أزلية باقية بعينها.

وأما المتكلمون: فالجواهر عندهم موجودة،وما زالت موجودة،لكن من قال: إنها حادثة من أهل الملل.

وغيرهم قالوا: يستدل على حدوثها بالدليل، لا أن خلقها معلوم للناس.

فهو عندهم مما يستدل عليه بالأدلة الدقيقة الخفية، مع أن ما يذكرونه، منتهاه إلى أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث وهو دليل باطل.

فلا دليل عندهم على حدوثها.

وإذا كانت لم تُخلق إذ خُلق الإنسان، بل هي باقية في الإنسان والأعراض الحادثة لم تُخلق من مادة.

فإذا خُلق الإنسان، لم يُخلق من شيء؛ لا جواهره، ولا أعراضه. وعلى قولهم: ما جعل الله من الماء كل شيء حي، ولا خلق كل دابة من ماء، ولا خلق آدم من تراب، ولا ذريته من نطفة،بل:نفس الجواهر الترابية باقية بعينها، لم تُخلق حينئذ، ولكن أحدث فيها أعراض، أو صورة حادثة.

وتلك الأعراض ليست من التراب، فلما خلق آدم،لم يخلق شيء من تراب.

وكذلك النطفة، جواهرها باقية؛ إما الجواهر المنفردة، وإما المادة.

والحادث: هو عرض، أو صورة في مادة.

ولا هذا، ولا هذا، خلق من نطفة.

وليس قولهم: إنه لم يخلق من مادة، معناه: أن الخالق أبدعه، لا من شيء، وأنهم قصدوا بها تعظيم الخالق، بل الإنسان لا ريب أنه جوهر قائم بنفسه.

وعندهم ذلك القائم بنفسه ما زال موجوداً، لم يُخلق إذ خُلق الإنسان.

والجوهر الحامل لصورته ما زال موجوداً أيضاً؛فلم يخلق عند هؤلاء (١) إلا الأعراض،وعند هؤلاء (٢) إلا صورة مجردة، وكلاهما ليس هو الانسان، بل صفة له، أو صورة له.

هذا هو المخلوق عندهم؛ بخلق الإنسان فقط.

وقد قال تعالى (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (٣) (قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) (٤) فقد أمر الإنسان أن يتذكر أن الله خلقه ولم يك شيئاً، والإنسان إذا تَذكر إنما يذكر أنه خلق من نطفة.

وعندهم ما زال جوهر الإنسان شيئاً، وذلك الشيء باق،وإنما حدث أعراض لتلك الأشياء.

ومعلوم أن تلك الأعراض وحدها ليست هي الإنسان؛ فإن الإنسان مأمور، منهي، حي، عليم، قدير، متكلم، سميع بصير، موصوف بالحركة والسكون، وهذه صفات الجواهر،والعرض لا يوصف بشئ ؛ لاسيما وهم يقولون: العرض لا يبقى زمانين.

فالمخلوق على قولهم: لا يبقى زمانين، بل يفنى عقب ما يخلق.

ولهذا اضطربوا في المعاد؛ فإن معرفة المعاد مبنيه على معرفة المبدأ والبعث مبني على الخلق.

فقال بعضهم: هو تفريق تلك الأجزاء، ثم جمعها، وهي باقية بأعيانها.

وقال بعضهم: بل يعدمها، ويعدم الأعراض القائمة بها، ثم يعيدهما وإذا أعادها، فإنه يعيد تلك الجواهر التي كانت باقية، إلى أن حصلت في هذا الإنسان.

فلهذا اضطربوا لما قيل لهم: فالإنسان اذا أكله حيوان آخر، فإن أعيدت تلك الجواهر من الأول، نقصت من الثاني، وبالعكس.

أما على قول من يقول إنها تفرق ثم تجمع، فقيل له: تلك الجواهر إن جمعت للآكل، نقصت من المأكول، وإن أعيدت للمأكول نقصت من الآكل.

---

(١) يشير إلى المتكلمون.
(٢) يشير إلى الفلاسفة.
(٣) سورة مريم: الآية رقم (٦٧)
(٤) سورة مريم: الآية رقم (٩)

وأما الذي يقول: تعدم ثم تعاد بأعيانها.

فقيل له: أتعدم لما أكلها الآكل، أم قبل أن يأكلها؟

فإن كان بعد أن أكلها؛ فإنها تعاد في الآكل، فينقص المأكول وإن كان قبل الأكل، فالآكل لم يأكل إلا أعراضاً، لم يأكل جواهر، فهذا مكابرة.

ثم إن المشهور: أن الإنسان يبلى، ويصير تراباً كما خلق من تراب، وبذلك أخبر الله.

فإن قيل: إنه إذا صار تراباً عدمت تلك الجواهر؛ فهو لما خلق من تراب، عدمت أيضاً تلك الجواهر.

فكونهم يجعلون الجواهر باقية في جميع الإستحالات، إلا إذا صار تراباً، تناقض بَين، ويلزمهم عليه الحيوان المأكول، وغير ذلك.

وكأن هذا الضلال أصل ضلالهم في تصور الخلق الأول، والنشأة الأولى، التي أمرهم الرب أن يتذكروها، ويستدلوا بها على قدرته على الثانية.

قال تعالى (أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ.أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَنَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ.عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ.وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) (١).

والفلاسفة أجود تصوراً في هذا الموضع؛ حيث قالوا: تفسد الصورة الأولى وهي جوهر، وتحدث صورة أخرى.

فإن هذا أجود من أن يقال: يزول عرض، ويحدث عرض.

ولكن الفلاسفة غلطوا في توهمهم، أن هناك مادة باقية بعينها وإنما تفسد صورتها.

والحق: أن المادة التي منها يخلق الثاني تفسد، وتستحيل، وتفنى وتتلاشى، وينشئ الله الثاني ويبتدئه، ويَخلق من غير أن يبقى من الأول شيء؛ لا مادة، ولا صورة، ولا جوهر، ولا عرض. فإذا خلق الله الإنسان من المني، فالمني استحال، وصار علقة والعلقة استحالت، وصارت مضغة، والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام.

والإنسان بعد أن خُلق، خُلق كله؛ جواهره، وأعراضه، وابتدأه الله إبتداء.

---

(١) سورة الواقعة: الآيات رقم (٥٨-٦٢)

كما قال تعالى (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ) (ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ) (١)

وقد قال تعالى (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (٢)

فالإنسان مخلوق، خلق الله جواهره وأعراضه كلها من المني من مادة استحالت، ليست باقية بعد خلقه، كما تقول المتفلسفة أن هناك مادة باقية.

ولفظ المادة مشترك:

فالجمهور يريدون به ما منه خلق، وهو أصله وعنصره.

وهؤلاء يريدون بالمادة جوهراً باقياً، وهو محل للصورة الجوهرية. فلم يخلق عندهم الإنسان من مادة، بل المادة باقية، وأحدث صورته فيها كما أن الصور الصناعية؛ كصورة الخاتم، والسرير، والثياب، والبيوت وغير ذلك، إنما أحدث الصانع صورته العرضية، في مادة لم تزل موجودة، ولم تفسد، لكن حولت من صفة إلى صفة.

فهكذا تقول الجهمية المتكلمة المبتدعة، أن الله أحدث صورة عرضية، في مادة باقية لم تفسد؛ فيجعلون خلق الإنسان، بمنزلة عمل الخاتم، والسرير، والثوب.

والمتفلسفة تقول أيضاً: أن مادته باقية لم تفسد؛ كمادة الصورة الصناعية.

لكن يقولون: أنه أحدث صورة جوهرية.

وهم قد يخلطون، ولا يفرقون بين الصور العرضية والجوهرية فإنهم يسمون صورة الإنسان: صورة في مادة، وصورة الخاتم صورة في مادة.

فيكون خلق الإنسان عند هؤلاء وهؤلاء، من جنس ما يحدثه الناس في الصور من المواد.

ويكون خلقه بمنزلة تركيب الحائط من اللبن.

ولهذا قال من قال منهم: إنه يستغني عن الخالق بعد الخلق، كما يستغني الحائط عن البناء.

والأشعرية عندهم: أن البناء، والخياط، وسائر أهل الصنائع لم يُحدثوا في تلك المواد شيئاً؛ فإن القدرة المحدثة عندهم، لا تتعلق إلا بما هو في محلها، لا خارجاً عن محلها.

---

(١) سورة السجدة: الآيتان رقم (٧-٨)

(٢) سورة مريم: الآية رقم (٦٧)

ويقولون: إن تلك المصنوعات كلها مخلوقة لله، ليس للإنسان فيها صنع.

وخلق الله لها على أصلهم: هو إحداث أعراض فيها كما تقدم.

فينكرون ما يصنعه الإنسان، وهو في الحقيقة: مثل ما يجعلونه مخلوقاً للرحمن، وهم لا يشهدون للرحمن إحداثاً ولا إفناءً،بل إنما يحدث عندهم الأعراض، وهي تفنى بأنفسها، لا بإفنائه وهي تفنى عقب إحداثها.

وهذا لا يعقل، وهم حائرون؛ إذا أراد أن يُعدم الأجسام كيف يعدمها؟

والمشهور عندهم: أنها تعدم بأنفسها إذا لم يخلق لها أعراضاً.

فالعرض يفنى عندهم بنفسه، والجوهر يفنى بنفسه إذا لم يخلق له عرض. هذا في الإفناء.

وأما في الأحداث: فإنهم إستدلوا على حدوثها بدليل باطل لو كان صحيحاً، للزم حدوث كل شيء من غير محدث.

فحقيقة أصل أهل الكلام، المتبعين للجهمية: أنه لا يحدث شيئاً،ولا يفنى شيئاً، بل يحدث كل شيء بنفسه، ويفنى بنفسه، ويلزمهم جواز أن يكون للرب، محدثاً أيضاً بلا محدث.

وهذه الأصول، هي أصول دينهم العقلية، التي بها يعارضون الكتاب والسنة، والمعقولات الصريحة، وهي في الحقيقة لا عقل، ولا سمع كما حكى الله عمن قال تعالى (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (١).

والخلق يشهدون إحداث الله لما يحدثه، وإفناءه لما يفنيه؛ كالمني الذي استحال، وفنى، وتلاشى، وأحدث منه هذا الإنسان وكالحبة التي فنيت واستحالت، وأحدث منها الزرع؛ وكالهواء الذي استحال، وفنى، وحدث منه النار أو الماء؛ وكالنار التي استحالت وحدث منها الدخان.

فهو سبحانه دائماً يُحدث ما يُحدثه ويكونه، ويفني ما يفنيه ويعدمه.

والإنسان إذا مات وصار تراباً فني وعدم، وكذلك سائر ما على الأرض

كما قال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) (٢)

---

(١) سورة الملك: الآية رقم (١٠)

(٢) سورة الرحمن: الآية رقم (٢٦)

ثم يعيده من التراب كما خلقه إبتداء من التراب، ويخلقه خلقاً جديداً،ولكن للنشأة الثانية، أحكام وصفات ليست للأولى.

فمعرفة الإنسان بالخلق الأول،وما يخلقه من بني آدم،وغيرهم من الحيوان،وما يخلقه من الشجر والنبات والثمار،وما يخلقه من السحاب والمطر،وغير ذلك:هو أصل لمعرفته بالخلق، والبعث والمبدأ، والمعاد، وإن لم يعرف أن الله يخلقه كله من المني جواهره وأعراضه،وإلا فما عرف أن الله خلقه.

ومن ظن أن جواهره لم يخلقها إذ خلقه، بل جواهر المني وجواهر ما يأكله ويشربه، باقية بعينها فيه لم يخلقها، أو أن مادته التي تقوم بها صورته لم يخلقها إذ خلقه، بل هي باقية أزلية أبدية، لم يكن قد عرف أنه مخلوق محدث.

والعلماء ينكرون على من يقول: أن روح الإنسان قديمة أزلية من المنتسبين إلى الإسلام.

وهؤلاء الذين يقولون:إن مادة جسمه باقية بعينها،وهي أزلية أبدية،أبعد عن العقل والنقل منهم.

وأولئك أنكروا عليهم،حيث قالوا:الإنسان مركب من قديم ومحدث؛من لاهوت قديم،وناسوت محدث.

و هؤلاء (١) جعلوه مركباً من مادة قديمة أزلية، وصورة محدثة وجعلوا القديم الأزلي، فيه أخس ما فيه، وهو المادة؛ فإنها عندهم أخس الموجودات، وهي قديمة أزلية.

وأولئك (٢) جعلوا القديم الأزلي، أشرف ما فيه، وهي النفس الناطقة.

وكلا الطائفتين، وإن كان ضالاً؛ فالشريف العالي، أولى بالقدم من الخسيس السافل، وهذا أولى بالحدوث.

وأما المتكلمة الجهمية: فهم لا يتصورون ما يشهدونه؛ من حدوث هذه الجواهر، في جواهر أُخَر من مادة.

ثم يدعون أن الجواهر جميعها، أبدعت إبتداءً لا من شيء.

وهم لم يعرفوا قط، جوهراً أُحدِثَ لا من شيء، كما لم يعرفوا عرضاً أُحدث لا في محل.

---

(١) ويقصد بهؤلاء: الذين يقولون أن مادة جسم الإنسان باقية بعينها وهي أزلية أبدية.

(٢) ويقصد بأولئك: الذين قالوا إن روح الإنسان قديمة أزلية، وأن الإنسان مركب من لاهوت قديم، وناسوت محدث.

وحقيقة قولهم: أن الله لا يحدث شيئاً من شيء؛ لا جوهراً، ولا عرضاً فإن الجواهر كلها أحدثت لا من شيء، والأعراض كذلك.

والمشهود المعلوم للناس، إنما هو إحداثه لما يحدثه من غيره لا إحداثاً من غير مادة.

ولهذا قال تعالى (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) (١) ولم يقل خلقتك لا من شيء.

وقال تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٢) ولم يقل خلق كل دابة لا من شيء.

وقال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (٣).

وهذا هو القدرة، التي تبهر العقول، وهو أن يقلب حقائق الموجودات، فيحيل الأول ويفنيه ويلاشيه، ويحدث شيئاً آخر كما قال تعالى (إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (٤) ويخرج الشجرة الحية، والسنبلة الحية: من النواة والحبة الميتة ويخرج النواة الميتة، والحبة الميتة: من الشجرة، والسنبلة الحية كما يخرج الإنسان الحي: من النطفة الميتة، والنطفة الميتة: من الإنسان الحي.

وعندهم (٥) لا يخرج حياً من ميت، ولا ميتاً من حي؛ فإن الحي والميت، إنما هو الجوهر القائم بنفسه؛ فإن الحياة عرض لا يقوم إلا بجوهر، والعرض نفسه لا يقوم بعرض آخر.

وإن كان العرض يوصف بأنه حي؛ كما يقال: قد أحييت العلم والإيمان وأحييت الدين، وأحييت السنة والعدل؛ كما يقال: أمات البدعة.

فهؤلاء عندهم لا يخرج جوهراً من جوهر، ولا عرضاً من عرض فلا يخرج حياً من ميت، ولا ميتاً من حي، بل الجواهر التي كانت في الميت، هي بعينها باقية كما كانت، ولكن أحدث

(١) سورة مريم: الآية رقم (٩)
(٢) سورة النور: الآية رقم (٤٥)
(٣) سورة الأنبياء: الآية رقم (٣٠)
(٤) سورة الأنعام: الآية رقم (٩٥)
(٥) عند المتكلمة الجهمية

فيها حياة لم تكن،وتلك الحياة لم تخرج من ميت؛ فما أخرج عندهم حي من ميت ولا ميت من حي.

ولهذا ينكرون أن يقلب الله جنساً إلى جنس آخر.

ويقولون: الجواهر كلها جنس واحد؛ فإذا خلق النطفة إنساناً لم يُقلب عندهم جنساً إلى جنس، بل نفس الجواهر هي باقية كما كانت.

وخاصية الخلق: إنما هي بقلب جنس إلى جنس، وهذا لا يقدر عليه إلا الله؛ كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (١).

ولا ريب أن النخلة ما هي من جنس النواة، ولا السنبلة من جنس الحبة ولا الإنسان من جنس المني، ولا المني من جني الإنسان، وهو يخرج هذا من هذا، وهذا من هذا؛ فيخرج كل جنس من جنس آخر بعيد عن مماثلته، و(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (٢).

وهو سبحانه إذا جعل الابيض أسود، أعدم ذلك البياض، وجعل موضعه السواد، لا أن الأجسام تعدم تلك المادة فتحيلها، وتلاشيها وتجعل منها هذا المخلوق الجديد.

ويخلق الضد من ضده؛ كما جعل من الشجر الأخضر ناراً، فإذا حك الأخضر بالأخضر، سخن ما يسخنه بالحركة، حتى ينقلب نفس الأخضر فيصير ناراً (٣)

وعلى قولهم: ما جعل فيه ناراً، بل تلك الجواهر باقية بعينها وأحدث فيها عرض لم يكن.

وخلق الشيء من غير جنسه أبلغ في قدرة القادر الخالق سبحانه وتعالى كما وصف نفسه بذلك في قوله (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن

---

(١) سورة الحج: الآيتان (٧٣-٧٤)

(٢) سورة لقمان: الآية (١١)

(٣) كما قال تعالي (الَّذِي جعل لكم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ) (سورة يس: ٨٠) والمقصود به ما يشاهدونه من جعله النار من العفار والمرخ وهما شجرتان خضراوان إذا حكت أحداهما الآخري بتحريك الريح لها اشتعل النار فيها. أنظر (تفسير الطبري)

تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ) (١).

ولهذا قال للملائكة (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍفَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (٢)

وقال تعالى (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ.فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ.فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) (٣).

ولهذا امتنع اللعين؛ كما قال تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) (٤)

وقال (قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) (٥).

وأيضاً: فكون الشيء مخلوقاً من مادة وعنصر، أبلغ في العبودية من كونه خلق لا من شيء، وأبعد عن مشابهة الربوبية؛ فإن الرب هو أحد، صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد فليس له أصل وجد منه، ولا فرع يحصل عنه، فإذا كان المخلوق له أصل وجد منه، كان بمنزلة الولد له، وإذا خلق له شيء آخر، كان بمنزلة الوالد، وإذا كان والداً ومولوداً، كان أبعد عن مشابهة الربوبية والصمدية فإنه خرج من غيره، ويخرج منه غيره؛ لاسيما إذا كانت المادة التي خلق منها مهينة؛ كما قال تعالى (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ) (٦)

وقال تعالى (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ.خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ.يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ.يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ) (٧).

وفي المسند عن بشر ابن جحاش (٨) قال: بصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال: يقول الله تعالى ابن آدم أنى تعجزني، وقد خلقتك من مثل هذه،

(١) سورة آل عمران: الآيتان (٢٦-٢٧)
(٢) سورة ص: الآيتان (٧١-٧٢)
(٣) سورة المرسلات: الآية (٢٠ -٢٣)
(٤) سورة الإسراء: الآية (٦١)
(٥) سورة الحجر: الآية (٣٣)
(٦) سورة المرسلات: الآية (٢٠)
(٧) سورة الطارق: الآيات (٥-١٠)
(٨) هو بسر بن جحاش القرشي، صحابي نزل حمص ومات بها، أنظر: " الإصابة " لابن حجر.

حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد، فجمعت، ومنعت، حتى إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق، وأنى أوان الصدقة " (١).

وكذلك إذا خلق في محل مظلم وضيق؛ كما خلق الإنسان في ظلمات ثلاث، كان أبلغ في قدرة القادر، وأدل على عبودية الإنسان، وذله لربه، وحاجته اليه.

وقد يقول المعير للرجل: مالك أصل ولا فصل، ولكن الإنسان أصله التراب، وفصله الماء المهين.

ولهذا لما خلق المسيح من غير أب، وقعت به الشبهة لطائفة (٢) وقالوا: إنه ابن الله، مع أنه لم يخلق إلا من مادة أمه، ومن الروح التي نفخ فيها؛ كما قال تعالى (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) (٣)

وقال تعالى أيضا (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا.قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) (٤) فما خُلق من غير مادة، تكون كالأب له، قد يظن فيه أنه ابن الله وأن الله خلقه من ذاته.

فلهذا كانت الأنبياء مخلوقة من مادة لها أصول، ومنها فروع لها والد ومولود.

والأحد الصمد: لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وحدوث الشيء لا من مادة، قد يشبه حدوثه من غير رب خالق وقد يظن أنه حدث من ذات الرب؛ كما قيل مثل ذلك في المسيح والملائكة أنها بنات الله، لما لم يكن لها أب، مع أنها مخلوقة من مادة، كما ثبت في الصحيح؛ صحيح مسلم عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم " (٥).

ولما ظن طائفة أنها لم تخلق من مادة، ظنوا أنها قديمة أزلية.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وابن ماجه في سننه.

(٢) المقصود بهم: النصارى.

(٣) سورة التحريم: الآية (١٢)

(٤) سورة مريم: الآيات (١٧-١٩)

(٥) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، و الإمام احمد في مسنده

وأيضاً: فالدليل الذي احتج به كثير من الناس، على أن كل حادث لا يحدث إلا من شيء، أو في شيء؛ فإن كان عرضاً لا يحدث إلا في محل، وإن كان عيناً قائمة بنفسها، لم تحدث إلا من مادة، فإن الحادث إنما يحدث إذا كان حدوثه ممكناً،وكان يقبل الوجود والعدم، فهو مسبوق بإمكان الحدوث وجوازه فلابد له من محل يقوم به هذا الإمكان والجواز.

وقد تنازعوا في هذا: هل الإمكان صفة خارجية، لا بد لها من محل أو هي حكم عقلي لا يفتقر إلى غير الذهن؟

والتحقيق: أنه نوعان: فالإمكان الذهني: وهو تجويز الشيء أو عدم العلم بامتناعه، محله الذهن.

والامكان الخارجي المتعلق بالفاعل، أو المحل؛ مثل أن تقول: يمكن القادر أن يفعل.

والمحل، مثل أن تقول: هذه الأرض يمكن أن تزرع، وهذه المرأة يمكن أن تحبل.

وهذا لابد له من محل خارجي.

فإذا قيل عن الرب:يمكن أن يخلق؛فمعناه:أنه يقدر على ذلك ويتمكن منه، وهذه صفة قائمة به.

وإذا قيل: يمكن أن يحدث حادث؛ فإن قيل يمكن حدوثه بدون سبب حادث، فهو ممتنع، وإذا كان الحدوث لا بد له من سبب حادث؛ فذاك السبب إن كان قائماً بذات الرب، فذاته قديمة أزلية، واختصاص ذلك الوقت بقيام مشيئة، أو تمام تمكن ونحو ذلك، لا يكون إلا لسبب قد أحدثه قبل هذا في غيره فلا يحدث حادث مباين إلا مسبوقاً بحادث مباين له.

فالحدوث مسبوق بإمكانه، ولابد لإمكانه من محل، ولهذا لم يذكر الله قط، أنه أحدث شيئاً إلا من شيء.

والذي يقول: إن جنس الحوادث حدثت لا من شيء هو كقولهم: إنها حدثت بلا سبب حادث، مع قولهم: إنها كانت ممتنعة، ثم صارت ممكنة، من غير تجدد سبب، بل حقيقة قولهم: إن الرب صار قادراً بعد أن لم يكن، من غير تجدد شيء يوجب ذلك.

وهذه الأمور كلها من أقوال الجهمية؛ أهل الكلام المحدث المبتدع المذموم، وهو بناء على قولهم: أنه تمتنع حوادث لا أول لها.

وهؤلاء وأمثالهم غلطوا فيما جاء به الشرع، وأخبرت به الرسل كما غلطوا في المعقولات؛ فكل واحد مما يسمى شرعاً، وعقلاً وسمعاً، قد وقع فيه إشتباه.

فالشرع يطلق تارة على ما جاء به الرسول؛ من الكتاب والسنة. هذا هو الشرع المنزل، وهو الحق الذي ليس لأحد خلافه. ويطلق على ما يضيفه بعض الناس إلى الشرع، إما بالكذب والافتراء، وإما بالتأويل والغلط، وهذا شرع مبدل، لا منزل ولا يجب، بل ولا يجوز اتباعه.

وكذلك لفظ السنة: فإن السنة التي يجب اتباعها، هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والسنة تذكر في الأصول والاعتقادات، وتذكر في الأعمال والعبادات وكلاهما يدخل فيما أخبر به وأمر به،فما أخبر به وجب تصديقه فيه، وما أوجبه وأمر به، وجبت طاعته فيه،ثم كثير من الناس يضيف إلى السنة، ما أدخله بعض الناس فيها إما بالكذب، وإما بالتأويل؛ مثل أحاديث كثيرة ضعيفة،بل موضوعة، واستدلالات بأقواله على ما لا تدل عليه.

ومثل أقوال أحدثها قوم انتسبوا إلى السنة في بعض الأمور مثل إثبات الصفات، والقدر؛ فإن المنتسبين لذلك يضافون إلى السنة لأن نفاة الصفات، والقدر مبتدعة.

وكذلك حب الخلفاء الراشدين، وموالاتهم يضاف أهله إلى السنة؛ لأن الطاعنين فيهم أهل بدعة.

ومثل الاستدلال بالنصوص على موارد النزاع؛ فإن أهل ذلك يضافون إلى السنة؛ لكونهم يقصدون اتباع القرآن والحديث والمخالفون لذلك يردون الأخبار الصحيحة،أو لا يحتجون بالقرآن مبتدعون.

ثم قد يقول المضافون إلى السنة أشياء ليست من السنة؛ مثل أحاديث كثيرة يروونها في فضائل بعض الصحابة، وهي كذب ومثل نفي الحكمة والأسباب في مسائل القدر؛ ومثل كلامهم في الأجسام والأعراض، وتناهي الحوادث، ونحو ذلك مما لم يأخذوه عن الرسول.

فهذا ليس من السنة، وإن كان أهلها وافقوا السنة في مواضع خالفهم فيها من ينازعهم في هذه المسائل.

فلا يجب إذا كانوا أصابوا حيث وافقوا السنة، أن يصيبوا حيث لم يوافقوها.

وكذلك مسمى العقل؛ فإن مسمى العقل قد مدحه الله في القرآن في غير آية (١).

(١) قال تعالي " وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ " (الملك: ١٠)

لكن لما أحدث قوم من الكلام المبتدع، المخالف للكتاب والسنة،بل وهو في نفس الأمر مخالف للمعقول، وصاروا يسمون ذلك عقليات وأصول دين، وكلاماً في أصول الدين، صار من عرف أنهم مبتدعة ضلال في ذلك، ينفر عن جنس المعقول، والرأي والقياس، والكلام، والجدل.

فإذا رأى من يتكلم بهذا الجنس، اعتقده مبتدعاً مبطلاً كما أن هؤلاء (١) لما رأوا أن جنس المنتسبين إلى السنة والشرع والحديث قد أخطئوا في مواضع، وخالفوا فيها صريح المعقول، وهم يقولون أن السنة جاءت بذلك، صار هؤلاء ينفرون عن جنس ما يستدل في الأصول بالشرع والسنة ويسمونهم حشوية وعامة.

وكل من هؤلاء، أدخلوا في مسمى الشرع، والعقل والسمع، ما هو محمود ومذموم.

ثم هؤلاء قبلوا من مسمى الشرع والسنة عندهم محمودة ومذمومة، وخالفوا مسمى العقل محمودة ومذمومة.

وأولئك قبلوا مسمى العقل عندهم محمودة، ومذمومة، وخالفوا مسمى الشرع محمودة ومذمومة.

فيجب البيان والتفصيل والاستفسار، وبيان الفرقان، بين الحق والباطل؛ فإن ذلك يوجب التصديق بما جاء به الشرع المنزل والسنة الغراء.

وهو المعقول الحق؛ وهو الكلام الصدق؛ وهو الجدل بالتي هي أحسن ويوجب رد ما أدخل في الشرع والسنة، وليس منها؛ ورد ما سمي معقولاً وهو باطل؛ وسمي كلاماً صدقاً، وهو كذب، وسمي جدلاً بالتي هي أحسن، وهو جدل بالباطل بغير علم.

ولهذا حصل من الذين لبسوا الحق بالباطل، تبديل لما بدلوه من الدين وتحريف الكلم عن مواضعه، ومضاهاة لأهل الكتاب مما ذمهم الله عليه والبخاري في أول كتاب خلق أفعال العباد: ذكر الرد على المعطلة الذين يبدلون كلام الله من الجهمية، وذكر من كلام السلف والأئمة فيهم ما عرف به مقصودهم.

والتبديل نوعان:

وقال تعالي " وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ " (البقرة: ٧٣)
وقال تعالي " وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ " (العنكبوت: ٤٣)
وقال تعالي " لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ " (الزمر: ٤٣)
(١) المتفلسفة

أحدهما: أن يناقضوا خبره.

والثاني: أن يناقضوا أمره.

فإن الله بعثه بالهدى ودين الحق، وهو صادق فيما أخبر به عن الله آمر بما أمر الله به.

كما قال تعالى (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)(١).

وأهل التبديل الذين يضيفون إلى دينه وشرعه ما ليس منه وهم أهل الشرع المبدل: تارة يناقضونه في خبره؛ فينفون ما أثبته أو يثبتون ما نفاه، كالجهمية: الذين ينفون ما أثبته من صفات الله وأسمائه؛ والقدرية: الذين ينفون ما أثبته من قدر الله ومشيئته وخلقه وقدرته.

والقدرية المجبرة: الذين ينفون ما أثبته من عدل الله وحكمته ورحمته، ويثبتون ما نفاه من الظلم، والعبث، والبخل ونحو ذلك عنه، وأمثال ذلك.

ومسائل أصول الدين عامتها من هذا الباب.

ثم إنهم أيضا يوجبون ما لم يوجبه، بل حرمه، ويحرمون ما لم يحرمه، بل أوجبه.

فيوجبون اعتقاد هذه الأقوال والمذاهب المناقضة لخبره، وموالاة أهلها، ومعاداة من خالفها.

ويوجبون النظر المعين في طريقهم الذي أحدثوه؛ كما أوجبوا النظر في دليل الأعراض، الذي استدلوا به على حدوث الأجسام وقالوا: يجب على كل مكلف أن ينظر فيه، ليحصل له العلم بإثبات الصانع

قالوا: لأن معرفة الله واجبة، ولا طريق إليها إلا هذا النظر وهذا الدليل(٢).

ولما علم كثير من موافقيهم، أن الاستدلال بهذا الدليل لم يوجبه الرسول، خالفوهم في إيجابهم، مع موافقتهم لهم على صحته.

والتحقيق: ما عليه السلف؛ أنه ليس بواجب أمراً، ولا هو صحيح خبراً، بل هو باطل منهي عنه شرعاً.

---

(١) سورة النساء: الآية (٨٠)

(٢) يقول ابوحامد الغزالي:(من يعتقد حدوث الأجسام فلا أصل لاعتقاده في الصانع أصلا) " تهافت الفلاسفة ": ص١٩٧

فإن الله تعالى لا يأمر بقول الكذب والباطل، بل ينهى عن ذلك،لكن غلطوا حيث اعتقدوا أنه حق، وإن الدين لا يقوم إلا على هذا الأصل الذي أصلوه.

كما أن طوائف من أهل العبادة، والزهد، والإرادة، والمحبة والتصوف، سلكوا طرقاً (١) ظنوا أنه لا يوصل إلى الله إلا بها. ثم منهم من يوجبها، ويذم من لم يسلكها.

ومنهم من لم يرى أن سالكيها أفضل من غيرهم، ويوسع الرحمة؛ لأنه قد علم أن الرسول والصحابة لم يأمروا بها الناس مع اعتقادهم أنها طرق صحيحة، موصلة إلى رضوان الله. وهي عند التحقيق طرق مضلة، إنما توصل إلى رضى الشيطان وسخط الرحمن.

كالعبادات التي ابتدعها ضلال أهل الكتاب والمشركين وخالفوا بها دين المرسلين؛ فهؤلاء في الأحوال البدعية، وأولئك في الأقوال البدعية.

والقول الحق هو القرآن، والحال الحق هو الإيمان؛ كما قال جندب، وابن عمر: تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً (٢).

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب، ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر. ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر، ولا ريح لها " (٣).

فالناس أربعة أصناف:

صاحب قول قرآني، وحال إيماني؛ فهم أفضل الخلق. وصاحب قول قرآني، وحال ليس بإيماني.

وصاحب حال إيماني، وليس له قول.

ومن ليس له لا قول قرآني، ولا حال إيماني.

---

(١) كسلوك بعض الصوفية للكشف والوجد والذوق عن طريق العبادات والأوراد وجعل ذلك أساساً للمعرفة والوصول لحقائق الأمور، وهذه الطرق تعد السبيل لديهم لتحصيل المعارف.

(٢) حديث شريف أخرجه ابن ماجه في السنن.

(٣) حديث شريف أخرجه البخاري و مسلم

وكثير من المنتسبين إلى القول، والكلام، والعلم، والنظر، والفقه والاستدلال، ابتدعوا أقوالاً تخالف القرآن.

وكثير من المنتسبين إلى العمل، والعبادة، والإرادة، والمحبة وحسن الخلق، والمجاهدة، ابتدعوا أحوالاً وأعمالاً تخالف الإيمان وصار مع كل طائفة نوع من الحق الذي جاء به الرسول لكن ملبوس بغيره.

وصار كثير من الطائفتين، ينكر ما عليه الأخرى مطلقا كما قالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء (١).

وفي كل من الطائفتين، شبه من أحدى الأمتين؛ ففي المنتسبين إلى العلم، إذا لم يوافقوا العلم النبوي، ويعملوا به شبه من اليهود. وفي أهل العمل إذا لم يوافقوا العمل الشرعي، ويعملوا بعلم شبه من النصارى.

وصار كثير من أهل الكلام والرأي، ينكرون جنس محبة الله وإرادته؛ كما صار كثير من أهل الزهد والتصوف، ينكر جنس العلم، والكلام، والنظر.

وأولئك الذين أنكروا محبة الله وإرادته، بنوا ذلك على أصل لهم للقدرية المجبرة، والنافية.

وهو: أن المحبة، والإرادة، والرضا، والمشيئة، شيء واحد ولا يتعلق ذلك إلا بمعدوم.

وهو إرادة الفاعل، أن يفعل ما لم يكن فعله؛ فاعتقدوا أن المحبة والإرادة، لا تتعلق إلا بمعدوم.

فالموجود لا يُحب، ولا يُراد، والقديم الأزلي لا يُحب، ولا يُراد،والباقي لا يُحب، ولا يُراد.

فأنكروا أن يكون الله محبوباً، أو مراداً.

وهم لإنكار كونه يحب أبلغ وأبلغ؛ فلا يثبتون إلا مشيئته أن يخلق فقط، وهي لا تتعلق إلا بمعدوم،فأما أن يحب موجودا من خلقه، فهذا باطل عند الطائفتين،لكن المجبرة يقولون: محبته هي مشيئته، وقد شاء خلق كل شيء، فهو يحب كل شيء.

والنفاة يقولون: محبته هي إرادته إثابة المطيعين، وهي مشيئة خاصة.

---

(١) يشير إلي قوله تعالي حاكياً عن اليهود والنصارى " وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ " (البقرة: ١١٣)

والذي جاء به الكتاب والسنة، واتفق عليه سلف الأمة، وعليه مشايخ المعرفة، وعموم المسلمين: أن الله يُحب ويُحَب؛ كما نطق بذلك الكتاب والسنة في مثل قوله (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (١) ومثل قوله تعالى (وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (٢) وقوله (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٣).

بل لا شيء يستحق أن يُحَب لذاته محبة مطلقة إلا اللهبالعبادة والثناءبي كونه معبوداً؛ فحيث جاء القرآن بالأمر بالعبادة والثناء على أهلها، أو على المنيبين إلى الله، والتوابين إليه أو الأوابين، أو المطمئنين بذكره، أو المحبين له، ونحو ذلك. فهذا كله يتضمن محبته، وما لا يُحَب ممتنع كونه معبوداً ومألوهاً، ومطمئناً بذكره.

ومن أطيع لعوض يؤخذ منه، أو لدفع ضرره، فهذا ليس بمعبود ولا إله.

بل قد يكون الشخص كافراً، وظالماً يبغض، ويلعن، ومع هذا يعمل معه عامل بعوض.

فمن جعل العمل لله لا يكون إلا لذلك، فلم يثبت الرب إلهاً معبوداً ولا رباً محموداً، وهو حقيقة قول النفاة من الجهمية، والقدرية النافية والمثبتة. والله سبحانه وتعالى رغب في عبادته، والعمل له بما ذكره من الوعد ورهب من الكفر به، والشرك بما ذكره من الوعيد، وهو حق لكنه لم يقل إن العابد لله، والعامل له، لا يحصل له إلا ما ذكر بل وقد قال تعالى (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٤)

وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخراً بله ما أطلعتهم عليه، اقرءوا إن شئتم (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جزاء بما كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٥)).

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤)
(٢) سورة البقرة: الآية (١٦٥)
(٣) سورة آل عمران: الآية (٣١)
(٤) سورة السجدة: الآية (١٧)
(٥) حديث شريف أخرجه البخاري و مسلم في صحيحيهما واحمد في مسنده.

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"يقول الله: يا أهل الجنة إن لكم عندي موعداً أريد أن أنجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم تنضر وجوهنا، وتثقل موازيننا وتدخلنا الجنة، وتجرنا من النار؟

قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة " (١).

وفي الحديث الذي رواه النسائي؛ لما صلى عمار، فأوجز وقال: دعوت في الصلاة بدعاء سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم "اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي،اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة،وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى،وأسألك نعيماً لا ينفد،وقرة عين لا تنقطع،وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت،وأسألك لذة النظر إلى وجهك،والشوق إلى لقائك، من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان،واجعلنا هداة مهتدين " (٢).

وروى نحواً هذا من وجه آخر؛ فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لم يعط أهل الجنة أحب إليهم من النظر إليه، وسن أن يدعى بلذة النظر إلى وجهه الكريم.

وأهل الجنة قد تنعموا من أنواع النعيم بالمخلوقات بما هو غاية النعيم، فلما كان نظرهم إليه أحب إليهم من كل أنواع النعيم، علم أن لذة النظر إليه أعظم عند أهل الجنة من جميع أنواع اللذات.

والجنة فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين؛ فما لذت أعينهم بأعظم من لذتها بالنظر إليه.

واللذة تحصل بادراك المحبوب، فلو لم يكن أحب إليهم من كل شيء ما كان النظر إليه أحب إليهم من كل شيء، وكانت لذته أعظم من كل لذة.

والله تعالى وعد عباده المؤمنين بالجنة؛ وهي اسم لدار فيها جميع أنواع اللذات المتعلقة بالمخلوق، وبالخالق، كما أن النار اسم لدار فيها أنواع الآلام.

---

(١) حديث شريف أخرجه مسلم في صحيحه، و احمد في مسنده، وابن ماجه في السنن.
(٢) حديث شريف أخرجه النسائي في سننه، و احمد في مسنده.

لكن غلط من ظن أن التنعيم بالنظر إليه، ليس من نعيم أهل الجنة وصار هؤلاء حزبين: حزباً أنكروا التنعيم بالنظر إليه؛ وهم المنكرون المحبة قال أبو المعالي، ونحوه، ممن ينكر محبته: إنهم إذا رأوه لم يلتذوا بنفس النظر، بل يخلق لهم لذة ببعض المخلوقات مع النظر، وكذلك قال من شاركهم في التجهم؛ من أهل الوحدة؛ كابن عربي قال: ما التذ عارف بمشاهدة قط.

وادعى أبو المعالي:أن إنكار محبته من أسرار التوحيد،وهو من أسرار توحيد الجهمية المعطلة المبدلة.

وحكي عن ابن عقيل أنه سمع رجلاً يقول: أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم.

فقال له: هب أن له وجهاً، أله وجه يلتذ بالنظر إليه.

وهذا بناء على هذا الأصل؛ فإنه وشيخه أبا يعلى، ونحوهما وافقوا الجهمية في إنكار أن يكون الله محبوباً، واتبعوا في ذلك قول أبي بكر بن الباقلاني ونحوه، ممن ينكر محبة الله، وجعل القول بإثباتها قول الحلولية.

والحزب الثاني: أن طائفة من الصوفية والعباد، شاركوا هؤلاء في أن مسمى الجنة، لا يدخل فيه النظر إلى الله.

وهؤلاء لهم نصيب من محبة الله تعالى، والتلذذ بعبادته، وعندهم نصيب من الخوف، والشوق، والغرام.

فلما ظنوا أن الجنة لا يدخل فيها النظر إليه، صاروا يستخفون بمسمى الجنة، ويقول أحدهم: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك، ولا خوفاً من نارك.

وهم غلطوا من وجهين:

أحدهما: أن ما يطلبونه من النظر إليه، والتمتع بذكره ومشاهدته، كل ذلك في الجنة.

الثاني: أن الواحد من هؤلاء لو جاع في الدنيا أياماً، أو القي في بعض عذابها، طار عقله، وخرج من قلبه كل محبة.

ولهذا قال سمنون (١): وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فامتحني

ابتلى بعسر البول، فصار يطوف على المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب.

---

(١) هو سمنون بن حمزة أبو الحسن الخواص، له كلام في المحبة مستقيم، وسمي نفسه سمنون الكذاب، توفي سنة ٢٩٨هـ. انظر " طبقات الصوفية " ص: ١٩

وأبو سليمان لما قال: قد أعطيت من الرضا نصيباً، لو ألقاني في النار لكنت راضياً.

ذكر أنه ابتلى بمرض، فقال: إن لم تعافني، وإلا كفرت، أو نحو هذا.

والفضيل بن عياض إبتلي بعسر البول، فقال: بحبي لك إلا فرجت عني، فبذل حبه في عسر البول، فلا طاقة لمخلوق بعذاب الخالق، ولا غنى به عن رحمته.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل: "ما تدعو في صلاتك؟ قال: أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، أما أني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ فقال: حَولها ندندن " (١).

ودخل على أعرابي قد صار مثل الفرخ، فقال: هل كنت تدعو الله بشيء؟ قال: كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخره، فعجله لي في الدنيا. فقال سبحان الله، إنك لا تستطيعه، ولا تطيقه، هلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار " (٢).

والعدوان في الإرادة، والعبادة، والعمل، حصل من إعراضهم عن العلم الشرعي، وإتباع الرسول،وقد قال تعالى (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(٣)

قال بعضهم: ليس الشأن في أن تحبه، الشأن في أن يكون هو يحبك،وهو إنما يحب من اتبع الرسول، وإلا فالمشركون وأهل الكتاب يدعون أنهم يحبونه.

وأولئك (٤) غلطوا بنفي محبته، وهؤلاء (٥) أثبتوا محبة شركية، لم يثبتوا محبة توحيدية خالصة.

وقد قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ)(٦).

---

(١) حديث شريف أخرجه احمد في مسنده، وأبو داود في السنن.

(٢) حديث شريف أخرجه مسلم في صحيحه، و احمد في مسنده.

(٣) سورة آل عمران: الآية (٣١)

(٤) يقصد الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام.

(٥) يشير إلى بعض أصحاب الشطحات المنتسبين للصوفية.

(٦) سورة البقرة: الآية (١٦٥)

فالأقسام ثلاثة (١):

أولئك (٢) معطلة للمحبة، وحقيقة قولهم تعطيل العبادة مطلقاً.

وهؤلاء (٣) مشركون في المحبة،فهم مشركون في العبادة،أولئك مستكبرون عن عبادته،والكبر لليهود، وهؤلاء مشركون في عبادته والشرك للنصارى.

وكل واحد من المستكبرين والمشركين ليسوا مسلمين، بل الإسلام هو الاستسلام لله وحده.

ولفظ الإسلام يتضمن الإسلام، ويتضمن إخلاصه لله، وقد ذكر ذلك غير واحد، حتى أهل العربية؛ كأبي بكر بن الأنباري (٤) وغيره.

ومن المفسرين من يجعلهما قولين؛ كما يذكر طائفة، منهم البغوي أن المسلم هو: المستسلم لله.

وقيل: هو المخلص (٥).

والتحقيق: أن المسلم يجمع هذا وهذا؛ فمن لم يستسلم له، لم يكن مسلماً؛ ومن استسلم لغيره كما يستسلم له، لم يكن مسلماً، ومن استسلم له وحده، فهو المسلم؛ كما في القرآن،قال تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)(٦)

وقال تعالى (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) (٧).

---

(١) يبين أقسام الناس في المحبة.

(٢) إي الجهمية ومن تبعهم من أهل الكلام

(٣) إي: الصوفية

(٤) هو أبوبكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الانباري ولد في الانبار سنة ٢٧١هـ من اعلم أهل زمانه بالآداب واللغة توفي في بغداد سنة ٣٢٨هـ انظر " طبقات النحويين " ص: ١٧١

(٥) أنظر "تفسير البغوي ".

(٦) سورة البقرة: الآية (١١٢)

(٧) سورة النساء: الآية (١٢٥)

والاستسلام له، يتضمن الاستسلام لقضائه، وأمره، ونهيه فيتناول فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر على المقدور (قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (١).

قال ابن أبي حاتم (٢):حدثنا عصام (٣) بن وراد،حدثنا آدم (٤) عن أبي جعفر (٥) عن الربيع، عن أبي العالية (٦) في قوله تعالى (بلى من أسلم وجهه لله)(٧) يقول: من أخلص لله.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن الربيع نحو ذلك، وقال: ذكر عن يحيى بن آدم (٨)، حدثنا ابن المبارك (٩)، عن حيوة بن شريح (١٠) عن عطاء بن دينار(١١) عن سعيد بن جبير(١٢) من أسلم وجهه لله من أسلم أخلص وجهه قال: دينه.

وقال أبو الفرج (١٣): أسلم: بمعنى أخلص.

وفي الوجه قولان:

---

(١) سورة يوسف: الآية (٩٠)

(٢) هو أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر بن مهران التميمي الرازي ولد سنة ٢٤، هـ ورحل في طلب الحديث إلي البلاد مع أبيه وبعده، وصنف التصانيف من جملتها "كتاب السنة " و " التفسير " و "كتاب الرد علي الجهمية " و " فضائل الإمام احمد " توفي ٣٢٧هـ. انظر (سير أعلام النبلاء)و (طبقات الحنابلة)

(٣) هو عصام بن راود بن الجراح العسقلاني. أنظر (الجرح والتعديل) و (ميزان الاعتدال)

(٤) هو ادم بن أبي اياس العسقلاني، توفي سنة ٢٢، هـ. أنظر (الجرح والتعديل) و (تهذيب التهذيب)

(٥) هو عيسي بن عبدالله بن ماهان الرازي. أنظر (الجرح والتعديل) و (تهذيب التهذيب)

(٦) هو رفيع بن مهران البصري أبو العاليه الرياحي، توفي سنة ٩٣هـ. أنظر (الجرح والتعديل) و (سير أعلام النبلاء)

(٧) سورة البقرة: الآية (١١٢)

(٨) هو يحيي بن ادم بن سليمان الأموي أبو زكريا الكوفي، توفي سنة ٢، ٣هـ أنظر (الجرح والتعديل) و (تهذيب التهذيب)

(٩) هو عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي، ولد سنة ١١٨ هـ وتوفي سنة ١٨١هـ أحد الأئمة الحفاظ. أنظر (تهذيب التهذيب)

(١٠) هو حيوة بن شريح بن صفوان التجيبي أبو زرعة المصري، توفي سنة ١٥٨هـ. أنظر (الجرح والتعديل) و (تهذيب التهذيب)

(١١) هو عطاء بن دينار الهذلي مولاهم المصري، توفي سنة ١٢٦هـ انظر (الجرح والتعديل) و (ميزان الاعتدال) و(تهذيب التهذيب)

(١٢) هو سعيد بن جبير بن هشام الاسدي الوالبي مولاهم أبو محمد، تابعي ثقة، اخذ العلم في التفسير عن ابن عباس، وقتله الحجاج سنة ٩٥هـ ومات بعده بأيام. أنظر (الجرح والتعديل) و (تهذيب التهذيب)

(١٣) ابن الجوزي.

أحدهما: أنه الدين.

والثاني: العمل.

وقال البغوي: من أسلم وجهه لله: أخلص دينه لله.

وقيل: أخلص عبادته لله.

وقيل: خضع وتواضع لله.

وأصل الإسلام: الإستسلام والخضوع.

وخص الوجه: لأنه إذا جاد بوجهه في السجود، لم يبخل بسائر جوارحه. وهو محسن في عمله،

قيل: مؤمن.

وقيل: مخلص.

قلت: قول من قال: خضع وتواضع لربه، هو داخل في قول من قال: أخلص دينه، أو عمله، أو عبادته لله؛ فإن هذا إنما يكون إذا خضع له، وتواضع له دون غيره؛ فإن العبادة، والدين، والعمل له، لا يكون إلا مع الخضوع له، والتواضع، وهو مستلزم لذلك. ولكن أولئك ذكروا مع هذا، أن يكون هذا الإسلام لله وحده فذكروا المعنيين: الإستلزام، وأن يكون لله.

وقول من قال: خضع وتواضع لله، يتضمن أيضاً أنه أخلص عبادته ودينه لله؛ فإن ذلك يتضمن الخضوع والتواضع لله دون غيره. وأما ذكر التوجه: فقد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع، وتبين أن الله ذكر إسلام الوجه له، في قوله (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ) (١) وذكر توجيه الوجه له في قوله (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (٢)

لأن الوجه: إنما يتوجه إلى حيث توجه القلب، والقلب هو الملك فإذا توجه الوجه نحو جهة، كان القلب متوجهاً إليها، ولا يمكن الوجه أن يتوجه بدون القلب؛ فكان إسلام الوجه، وإقامته، وتوجيهه مستلزماً لإسلام القلب، وإقامته، وتوجيهه.

---

(١) سورة الروم: الآية (٤٣)

(٢) سورة الأنعام: الآية (٧٩)

وذلك يستلزم إسلام كله لله، وتوجيه كله لله، وإقامة كله لله وبسط الكلام على ما يناسب ذلك.

وهذا حقيقة دين الإسلام، لكن الذين أنكروا ذلك لهم شبهتان: إحداهما: أن المحبة تقتضي المناسبة قالوا: وهي منتفية؛ فلا مناسبة بين المحدث والقديم.

فيقال لهم: هذا كلام مجمل، تعنون بالمناسبة:الولادة؟أو المماثلة،ونحو ذلك،مما يجب تنزيه الرب عنه؟ فإن الشيء ينسب إلى أصله،بأنه ابن فلان، وإلى فرعه،بأنه أبو فلان وإلى نظيره،بأنه مثل فلان.

ولما سأل المشركون النبي صلى الله عليه وسلم عن نسب ربه، أنزل الله تعالى (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ.اللَّهُ الصَّمَدُ.لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ.وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (١)

فلم يخرج من شيء، ولا يخرج منه شيء، ولا له مثل.

فان عنيتم، هذا لم نسلم أن المحبة لا بد فيها من هذا، وإن أردتم بالمناسبة أن يكون المحبوب متصفاً بمعنى يحبه المحب، فهذا لازم للمحبة، والرب متصف بكل صفة تحب.

وكل ما يحب فإنما هو منه؛ فهو أحق بالمحبة من كل محبوب، وإذا كان الإنسان يحب الملائكة، وهم من غير جنسه، لما اتصفوا به من الصفات الحميدة؛ فالسبوح القدوس رب الملائكة والروح الذي كل ما اتصفت به الملائكة وغيرهم.

فهو من جوده وإحسانه، وهو العزيز الرحيم، إذ كان المخلوق كثيرا ما يتصف بالعزة دون الرحمة، أو تكون فيه رحمة بلا عزة، وهو سبحانه: العزيز، الرحيم، الغفور، الودود، المجيد.

الودود: فعول من الود.

وقال شعيب (وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (٢) وقال تعالى (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (٣)؛ فقرنه بالرحيم في موضع وبالغفور في موضع.

قال أبو بكر ابن الانباري: الودود معناه: المحب لعباده؛ من قولهم: وددت الرجل أوده وداً، ووِداً، ووَداً.

---

(١) سورة الإخلاص: الآيات (١-٤)

(٢) سورة هود: الآية (٩٠)

(٣) سورة البروج: الآية (١٤)

ويقال: وددت الرجل وَدَادًا، ووِدَادًا، ووَدادةً.

وقال الخطابي: هو اسم مأخوذ من الود، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون فعولاً في محل مفعول؛ كما قيل: رجل هيوب بمعنى مهيب، وفرس ركوب، بمعنى: مركوب.

والله سبحانه وتعالى مودود في قلوب أوليائه، لما يعرفونه من إحسانه إليهم. والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الواد؛ أي: أنه يود عباده الصالحين بمعنى أنه يرضى عنهم، ويتقبل أعمالهم.

ويكون معناه: أن يوددهم إلى خلقه؛ كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)(١)قلت: قوله (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٢) فسروها بأنه يحبهم: ويحببهم إلى عباده كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إذا أحب الله العبد نادي: يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض " وقال في البغض مثل ذلك (٣).

وقال عبد ابن حميد: أنبأنا عبيد الله بن موسى، عن ابن أبي ليلى عن الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: سيجعل لهم الرحمن ودا قال: يحبهم، ويحببهم. ورواه ابن أبي حاتم أيضا.

وقال عبد: أخبرني شبابة، عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد:(سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٤) قال: يحبهم، يحببهم إلى المؤمنين أخبرنا عبد الرزاق، عن الثوري، عن مجاهد، عن ابن عباس:(سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٥) قال: محبة.

وهذا فيه إثبات حبه لهم، بعد أعمالهم؛ قوله: (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (٦).

وهو نظير قوله (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٧) و يحبهم إذا اتبعوا الرسول. ونظير قوله في الحديث الصحيح: " ولا يزال عبدي

(١) سورة مريم: الآية (٩٦)
(٢) سورة مريم: الآية (٩٦)
(٣) حديث شريف أخرجه البخاري و مسلم في صحيحيهما.
(٤) سورة مريم: الآية (٩٦)
(٥) سورة مريم: الآية (٩٦)
(٦) سورة مريم: الآية (٩٦)
(٧) سورة أل عمران: الآية (٣١)

يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها) (١).

وكذلك قوله (وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٢)

وقوله تعالى (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (٣).

وقوله تعالى (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (٤).

وقوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ) (٥).

وهذه الآيات وأشباهها، تقتضي أن الله يحب أصحاب هذه الأعمال فهو يحب التوابين، وإنما يكونون توابين بعد الذنب، ففي هذه الحال يحبهم.

وهذا مبني على الصفات الاختيارية، فمن نفاها، رد هذا كله، ولهم قولان:

أحدهما: أن المحبة قديمة؛ فهو يحبهم في الأزل، إذا علم أنهم يموتون على حال مرضية.

ويقولون: أن الله يحب الكفار في حال كفرهم، إذا علم أنهم يموتون على الإيمان، ويبغض المؤمن إذا علم أنه يرتد. هذا قول ابن كلاب، ومن تبعه.

ثم منهم من يفسر المحبة بالإرادة.

ومنهم من يقول: هي صفة زائدة على الإرادة.

والقول الثاني: يجعلون هذا من باب الفعل؛ فالمحبة عندهم: إحسانه إليهم والإحسان عندهم ليس قائماً به، بل بائن عنه.

والكتاب، والسنة، وأقوال السلف والأئمة، والأدلة العقلية إنما تدل على القول الأول، كما قد بسط في غير هذا الموضع؛ إذ المقصود هنا: ذكر اسمه الودود.

والأكثرون على ما ذكره ابن الأنباري، وأنه فعول بمعنى فاعل أي: هو الواد، كما قرنه بالغفور؛ وهو الذي يغفر، وبالرحيم وهو الذي يرحم.

---

(١) حديث شريف أخرجه الإمام احمد في مسنده، ورواه ابن حيان في صحيحه في كتاب النكاح.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٩٥)

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٢٢)

(٤) سورة التوبة: الآية (٤)

(٥) سورة الصف: الآية (٤)

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عيسى بن جعفر؛ قاضي الري حدثنا سفيان في قوله(إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (١) قال: محب، وقال: قرئ على يونس: حدثنا ابن وهب قال: وقال ابن زيد: قوله: الودود

قال: الرحيم، وقد ذكر فيه قولين:

القول الأول: رواه من تفسير الوالبي، عن ابن عباس قوله: الودود، قال: الحبيب.

والثاني: قول ابن زيد الرحيم (٢).

وما ذكره الوالبي أنه الحبيب، قد يراد به المعنيان؛ أنه يُحِب، ويُحَب فإن الله يُحب من يحبه، وأولياؤه يُحبهم ويُحبُونه.

والبغوي ذكر الأمرين، فقال: وللودود معنيان: أنه يحب المؤمنين وقيل: هو بمعنى المودود؛ أي محبوب المؤمنين.

وقال: أيضا في قوله (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (٣) أي: المحب لهم وقيل: معناه المودود؛ كالحلوب، والركوب، بمعنى المحلوب والمركوب وقيل: يغفر، ويود أن يغفر.

وقيل: المتودد إلى أوليائه بالمغفرة.

قلت: هذا اللفظ معروف في اللغة أنه بمعنى الفاعل؛ كقول النبي صلى الله عليه وسلم: " تزوجوا الودود الولود " (٤).

وفعول بمعنى فاعل كثير؛ كالصبور، والشكور.

وأما بمعنى مفعول، فقليل.

وأيضاً: فإن سياق القرآن يدل على أنه أراد أنه هو الذي يود عباده كما أنه هو الذي يرحمهم ويغفر لهم؛ فإن شعيباً قال (وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (٥)

---

(١) سورة هود: الآية (٩٠)

(٢) انظر: تفسير الإمام الطبري في تفسيره للفظ "الرحيم".

(٣) سورة البروج: الآية (١٤)

(٤) حديث شريف أخرجه الإمام احمد في مسنده و رواه ابن حيان في صحيحه في كتاب النكاح

(٥) سورة هود: الآية (٩٠)

فذكر رحمته ووده؛ كما قال تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (١).

وهو أراد وصفاً يبين لهم أنه سبحانه يغفر الذنب، ويقبل على التائب وهو كونه ودوداً؛ كما قال (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (٢)

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه، عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن الله يفرح بتوبة التائب أشد من فرح من فقد راحلته بأرض دوية مهلكة، ثم وجدها بعد اليأس " (٣).

فهذا الفرح منه بتوبة التائب يناسب محبته له، ومودته له. وكذلك قوله في الآية الأخرى (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (٤) فإنه مثل قوله (وهو الغفور الرحيم) (٥).

وأيضاً: فان كونه مودوداً؛ أي: محبوباً، يذكر على الوجه الكامل الذي يتبين اختصاصه به.

مثل: اسم الآله؛ فإن الآله: المعبود هو مودود بذلك، ومثل اسمه الصمد ومثل ذي الجلال والإكرام، ونحو ذلك.

وكونه مودودا ليس بعجيب، وإنما العجب: جوده، وإحسانه فإنه يتودد إلى عباده، كما في الأثر: يا عبدي، كم أتودد إليك بالنعم وأنت تتمقت إلي بالمعاصي، ولا يزال ملك كريم يصعد إلي منك بعمل سيء.

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يقول الله تعالى:"من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ".

وجاء في تفسير اسمه الحنان، المنان: أن الحنان: الذي يقبل على من أعرض عنه.

والمنان: الذي يجود بالنوال قبل السؤال.

---

(١) سورة الروم: الآية (٢١)

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٢٢)

(٣) حديث شريف أخرجه الشيخان في صحيحيهما ولفظة " الله اشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في ارض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهب فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال ارجع إلي مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه علي ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه فالله اشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده "

(٤) سورة البروج: الآية (١٤)

(٥) سورة سبأ: الآية (٢)

وأيضاً: فمبدأ الحب والود منه، لكن اسمه الودود يجمع المعنيين كما قال الوالبي عن ابن عباس: انه الحبيب؛ وذلك أنه إذا كان يود عباده فهو مستحق لأن يوده العباد بالضرورة.

ولهذا من قال أنه يحب المؤمنين، قال: إنهم يحبونه؛ فإن كثيراً من الناس يقول: أنه محبوب، وهو لا يحب شيئاً مخصوصاً، لكن محبته بمعنى مشيئته العامة.

ومن الناس من قال: إنه لا يحب، مع أنه يثبت محبته للمؤمنين.

فالقسمة في المحبة رباعية: فالسلف، وأهل المعرفة، أثبتوا النوعين قالوا: إنه يُحِب، ويُحَب.

والجهمية، والمعتزلة، تنكر الأمرين.

ومن الناس من قال: إنه يحبه المؤمنون، وأما هو، فلا يحب شيئاً دون شيء.

ومنهم من عكس فقال: بل هو يحب المؤمنين، مع أن ذاته لا يُحَب.

كما يقولون: إنه يرحم، ولا يرحم.

فإذا قيل: إن الودود بمعنى: الواد، لزم أن يكون موددواً، بخلاف العكس. فالصواب: القطع بأن الودود هو الذى يود، وان كان ذلك متضمناً لأنه يستحق أن يود، ليس هو بمعنى المودود فقط.

ولفظ الوداد بالكسر، هو مثل: الموادة، والتواد، وذاك يكون من الطرفين؛ كالتحاب.

وهو سبحانه لما جعل بين الزوجين مودة ورحمة، كان كل منهما يود الآخر ويرحمه.

وهو سبحانه كما ثبت في الحديث الصحيح " أرحم بعباده من الوالدة بولدها "

وقد بين الحديث الصحيح:"أن فرحه بتوبة التائب أعظم من فرح الفاقد ماله ومركوبه في مهلكة إذا وجدهما بعد اليأس" وهذا الفرح يقتضي: أنه أعظم مودة لعبده المؤمن من المؤمنين بعضهم لبعض.

كيف؟ وكل ود في الوجود فهو من فعله.

فالذي جعل الود في القلوب،هو أولى بالود؛ كما قال ابن عباس ومجاهد،وغيرهما في قوله(سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (١).

قال: يحبهم، ويحببهم.

---

(١) سورة مريم: الآية (٩٦)

قد دل الحديث الذي في الصحيحين، على أن ما يجعله من المحبة في قلوب الناس، هو بعد أن يكون هو قد أحبه، وأمر جبريل أن ينادي بأن الله يحبه، فنادى جبريل في السماء: أن الله يحب فلاناً فأحبوه، وبسط هذا له موضع آخر.

وفي مناجاة بعض الداعين: ليس العجب من حبي لك مع حاجتي إليك، العجب من حبك لي مع غناك عني (١).

وفي أثر آخر: يا عبدي، وحقي اني لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً.

وروي: يا داود حببني إلى عبادي، وحبب عبادي إلي؛ مرهم بطاعتي فأحبهم، وذكرهم آلائي فيحبوني؛ فإنهم لا يعرفون مني إلا الحسن الجميل.

وهو سبحانه كما قال؛ كل ما خلقه، فإنه من نعمه على عباده.

ولهذا يقول (فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) (٢) والخير بيديه، لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه. ووده سبحانه هو لمن تاب إليه وأناب إليه؛ كما قال (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)(٣) وقوله تعالى (إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) (٤).

فلا يستوحش أهل الذنوب، وينفرون منه كأنهم حمر مستنفرة فإنه ودود رحيم بالمؤمنين، يحب التوابين، ويحب المتطهرين.

ولهذا قال شعيب(وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ) (٥) وقال هنا (وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ) (٦)

فذكر الودود في الموضعين، لبيان مودته للمذنب إذا تاب إليه، بخلاف القاسي الجافي الغليظ، الذي لا ود فيه.

---

(١) ورد ذلك عن أبي يزيد البسطامي، أنظر " حلية الأولياء " لأبي نعيم.
(٢) سورة الرحمن: الآية (١٣) ووردت مثلها آيات كثيرة
(٣) سورة مريم: الآية (٩٦)
(٤) سورة البقرة: الآية (٢٢٢)
(٥) سورة هود: الآية (٩٠)
(٦) سورة البروج: الآية (١٤)

والحجة الثانية لهم (١): قالوا: إن الإرادة والمحبة لا تتعلق إلا بمعدوم يراد فعله؛ فإنه لو جاز أن يراد الموجود، وأن يراد القديم، لجاز أن يكون العالم قديماً، مع كونه مراد مقدوراً ؛ كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة.

فإن القائلين إنه موجب بذاته، والعالم قديم؛ منهم من يصفه بالإرادة كأبي البركات (٢)، وغيره.

قالوا: ومن المعلوم بالاضطرار للعقلاء، إذ قالوا: هذا الأمر حصل بالإرادة أن يكون محدثاً، كائناً بعد أن لم يكن.

ولهذا لا يجوز أن يقال: إن قدرته ومشيئته تعلقت بوجوده، ولا ببقائه ولا بكونه حياً.

ومن قال: إن صفاته قديمة الأعيان، لا يقول إن كلامه وإرادته حصلت بإرادته وقدرته.

فيقال: هذا الذي قالوه صحيح، لكن هنا نوعان:

أحدهما: إرادة أن يفعل الشيء ويكون، فهذه لا تكون إلا مع حدوثه.

والثانية: محبة نفس ذاته، من غير أن يفعل في الذات شيء، فهذه التي تتعلق بالموجود، والباقي، والقديم.

وإرادة الفعل تابعة لهذه؛ فإنه لولا أن تكون الإرادة متعلقة بنفس الشيء الموجود، امتنع أن يراد إيجاده؛ فإن من أراد أن يبني بيتاً ليسكنه إنما مراده نفس البيت لسكناه، والانتفاع، وإنما البناء وسيلة إلى ذلك. ولولا إرادة الغاية المقصودة بالذات، لم ترد الوسيلة.

وإذا بناه، فهو مريد له بعد البناء، ولهذا يكره خرابه وزواله. وكذلك من أراد أن يلبس ثوباً، فلبسه، فهو في حال اللبس مريد له. فمن أراد إحداث أمر وفعله، كانت إرادة فعله لغاية مقصودة بعد الفعل هي العلة الغائبة.

والفعل المطلوب لغاية، لفاعله إرادتان: إرادة الفعل، وإرادة الغاية، وهذه هي الأصل، وتلك تبع لهذه.

---

(١) الشبهة الثانية لمن ينكر المحبة.

(٢) هو أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البلدي قال عنه الذهبي: العلامة الفيلسوف شيخ الطب أوحد الزمان، كان يهودي وأسلم أخر عمره، ولد نحو سنة ٤٨٠هـ وتوفي سنة ٥٦٠هـ انظر (سير أعلام النبلاء)

والإرادة: إرادة لا تتعلق بالمعدوم، من جهة كونه معدوماً، بل تتعلق بوجود الفعل، لكن يمتنع أن يراد فعله، إلا إذا كان معدوماً.

فالعدم شرط في إرادة فعله، ولهذا جعل من جملة علل الفعل.

ولهذا كان جماهير العقلاء مطبقين على أن كل مفعول فهو حادث وكل ما أريد أن يفعل فإنه يكون حادثاً، وكل ما تعلقت المشيئة والقدرة بفعله فهو حادث.

ثم من الناس من يقول: هذا مختص بكونه مفعولاً بالاختبار، وإلا إذا كان معلولاً لعلة موجبة، لم يلزم حدوثه.

وهو غلط، بل كل ما فعل، فلا يكون إلا محدثاً: سواء كان ذلك ممكناً أو ممتنعاً.

بل نفس كونه مفعولاً، مستلزم حدوثه، ونفس تصور العلم بكونه مفعولا يوجب العلم بحدوثه، وإن لم يخطر بالباب كونه مفعولا بالقدرة والاختيار.

ثم قد يقال: ما من مفعول إلا وهو مفعول بالاختيار، والقديم إذا قدر فاعلاً بلا مشيئة، كان ذلك ممتنعاً.

والموجب بالذات، إذا قيل: هو موجب بذاته المتصفة بمشيئته وقدرته لما يشاؤه، فهذا حق، وهو مستلزم لكونه فاعلاً بمشيئته وقدرته، وأما موجب بلا مشيئة، أو موجب يقارنه موجب، فهذان باطلان وبهما ضل من ضل من المتفلسفة القائلين بقدم الفلك ونفي الصفات. ولكن: من أراد إحداث شيء وأحدثه، لم يجب أن تنقطع إرادته بل قد يكون مريداً له ما دام موجوداً، ولولا أنه مريد لوجوده لما فعله. فكل ما شاء الله وجوده، فهو مريد لإحداثه وبقاءه ما دام باقياً.

وأما الإرادة، والمحبة، المتعلقة بالقديم: فليست إرادة فعل فيه، بل هي محبة ذاته.

وكل إرادة ومحبة، فلا بد أن تنتهي إلى محبوب لذاته.

وكل فاعل بالإرادة، فإرادته تستلزم محبة عامة لإجلها فعل.

فالحب أصل وجود كل موجود، والرب تعالى يحب نفسه.

ومن لوازم حبه نفسه: أنها محبة مريدة لما يريد أن يفعله، وما أراد فعله فهو يريده لغاية يحبها.

فالحب: هو العلة الغائبة: التي لأجلها كان كل شيء.

والمتفلسفة يصفونه بالابتهاج والفرح؛ كما جاءت به النصوص النبوية لكنهم يقصرون في معرفة هذا وأمثاله من الأمور الإلهية.

فإنهم يقولون: اللذة إدراك الملائم، من حيث هو ملائم، وهو مدرك لذاته بأفضل إدراك؛ فهو أفضل مدرِك، لأفضل مدرَك بأفضل إدارك.

وقد قصروا في ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها:أن اللذة، والفرح،والسرور، والبهجة،ليس هو مجرد الإدراك،بل هو حاصل عقب الإدراك.

فالإدراك موجب له، ولابد في وجوده من محبة.

فهنا ثلاثة أمور: محبة، وإدراك محبوب، ولذة تحصل بالإدراك. وهذا في اللذة الدنيوية الحسية وغيرها،فإن الإنسان يشتهي الحلو ويحبه، فإذا ذاقه، ألتذ بذوقه والذوق: هو الإدراك.

وكذلك في لذات قلبه يحب الله؛ فإنه إذا ذكره، وصلى له، وجد حلاوة ذلك؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: " جعلت قرة عيني في الصلاة " (١).

وأهل الجنة إذا تجلى لهم، فنظروا إليه،قال:فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه،والله أعلم.

(١) حديث شريف رواه احمد في المسند، والنسائي في باب: حب النساء.

فصل
في محبة الله وما يراد لذاته، وما يراد لغيره ثم ذلك الغير لابد أن يكون مراداً لذاته.

فالمراد لذاته، لازم لجنس الإرادة، والإرادة لازمة لجنس الحركة فإن الحركة الطبيعية، والقسرية، مستلزمة للحركة الإرادية.

والحركة الإرادية: مستلزمة لمراد لذاته.

فكان جنس الحركات الموجودة في العالم، مستلزم للمراد لذاته وهو المعبود الذي يستحق العبادة لذاته؛ وهو الله لا إله إلا هو، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.

وكل عمل لا يراد به وجهه، فهو باطل، وكل عامل لا يكون عمله لله بل لغيره، فهو المشرك؛ فانه كما قال الله تعالى (وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) (١)

فإن قوام الشيء بطبيعته الخاصة به، فالحي قوامه بطبيعته المستلزمة لحركته الإرادية.

وقوامها بالمراد لذاته، فإذا لم تكن حركتها لإرادة المعبود لذاته لم يكن لنفسه قوام، بل بقيت ساقطة، خارة؛ كما ذكر الله تعالى. ولهذا يهوي في الهاوية؛ وهو ذنب لا يغفر؛ لأنه فسد الأصل؛ كالمريض الذي فسد قلبه، لا ينفع مع ذلك إصلاح أعضائه.

ولفظ دعاء الله في القرآن (٢) يراد به دعاء العبادة، ودعاء المسألة فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به،فيكون الله هو المراد، ودعاء المسألة يكون الله هو المراد منه؛ كما في قول المصلي (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (٣) فالعبادة إرادته، والإستعانة وسيلة إلى العبادة.

فالعبادة إرادة المقصود، وإرادة الإستعانة، إرادة الوسيلة إلى المقصود ولهذا قدم قوله (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) وإن كانت لا تحصل إلا بالإستعانة فإن العلة الغائبة، مقدمة في التصور والقصد، وإن كانت مؤخرة في الوجود والحصول، وهذا إنما يكون لكونه هو المحبوب لذاته.

---

(١) سورة الحج: الآية (٣١)

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الدعاء هو العبادة وقرأ: " وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ " (غافر: ٦،) والحديث أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) سورة الفاتحة: الآية (٥)

لكن المراد به محبة مختصة به، على سبيل الخضوع له والتعظيم وعلى سبيل تخصيصها به؛ فيعبر عنها بلفظ الإنابة، والعبادة، ونحو ذلك إذ أن لفظ المحبة جنس عام، يدخل فيه أنواع كثيرة، فلا يرضى لله بالقدر المشترك، بل إذا ذُكِر من يحب غير الله.

قال تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (١)

وإذا ذكر محبتهم لربهم، ذكرت محبته لهم، وجهادهم؛ كما في قوله:(فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٢)

وفي مثل قوله (قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (٣) ولهذا كانت القلوب تطمئن بذكره؛ كما قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (٤)

فتقديم المفعول، يدل على أنها لا تطمئن إلا بذكره، وهو تعالى إذا ذكر وجلت، فحصل لها إضطراب ووجل، لما تخافه من دونه وتخشاه من فوات نصيبها منه.

فالوجل إذا ذكر، حاصل بسبب من الإنسان، وإلا فنفس ذكر الله يوجب الطمأنينة؛ لإنه هو المعبود لذاته، والخير كله منه.

قال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ) (٥)

وقال تعالى (اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٦).

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٦٥)
(٢) سورة المائدة: الآية (٥٤)
(٣) سورة التوبة: الآية (٢٤)
(٤) سورة الرعد: الآية (٢٨)
(٥) سورة الحجر: الآيتان (٤٩-٥٠)
(٦) سورة المائدة: الآية (٩٨)

وقال علي رضي الله عنه: لا يرجوَن عبدٌ إلا ربه، ولا يخافن عبدٌ إلا ذنبه. فالخوف الذي يحصل عند ذكره، هو بسبب من العبد، وإلا فذكر الرب نفسه يحصل الطمأنينة والأمن.

فما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك كما قال ذلك المريض الذي سئل: كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله، وأخاف ذنوبي.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما اجتمعا في قلب عبد مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف " (١).

ولم يقل بذكر الله توجل القلوب، كما قال(أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (٢)

بل قال (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (٣).

وإنما يتوكلون عليه، لطمأنينتهم إلى كفايته، وأنه سبحانه حسب من توكل عليه؛ يهديه، وينصره، ويرزقه بفضله، ورحمته، وجوده. فالتوكل عليه يتضمن الطمأنينة إليه، والاكتفاء به عما سواه.

وكذلك قال في الآية الأخرى (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ.الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)(٤) فهم مخبتون

والمخبت: المطمئن الخاضع لله.

والأرض الخبت: المطمئنة.

روى ابن أبي حاتم من حديث ابن مهدي، عن الثوري، عن ابن أبي نجيح:(وبشر المخبتين) قال: المطمئنين.

وعن الضحاك: المتواضعين، فوصفهم بالطمأنينة مع الوجل، كما وصفهم هناك بالتوكل عليه مع الوجل، وكما قال في وصف القرآن (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ

---

(١) جزء من حديث شريف رواه الترمذي، كتاب الجنائز، وابن ماجه من حديث انس في سننه، كتاب: الزهد.

(٢) سورة الرعد: الآية (٢٨)

(٣) سورة الأنفال: الآية (٢)

(٤) سورة الحج: الآيتان (٣٤-٣٥)

مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)(١) فذكر أنه بعد الإقشعرار، تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله فذكره بالذات، يوجب الطمأنينة،وإنما الإقشعرار والوجل، عارض بسبب ما في نفس الإنسان من التقصير في حقه، والتعدي لحده.

فهو كالزبد مع ما ينفع الناس: الزبد يذهب جفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض.

فالخوف مطلوب لغيره، ليدعو النفس إلى فعل الواجب، وترك المحرم.

وأما الطمأنينة بذكره، وفرح القلب به، ومحبته، فمطلوب لذاته.

ولهذا يبقى معهم هذا في الجنة، فيلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس (٢).

والمتفلسفة رأوا اللذات في الدنيا ثلاثة:حسية، ووهمية،وعقلية والحسية،في الدنيا غايتها دفع الألم.

والوهمية خيالات وأضغاث، واللذة الحقيقية هي العلم. فجعلوا جنس العلم غاية، وغلطوا من وجوه:

أحدها: أن العلم بحسب المعلوم، فإذا كان المعلوم محبوباً، تكمل النفس بحبه، كان العلم به كذلك.

وإن كان مكروهاً، كان العلم به لحذره، ودفع ضرره؛ كالعلم بما يضر الإنسان من شياطين الإنس والجن، فلم يكن المقصود نفس العلم، بل المعلوم.

ولهذا قد يقولون: سعادتها في العلم بالأمور الباقية، وأنها تبقى ببقاء معلومها.

ثم يظنون أن الفلك، والعقول، والنفوس، أمور باقية، وأن بمعرفة هذه تحصل سعادة النفس.

وأبو حامد في مثل "معراج السالكين" ونحوه، يشير إلى هذا، فإن كلامه برزخ بين المسلمين وبين الفلاسفة؛ ففيه فلسفة مشوبة بإسلام، وإسلام مشوب بفلسفة.

---

(١) سورة الزمر: الآية (٢٣)

(٢) حديث شريف أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول " إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء، ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح، والتحميد، كما يلهمون النفس " صحيح مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

ولهذا كان في كتبه، كـ "الأحياء" وغيره، يجعل المعلوم بالأعمال والأعمال كلها، إنما غايتها هو العلم فقط، وهذا حقيقة قول هؤلاء الفلاسفة.

وكان يعظم الزهد جداً، ويعتني به، أعظم من اعتنائه بالتوحيد الذي جاءت به الرسل؛ وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

فإن هذا التوحيد، يتضمن محبة الله وحده، وترك محبة المخلوق مطلقاً إلا إذا أحبه الله، فيكون داخلاً في محبة الله، بخلاف من يحبه مع الله فإن هذا شرك.

وهؤلاء المتفلسفة، إنما يعظمون تجريد النفس عن الهيولي، وهي المادة وهي البدن، وهو الزهد في أغراض البدن، وهو الزهد في الدنيا. وهذا ليس فيه إلا تجريد النفس عن الإشتغال بهذا؛ فتبقى النفس فارغة؛ فيلقي إليها الشيطان ما يلقيه، ويوهمه أن ذلك من علوم المكاشفات والحقائق، وغايته وجود مطلق، هو في الأذهان، لا في الأعيان.

ولهذا جعل أبو حامد السلوك إلى الله ثلاثة منازل، بمنزلة السلوك إلى مكة فإن السالك إليها له ثلاثة أصناف من الشغل:

الأول: تهيئة الأسباب؛ كشراء الزاد، والراحلة، وخرز الراوية.

والآخر: السلوك، ومفارقة الوطن، بالتوجه إلى الكعبة، منزلاً بعد منزل.

والثالث: الاشتغال بأركان الحج، ركناً بعد ركن، ثم بعد النزوع عن لبسة الإحرام، وطواف الوداع، استحق التعرض للملك، والسلطنة. قال: فالعلوم ثلاثة: قسم يجري مجرى سلوك البوادي، وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات، وطلوع تلك العقبة الشامخة، التي عجز عنها الأولون والآخرون، إلا الموفقون.

قال: فهذا سلوك للطريق، وتحصيل علمه؛ كتحصيل علم جهات الطريق، ومنازله.

وكما لا يغني علم المنازل، وطرق البوادي دون سلكوها، فكذا لا يغني علم تهذيب الأخلاق، دون مباشرة التهذيب، لكن المباشرة دون العلم، غير ممكن.

قال: وقسم ثالث: يجري مجرى نفس الحج وأركانه؛ وهو العلم بالله وصفاته، وملائكته، وأفعاله، وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة.

قال: وههنا نجاة وفوز بالسعادة.

والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق، إذا كان غرضه المقصد، وهو السلامة. وأما الفوز بالسعادة: فلا ينالها إلا العارفون؛ فهم المقربون المنعمون في جوار الله بالروح، والريحان وجنة نعيم.

وأما الممنوعون دون ذروة الكمال، فلهم النجاة والسلامة؛ كما قال الله تعالى (فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ.فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) (١).

قال: وكل من لم يتوجه إلى المقصد،أو انتهض إلى جهته لا على قصد الإمتثال بالأمر والعبودية، بل لغرض عاجل، فهو من أصحاب الشمال، ومن الضالين؛ فله نزل من حميم وتصلية جحيم.

قال:وأعلم أن هذا هو الحق اليقين عند العلماء الراسخين في العلم،أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن،ومشاهدة الباطن أقوى وأجل من مشاهدة الأبصار،وترقوا فيه عن حد التقليد إلى الاستبصار.

قلت (٢): وكلامه من هذا الجنس كثير، ومن لم يعرف حقيقة مقصده يهوله مثل هذا الكلام؛ لأن صاحبه يتكلم بخبرة ومعرفة بما يقوله، لا بمجرد تقليد لغيره.

لكن الشأن فيما خبره، هل هو حق مطابق؟.

ومن سلك مسلك المتكلمين؛ الجهمية، والفلاسفة، ولم يكن عنده خبرة بحقائق ما بعث به رسوله، وأنزل به كتبه، بل ولا بحقائق الأمور عقلاً وكشفاً، فإن هذا الكلام غايته.

وأما من عرف حقيقة ما جاءت به الرسل، أو عرف مع ذلك بالبراهين العقلية، والمكاشفات الشهودية، صدقهم فيما أخبروا به فإنه يعلم غاية مثل هذا الكلام، وأنه إنما ينتهي إلى التعطيل.

ولهذا ذاكرني مرة شيخ جليل له معرفة، وسلوك، وعلم في هذا،فقال: كلام أبي حامد يشوقك، فتسير خلفه، وهو يشوقك، فتسير خلفه منزلاً بعد منزل، فإذا هو ينتهي إلى لا شيء.

---

(١) سورة الواقعة: الآيات (٨٨-٩١)

(٢) تعليق شيخ الإسلام علي كلام الغزالي.

وهذا الذي جعله هنا الغاية، وهو: معرفة الله، وصفاته، وأفعاله وملائكته، قد ذكره في المضنون به على غير أهله، وهو فلسفة محضة. قول المشركين من العرب خير منه، دع قول اليهود والنصارى بل قوم نوح، وهود، وصالح، ونحوهم، كانوا يقرون بالله، وبملائكته وصفاته، وأفعاله، خيراً من هؤلاء، لكن لم يقروا بعبادته وحده لا شريك له، ولا بأنه أرسل رسولاً من البشر.

وهذا حقيقة قول هؤلاء؛ فإنهم لا يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له، ولا يثبتون حقيقة الرسالة، بل النبوة عندهم فيض من جنس المنامات.

وأولئك الكفار ما كانوا ينازعون في هذا الجنس؛ فإن هذا الجنس موجود لجميع بني آدم.

ومع هذا، فقد أخبر الله تعالى عنهم، أنهم كانوا يقرون بالملائكة كما قال (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ)(١) وقال قوم نوح (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) (٢).

بل فرعون قال لموسى (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ) (٣).

والعبادات كلها عندهم مقصودها: تهذيب الأخلاق، والشريعة سياسة مدنية، والعلم الذي يدعون الوصول إليه، لا حقيقة لمعلومه في الخارج.

والله أرسل رسوله بالإسلام، والإيمان بعبادة الله وحده، وتصديق الرسول فيما أخبر.

فالأعمال: عبادة الله، والعلوم: تصديق الرسول.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص، وتارة:(قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

---

(١) سورة فصلت: الآيتان (١٣-١٤)

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٣٣)

(٣) سورة الزخرف الآية: ٥٢-٥٤

مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (١) الآية فإنها تتضمن الإيمان، والإسلام.

وبالآية من آل عمران (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (٢) والذين سلكوا خلف أبي حامد، أو ضاهوه في السلوك؛ كابن سبعين وابن عربي، صرحوا بحقيقة ما وصلوا إليه، وهو أن الوجود واحد وعلموا أن أبا حامد لا يوافقهم على هذا، فاستضعفوه، ونسبوه إلى أنه مقيد بالشرع والعقل.

وأبو حامد بين علماء المسلمين، وبين علماء الفلاسفة.

علماء المسلمين يذمونه على ما شارك فيه الفلاسفة، مما يخالف دين الإسلام.

والفلاسفة يعيبونه على ما بقي معه من الإسلام، وعلى كونه لم ينسلخ منه بالكلية إلى قول الفلاسفة.

ولهذا كان الحفيد ابن رشد (٣) ينشد فيه:

يوماً يمان إذا ما جئت ذا يمنٍ وإن لقيتَ معدياً فعدناني

وأبو نصر القشيري، وغيره ذموه على الفلسفة، وأنشدوا فيه أبياتا معروفة يقولون فيها:

برئنا إلى الله من معشر بهم مرض من كتاب الشفا (٤)

وكم قلت يا قوم أنتم على شفا حفرة مالها من شفا

فلما استهانوا بتعريفنا رجعنا إلى الله حتى كفى

فماتوا على دين رسطاليس (٥) وعشنا على سنة المصطفى

---

(١) سورة الزخرف الآية: ١٣٦

(٢) سورة آل عمران الآية: ٦٤

(٣) ذكر ابن رشد في كتابه " فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال " ص٣ عن الغزالي: أنه لم يذهب مذهبا من المذاهب في كتبه، بل هو مع الأشاعرة أشعري، ومع الصوفية صوفي، ومع الفلاسفة فيلسوف " ونحن نرى أن ذلك ليس عيباً، بل دليل على سعة علم الإمام الغزالي وغزارة معرفته وغوصه كسباح ماهر في جميع العلوم والمعارف، وفي كل علم له ذاتيته ورأيه واستقلاليته. (المحقق)

(٤) أي كتاب الشفاء لابن سينا.

(٥) أي أرسطوطاليس: وهو من الفلاسفة اليونان القدماء.

ولهذا كانوا يقولون: أبو حامد قد أمرضه الشفاء.

وكذلك الطرطوسي، والمازري، وابن عقيل، وأبو البيان، وابن حمدين ورفيق أبي حامد، أبو نصر المرغيناني، وأمثال هؤلاء (١) لهم كلام كثير في ذمه على ما دخل فيه من الفلسفة.

ولعلماء الأندلس في ذلك مجموع كبير.

ولهذا لما سلك خلفه ابن عربي، وابن سبعين، كان ابن سبعين في كتاب " اليد " (٢) وغيره، يجعل الغاية هو المقرب؛ وهو نظير المقرب في كلام أبي حامد.

ويجعل المراتب خمسة: أدناها الفقيه، ثم المتكلم، ثم الفيلسوف ثم الصوفي الفيلسوف؛ وهو السالك، ثم المحقق.

وابن عربي له أربع عقائد:

الأولى: عقيدة أبي المعالي وأتباعه، مجردة عن حجة.

والثانية: تلك العقيدة، مبرهنة بحججها الكلامية.

والثالثة: عقيدة الفلاسفة؛ ابن سينا وأمثاله، الذين يفرقون بين الواجب والممكن.

والرابعة: التحقيق الذي وصل إليه؛ وهو أن الوجود واحد. وهؤلاء يسلكون مسلك الفلاسفة، الذي ذكره أبو حامد في ميزان العمل وهو: أن الفاضل له ثلاث عقائد: عقيدة مع العوام يعيش بها في الدنيا كالفقه مثلاً.

وعقيدة مع الطلبة يدرسها لهم؛ كالكلام.

والثالثة: لا يطلع عليها أحد إلا الخواص.

ولهذا صنف الكتب المضنون بها على أهلها،وهي فلسفة محضة سلك فيها مسلك ابن سينا.

ولهذا يجعل اللوح المحفوظ، هو النفس الفلكية، إلى أمور أخرى قد بسطت في غير هذا الموضع، ذكرنا ألفاظه بعينها في مواضع؛ منها: الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة، وغير ذلك.

---

(١) إي العلماء الذين تحدثوا في نقد منهج الغزالي.

(٢) و كتاب اليد، هو: " بدء المعارف " لابن سبعين، وهو مطبوع نقلاً عن " شرح الأصفهانية "

فإنه لما انتشر الكلام في مذهب أهل الوحدة، وكنت لما دخلت إلى مصر بسببهم، ثم صرت في الإسكندرية، جاءني من فضلائهم من يعرف حقيقة أمرهم.

وقال: إن كنت تشرح لنا كلام هؤلاء، وتبين مقصودهم، ثم تبطله وإلا فنحن لا نقبل منك كما لا نقبل من غيرك؛ فإن هؤلاء لا يفهمون كلامهم.

فقلت: نعم، أنا أشرح لك ما شئت من كلامهم؛ مثل كتاب اليد والإحاطة لابن سبعين، وغير ذلك.

فقال لي: لا، ولكن لوح الأصالة (١)، فإن هذا يعرفون، وهو في رءوسهم.

فقلت له: هاته. فلما أحضره شرحته له شرحا بينا، حتى تبين له حقيقة الأمر، وأن هؤلاء ينتهي أمرهم إلى الوجود المطلق.

فقال: هذا حق.

وذكر لي أنه تناظر اثنان؛ متفلسف سبعيني، ومتكلم على مذهب ابن التومرت (٢).

فقال ذاك: نحن شيخنا يقول بالوجود المطلق.

فقال الآخر: وأنا كذلك إمامنا.

قلت له: والمطلق في الأذهان لا في الأعيان.

فتبين له ذلك، وأخذ يصنف في الرد عليهم.

ولم أكن أظن ابن التومرت يقول بالوجود المطلق، حتى وقفت بعد هذا على كلامه المبسوط، فوجدته كذلك، وأنه كان يقول: الحق حقان الحق المقيد، والحق المطلق، وهو الرب.

وتبينت أنه لا يثبت شيئاً من الصفات، ولا ما يتميز به موجود عن موجود؛ فإن ذلك يقيد شيئاً من الإطلاق.

وسألني هذا عما يحتجون به من الحديث؛ مثل الحديث المذكور في العقل وأن أول ما خلق الله تعالى العقل، ومثل حديث: كنت كنزا لا أعرف فأحببت أن أعرف، وغير ذلك؟

---

(١) اسمها " رسالة الألواح " وهي ضمن رسائل ابن سبعين

(٢) هو عبدالله محمد بن عبدالله محمد بن تومرت البربري المصمودي مؤسس دولة الموحدين التي قامت علي أنقاض دولة المرابطين توفي سنة ٥٢٤هـ أنظر (سير أعلام النبلاء) و (البداية والنهاية)

فكتبت له جواباً مبسوطاً، وذكرت أن هذه الأحاديث موضوعة وأبو حامد وهؤلاء لا يعتمدون على هذا، وقد نقلوه إما من رسائل إخوان الصفا، أو من كلام أبي حيان التوحيدي، أو من نحو ذلك.

وهؤلاء في الحقيقة، هم من جنس الباطنية الإسماعيلية (١)، لكن أولئك يتظاهرون بالتشيع والرفض،وهؤلاء غالبهم يميلون إلى التشيع، ويفضلون علياً رضي الله عنه ومنهم من يفضله بالعلم الباطن، ويفضل أبا بكر رضي الله عنه في العلم الظاهر؛ كأبي الحسن الحرلي، وفيه نوع من مذهب الباطنية الإسماعيلية، لكن لا يقول بوحدة الوجود مثل هؤلاء، ولا أظنه يفضل غير الأنبياء عليهم؛ فهو أنبل من هؤلاء من وجه، لكنه ضعيف المعرفة بالحديث، والسير، وكلام الصحابة والتابعين؛ فيبني له أصولاً على أحاديث موضوعة، ويخرج كلامه من تصوف، وعقليات وحقائق، وهو خير من هؤلاء، وفي كلامه أشياء حسنة صحيحة وأشياء كثيرة باطلة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الثاني: أن صلاح النفس في محبة المعلوم المعبود؛ وهي عبادته، لا في مجرد علم ليس فيه ذلك، وهم جعلوا غاية النفس، التشبه بالله على حسب الطاقة، وكذلك جعلوا حركة الفلك للتشبه به.

وهذا ضلال عظيم؛ فإن جنس التشبه يكون بين اثنين مقصودهما واحد، كالإمام، والمؤتم به.

وليس الأمر هنا كذلك، بل الرب هو يعرف نفسه، ويحب نفسه، ويثني على نفسه، والعبد نجاته وسعادته في أن يعرف ربه، ويحبه، ويثني عليه.

والتشبه به: أن يكون هو محبوباً لنفسه، مثنياً بنفسه على نفسه.

وهذا فساد في حقه، وضار به، والقوم أضل من اليهود والنصارى بل ومن مشركي العرب؛ فإنه ليس الرب عندهم؛ رب العالمين وخالقهم ولا إلههم ومعبودهم.

ومشركو العرب كانوا يقرون بإنه خالق كل شيء، وما سواه مخلوق له محدث.

وهؤلاء الضالون لا يعترفون بذلك؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع.

---

(١) الإسماعيلية: نسبة إلي محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

الوجه الثالث: أنهم يظنون أن ما عندهم، هو علم بالله. وليس كذلك، بل هو جهل.

والرازي لما شاركهم في بعض أمورهم، صار حائراً معترفاً بذلك لما ذكر أقسام اللذات، وأن اللذة العقلية هي الحق؛ وهي لذة العلم وأن شرف العلم، بشرف المعلوم؛ وهو الرب، وأن العلم به ثلاث مقامات: العلم بالذات، والصفات، والأفعال.

قال:وعلى كل مقام عقدة؛ فالعلم بالذات فيه، أن وجود الذات: هل هو زائد عليها، أم لا؟

وفي الصفات: هل الصفات زائدة على الذات، أم لا؟

وفي الأفعال: هل الفعل مقارنا، أم لا؟

ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب؟ أو من الذي ذاق من هذا الشراب؟

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وغاية دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (١)

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (٢)

واقرأ في النفي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (٣)

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) (٤).

ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي.

فالسعادة أن يكون العلم المطلوب، هو العلم بالله، وما يقرب إليه ويعلم أن السعادة، في أن يكون الله هو المحبوب، المراد المقصود ولا يحتجب بالعلم عن المعلوم.

---

(١) سورة طه:الآية (٥)

(٢) سورة فاطر: الآية (١٠)

(٣) سورة الشوري: الآية (١١)

(٤) سورة طه: الآية (١١٠)

كما قال ذلك الشيخ العارف للغزالي، لما قال له:أخلصت أربعين صباحاً، فلم يتفجر لي شيء.

فقال: يا بني أنت أخلصت للحكمة، لم يكن الله هو مرادك.

والإخلاص لله، أن يكون الله هو مقصود المرء ومراده، فحينئذ تتفجر ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه،كما في حديث مكحول، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه" (١).

ولهذا تقول العامة: قيمة كل امرئ ما يحسن.

والعارفون يقولون: قيمة كل امرئ ما يطلب.

وفي الإسرائيليات: يقول إني لا أنظر إلى كلام الحكيم، وإنما أنظر إلى همته.

فالنفس لها قوة الإرادة مع الشعور، وهما متلازمان.

وهؤلاء لحظوا شعورها، وأعرضوا عن أرادتها، وهي تتقوم بمرادها لا بمجرد ما تشعر به؛ فإنها تشعر بالخير والشر، والنافع والضار ولكن لا يجوز أن يكون مرادها، ومحبوبها، إلا ما يصلحها وينفعها وهو الآله المعبود، الذي لا يستحق العبادة غيره، وهو الله لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم مع هذا يكون العلم حقاً، وهو ما أخبرت به الرسل؛ فالعلم الحق، هو ما أخبروا به، والإرادة النافعة، إرادة ما أمروا به؛ وذلك عبادة الله وحده لا شريك له. فهذا هو السعادة، وهو الذي اتفقت عليه الأنبياء كلهم؛ فكلهم دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذلك إنما يكون بتصديق رسله وطاعتهم.فلهذا كانت السعادة متضمنة لهذين الأصلين:الإسلام،والإيمان عبادة الله وحده،وتصديق رسله.

---

(١) حديث ضعيف: أنظر السلسلة الضعيفة للألباني (١/٥٥-٦٦)

وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله قال تعالى (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ) (١) قال أبو العالية (٢): هما خصلتان يسأل عنهما كل أحد؛ يقال لمن كنت تعبد؟ وبماذا أجبت المرسلين؟ وقد بسط هذا في غير هذا الموضع، والله أعلم.

واتبع لها أسعد الناس في الدنيا والآخرة، وخير القرون القرن الذي شاهدوه مؤمنين به، وبما يقول؛ إذ كانوا أعرف الناس بالفرق بين الحق الذي جاء به، وبين ما يخالفه.

وأعظم محبة لما جاء به، وبغضاً لما خالفه، وأعظم جهاداً عليه فكانوا أفضل ممن بعدهم في العلم، والدين، والجهاد؛ أكمل علما بالحق والباطل؛ وأعظم محبة للحق، وبغضاً للباطل؛ وأصبر على متابعة الحق، واحتمال الأذى فيه، وموالاة أهله، ومعاداة أعدائه. واتصل بهم ذلك إلى القرن الثاني، والثالث، فظهر ما بعث بت من الهدى ودين الحق، على كل دين في مشارق الأرض ومغاربها كما قال صلى الله عليه وسلم: " زويت لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها " (٣).

وكان لا بد أن يظهر في أمته ما سبق به القدر، واقتضته نشأة البشر من نوع من التفرق والاختلاف، كما كان فيما غبر.

لكن كانت أمته خير الأمم، فكان الخير فيهم أكثر منه في غيرهم والشر فيهم أقل منه في غيرهم؛ كما يعرف ذلك من تأمل حالهم وحال بني إسرائيل قبلهم.

وبنو إسرائيل هم الذين قال الله فيهم (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) (٤)

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٦)

(٢) هو رفيع بن مهران البصري ابو العالية الرياحي، أدرك زمن النبي صلي الله عليه وسلم وهو شاب، وأدرك خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير في المدينة. أنظر(سير أعلام النبلاء)

(٣) حديث شريف أخرجه مسلم في صحيحة، كتاب: الفتن وأشراط الساعة والإمام احمد في المسند، وأبو داود في سننه، كتاب: الفتن والملاحم.

(٤) سورة الجاثية: الآيات (١٦-١٩)

وقال لهم موسى (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ) (١).

فإذا كان بنو إسرائيل، الذين فضلهم على العالمين في تلك الأزمان وكانت هذه الأمة خيراً منهم، كانوا خيراً من غيرهم بطريق الأولى. فكان مما خصهم الله به، أنه لا يعذبهم بعذاب عام؛ لا من السماء ولا بأيدي الخلق؛ فلا يهلكهم بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فيجتاحهم.

كما كان يسلط على بني إسرائيل عدواً يجتاحهم، حتى لا يبقى لهم دين قائم منصور، ومن لا يقتل منهم، يبقى مقهوراً تحت حكم غيرهم.

بل لا تزال في هذه الأمة، طائفة ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة (٢)

ولا يجتمعون على ضلالة (٣)؛ فلا تزال فيهم أمة يدعون إلى الخبر ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون (٤).

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة؛ سألت ربي أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، فأعطانيها؛ وسألته أن لا يهلكهم بسنة عامة، فأعطانيها؛ وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " (٥).

وهذا البأس نوعان:

أحدهما: الفتن التي تجري عليهم.

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢٠)

(٢) يشير إلى الحديث الشريف الذي رواة الشيخان، واحمد في المسند قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون علي الحق ظاهرين إلي يوم القيامة" رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الأمارة.

(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الله لا يجمع أمتي علي ضلالة" أخرجه الترمذي في جامعه من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: كتاب: الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، وللحديث شواهد أخري أخرجهما الدرامي في سننه، والحاكم في مستدركه.

(٤) قال تعالي " وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (آل عمران: ١٠٤)

(٥) هو جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحة، كتاب: الفتن وأشراط الساعة.

والفتنة ترد على القلوب، فلا تعرف الحق، ولا تقصده؛ فيؤذي بعضهم بعضاً بالأقوال والأعمال.

والثاني: أن يعتدي أهل الباطل منهم، على أهل الحق منهم، فيكون ذلك محنة في حقهم، يكفر الله بها سيئاتهم، ويرفع بالصبر عليها درجاتهم، وبصبرهم، وتقواهم، لا يضرهم كيد الظالمين لهم، بل تكون العاقبة للتقوى، ويكونون من أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين، وجند الله الغالبين؛ إذا كانوا من أهل الصبر واليقين (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) (١).

والمتعدي منهم، إما أن يتوب الله عليه، كما تاب على إخوة يوسف بعد عدوانهم عليه، وآثره الله عليهم بصبره وتقواه كما قال لما قالوا (قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) (٢).

كما فعل سبحانه بقادة الأحزاب، الذين كانوا أعداء لله وللمؤمنين وقال فيهم (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ) (٣) ثم قال(عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(٤) وفي هذا ما دل على أن الشخص قد يكون عدواً لله، ثم يصير ولياً لله موالياً لله ورسوله والمؤمنين. فهو سبحانه يتوب على من تاب، ومن لم يتب، فإلى الله إيابه وعليه حسابه.

وعلى المؤمنين أن يفعلوا معه ومع غيره ما أمر الله به ورسوله؛ من قصد نصيحتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛ كما أمر الله ورسوله.

---

(١) سورة يوسف: الآية (٩٠)
(٢) سورة يوسف: الآية (٩٠ –٩٢)
(٣) سورة الممتحنة: الآية (١)
(٤) سورة الممتحنة: الآية (٧)

لا إتباعاً للظن وما تهوى الأنفس، حتى يكون من خير أمة أخرجت للناس؛ يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله. وهؤلاء يعلمون الحق ويقصدونه، ويرحمون الخلق، وهم أهل صدق وعدل أعمالهم خالصة لله، صواب موافقة لأمر الله.

كما قال تعالى (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (١). قال الفضيل ابن عياض، وغيره: أخلصه، وأصوبه، والخالص أن يكون لله.

والصواب: أن يكون على السنة. وهو كما قالوا، فإن هذين الأصلين، هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله، كما قال(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)(٢) فالذي أسلم وجهه لله: هو الذي يخلص نيته لله، ويبتغي بعمله وجه الله.

والمحسن: هو الذي يحسن عمله؛ فيعمل الحسنات.

والحسنات: هي العمل الصالح.

والعمل الصالح: هو ما أمر الله به ورسوله؛ من واجب ومستحب. فما ليس من هذا ولا هذا، ليس من الحسنات، والعمل الصالح فلا يكون فاعله محسناً.وكذلك قال لمن قال (لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى)(٣) قال (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (٤).وقد قال تعالى (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (٥). والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين، ومن اتبعهم من الأمم، كما أخبر الله بنحو

---

(١) سورة الملك: الآية (٢)
(٢) سورة النساء: الآية (١٢٥)
(٣) سورة البقرة: الآية (١١١)
(٤) سورة البقرة: الآية (١١١-١١٢)
(٥) سورة آل عمران: الآية (٨٥)

ذلك في غير موضع (١) من كتابه، فأخبر عن نوح (٢) وإبراهيم، وإسرائيل (٣) عليهم السلام أنهم كانوا مسلمين،وكذلك عن أتباع موسى (٤)، وعيسى (٥)، عليه السلام وغيرهم.

والإسلام: هو أن يستسلم لله، لا لغيره؛ فيعبد الله ولا يشرك به شيئا ويتوكل عليه وحده، ويرجوه، ويخافه وحده، ويحب الله المحبة التامة لا يحب مخلوقاً كحبه لله، ويبغض لله، ويوالي لله، ويعادي لله.

فمن استكبر عن عبادة الله لم يكن مسلماً، ومن عبد مع الله غيره لم يكن مسلماً.

وإنما تكون عبادته بطاعته؛ وطاعة رسله؛ من يطع الرسول فقد أطاع الله؛ فكل رسول بعث بشريعة، فالعمل بها في وقتها هو دين الإسلام.

وأما ما بدل منها، فليس من دين الإسلام، وإذا نسخ منها ما نسخ لم يبق من دين الإسلام.

كاستقبال بيت المقدس في أول الهجرة بضعة عشر شهراً، ثم الأمر باستقبال الكعبة؛ وكلاهما في وقته دين الإسلام،فبعد النسخ لم يبق دين الإسلام،إلا أن يولي المصلي وجهه شطر المسجد الحرام.

فمن قصد أن يصلي إلى غير تلك الجهة،لم يكن على دين الإسلام؛لأنه يريد أن يعبد الله بما لم يأمره،وهكذا كل بدعة تخالف أمر الرسول؛ إما أن تكون من الدين المبدل، الذي ما شرعه الله قط، أو من المنسوخ الذي نسخه الله بعد شرعه؛ كالتوجه إلى بيت المقدس، فلهذا كانت السنة في الإسلام، كالإسلام في الدين؛ هو الوسط كما قد شرح هذا في غير موضع.

والمقصود هنا: أنه إذا رد ما تنازع فيه الناس إلى الله والرسول سواء كان في الفروع أو الأصول، كان ذلك خيراً وأحمد عاقبة كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ

---

(١) قال تعالي " إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ " (المائدة: ٤٤)

(٢) حكي الله تعالي عن نوح عليه السلام انه قال لقومه " فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ " (يونس: ٧٢)

(٣) اخبر الله تعالي عن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام "إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ " (البقرة: ١٣١-١٣٢)

(٤) حكي الله تعالي عن موسي عليه السلام انه قال لقومه " وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ " (يونس: ٨٤)

(٥) قال الله تعالي عن عيسي عليه السلام " فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ   قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (آل عمران: ٥٢)

الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً) (١) وقال تعالى (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (٢).

وفي صحيح مسلم عن عائشة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول: " اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " (٣).

وهذه حال أهل العلم والحق والسنة؛ يعرفون الحق الذي جاء به الرسول؛ وهو الذي اتفق عليه صريح المعقول، وصحيح المنقول ويدعون إليه؛ ويأمرون به نصحاً للعباد، وبياناً للهدى والسداد.

ومن خالف ذلك، لم يكن لهم معه هوى، ولم يحكموا عليه بالجهل بل حكمه إلى الله والرسول.

فمنهم من يكفره الرسول، ومنهم من يجعله من أهل الفسق أو العصيان، ومنهم من يعذره ويجعله من أهل الخطأ المغفور. والمجتهد من هؤلاء، المأمور بالاجتهاد، يجعل له أجراً على فعل ما أمر به من الاجتهاد، وخطؤه مغفور له كما دل الكتاب (٤).

وأما أهل البدع: فهم أهل أهواء وشبهات، يتبعون أهواءهم فيما يحبونه ويبغضونه، ويحكمون بالظن والشبه؛ فهم يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى.

---

(١) سورة النساء: الآية (٥٩)

(٢) سورة البقرة: الآية (٢١٣)

(٣) حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أم المؤمنين رضي الله عنها، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: الدعاء.

(٤) قال تعالي " رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"(البقرة:٢٨٥-٢٨٦)

فكل فريق منهم قد أصل لنفسه أصل دين وضعه؛ إما برأيه وقياسه الذي يسميه عقليات؛ وإما بذوقه وهواه الذي يسميه ذوقيات وإما بما يتأوله من القرآن، ويحرف فيه الكلم عن مواضعه.

ويقول أنه إنما يتبع القرآن كالخوارج؛ وإما بما يدعيه من الحديث والسنة ويكون كذباً وضعيفاً، كما يدعيه الروافض؛ من النص والآيات.

وكثير ممن يكون قد وضع دينه برأيه، أو ذوقه، يحتج من القرآن بما يتأوله على غير تأوله، ويجعل ذلك حجة لا عمدة، وعمدته في الباطن على رأيه، كالجهمية والمعتزلة في الصفات والأفعال بخلاف مسائل الوعد والوعيد؛ فإنهم قد يقصدون متابعة النص.

فالبدع نوعان:

نوع كان قصد أهلها متابعة النص والرسول، لكن غلطوا في فهم المنصوص وكذبوا بما يخلف ظنهم، من الحديث ومعاني الآيات؛ كالخوارج وكذلك الشيعة المسلمين، بخلاف من كان منافقاً زنديقاً يظهر التشيع وهو في الباطن لا يعتقد الإسلام.

وكذلك المرجئة، قصدوا إتباع الأمر والنهي، وتصديق الوعيد مع الوعد. ولهذا قال عبد الله بن المبارك، ويوسف ابن أسباط، وغيرهما: إن الثنتين والسبعين فرقة، أصولها أربعة: الشيعة، والخوارج والمرجئة، والقدرية.

وأما الجهمية النافية للصفات، فلم يكن أصل دينهم إتباع الكتاب والرسول؛ فإنه ليس في الكتاب والسنة نص واحد يدل على قولهم بل نصوص الكتاب والسنة متظاهرة بخلاف قولهم، وإنما يدعون التمسك بالرأي المعقول.

وقد بسط القول على بيان فساد حججهم العقلية، وما يدعيه بعضهم من السمعيات، وبين أن المعقول الصريح، موافق للمنقول الصحيح في بطلان قولهم، لا مخالف له.

والمقصود هنا: الكلام في أفعال الرب؛ فإن الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم، صاروا يسلكون فيه بأصل أصل بالمعقول، ويجعلونه العمدة، وخاضوا في لوازم القدر برأيهم المحض، فتفرقوا فيه تفرقاً عظيما، وظهر بذلك حكمة نهي النبي صلى الله عليه وسلم لأمته عن التنازع في القدر.

مع أن المتنازعين كان كل منهما يدلي بآية، لكن كان ذلك يفضي إلى إيمان كل طائفة ببعض الكتاب دون البعض، فكيف إذا كان المتنازعون عمدتهم رأيهم.

والحديث رواه أهل المسند والسنن مفصلاً، ورواه مسلم مجملاً عن عبد الله بن رباح الأنصاري، أن عبد الله بن عمرو قال: هجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فسمع صوت رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا صلى الله عليه وسلم يُعرف في وجهه الغضب.

فقال: " إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب ".

وقال الإمام أحمد في المسند: حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، والناس يتكلمون في القدر.

قال: فكأنما يفقأ في وجهه حَبُ الرمان من الغضب.

قال: فقال: مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟

بهذا هلك من كان قبلكم.

قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أشهده، ما غبطت نفسي بذلك المجلس أني لم أشهده.

وهذا حديث محفوظ من رواية عمرو بن شعيب، وقد رواه ابن ماجه من حديث أبي معاوية.

وكتب أحمد في رسالته إلى المتوكل هذا الحديث، وجعل يقول في مناظرته لهم، يوم الدار في المحنة: إنا قد نهينا عن أن نضرب كتاب الله بعضه ببعض.

وروى هذا المعنى: الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب.

قال: وفي الباب الذي فررت منه؛ فإنه كما قيل: إن له حياة وعلماً،وقدرة، وإرادة، وغضباً، ورضى، ونحو ذلك.

قلت: هذا يستلزم أن يكون موافقاً للمخلوق، في مسمى هذه الأسماء، وهذا تشبيه.

فقيل لك: هذا يلزم مثله في الذات؛ فإن قيل بتعطيل الذات،فذلك يستلزم ما فررت منه؛ من ثبوت جسم قديم، حامل للأعراض والحركات.

وإذا كان هذا لازماً لك على تقدير نفي الذات، كما ثبت أنه لازم على تقدير إثباتها، كان لازماً على تقدير النقيضين؛ النفي والإثبات، وما كان كذلك لم يمكن نفيه.

وأما نحن، فقد بينا أن اللازم على تقدير إثباتها لا محذور فيه وإنما المحذور لازم على تقدير نفيها، وهذا قد بسط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أنه يقال لهؤلاء الذين ينفون الحكمة، ثم الإرادة، ثم الفعل في الأفعال، نظير ما قيل لأولئك في الصفات، ويجعل مبدأ الكلام من الإرادة في الموضعين.

فيقال لمن أثبتها، ونفي الحكمة من المنتسبين إلى إثبات القدر والمنتسبين إلى السنة والجماعة: لم نفيتم الحكمة؟

فإذا قالوا: لأنا لا نعرف من يفعل لحكمة، إلا من يفعل لغرض يعود إليه.

وهذا لا يكون إلا فيمن يجوز عليه اللذة، والألم، والانتفاع، والضرر، والله منزه عن ذلك.

فيقال لهم ما قاله نفاة الإرادة: وأنتم لا تعقلون إرادة إلا فيمن يجوز عليه اللذة، والألم، والانتفاع، والضرر.

وقد قلتم: أن الله تعالى مريد؛ فإما أن تطردوا أصلكم النافي،فتنفوا الإرادة؛ أو المثبت، فتثبتوا اللذة، وإلا، فما المفرق؟

فإذا قال نفاة الإرادة: فلهذا نفينا الإرادة؛ كما رجحه الرازي، في المطالب العالية، واحتج به الفلاسفة.

قيل لهم: فانفوا أن يكون فاعلاً، فإنكم لا تعملون فاعلاً غير، مقهور إلا بإرادة، ولا تعقلون ما يفعل ابتداءً إلا بإرادة، أو فاعلاً حياءً إلا بإرادة، أو فاعلاً مطلقاً إلا بإرادة.

فإن قال أتباع أرسطو (١): فلهذا قلنا أنه لا يفعل شيئاً، وليس بموجب بذاته شيئاً، لكن قلنا: أن الفلك يتشبه به.

أو قال من هو أعظم تعطيلا منهم: فلهذا نفينا الأول بالكلية، ولم يثبت علة تفعل، ولا علة يتشبه بها.

---

(١) أرسطو: هو أرسطو بن نيقو ماخس (٣٨٤-٣٢٢ق م) يسمونه المعلم الأول ولد في مدينة اسطاغيرا اليونانية، وكان أفلاطون يعلم الفلسفة مشياً وتابعه علي ذلك أرسطو، فسمي هو وأصحابه المشائين. انظر (طبقات الأطباء والحكماء ص ٢٥ – ٢٧)

قيل لهم: فهذه الحوادث مشهودة، وحركة الكواكب، والشمس والقمر مشهودة، فهذه الحركات الحادثة، وغيرها من الحوادث؛ مثل السحاب، والمطر، والنبات، والحيوان، والمعدن، وغير ذلك مما يشهد حدوثه؛ أحدث بنفسه، من غير أن يحدثه محدث قديم أو لابد للحوادث من محدث قديم؟

فإن قالوا: بل حدث كل حادث بنفسه، من غير أن يحدثه أحد: كان هذا ظاهر الفساد، يعلم بضرورة العقل أنه في غاية المكابرة ونهاية السفسطة، مع لزوم ما فروا منه؛ فإنهم فروا من أن يكون ثم فاعل محدث.

وقد أثبتوا فاعلاً محدثاً، لكن جعلوا كل حادث، هو يحدث نفسه ويفعلها؛ فجعلوا ما ليس بشيء، يجعل الشيء، وجعلوا المعدوم يحدث الموجود؛ فلزمهم ما فروا منه من إثبات فاعل، مع ما لزمهم من الكفر العظيم، وغاية الجهل، وغاية فساد العقل.

وإن قالوا: بل كل محدث يحدثه محدث، وللمحدث محدث.

قيل لهم: هذا أيضاً ممتنع في صريح العقل؛ فان التسلسل في الفاعل ممتنع بصريح العقل، واتفاق العقلاء، فإنه كلما كثر ما يقدر أنه حادث، كان أحوج إلى القديم.

فليس في تقدير حوادث لا تتناهى، ما يوجب استغناءها عن القديم بل إذا كان المحدث الواحد، لابد له من محدث غيره، فمجموع الحوادث أولى بالافتقار إلى محدث لها خارج عنها كلها، فان المحدث لمجموعها، يمتنع أن يكون واحداً منها؛ فانه يلزم أن يحدث نفسه، ويمتنع أن يكون المجموع أحدث المجموع؛ فإن الشيء لا يحدث نفسه.

والمجموع: هي الآحاد الحادثة وهيئتها الاجتماعية، وتلك الهيئة محتاجة إلى المجموع الذي هو كل واحد، واحد.

والمجموع ليس إلا الآحاد واجتماعها، وكل ذلك مفتقر إلى محدث مباين لها؛ فلابد للحوادث من قديم ليس بحادث.

ثم يقال لهم: إذا قدر تسلسل الفاعلين، وأن ما كان محدثاً له محدث وهلم جرا.

فهذا فيه إثبات ما فررتم منه؛ وهو أن هذا، المحدث فعل هذا وهذا فعل هذا.

لكن أثبتم مالا يتناهى من ذلك في آن واحد، فركبتم ما فررتم منه مع لزوم هذه الجهالات، التي تقتضي غاية فساد العقل، والكفر بالسمع.

وإذا كان المحذور يلزمهم، على تقدير أن يكون الحادث أحدث نفسه، أو أحدث كل حادث حادثاً آخر، مع فساد هذين، تبين أنه لا ينفعه إنكار القديم.

وإن قال: بل أقر بالمحدث القديم.

قيل: فقد أقررت بفعل القديم للمحدث، وإذا ثبت أن القديم فعل المحدث وأنت لا تعلم فاعلاً إلا لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

قيل له: فما كان جوابك عن هذا، كان جواباً عن كونه يفعل بإرادته.

وقيل لمثبت الإرادة:ما كان جوابك عن هذا،كان جوابا عن حكمته فقد بين أن من نفي الحكمة، فلا بد أن ينقض قوله، ويلزمه مع التناقض نفي الصانع، وهو مع نفي الصانع تناقضه أشد.

والمحذور الذي فر منه ألزم، فلم يغن عنه فراره من إثبات الحكمة إلا زيادة الجهل والشر.

وهكذا يقال لمن نفى حبه، ورضاه، وبغضه، وسخطه.

وهذا مقام شريف، من تدبره وتصوره، تبين له أنه لابد من الإقرار بما جاء به الرسول، وأنه هو الذي يوافق صريح المعقول، وأن من خالفه فهو ممن لا يسمع، ولا يعقل، وهو أسوأ حالاً ممن فر من الملك العادل، الذي يلزمه بطعام امرأته وأولاده، والزكاة الشرعية، إلى بلاد ملكها ظالم، ألزمه بإخراج أضعاف ذلك لخنازيره وكلابه مع قلة الكسب في بلاده.

وبمنزلة من فر من معاشرة أقوام أهل صلاح وعدل، ألزموه ما يلزم واحداً منهم، من الأمور المشتركة، إذا كانوا مقيمين، أو مسافرين أن يخرج مثلما يخرجه الواحد منهم، فكره هذا، وفر إلى بلد، فألزمه أهلها بأن ينفق عليهم ويخدمهم، وإلا قتلوه، وما أمكنه الهرب منهم.

فمن فر من حكم الله ورسوله،أمراً وخبراً،أو ارتد عن الإسلام أو بعض شرائعه،خوفاً من محذور في عقله، أو علمه، أو دينه أو دنياه، كان ما يصيبه من الشر،أضعاف ما ظنه شراً في إتباع الرسول.

قال تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا.وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا.فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا أُولَئِكَ

الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا.وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا.فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا) (١).

(١) سورة النساء: الآية (٦٠ – ٦٥)

فصل

الرد على من ينفي المحبة والحكمة والإرادة

ويقال لهم: لم فررتم من إثبات المحبة، والحكمة، والإرادة والفعل؟

فإن قالوا: لأن ذلك لا يعقل إلا في حق من يلتذ، ويتألم وينتفع، ويتضرر، والله منزه عن ذلك.

قيل للفلاسفة: فأنتم تثبتون أنه مستلذ، مبتهج، فهذا غير محذور عندكم.

وإن قلتم: لأن ذلك يستلزم لذة حادثة.

قيل لكم: في حلول الحوادث قولان، وليس معكم في النفي إلا ما يدل على نفي الصفات مطلقاً؛ كدليل التركيب، وقد عرف فساده من وجوه.

وقيل للجهمية والمعتزلة: أن أردتم أن ذلك يقتضي حاجته إلى العباد وأنهم يضرونه أو ينفعونه، فهذا ليس بلازم.

ولهذا كان الله منزهاً عن ذلك، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الإلهي: " يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني " (١).

فالله أجل من أن يحتاج إلى عباده لينفعوه، أو يخاف منهم أن يضروه. وإذا كان المخلوق العزيز، لا يتمكن غيره من قهره، فمن له العزة جميعاً وكل عزة فمن عزته أبعد عن ذلك.

وكذلك الحكيم المخلوق، إذا كان لا يفعل بنفسه ما يضرها فالحق جل جلاله أولى أن لا يفعل ذلك لو كان ممكناً.

فكيف إذا كان ممتنعاً؟.

قال تعالى (وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (٢). وقال تعالى (وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا

---

(١) جزء من حديث قدسي طويل أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الظلم.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١٧٦)

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (١).

فقد بين أن العصاة لا يضرونه، ولا يظلمونه، كعصاة المخلوقين؛ فإن مماليك السيد، وجند الملك، وأعوان الرجل، وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم، فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه، أو ماله أو عرضه، أو غير ذلك، وقد يكون ذلك ظلماً له.

والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه، وإن كان الكافر على ربه ظهيراً، فمظاهرته على ربه، ومعاداته له، ومشاقته ومحاربته، عادت عليه بضرره، وظلمه لنفسه، وعقوبته في الدنيا والآخرة.

وأما النفع، فهو سبحانه غني عن الخلق، لا يستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به، إذا لم يفعلوه، لم يضروه بذلك؛ كما قال تعالى (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (٢).

وقال تعالى(وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (٣)

وقال تعالى(إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(٤).

وان أردتم أنه سبحانه لا يريد، ولا يفعل ما يفرح به، ويجعل عباده المؤمنين يفعلون ما يفرح به، فمن أين لكم هذا؟ وإن سمى هذا لذة، فالألفاظ المجملة، التي قد يفهم منها معنى فاسد إذا لم ترد في كلام الشارع، لم نكن محتاجين إلى إطلاقها كلفظ العشق.

وإن أريد به المحبة التامة، وقد أطلق بعضهم على الله أنه يعشق ويعشق، وأراد به أنه يحب، ويحب محبة تامة، فالمعنى صحيح والمعنى فيه نزاع.

واللذة يفهم منها لذة الأكل، والشرب، والجماع؛ كما يفهم من العشق: المحبة الفاسدة، والتصور الفاسد، ونحو ذلك، مما يجب تنزيه الله عنه.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٦٠)
(٢) سورة آل عمران: الآية (٩٧)
(٣) سورة النمل: الآية (٤٠)
(٤) سورة الزمر: الآية (٧)

فإن الذين قالوا لا يجوز وصفه بأنه يعشق؛ منهم من قال: لأن العشق هو الإفراط في المحبة، والله تعالى لا إفراط في حبه.

ومنهم من قال: العشق لا يكون إلا مع فساد التصور للمعشوق وإلا فمع صحة التصور، لا يحصل إفراط في الحب.

وهذا المعنى لا يمدح فاعله؛ فإن من تصور في الله ما هو منزه عنه فهو مذموم على تصوره، ولوازم تصوره.

ومنهم من قال: لأن الشرع لم يرد بهذا اللفظ، وفيه إبهام، وإيهام فلا يطلق، وهذا أقرب.

وآخرون ينكرون محبة الله، وأن يُحِب ويُحَب؛ كالمعتزلة، والجهمية ومن وافقهم من الأشعرية، وغيرهم، فهؤلاء يكون الكلام معهم في كونه يُحِب، ويُحَب؛ كما نطق به الكتاب والسنة في مثل قوله (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (١)، لا في لفظ العشق.

كذلك لفظ اللذة فيه إبهام، وإيهام، والشرع لم يرد بإطلاقه ولكن استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن الله يفرح بتوبة التائب أعظم من فرح من وجد راحلته (٢).

بعد أن أفقدها، وآيس منها في مفازة مهلكة، ويئس من الحياة والنجاة من تلك الأرض، ومن وجود مركبه، ومطعمه، ومشربه، ثم وجد ذلك بعد اليأس.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: فكيف تجدون فرحه بدابته؟ قالوا: عظيماً يا رسول الله.

قال: لله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا براحلته. وقد نطق الكتاب والسنة بأنه يحب المتقين (٣)، والمحسنين (٤) والصابرين (٥)، والتوابين والمتطهرين (٦)، والذين يقاتلون في سبيله صفاً

---

(١) سورة المائدة: الآية (٥٤)

(٢) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الدعوات باب: التوبة، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب: التوبة، باب: في الحض علي التوبة والفرح بها.

(٣) قال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ " (التوبة: ٤)

(٤) قال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " البقرة: ١٩٥)

(٥) قال تعالي " اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ " (آل عمران: ١٤٦)

(٦) قال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ " (البقرة: ٢٢٢)

كأنهم بنيان مرصوص (١)، وأنه يرضى عن المؤمنين (٢). فإذا كنتم نفيتم حقيقة، الحب، والرضى، لأن ذلك يستلزم اللذة بحصول المحبوب.

قيل لكم (٣): إن كان هذا لازماً، فلازم الحق حق، وإن لم يكن لازماً، بطل نفيكم، والفرح في الإنسان هو لذة، تحصل في قلبه بحصول محبوبه.

وقد جاء أيضاً وصفه تعالى بأنه يسر، في الأثر، والكتب المتقدمة وهو مثل لفظ الفرح.

وأما الضحك: فكثير في الأحاديث (٤).

ولفظ البشبشة: جاء أيضاً أنه يتبشبش للداخل إلى المسجد؛ كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم (٥).

وجاء في الكتاب والسنة، ما يلائم ذلك ويناسبه شيء كثير.

فيقال لمن نفى ذلك: لم نفيته؟ ولم نفيت هذا المعنى؟ وهو وصف كمال لا نقص فيه؟

ومن يتصف به أكمل ممن لا يتصف به؟ وإنما النقص فيه أن يحتاج فيه إلى غيره.

والله تعالى لا يحتاج إلى أحد في شيء، بل هو فعال لما يريد.

لكن القدرية، قد يَشكُل هذا على قولهم؛ فإن العباد عندهم مستقلون بإحداث فعلهم.

ولكن هذا مثل إجابة دعائهم، وإثابتهم على أفعالهم، ونحو ذلك مما فيه، أن أفعالهم تقتضي أموراً يفعلها هو، وهم لا يفرون من كونه يجب عليه أشياء، وأنه يفعل ما يجب عليه؛ فيكون العبد قد جعله مريداً لما لم يكن مريداً له.

وحينئذ فإذا كان العبد يجعلونه مريداً عندهم، فالقول في لوازم الإرادة كالقول فيها.

---

(١) قال تعالي " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ " (الصف: ٤)

(٢) قال تعالي " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ " (الفتح: ١٨)

(٣) يشير هنا إلى الفلاسفة وغيرهم من المتكلمين ممن ينفي صفة المحبة والرضي.

(٤) مثل قوله صلى الله عليه وسلم " يضحك الله إلي رجلين يقتل احدهما الأخر كلاهما يدخل الجنة " الحديث رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير، ومسلم في صحيحه كتاب الأمارة.

(٥) الحديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال "ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم" الحديث أخرجه ابن ماجه واللفظ له وسنن ابن ماجه، واحمد في المسند.

وهذا إما أن يدل على فساد قولهم في القدر، وهو الصواب، وأما أن يقولوا: أن مثل ذلك جائز على الله، وجائز أن يجعله العبد مريداً بدون مشيئته لذلك، وبدون أن يكون هو الذي شاء ذلك من العبد فيلزمهم في لوازمها ما يلزمهم فيها.

وأما على قول المثبتة: فكل ما يحدث، فهو بمشيئته، وقدرته، فما جعله أحداً مريداً فاعلاً، بل هو الذي يحدث كل شيء، ويجعل بعض الأشياء سبباً لبعض.

فإن قال نافي المحبة، والفرح، والحكمة، ونحو ذلك: هذا يستلزم حاجته إلى المخلوق، ظهر فساد قوله.

وإن قيل:أن ذلك إن كان وصف كمال، فقد كان فاقداً له وإن كان نقصاً، فهو منزه عن النقص.

قيل له: هو كمال حين اقتضت الحكمة حدوثه، وحدوثه قبل ذلك، قد يكون نقصاً في الحكمة، أو يكون ممتنعاً غير ممكن كما يقال في نظائر ذلك.

وتمام البسط في هذا الأصل مذكور في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: التنبيه على لوازم ذلك، فإن نفاة ذلك، نفوا أن يكون في الممكن فعل ينزه عنه، فليس عندهم فعل يحسن منه، وفعل ينزه عنه، بل عنده تقسيم الأفعال؛ أفعال الرب والعبد، إلى حسن وقبيح لا يكون عندهم إلا بالشرع، وذلك لا يرجع إلى صفة في الفعل بل الشارع عندهم، يرجح مثلاً على مثل.

والحسن والقبيح إنما يعقل، إذا كان الحسن ملائماً للفاعل؛ وهو الذي يلتذ به، والقبيح ينافيه؛ وهو الذي يتألم به، والحسن، والقبح في أفعال العباد بهذا الاعتبار متفق على جوازه، وإنما النزاع في كونه يتعلق به المدح والثواب، وهذا في الحقيقة يرجع إلى الألم واللذة.

فلهذا سلم الرازي في آخر عمره، ما ذكره في كتاب، أن الحسن والقبح العقليين، ثابتان في أفعال العباد دون الرب، إذا كان معناهما يؤول إلى اللدة والألم.

والمعتزلة أثبتوا حسناً وقبحاً عقليين في فعل القادر مطلقا، سواء كان قديماً، أو محدثاً.

وقال (١): الحسن: ما للقادر فعله، والقبيح ما ليس له فعله.

---

(١) يشير هنا إلى المعتزلة.

وقالوا: إن ذلك ثابت بدون كونه مستلزماً للذة والألم.

كما ادعوا ثبوت حكمته للفاعل القادر، ولا تعود إليه، ولا يستلزم اللذة فادعوا ما هو خلاف الموجود والمعقول،ولهذا تسلط عليهم النفاة، فكان حجتهم عليهم، أن يثبتوا أن هذا أمر لا يعقل إلا مع اللذة والألم، ثم يقولون: وذلك في حق الله محال.

فحجتهم مبنية على مقدمتين: أن الحسن، والقبح، والحكمة مستلزم للذة والألم، وذلك في حق الله محال.

والمعتزلة منعوا المقدمة الأولى،فغلبوا معهم،والمقدمة الثانية جعلوها محل وفاق،وهي مناسبة المعتزلة؛ لكونهم ينفون الصفات؛فنفى الفعل القائم به أولى على أصلهم،ونفى مقتضي ذلك أولى على أصلهم.

وهذه المقدمة التي اشتركوا فيها، تقتضي نفي كونه مريداً، ونفي كونه فاعلاً، ونفي حدوث شيء من الحوادث؛ كما أن نفي الصفات، يقتضي نفي قائم بنفسه، موصوف بالصفات.

فنفي اتصافه بالصفات، يستلزم أن لا يكون في الوجود شيء يتصف بصفة، ونفي فعله، وأحداثه يقتضي أن لا يكون في الوجود شيء حادث؛ فكان ما نفوه، مستلزماً نهاية السفسطة، وجحد الحقائق.

ولهذا كان من وافق هؤلاء، على نفي محبة الله لما أمر به من الصوفية يلزمهم تعطيل الأمر والنهي، وأن لا ينفي إلا القدر العام.

وقد التزم ذلك طائفة من محققيهم، وكان نفي الصفات يستلزم نفي الذات، وأن لا يكون موجودان، أحدهما واجب قديم خالق والآخر ممكن، أو محدث، أو مخلوق.

وهكذا التزمه طائفة من محققيهم؛ وهم القائلون بوحدة الوجود وهم يقولون: بكون العبد أولاً، يشهد الفرق بين الطاعة والمعصية ثم يشهد طاعة بلا معصية، ثم لا طاعة ولا معصية، بل الوجود واحد فالذين اثبتوا الحسن والقبح في الأفعال؛ وأن لها صفات تقتضي ذلك قالوا بما قاله جمهور العقلاء من المسلمين وغيرهم.

قال أبو الخطاب: هذا قوله أكثر الفقهاء والمتكلمين، لكن تناقضوا فلم يثبتوا لازم ذلك، فتسلط عليهم النفاة.

والنفاة لما نفوا الحسن والقبح في نفس الأمر، قالوا: لا فرق في ما يخلقه الله، وما يأمره به بين فعل وفعل، وليس في نفس الأمر حسن، ولا قبيح، ولا صفات توجب ذلك.

واستثنوا ما يوجب اللذة والألم، لكن اعتقدوا ما اعتقدته المعتزلة أن هذا لا يجوز إثباته في حق الرب.

وأما في حق العبد: فظنوا أن الأفعال لا تقتضي إلا لذة وألماً في الدنيا.

وأما كونها مشتملة على صفات، تقتضي لذة وألماً في الآخرة فذلك عندهم باطل، ولم يمكنهم أن يقولوا: إن الشارع يأمر بما فيه لذة مطلقاً، وينهى عما فيها ألم مطلقاً.

وكون الفعل يقتضي ما يوجب اللذة، هو عندهم من باب التولد.

وهم لا يقولون به، بل قدرة العبد عندهم لا تتعلق إلا بفعل في محلها مع أنها عند شيخهم غير مؤثرة في المقدور، ولا يقول إن العبد فاعل في الحقيقة، بل كاسب.

ولم يذكروا بين الكسب والفعل فرقاً معقولاً، بل حقيقة قولهم قول جهم: أن العبد لا قدرة له، ولا فعل ولا كسب.

والله عندهم فاعل فعل العبد، وفعله هو نفس مفعوله، فصار الرب عندهم فاعلاً لكل ما يوجد من أفعال العباد، ويلزمهم أن يكون هو الفاعل للقبائح، وأن يتصف بها على قولهم: أنه بوصف بالصفات الفعلية، القائمة بغيره.

وقد تناقضوا في هذا الموضع، فجعلوه متكلماً بكلام يقوم بغيره وجعلوه عادلاً، ومحسناً بعدل، وإحسان يقوم بغيره، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وحينئذ فما بقي، يمكنهم أن يفرقوا بين ممكن وممكن، من جميع الأجناس؛ أي يقولوا: هذا يحسن من الرب فعله، وهذا ينزه عنه. بل يجوز عندهم، أن يفعل كل ممكن مقدور.

والظلم عندهم:هو فعل ما نهى المرء عنه،أو التصرف في ملك الغير، وكلاهما ممتنع في حق الله.

فإما أن يكون هناك أمر ممكن مقدور، وهو منزه عنه، فهذا عندهم لا يجوز.

فلهذا جوزوا عليه كل ما يمكن،ولا ينزهونه عن فعل لكونه قبيحاً أو نقصاً،أو مذموماً،ونحو ذلك.

بل يعلم ما يقع، وما لا يقع بالخبر.

أي: بخبر الرسول كما علم، بخبره المأمور والمحظور، والوعد والوعيد والثواب والعقاب، أو بالعادة، مع أن العادة يجوز انتقاضها عندهم.

لكن قالوا: قد يعلم بالضرورة عدم ما يجوز وقوعه، من غير فرق لا في الوجود، ولا في العلم، بين ما علموا انتفاءه، وما لم يعلموه إذ كان أصل قولهم هو جواز التفريق بين التماثلين بلا سبب.

فالإرادة القديمة عندهم، ترجح مثلاً على مثل بلا سبب في خلق الرب وفي أمره.

وكذلك عندهم، قد يحدث في قلب العبد علماً ضرورياً بالفرق بين المتماثلين بلا سبب.

فلهذا قالوا: أن الشرع لا يأمر وينهى لحكمة، ولم يعتمدوا على المناسبة وقالوا: علل الشرع أمارات.

كما قالوا: إن أفعال العباد أمارة على السعادة والشقاء فقط، من غير أن يكون في أحد الفعلين معنى يناسب الثواب أو العقاب.

ومن أثبت المناسبة من متأخريهم؛ كأبي حامد، ومن تبعه قالوا: عرفنا بالاستقراء، أن المأمور به، تقترن به مصلحة العباد وهو حصول ما ينفعهم، والمنهى عنه تقترن به المفسدة، فإذا وجد الأمر والنهى، علم وجود قرينه، الذي علم بعادة الشرع، من غير أن يكون الرب أمر به لتلك المصلحة، ولا نهى عنه لتلك المفسدة.

وجمهورهم وأئمتهم على أنه يمتنع أن يفعل لحكمة.

لكن الآمدي قال: إن ذلك جائز غير واجب؛ فلم يجعله واجباً، ولا ممتنعاً.

فصل
عدل الله وحكمته وتعليل أفعاله

وهذا الأصل، دخل في جميع أبواب الدين: أصوله، وفروعه؛ في خلق الرب لما يخلقه، ورزقه، وإعطائه، ومنعه، وسائر ما يفعله تبارك وتعالى، دخل في أمره، ونهيه، وجميع ما يأمر به، وينهى عنه ودخل في المعاد.

فعندهم يجوز أن يعذب الله جميع أهل العدل والصلاح والدين والأنبياء والمرسلين بالعذاب الأبدي، وأن ينعم جميع أهل الكذب والظلم والفواحش بالنعيم الأبدي.

لكن بمجرد الخبر عرفنا، أنه لا يفعل هذا.

ويجوز عندهم، أن يعذب من لا له ذنب أصلاً بالعذاب الأبدي.

بل هذا واقع عند من يقول: بأن أطفال الكفار يعذبون في النار مع آبائهم؛ كلهم يجوزون تعذيبهم؛ إذ كان عندهم يجوز تعذيب كل حي، العذاب المؤبد بلا ذنب، ولا غرض، ولا حكمة.

لكن: هل يقع هذا في أطفال المشركين؟

منهم من جزم بوقوعه؛ كالقاضي أبي يعلى، ومن وافقه. ومنهم من توقفت، لعدم الدليل السمعي عنده، لا لمانع عقلي، كالقاضي أبي بكر، ونحوه.

وليس عندهم من أفعال الرب ما ينزهونه عنه، أو ما تقتضي الحكمة وجوده، بل يجوز عندهم أن يفعل كل ممكن، ويجوز أن لا يفعل شيئاً من الخير.

لكن إذا أخبر أنه يفعل شيئا، أو أنه لا يفعله، علم أنه واقع، أو غير واقع بالخبر.

ويجوز عندهم أن يعذب من لا ذنب له، ومن هو أبر الناس وأعدلهم وأفضلهم، عذاباً مؤبداً، لا يعذبه أحدا من العالمين.

ويجوز أن ينعم شر الخلق، من شياطين الإنس والجن، نعيماً في أعلى درجات الجنة، لا ينعم مثله لمخلوق.

لكن لما أخبر بأن المؤمنين يدخلون الجنة، والكفار يدخلون النار، علم ما يقع، مع أنه لو وقع ضده، لم يكن بينهما فرق عندهم، ثم مع مجيء الخبر، فكثير منهم وافقه.

أما في جنس الفساق مطلقاً، فيجوزون أن يدخل جميعهم الجنة ويجوزون أن يدخل جميعهم النار، ويجوزون أن يدخل بعضهم كما يقوله من يقوله، ممن وافق الشيعة، والأشعرية؛ كالقاضي أبي بكر لأن القرآن عنده لم يدل على شيء، والأخبار أخبار آحاد بزعمه فلا يحتج بها في ذلك.

وأما جمهور المنتسبين إلى السنة من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد وأبي حنيفة، وغيرهم: فيقطعون بأن الله يعذب بعض أهل الذنوب بالنار ويعفو عن بعضهم؛ كما قال تعالى (إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)(١) فهذا فيه الإخبار، بإنه يغفر ما دون الشرك، وأنه يغفر لمن يشاء لا لكل أحد.

لكن: هل الجزاء، والثواب، والعقاب، مبني على الموازنة بالحكمة والعدل؛ كما اخبر الله بوزن الأعمال، أو يغفر ويعذب بلا سبب ولا حكمة، ولا اعتبار الموازنة؟

فيه لهؤلاء قولان: فمن جوز ذلك، فإنه يجوز عندهم أن يعذب الله من هو من أبر الناس، وأكثرهم طاعات وحسنات، على سيئة صغيرة، عذاباً أعظم من عذاب أفسق الفاسقين.

ويجوز عندهم: أن يغفر لأفسق الفاسقين من المسلمين، وأعظمهم كبائر كل ذنب، ويدخله الجنة ابتداء، مع تعذيبهم ذلك في النار على صغيرة.

ولهذا قال جمهور الناس عن هؤلاء: إنهم لا ينزهون الرب على السفه والظلم، بل يصفونه بالأفعال التي يوصف بها المجانين والسفهاء فإن المجنون والسفيه، قد يعطي مالاً عظيماً لمن ليس هو له بأهل وقد يعاقب عقوبة عظيمة من هو أهل للإكرام والإحسان، والرب تعالى أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وخير الراحمين.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

ومن تدبر حكمته في مخلوقاته، ومشروعاته رأى ما يبهر العقول فإنه مثلاً: خلق العين، واللسان، ونحوهما، من الأعضاء لمنفعة وخلق الرجل، والظفر، ونحو ذلك لمنفعة.

فلا تقتضي الحكمة، أن يستعمل العين واللسان، حيث يستعمل اليد والرجل والظفر، ولا أن يستعمل الرجل واليد، حيث يستعمل العين واللسان.

وهذا من حكمته موجود في أعضاء الإنسان، وسائر الحيوان، والنبات وسائر المخلوقات.

---

(١) سورة النساء: الآية (٤٨، ١١٦)

فكيف يجوز في حكمته، وعدله، ورحمته، في من هو دائماً يفعل ما يرضيه من الطاعات، والعبادات، والحسنات، وقد نظر نظرة منهياً عنها أن يعاقبه على هذه النظرة، بما يعاقب به أفجر الفساق، وأن يكون أفجر الفساق في أعلى عليين، وهو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

لكن لا يشاء إلا ما يناسب حكمته، ورحمته، وعدله، كما لا يشاء ويريد، إلا ما علم أنه سيكون.

فلو قيل: هل يجوز أن يشاء ما علم أنه لا يكون؟

لم يجر ذلك بإتفاقهم، لمناقضة علمه، والعلم يطابق المعلوم، فكيف يشاء ما يناقض حكمته، ورحمته، وعدله، وبسط هذه الأمور له مواضع متعددة.

والمقصود: أن هؤلاء لما احتاجوا إلى إثبات النبوات اضطربوا في صفة النبي، وما يجوز عليه، وفي الآيات التي بها يعلم صدقه فجوزوا أن يرسل الله من يشاء بما يشاء، لا يشترطون في النبي إلا أن يعلم ما أرسل به؛ لأن تبليغ الرسالة بدون العلم ممتنع، ومن جوز منهم تكليف ما لا يطاق مطلقاً، يلزمه جواز أن يأمره الله بتبليغ رسالة لا يعلم ما هي.

وجوزوا من جهة العقل، ما ذكره القاضي أبو بكر: أن يكون الرسول فاعلاً للكبائر، إلا أنه لابد أن يكون عالماً بمرسله.

لكن ما علم بالخبر، أن الرسول لا يتصف به، علم من جهة الخبر فقط، لا لأن الله منزه عن إرسال ظالم، أو مرتكب للفواحش أو مكاس، أو مخنث، أو غير ذلك؛ فإنه لا يعلم نفي شيء من ذلك بالعقل، لكن بالخبر.

وهم في السمعيان عمدتهم الإجماع.

وأما الاحتجاج بالكتاب والسنة، فأكثر ما يذكرونه تبعاً للعقل أو الإجماع، والعقل والإجماع مقدمان عندهم على الكتاب والسنة.

فلم يعتمد القاضي أبو بكر وأمثاله، في تنزيه الأنبياء، لا على دليل عقلي، ولا سمعي من الكتاب والسنة.

فإن العقل عنده، لا يمنع أن يرسل الله من شاء؛ إذ كان يجوز عنده على الله فعل كل ما يقدر عليه،وإنما اعتمد على الإجماع؛ فما أجمع المسلمون عليه، أنه لا يكون في النبي نزه عنه.

ثم ذكر ما ظنه إجماعاً؛ كعاداته، وعادات أمثاله في نقل إجماعات لا يمكن نقلها عن واحد من الصحابة، ولا ثلاثة من التابعين ولا أربعة من الفقهاء المشهورين؛ كدعواه الإجماع على أن الصلاة في الدار المغصوبة مجزئة، مع قوله إن العقل يحيل أن يكون مأمورا به فيدعي الإجماع على براءة المأمور، من فعل ما أمر به، لكونه فعل ما نهي عنه.

ولأهل الكلام والرأي، من دعوى الإجماعات، التي ليست صحيحة بل قد يكون فيها نزاع معروف، وقد يكون إجماع السلف على خلاف ما ادعوا فيه الإجماع ما يطول ذكره هنا.

وقد ذكرنا قطعة من الإجماعات الفروعية،حكاها طائفة من أعيان العلماء العالمين بالاختلاف، مع أنها منتقضة، وفيها نزاع ثابت لم يعرفوه، وقد يكون غيرهم، حكي الإجماع على نقيض قولهم وربما كان من السلف؛ كقول الشافعي: ما اعلم أحداً قَبِل شهادة العبد.

وقبله من الصحابة: أنس بن مالك.

يقول: ما أعلم أحد رَد شهادة العبد.

وكدعوى ابن حزم: الإجماع على إبطال القياس.

وأكثر الأصوليين يذكرون الإجماع على إثبات القياس.

وبسط هذا له موضع آخر.

فصل
طريقة الأشاعرة في إثبات المعجزات

ولما أرادوا (١) إثبات معجزات الأنبياء عليهم السلام، وأن الله سبحانه لا يظهرها على يد كاذب، مع تجويزهم عليه فعل كل شيء، فنفوا منعاً فقالوا: لو جاز ذلك، لزم أن لا يقدر على تصديق من ادعى النبوة وما لزم منه نفي القدرة كان ممتنعاً.

فهذا هو المشهور عن الأشعري، وعليه اعتمد القاضي أبو بكر، وابن فورك والقاضي أبو يعلى، وغيرهم، وهو مبني على مقدمات:

أحدها: أن النبوة لا تثبت إلا بما ذكروه من المعجزات، وأن الرب لا يقدر على إعلام الخلق، بأن هذا نبي، إلا بهذا الطريق، وأنه لا يجوز أن يعلموا ذلك ضرورة، وأن إعلام الخلق، بأن هذا نبي بهذا الطريق ممكن.

فلو قيل لهم: لا نسلم أن هذا ممكن على قولكم، فإنكم إذا جوزتم عليه فعل كل شيء، وإرادة كل شيء، لم يكن فرق، بين أن يظهرها على يد صادق، أو كاذب.

ولم يكن إرسال رسول يصدقه بالمعجزات ممكناً على أصلكم، ولم يكن لكم حجة على جواز إرسال الرسول، وتصديقه بالمعجزات إذ كان لا طريق عندهم إلا خلق المعجز.

وهذا إنما يكون دليلاً، إذا علم أنه إنما خلقه لتصديق الرسول، وأنتم عندكم لا يفعل شيئاً لشيء، ويجوز عليه فعل كل شيء.

وسلك طائفة منهم طريقاً آخر؛ وهي طريقة أبي المعالي، وأتباعه وهو أن العلم بتصديقه، لمن أظهر على يديه المعجز، علم ضروري، وضربوا له مثلاً بالملك.

وهذا صحيح، إذا منعت أصولهم؛ فإن هذه تُعلم، إذا كان المعلم بصدق رسوله ممن يفعل شيئا لحكمة،فأما من لا يفعل شيئاً لشيء، فكيف يعلم أنه خلق هذه المعجزات لتدل على صدقه، لا لشيء آخر؟ ولم لا يجوز أن يخلقها لا لشيء على أصلهم؟!

وقالوا أيضاً: ما ذكره الأشعري: المعجز: علم الصدق، ودليله فيستحيل وجوده بدون الصدق، فيمتنع وجوده على يد الكاذب.

---

(١) يشير هنا إلى الأشاعرة.

وهذا كلام صحيح، لكن كونه: علم الصدق،مناقض لإصولهم،فإنه إنما يكون علم الصادق، إذا كان الرب منزهاً، عن أن يفعله على يد الكاذب، أو عُلم بالإضطرار، أنه إنما فعله لتصديق الصادق، أو أنه لا يفعله على يد كاذب.

وإذا علم بالإضطرار، تنزهه عن بعض الأفعال بطل أصلهم.

فصل
طريقة المعتزلة في إثبات المعجزات

والمعتزلة قبلهم (١) ظنوا أن مجرد كون الفعل خارقاً للعادة، هو الآية على صدق الرسول، فلا يجوز ظهور خارق إلا لنبي.

والتزموا طرداً لهذا: إنكار أن يكون للسحر، تأثير خارج عن العادة، مثل أن يموت، ويمرض، بلا مباشرة شيء، وأنكروا الكهانة وأن تكون الجن تخبر ببعض المغيبات، وأنكروا كرامات الأولياء.

فأتى هؤلاء، فأثبتوا ما أثبته الفقهاء، وأهل الحديث من السحر والكهانة، والكرامات.

لكن قيل لهم: فميزوا بين هذا، وبين المعجزات؟

فقالوا: لا فرق في نفس الجنس، وليس في جنس مقدورات الرب ما يختص بالأنبياء، لكن جنس خرق العادة واحد، فهذا إذا اقترن بدعوى النبوة، وسلم عن المعارضة، عند تحدي الرسول بالمثل فهو دليل،فهي عندهم لم تدل؛ لكونها في نفسها وجنسها دليلاً.

بل إذا استدل بها المدعي للنبوة، كانت دليلاً، وإلا لم تكن دليلاً.

ومن شرط الدليل: سلامته عن المعارضة؛ وهي عندهم غاية الفرق.

فإذا قال المدعي للنبوة: أئتوا بمثل هذه الآية، فعجزوا؛ كان هذا هو المعجز المختص بالنبي، وإلا فيجوز عندهم، أن تكون معجزات الرسول من جنس ما للسحرة والكهان من الخوارق، إذا استدل بها الرسول.

فالحجة عنده: مجموع الدعوى والخارق، لا الخارق وحده، والإعتبار بالسلامة عن المعارض.

بل قد لا يشترطون أن يكون خارقاً للعادة، لكن يشترطون أن لا يعارض.

وعجز الناس عن المعارضة، مع أنه معتاد، لا خارق للعادة.

فالإعتبار عندهم بشيئين: بإقترانه بالدعوى، وتحديه لمن دعاهم أن يأتوا بمثله، فلا يقدرون.

---

(١) أي قبل الأشاعرة.

قالوا: وخوارق الأنبياء يظهر مثلها على يد الساحر، والكاهن، والصالح ولا تدل على النبوة؛ لأنه لم يدعها.

قالوا: ولو ادعى النبوة أحد من أهل هذه الخوارق، مع كذبه، لم يكن بد من أن الله يعجزه عنها؛ فلا يخلقها على يده، أو يقيض له من يعارضه فتبطل حجته.

وإذا قيل لهم: لم قلتم: إن الله لابد أن يفعل هذا وهذا؛ وعندكم يجوز عليه كل شيء؟ ولا يجب عليه فعل شيء، ولا يجب منه فعل شيء؟

قالوا: لأنه لو لم يمنعه من ذلك، أو يعارضه بآخر، لكان قد أتى بمثل ما يأتي به النبي الصادق؛ فتبطل دلالة آيات الأنبياء.

فإذا قيل لهم: وعلى أصلكم يجوز أنه تبطل دلالتها، وعندكم يجوز عليه فعل كل شيء؟

أجابوا بالوجهين المتقدمين: إما لزوم أنه ليس بقادر، أو أن الدلالة معلومة بالإضطرار، وقد عرف ضعفهما.

ثم هنا يلزمهم شيء آخر؛ وهو أنه: لم قلتم: إن المعجز الذي يدل به على صدق الأنبياء، ما ذكرتموه؛ من مجرد كونه خارقاً مع الدعوى، وعدم المعارضة.

فإن هذا يقال: إنه باطل من وجوه:

أحدها: أنه إذا كان ما يأتي به النبي، يأتي به الساحر والكاهن لكان أولئك يعارضون، وهذا لا يعارض؛ فالإعتبار إذن بعدم المعارضة.

فقولوا: لكل من إدعى النبوة، وقال: معجزتي أن لا يدعيها غيري فهو صادق، أو لا يقدر غيري على دعواها، فهو صادق، أو أفعل أمراً معتاداً؛ من الأكل، والشرب، واللباس، ومعجزتي: أن لا يفعله غيري، أو لا يقدر غيري على فعله، فهو صادق.

فالتزموا هذا، وقالوا: المنع من المعتاد، كإحداث غير المعتاد. وعلى هذا: فلو قال الرسول: معجزتي أني أركب الحمار، أو الفرس،أو آكل هذا الطعام، أو ألبس هذا الثوب، أو أعدو إلى ذلك المكان وأمثال ذلك، وغيره لا يقدر على ذلك؛ كان هذا آية دعواه.

وهذا لا ضابط له؛ فإن ما يعجز عنه قوم دون قوم، لا ينضبط.

ولكن هذا يفسد قول من فسرها بخرق العادة؛ فإن العادات تختلف.

وقد ذكروا هذا، وقالوا: المعجزة عند كل قوم ما كان خرقاً لعادتهم وقالوا: يشترط أن تكون خارقة لعادة من دعاهم، وإن كان معتاداً لغيرهم وقالوا: إذا كان المدعي كذاباً؛ فإن الله يقيض له من يعارضه من أهل تلك الصناعة، أو يمنعه من القدرة عليها.

وهذا وجه ثان، يدل على فساد ما أصلوه؛ هم والمعتزلة.

الوجه الثالث: المعارضة بالمثل: أن يأتي بحجة مثل حجة النبي. وحجته عندهم: مجموع دعوى النبوة، والإثبات بالخارق. فيلزم على هذا، أن تكون المعارضة، بأن يدعي غيره النبوة، ويأتي بالخارق.

وعلى هذا، فليست معارضة الرسول، بأن يأتوا بالقرآن، أو عشر سور أو سورة، بل أن يدعي أحدهم النبوة، ويفعل ذلك.

وهذا خلاف العقل والنقل.

ولو قال الرسول لقريش: لا يقدر أحد منكم أن يدعي النبوة، ويأتي بمثل القرآن، وهذا هو الآية، وإلا فمجرد تلاوة القرآن، ليس آية بل قد يقرأه المتعلم له، فلا تكون آيه؛ لأنه لم يدع النبوة.

ولو إدعاها، لكان الله ينسيه إياه، أو يقيض له من يعارضه؛ كما ذكرتم، لكانت قريش، وسائر العلماء، يعلمون أن هذا باطل.

الرابع: أنه إذا كان اعتمادكم على عدم المعارضة، فقولوا ما قاله غيركم؛ وهو: أن آية سلامة، ما يقوله من التناقض، وأن كل من ادعى النبوة، وكان كاذباً، فلا بد أن يتناقض، أو يقيض الله له من يقول مثل ما قال.

وأما السلامة من التناقض، من غير دعوى النبوة، فليست دليلاً.

فهذا خير من قولكم؛ فإنه قد علم أن كل ما جاء من عند غير الله فإنه لابد أن يختلف ويتناقض، وما جاء من عند الله لا يتناقض كما قال تعالى (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا) (١).

---

(١) سورة النساء: الآية (٨٢)

وأما دعوى الضرورة: فمن ادعى الضرورة في شيء دون شيء مع تماثلهما، وعدم الفرق بينهما في نفس الأمر، كانت دعواه مردودة بل كذباً.

فإن وجود العلم الضروري، بشيء دون شيء، لابد أن يكون لفرق إما في المعلوم، وإما في العالم، وإلا فإذا قدر تساوي المعلومات وتساوي حال العالم بها، لم يعلم بالضرورة أحد المتماثلين دون الآخر.

الخامس: أنه لابد أن تكون الآية، التي للنبي، أمراً مختصاً بالأنبياء فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه.

فآية النبي: هي دليل صدقه، وعلامة صدقه، وبرهان صدقه، فلا توجد قط، إلا مستلزمة لصدقه.

وقد ادعوا أن آيات صدقهم، التي تكون منفكة عن صدقهم، تكون لساحر، وكاهن، ورجل صالح، ولمدعي الإلهية، لكن لا تكون لمن يكذب في دعوى النبوة.

فجوزوا وجود الدليل، مع عدم المدلول عليه، إلا إذا إدعى المدلول عليه كاذب.

واستدلوا على ذلك: بأن الساعة تخرق عندها خوارق، ولا تدل على صدق أحد.

ولو ادعى مدع النبوة، مع تلك الخوارق لدلت.

قالوا: فعُلم أن جنس ما هو معجز، يوجد بدون صدق النبي لكن مع دعوى النبوة، لا يوجد إلا مع الصدق.

والآية عندهم: الدعوى، والخارق.

والصدق هو: المدلول عليه، فلا يكون ذلك كذلك، إلا مع هذا.

وأما وجود الخارق مجرداً عن الدعوى، فليس بدليل، ولا فرق عندهم بين خارق وخارق، وخارق معتاد عند قوم، دون قوم وليس لهم ضابط في العادات.

ولسائل أن يقول:جميع ما يفعله الله من الآيات في العالم،فهو دليل على صدق الأنبياء،ومستلزم له.

وإن كانت الآيات معتادة لجنس الأنبياء، أو لجنس الصالحين الذين يتبعون الأنبياء، فهي مستلزمة لصدق مدعي النبوة؛ فإنها إذا لم تكن إلا لنبي، أو من يتبعه، لزم أن يكون من أحد

القسمين والكاذب في دعوى النبوة، ليس واحداً منهما؛ فالتابع للأنبياء الصالح، لا يُكذب في دعوى النبوة قط، ولا يدعيها إلا وهو صادق كالأنبياء المتبعين لشرع موسى.

فإذا كان آية نبي: إحياء الله الموتى،لم يمتنع أن يحي الله الموتى لنبي آخر، أو لمن يتبع الأنبياء.

كما قد أحيي الميت لغير واحد من الأنبياء ومن تبعهم، وكان ذلك آية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونبوة من قبله، إذا كان إحياء الموتى مختصاً بالأنبياء، وأتباعهم.

وكذلك ما يفعله الله من الآيات، والعقوبات بمكذبي الرسل كتغريق فرعون (١)، وإهلاك قوم عاد بالريح الصرصر العاتية (٢) وإهلاك قوم صالح بالصيحة (٣)، وأمثال ذلك؛ فإن هذا جنس لم يعذب به إلا من كذب الرسل، فهو دليل على صدق الرسل.

وقد يميت الله بعض الناس، بأنواع معتادة من البأس؛ كالطواعين ونحوها، لكن هذا معتاد لغير مكذبي الرسل، أما ما عذب الله به مكذبي الرسل، فمختص بهم.

ولهذا كان من آيات الله كما قال (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا) (٤).

وكذلك ما يحدثه من أشراط الساعة (٥)؛ كظهور الدجال، ويأجوج ومأجوج، وظهور الدابة، وطلوع الشمس من مغربها.

بل والنفخ في الصور؛ وغير ذلك؛ هو من آيات الأنبياء؛ فإنهم أُخبروا به قبل أن يكون، فكذبهم المكذبون، فإذا ظهر بعد مئين، أو ألوف من السنين، كما أخبروا به كان هذا من آيات صدقهم، ولم يكن هذا إلا لنبي، أو لمن يخبر عن نبي.

والخبر عن النبي: هو خبر النبي.

---

(١) منها قوله تعالي " فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ " (الأنفال " ٥٤)

(٢) منها قوله تعالي " أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ " (الحاقة: ٦)

(٣) منها قوله تعالي يحكي عن قوم صالح عليه السلام " وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ " (هود: ٩٤)

(٤) سورة الإسراء: الآية (٥٩)

(٥) قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: إنها لن تقوم حتي تروا قبلها عشر آيات... فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف. الحديث رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفتن

ولهذا كان وجود ما أخبر به الرسول من المستقبلات، من آيات نبوته، إذا ظهر المخبر به، كما كان أخبر فيما مضى، عرف صدقه فيما أخبر به، إذ كان هذا، وهذا لا يمكن أن يخبر به إلا نبي أو من أخذ عن نبي.

وهو لم يأخذ عن أحد من الأنبياء شيئاً؛ فدل على نبوته.

ولهذا يحتج الله له في القرآن بذلك؛ كما بسط في غير هذا الموضع.

وأخبار الكهان، فيها كذب كثير، والكاهن قد عرف أنه يكذب كثيراً، مع فجوره.

قال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (١).

والكهانة جنس معروف، ومعروف أن الكاهن يتلقى عن الشيطان ولابد من كذبهم، وفجورهم.

والنبي لا يكذب قط، ولا يكون إلا براً تقياً.

فالفرق بينهما ثابت في نفس صفاتهما، وأفعالهما، وآياتهما لا يقول عاقل: إن مجرد ما يفعله الكاهن، هو دليل، إن اقترن بصادق وليس بدليل، إذا لم يقترن بصادق، وأنه متى ادعاه كاذب، لم يظهر على يده، وهذا أيضاً باطل.

ويظهر بالوجه السادس: وهو أنه قد إدعى جماعة من الكذابين النبوة وأتوا بخوارق من جنس خوارق الكهان والسحرة،ولم يعارضهم أحد في ذلك المكان والزمان،وكانوا كاذبين؛فبطل قولهم:إن الكذاب إذا أتى بمثل خوارق السحرة والكهان، فلا بد أن يمنعه الله ذلك الخارق،أو يقيض له من يعارضه.

وهذا كالأسود العنسي الذي ادعى النبوة باليمن في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، واستولى على اليمن، وكان معه شيطانان: سحيق، ومحيق وكان يخبر بأشياء غائبة، من جنس أخبار الكهان، وما عارضه أحد. وعرف كذبه بوجوه متعددة، وظهر من كذبه، وفجوره؛ ما ذكره الله بقوله (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (٢) وكذلك مسيلمة الكذاب.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١-٢٢٣)

(٢) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١-٢٢٣)

وكذلك الحارث الدمشقي، ومكحول الحلبي، وبابا الرومي لعنة الله عليهم، وغير هؤلاء؛ كانت معهم شياطين كما هي مع السحرة والكهان.

السابع: أن آيات الأنبياء ليس من شرطها استدلال النبي بها ولا تحديه بالإتيان بمثلها، بل هي دليل على نبوته، وإن خلت عن هذين القيدين.

وهذا كإخبار من تقدم بنبوة محمد صلى الله عليه و سلم؛ فإنه دليل على صدقه، وإن كان هو لم يعلم بما أخبروا به، ولا يستدل به.

وأيضاً: فما كان يظهره الله على يديه من الآيات؛ مثل تكثير الطعام والشراب مرات؛ وكنبع الماء من بين أصابعه غير مرة، وتكثير الطعام القليل، حتى كفى أضعاف أضعاف من كان محتاجاً إليه وغير ذلك ؛ كله من دلائل النبوة، ولم يكن يظهرها للاستدلال بها،ولا يتحدى بمثلها، بل لحاجة المسلمين إليها.

وكذلك إلقاء الخليل في النار، إنما كان بعد نبوته، ودعائه لهم إلى التوحيد (١).

الثامن: أن الدليل الدال على المدلول عليه، ليس من شرط دلالته استدلال أحد به، بل ما كان النظر الصحيح فيه موصولاً إلى علم، فهو دليل، وإن لم يستدل به أحد؛ فالآية أدلة وبراهين تدل سواء استدل بها النبي، أو لم يستدل.

وما لا يدل إذا لم يستدل به، لا يدل إذا استدل به، ولا ينقلب ما ليس بدليل، دليلاً إذا استدل به مدع لدلالته.

التاسع: أن يقال: آيات الانبياء لا تكون إلا خارقة للعادة ولا تكون مما يقدر أحد على معارضتها.

فاختصاصها بالنبي، وسلامتها عن المعارضة شرط فيها، بل وفي كل دليل؛ فإنه لا يكون دليلاً حتى يكون مختصاً بالمدلول عليه ولا يكون مختصاً إلا إذا سلم عن المعارضة.

---

(١) يدل علي ذلك قول الله تعالي يحكي عن الخليل عليه السلام "قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا ولا يضركم. أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ. قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ " (الأنبياء ٦٦-٦٩)

فلم يوجد مع عدم المدلول عليه مثله، وإلا إذا وجد هو أو مثله بدون المدلول، لم يكن مختصاً؛ فلا يكون دليلاً.

لكن كما أنه لا يكفي مجرد كونه خارقا بعادة أولئك القوم دون غيرهم، فلا يكفي أيضاً عدم معارضة أولئك القوم، بل لابد أن يكون مما لم يعتده غير الأنبياء؛ فيكون خارقاً لعادة غير الأنبياء، فمتى عرف أنه يوجد لغير الأنبياء، بطلت دلالته ومتى عارض غير النبي النبي بمثل ما أتى به، بطل الاختصاص. وما ذكره المعتزلة، وغيرهم؛ كابن حزم: من أن آيات الأنبياء مختصة بهم، كلام صحيح. لكن كرامات الأولياء، هي من دلائل النبوة؛ فإنها لا توجد إلا لمن اتبع النبي الصادق، فصار وجودها، كوجود ما أخبر به النبي من الغيب.

وأما ما يأتي به السحرة، والكهان من العجائب؛ فتلك جنس معتاد لغير الأنبياء وأتباعهم.

بل لجنس معروفين بالكذب، والفجور؛ فهو خارق بالنسبة إلى غير أهله، وكل صناعة فهي خارقة عند غير أهلها، ولا تكون آية.

وآيات الأنبياء، هي خارقة لغير الأنبياء، وإن كانت معتادة للأنبياء.

العاشر: أن آيات الأنبياء خارجة عن مقدور من أُرسل الأنبياء إليه وهم الجن والإنس؛ فلا تقدر الإنس والجن، أن يأتوا بمثل معجز الأنبياء كما قال تعالى (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (١).

وأما الملائكة، فلا تضر قدرتهم على مثل ذلك؛ فإن الملائكة إنما تنزل على الأنبياء، لا تنزل على السحرة، والكهان؛ كما أن الشياطين لا تتنزل على الأنبياء، والملائكة لا تكذب على الله فإذا كانت الآيات من أفعال الملائكة؛ مثل أخبارهم للنبي عن الله بالغيب، ومثل نصرهم له على عدوه، وإهلاكهم له نصراً وهلاكاً خارجين عن العادة؛ كما فعلته الملائكة يوم بدر وغيره، وكما فعلت بقوم لوط (٢) وكما فعلت بمريم والمسيح (٣) ونحو ذلك وكإتيانهم لسليمان بعرش بلقيس.

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٨)

(٢) قال تعالي " وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ " (سورة هود:٧٧) و قال تعالي " وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ " (سورة القمر:٣٧)

(٣) قال تعالي " وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا...." إلي قوله " إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا " (سورة مريم ١٦ – ١٩)

فقد روي أن الملائكة جاءته به،وهي أقدر من الجن (١)لم يكن هذا خارجاً عما اعتاده الأنبياء.

بل هذا ليس لغير الأنبياء، فلا يقول: إن غير الأنبياء اعتادوه فنقضت عادتهم، بل هذا لم يعتده إلا الأنبياء.

وهو مناقض لجنس عادات الآدميين؛ بمعنى: أنه لا يوجد فيما إعتاده بنو آدم في جميع الأصناف غير الأنبياء؛ كما اعتادوا العجائب من السحر، والكهانة، والصناعات العجيبة، وما يستعينون عليه، بالجن والإنس والقوى الطبيعية؛ مثل الطلاسم وغيرها؛ فكل هذا معتاد معروف لغير الأنبياء.

وهؤلاء جعلوا الطلاسم من جنس المعجزات، وقالوا: لو أتى بها نبي، لكانت آية له، وإذا أتى بها من لم يدع النبوة جاز، وإن إدعاها كاذب سلبه الله علمها، أو قيض له من يعارضه.

وهذا قول قبيح؛ فإنه لو جعل شيء من معجزات الأنبياء وآياتهم، من جنس ما يأتي به ساحر، أو كاهن، أو مطلسم أو مخدوم من الجن، لأستوى الجنسان، ولم يكن فرق بين الأنبياء وبين هؤلاء، ولم يتميز بذلك النبي من غيره.

وهذا مما عظم غلط هؤلاء فيه، فلم يعرفوا خصائص النبي، وخصائص آياته.

كما أن المتفلسفة أبعد منهم عن الإيمان؛ فجعلوا للنبوة ثلاث خصائص:

- حصول العلم بلا تعلم.
- وقوة نفسه المؤثرة في هيولي العالم.
- وتخيل السمع والبصر.

وهذه الثلاثة توجد لكثير من عوام الناس.

ولم يفرقوا بين النبي، والساحر، إلا بأن هذا بر، وهذا فاجر. والقاضي أبو بكر، وأمثاله، يجعلون هذا الفرق سمعياً.

---

(١) قال تعالي " قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ " (سورة النمل: ٤٠)

والفرق الذي لابد منه عندهم: الإستدلال بها، والتحدي بالمثل. وكل من هؤلاء، وهؤلاء، أدخلوا مع الأنبياء من ليس بنبي ولم يعرفوا خصائص الأنبياء، ولا خصائص آياتهم؛ فلزمهم جعل من ليس بنبي نبياً، أو جعل النبي ليس بنبي؛ إذ كان ما ذكروه في النبوة، مشتركاً بين الأنبياء وغيرهم.

فمن ظن أنه يكون لغير الأنبياء، قدح في الأنبياء، أن يكون هذا هو دليلهم، بوجود مثل ما جاءوا به لغير النبي، ومن ظن أنه لا يكون إلا لنبي، إذا رأى من فعله من متنبئ كاذب وساحر، وكاهن ظن أنه نبي.

والإيمان بالنبوة، أصل النجاة والسعادة، فمن لم يحقق هذا الباب، اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب.

ولما كان الذين اتبعوا هؤلاء وهؤلاء من المتأخرين؛ مثل أبي حامد والرازي، والآمدي، وأمثالهم: هذا، ونحوه مبلغ علمهم بالنبوة لم يكن لها في قلوبهم من العظمة ما يجب لها.

فلا يستدلون بها على الأمور العلمية الخبرية؛ وهي خاصة النبي وهو الإخبار عن الغيب، والإنباء به.

فلا يستدلون بكلام الله ورسوله، على الإنباء بالغيب، التي يقطع بها، بل عمدتهم ما يدعونه من العقليات المتناقضة.

ولهذا يقرون بالحيرة في آخر عمرهم؛ كما قال الرازي:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفيه، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

اقرأ في الإثبات (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (١)

---

(١) سورة طه:الآية (٥)

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) (١)

واقرأ في النفي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (٢)

(وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) (٣).

ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي.

الوجه الحادي عشر: أن آيات الأنبياء، مما يعلم العقلاء أنها مختصة بهم، ليست مما تكون لغيرهم؛ فيعلمون أن الله لم يخلق مثلها لغير الأنبياء.

وسواء في آياتهم التي كانت في حياة قومهم، وآياتهم التي فرق الله بها بين أتباعهم وبين مكذبيهم؛ بنجاة هؤلاء، وهلاك هؤلاء ليست من جنس ما يوجد في العادات المختلفة لغيرهم.

وذلك: مثل تغريق الله لجميع أهل الأرض إلا لنوح، ومن ركب معه في السفينة؛ فهذا لم يكن قط في العالم نظيره (٤).

وكذلك: إهلاك قوم عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، مع كثرتهم، وقوتهم، وعِظَم عماراتهم التي لم يخلق مثلها في البلاد، ثم أُهلكوا بريح صرصر عاتية، مسخرة سبع ليال وثمانية أيام حسوما؛ حتى صاروا كلهم كأنهم أعجاز نخل خاوية (٥)، ونجا هود ومن اتبعه؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك: قوم صالح؛ أصحاب مدائن، ومساكن في السهل والجبال وبساتين؛ أهلكوا كلهم بصيحة واحدة (٦)؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

---

(١) سورة فاطر: الآية (١٠)

(٢) سورة الشوري: الآية (١١)

(٣) سورة طه: الآية (١١٠)

(٤) قال تعالي " وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا " (الفرقان: ٣٧) و قال تعالي " حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ. وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ " (هود: ٤٠ -٤٢)

(٥) قال تعالي "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمِمِّن بَاقِيَةٍ " (الحاقة ٦-٨)

(٦) قال تعالي "وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ"(الأعراف: ٧٤) وقال تعالي عنهم "فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِيذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"(النمل ٥١-٥٢)

وكذلك: قوم لوط؛ أصحاب مدائن متعددة، رفعت إلى السماء ثم قُلبت بهم، وأُتبِعوا بحجارة من السماء، تتبع شاذهم (١) ونجا لوط وأهله، إلا امرأته أصابها ما أصابهم؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

وكذلك: قوم فرعون، وموسى، جمعان عظيمان، ينفرق لهم البحر، كل فرق كالطود العظيم؛ فيسلك هؤلاء، ويخرجون سالمين فإذا سلك الآخرون، انطبق عليهم الماء (٢)؛ فهذا لم يوجد نظيره في العالم.

فهذه آيات تعرف العقلاء عموما، أنها ليست من جنس ما يموت به بنو آدم.

وقد يحصل لبعض الناس طاعون، ولبعضهم جدب، ونحو ذلك وهذا مما اعتاده الناس؛ وهو من آيات الله من وجه آخر، بل كل حادث من آيات الله تعالى.

ولكن هذه الآيات، ليست من جنس ما أعتيد.

وكذلك الكعبة، فإنها بيت من حجارة، بواد غير ذي زرع (٣) ليس عندها أحد يحفظها من عدو، ولا عندها بساتين، وأمور يرغب الناس فيها؛ فليس عندها رغبة ولا رهبة.

ومع هذا فقد حفظها بالهيبة والعظمة؛ فكل من يأتيها، يأتيها خاضعاً ذليلاً، متواضعاً في غاية التواضع، وجعل فيها من الرغبة، أن يأتيها الناس من أقطار الأرض محبة، وشوقاً من غير باعث دنيوي وهي على هذه الحال من ألوف من السنين، وهذا مما لا يعرف في العالم لبنية غيرها.

والملوك ينبون القصور العظيمة،فتبقى مدة،ثم تهدم،لا يرغب أحد في بنائها،ولا يرهبون من خرابها.

وكذلك ما بني للعبادات، قد تتغير حاله على طول الزمان وقد يستولي العدو عليه؛ كما استولى على بيت المقدس.

والكعبة لها خاصة ليست لغيرها.

---

(١) قال تعالي " فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ" (الحجر: ٧٤)

(٢) قال تعالي "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ. وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ"(الشعراء:٦٣-٦٧)

(٣) قال تعالي يحكي قول إبراهيم الخليل عليه السلام " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ " (إبراهيم: ٣٧)

وهذا مما حير الفلاسفة ونحوهم؛ فإنهم يظنون، أن المؤثر في هذا العالم، هو حركات الفلك، وأن ما بني وبقي، فقد بني بطالع سعيد؛ فحاروا في طالع الكعبة، إذ لم يجدوا في الأشكال الفلكية ما يوجب مثل هذه السعادة، والفرح، والعظمة والدوام، والقهر، والغلبة.

وكذلك ما فعل الله بأصحاب الفيل، لما قصدوا تخريبها قال تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ.أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ.وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ.تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ.فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) (١)

قصدها جيش عظيم، ومعهم الفيل، فهرب أهلها منهم، فبرك الفيل وامتنع من المسير إلى جهتها، وإذا وجهوه إلى غير جهتها توجه.

ثم جاءهم من البحر طير أبابيل؛ أي جماعات في تفرقة؛ فوجاً بعد فوج رموا عليهم حصى هلكوا به كلهم، فهذا مما لم يوجد نظيره في العالم.

فآيات الأنبياء، هي أدلة وبراهين على صدقهم،والدليل يجب أن يكون مختصاً بالمدلول عليه، لا يوجد مع عدمه لا يتحقق الدليل، إلا مع تحقق المدلول، كما أن الحادث لابد له من محدث؛ فيمتنع وجود حادث بلا محدث ولا يكون المحدث إلا قادراً.

فيمتنع وجود الأحداث من غير قادر، والفعل لا يكون إلا من عالم، ونحو ذلك.

فكذلك ما دل على صدق النبي، يمتنع وجوده إلا مع كون النبي صادقاً،ولم يجعلوا آيات الأنبياء تدل دلالة عقلية مستلزمة للمدلول؛ ولا تدل بجنسها ونفسها.

بل قال بعضهم: قد تدل، وقد لا تدل.

وقال آخرون: تدل مع الدعوى، ولا تدل مع عدم الدعوى، وهذا يبطل كونها دليلاً.

وآخرون أرادوا تحقيق ذلك، فقالوا: تدل دلالة وضعية،من جنس دلالة اللفظ على مراد المتكلم؛ تدل إن قصد الدلالة، ولا تدل بدون ذلك؛ فهي تدل مع الوضع دون غيره.

فيقال لهم: وما يدل على قصد المتكلم، هو أيضاً دليل مطرد يمتنع وجوده بدون المدلول، ودلالته تعلم بالعقل؛ فجميع الأدلة تعلم بالعقل، دلالتها على المدلول؛ فإن ذلك اللفظ إنما يدل إذا علم أن المتكلم أراد به هذا المعنى.

---

(١) سورة الفيل: الآيات (١-٥)

وهذا قد يعلم ضرورة، وقد يعلم نظراً؛ فقد يعلم قصد المتكلم بالضرورة؛ كما يعلم أحوال الإنسان بالضرورة؛ فيفرق بين حمرة الخجل، وصفرة الوجل، وبين حمرة المحموم، وصفرة المريض بالضرورة.

وقد يعلم نظراً واستدلالاً؛ كما يعلم أن عادته إذا قال كذا: أن يريد كذا، وإنه لا ينقض عادته، إلا إذا بَين ما يدل على انتقاضها فيعلم هذا.

كما يعلم سائر العاديات؛ مثل طلوع الشمس كل يوم، والهلال كل شهر وارتفاع الشمس في الصيف، وانخفاضها في الشتاء.

ومن هذا سنة الله، في الفرق بين الأنبياء وأتباعهم، وبين مكذبهم قال تعالى (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ) (١).

وقال تعالى (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) (٢)

وقال تعالى(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (٣).

وقال تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ.إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (٤).

فإن هذه العجائب والآيات، التي للأنبياء، تارة تُعلم بمجرد الأخبار المتواترة، وإن لم نشاهد شيئاً من آثارها.

وتارة تُشاهد بالعيان آثارها الدالة على ما حدث؛ كما قال تعالى (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) (٥).

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٧)
(٢) سورة فاطر: الآية (٤٣)
(٣) سورة الحج: الآية (٤٦)
(٤) سورة ق: الآيات (٣٦-٣٧)
(٥) سورة العنكبوت: الآية (٣٨)

وقال تعالى (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (١).

وقال تعالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ.وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (٢). وقال تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ.وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍإِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ.وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ) (٣)

أي: لبطريق موضح، متبين لمن مر به آثارهم.

وهذا الأخبار كانت منتشرة، متواترة في العالم، وقد علم الناس أنها آيات للأنبياء، وعقوبة لمكذبيهم، لهذا كانوا يذكرونها عند نظائرها للإعتبار؛ كما قال مؤمن آل فرعون (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ.مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ) (٤) وقال شعيب (وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ) (٥).

والقرآن آيته باقية على طول الزمان، من حين جاء به الرسول تتلى آيات التحدي به، ويتلى قوله (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) (٦)

وقولة تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٧) (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٨)

ويتلى قوله (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٩).

---

(١) سورة النمل: الآية (٥٢)
(٢) سورة الصافات: الآيات (١٣٧-١٣٨)
(٣) سورة الحجر: الآية (٧٥-٧٩)
(٤) سورة غافر: الآيات (٣٠-٣١)
(٥) سورة هود: الآية (٨٩)
(٦) سورة الطور: الآية (٣٤)
(٧) سورة هود: الآية (١٣)
(٨) سورة يونس: الآية (٣٨)
(٩) سورة الإسراء: الآية (٨٨)

فنفس إخبار الرسول بهذا في أول الأمر، وقطعه بذلك، مع علمه بكثرة الخلق، دليل على أنه كان خارقاً، يعجز الثقلين عن معارضته وهذا لا يكون لغير الأنبياء.

ثم مع طول الزمان، قد سمعه الموافق، والمخالف، والعرب، والعجم وليس في الأمم من أظهر كتاباً يقرأه الناس، وقال: إنه مثله وهذا يعرفه كل أحد.

وما من كلام تكلم به الناس، وإن كان في أعلى طبقات الكلام لفظاً ومعنى، إلا وقد قال الناس نظيره، وما يشبهه ويقاربه؛ سواء كان شعراً، أو خطابة، أو كلاماً في العلوم، والحكمة، والاستدلال والوعظ، والرسائل، وغير ذلك وما وجد من ذلك شيء، إلا ووجد ما يشبهه ويقاربه.

والقرآن مما يعلم الناس؛ عربهم، وعجمهم، أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب، وغير العرب، على معارضته.

فلفظه آية، ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية وإذا ترجم بغير العربي، كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم.

وإذا قيل: إن التوراة، والإنجيل، والزبور، لم يوجد لها نظير أيضاً لم يضرنا ذلك.

فإنا قلنا: إن آيات الأنبياء لا تكون لغيرهم، وإن كانت لجنس الأنبياء كالإخبار بغيب الله؛ فهذه آية يشتركون فيها.

وكذلك إحياء الموتى،قد كان آية لغير واحد من الأنبياء غير المسيح،كما كان ذلك لموسى،وغيره.

وليس المقصود هنا، ذكر تفضيل بعض الأنبياء على بعض، بل المقصود: أن جنس الأنبياء، متميزون عن غيرهم بالآيات والدلائل الدالة على صدقهم، التي يعلم العقلاء أن،ها لم توجد لغيرهم؛ فيعلمون أنها ليست لغيرهم؛ لا عادة، ولا خرق عادة.

بل إذا عُبر عنها بأنها خرق عادة، وبأنها من العجائب فالأمر العجيب، هو الخارج عن نظائره.

وخارق العادة، ما خرج عن الأمر المعتاد؛ فالمراد بذلك: أنها خارجة عن الأمر المعتاد لغير الأنبياء، وأنها من العجائب الخارجة عن النظائر، فلا يوجد نظيرها لغير الأنبياء.

وإذا وجد نظيرها؛ سواء كان أعظم منها، أو دونها لنبي، فذلك توكيد لها، أنها من خصائص الأنبياء؛ فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضا.

فآية كل نبي، لجميع الأنبياء؛ كما أن آيات أتباعهم، آيات لهم أيضاً. وهذا أيضاً من آيات الأنبياء، وهو تصديق بعضهم لبعض؛ فلا يوجد من أصحاب الخوارق العجيبة، التي تكون بغير الأنبياء كالسحرة، والكهنة، وأهل الطبائع، والصناعات، إلا من يخالف بعضهم بعضا، فيما يدعو إليه، ويأمر به، ويعادي بعضهم بعضا.

وكذلك أتباعهم، إذا كانوا من أهل الإستقامة، فما أتى به الأول من الآيات، فهو دليل على نبوته، ونبوة من يبشر به (١) وما أتى به الثاني، فهو دليل على نبوته، ونبوة من يصدقه ممن تقدم (٢) فما أتى به موسى، والمسيح، وغيرهما من الآيات، فهي آيات لنبوة محمد لإخبارهم بنبوته، فكان هذا الخبر مما دلت آياتهم على صدقه.

وما أتى به محمد من الآيات، فهو دليل على إثبات جنس الأنبياء مطلقاً وعلى نبوة كل من سمي في القرآن، خصوصاً إذا كان هذا مما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم عن الله، ودلت على صدقه فيما يخبر به عن الله.

وحينئذ فإذا قدر أن التوراة، أو الإنجيل، أو الزبور، معجز لما فيه من العلوم، والإخبار عن الغيوب، والأمر والنهي، ونحو ذلك لم ينازع في ذلك، بل هذا دليل على نبوتهم صلوات الله عليهم وعلى نبوة من أخبروا بنبوته.

ومن قال: إنها ليست بمعجزة، فإن أراد ليست معجزة من جهة اللفظ والنظم؛ كالقرآن، فهذا ممكن، وهذا يرجع فيه إلى أهل اللغة العبرانية.

وأما كون التوراة معجزة، من حيث المعاني، لما فيها من الإخبار عن الغيوب، أو الأمر والنهي، فهذا لا ريب فيه.

ومما يدل على أن كتب الأنبياء معجزة: أن فيها الإخبار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قبل أن يبعث بمدة طويلة.

---

(١) كما قال المسيح " وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ " (الصف: ٦)

(٢) ومن أمثلة ذلك: تصديق سيدنا عيسي عليه السلام برسالة سيدنا موسي عليهم السلام، كما حكي الله ذلك عنه بقوله " وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ " (آل عمران: ٥٠)

وهذا لا يمكن علمه بدون إعلام الله لهم.

وهذا بخلاف من أخبر بنبوته، من الكهان والهواتف؛ فإن هذا إنما كان عند قرب مبعثه لما ظهرت دلائل ذلك، واسترقته الجن من الملائكة، فتحدثت به، وسمعته الجن من أتباع الأنبياء.

فالنبي الثاني، إذا كان قد أخبر بما هو موجود في كتاب النبي الأول، وقد وصل إليه من جهته، لم يكن آية له؛ فإن العلماء يشاركونه في هذا.

وأما إذا أخبر بقدر زائد، لم يوجد في خبر الأول، أو كان ممن لم يصل إليه خبر نبي غيره، كان ذلك آية له، كما يوجد في نبوة "أشعيا" و "داود" وغيرهما، من صفات النبي، مالا يوجد مثله في توراة موسى.

فهذه الكتب معجزة، لما فيها من أخبار الغيب، الذي لا يعلمه إلا نبي، وكذلك فيها من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ما لا يأتي به إلا نبي، أو تابع نبي.

وما أتى أتباع الأنبياء من جهة كونهم أتباعاً لهم، مثل أمرهم بما أمروا به، ونهيهم عما نهوا عنه، ووعدهم بما وعدوا به ووعيدهم بما يوعدون به؛ فإنه من خصائص الأنبياء.

والكذاب المدعي للنبوة، لا يأمر بجميع ما أمرت به الأنبياء، وينهى عن كل ما نهوا عنه؛ فإن ذلك يفسد مقصوده، وهو كاذب فاجر، شيطان، من أعظم شياطين الإنس، والذي يعينه على ذلك من أعظم شياطين الجن.

وهؤلاء لا يتصور أن يأمروا بما أمرت به الأنبياء، وينهوا عما نهوا عنه؛ لأن ذلك يناقض مقصودهم.

بل وإن أمروا بالبغض في ابتداء الأمر، من يخدعونه، ويربطونه فلابد أن يناقضوا، فيأمروا بما نهت عنه الأنبياء، ولا يوجبوا ما أمرت به الأنبياء.

كما جرى مثل ذلك، لمن ادعى النبوة من الكذابين، ولمن أظهر موافقة الأنبياء، وهو في الباطن من المنافقين؛ كالملاحدة الباطنية الذين يظهرون الإسلام والتشيع إبتداء.

ثم إنهم يستحلون الشرك، والفواحش، والظلم، ويسقطون الصلاة والصيام، وغير ذلك، مما جاءت به الشريعة.

فمن أظهر خلاف ما أبطن،وكان مطاعا في الناس،فلابد أن يظهر من باطنه،ما يناقض ما أظهره.

فكيف بمن ادعى النبوة، وأظهر أنه صادق على الله، وهو في الباطن كاذب على الله.

بل من أظهر خلاف ما أبطن من آحاد الناس، يظهر حاله لمن خبره في مدة؛ فإن الجسد مطيع للقلب، والقلب هو الملك المدبر له كما قال صلى الله عليه وسلم: " ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت، فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب " (١).

فإذا كان القلب كاذباً على الله، فاجراً، كان ذلك أعظم الفساد فلابد أن يظهر الفساد على الجوارح، وذلك الفساد، يناقض حال الصادق على الله، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وذلك أن آيات الأنبياء، الدالة على صدقهم، كثيرة متنوعة وأن النبي الصادق، خير الناس، والكاذب على الله، شر الناس وبينهما من الفروق، مالا يحصيه إلا الله، فكيف يشتبه هذا بهذا.

بل لهذا من دلائل صدقه، ولهذا من دلائل كذبه، مالا يمكن إحصاؤه.

وكل من خص دليل الصدق بشيء معين فقط، غلط، بل آيات الأنبياء، هي من آيات الله، الدالة على أمره ونهيه، ووعده ووعيده.

وآيات الله كثيرة متنوعة؛ كآيات وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وحكمته،ورحمته سبحانه وتعالى،والقرآن مملوء من تفصيل آياته وتصريفها؛وضرب الأمثال في ذلك،وهو يسميها آيات وبراهين.

وقد ذكرنا الفرق بين الآيات، والمقاييس الكلية التي لا تدل إلا على أمر كلي في غير هذا الموضع.

الوجه الثاني عشر: أن ما يأتي به الساحر، والكاهن، وأهل الطبائع والصناعات، والحيل، وكل من ليس من أتباع الأنبياء، لا يكون إلا من مقدور الإنس والجن.

فما يقدر عليه الأنس من ذلك، هو وأنواعه، والحيل فيه كثير: وما يقدر عليه الجن، هو من جنس مقدور الإنس، وإنما يختلفون في الطريق؛ فإن الساحر قد يقدر على أن يقتل إنساناً بالسحر أو يمرضه، أو يفسد عقله، أو حسه، وحركته، وكلامه؛ بحيث لا يجامع أو لا يمشي، أو لا يتكلم ونحو ذلك.

---

(١) حديث شريف رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان ومسلم في صحيحه، كتاب: المساقاه.

وهذا كله مما يقدر الإنس على مثله، لكن بطرق أخرى. والجن يطيرون في الهواء، وعلى الماء، ويحملون الأجسام الثقيلة كما قال العفريت لسليمان (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) (١).

وهذا الجنس، يكون لمن هو دون الإنس والجن، من الحيوان كالطيور، والحيتان، والإنس يقدر على جنسه،ولهذا لم يكن هذا الجنس آية لنبي، لوجوده لغير الأنبياء. فكثير من الناس تحمله الجن، بل شياطين الجن، وتطير به في الهواء وتذهب به إلى مكان بعيد؛ كما كان العفريت يحمل عرش بلقيس من اليمن، إلى مكان بعيد.

ونحن نعرف من هؤلاء عدداً كثيراً، وليسوا صالحين، بل فيهم كفار ومنافقون، وفساق، وجهال، لا يعرفون الشريعة، والشياطين تحملهم وتطير بهم من مكان إلى مكان، وتحملهم إلى عرفات؛ فيشهدون عرفات من غير إحرام، ولا تلبية، ولا طواف بالبيت.

وهذا الفعل حرام، والجهال يحسبون أنه من كرامات الصالحين فتفعله الجن بمن يحب ذلك، مكراً به؛ وخديعة، أو خدمة لمن يستخدمهم من هؤلاء الجهال بالشريعة، وإن كان له زهد وعبادة.

وكذلك الجن، كثيراً ما يأتون الناس بما يأخذونه من أموال الناس من طعام، وشراب، ونفقة، وماء، وغير ذلك، وهو من جنس ما يسرقه الإنسي، ويأتي به إلى الإنسي، لكن الجن تأتي بالطعام والشراب، في مكان العدم.

ولهذا لم يكن مثل هذا آية لنبي، وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يضع يده في الماء، فينبع الماء من بين أصابعه، وهذا لا يقدر عليه لا إنس ولا جن.

وكذلك الطعام القليل يصير كثيراً، وهذا لا يقدر عليه؛ لا الجن ولا الإنس.

ولم يأت النبي صلى الله عليه وسلم قط، بطعام من الغيب، ولا شراب وإنما كان هذا قد يحصل لبعض أصحابه؛ كما أتى خبيب بن عدي (٢) وهو أسير بمكة، بقطف من عنب، وهذا الجنس ليس من خصائص الأنبياء.

---

(١) سورة النمل: الآية (٣٩)

(٢) خبيب بن عدي بن مالك بن عامر الأوسي الأنصاري، شهد بدراً واستشهد في عهد النبي صلي الله عليه وسلم حين أخذه المشركون أسيراً في مكة، فقتله بنو الحارث، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر في بدر، وقصة أسره وقتله في الصحيحين عن أبي هريرة. أنظر: صحيح البخاري، كتاب: المغازي.

ومريم عليها السلام لم تكن نبية، وكانت تؤتى بطعام (١). فإن هذا قد يكون من حلال، فيكون كرامة؛ يأتي به إما ملك وإما جني مسلم، وقد يكون حراماً، فليس كل ما كان من آيات الأنبياء، يكون كرامة للصالحين.

وهؤلاء (٢) يسوون بين هذا وهذا، ويقولون: الفرق هو دعوى النبوة، والتحدي بالمثل.

وهذا غلط، فإن آيات الأنبياء، التي دلت على نبوتهم، هي أعلى مما يشتركون فيه هم وأتباعهم؛ مثل الإتيان بالقرآن؛ ومثل الإخبار بأحوال الأنبياء المتقدمين وأممهم، والإخبار بما يكون يوم القيامة وأشراط الساعة.

ومثل إخراج الناقة من الأرض (٣)؛ ومثل قلب العصا حية (٤) وشق البحر (٥) ومثل أن يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله (٦) وتسخير الجن لسليمان (٧) لم يكن مثله لغيره،لكن من الجن المؤمنين من يعاون المؤمنين، ومن الجن الفساق والكفار من يعاون الفساق؛ كما يعاون الإنس بعضهم بعضا. فإما طاعة مثل طاعة سليمان، فهذا لم يكن لغير سليمان عليه السلام.

ومحمد صلى الله عليه وسلم أعطي أفضل مما أعطي سليمان؛ فإنه أرسل إلى الجن، وأمروا أن يؤمنوا به، ويطيعوه (٨).

---

(١) قال تعالي يحكي عن مريم عليها السلام " وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ " (آل عمران:٣٧)

(٢) يشير هنا إلي الأشاعرة.

(٣) قال تعالي " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ " (الأعراف ٧٣)

(٤) وهذه من معجزات موسي عليه السلام قال تعالي " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى"(طه: ١٧-٢٠)

(٥) وهذه من معجزات موسي عليه السلام قال تعالي يمتن علي قوم موسي عليه السلام " إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ " (البقرة: ٥٠)

(٦) وهذه من معجزات عيسي عليه السلام قال تعالي حاكيا عن المسيح عليه السلام " أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ " (آل عمران: ٤٩)

(٧) قال تعالي " ولسليمان الريح...." إلي قوله " وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ " (الأنبياء: الآيتان ٨١-٨٢)

(٨) قال تعالي حكاية عن الجن "يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ " (الأحقاف ٣١-٣٢)

فهو يدعوهم إلى عبادة الله، وطاعته، ولا يأمرهم بخدمته، وقضاء حوائجه؛ كما كان سليمان يأمرهم، ولا يقهرهم باليد؛ كما كان سليمان يقهرهم.

بل يفعل فيهم كما يفعل في الإنس، فيجاهدهم الجن المؤمنون ويقيمون الحدود على منافقيهم، فيتصرف فيهم تصرف العبد الرسول لا تصرف النبي الملك؛ كما كان سليمان يتصرف فيهم.

والصالحون من أمته، المتبعون له، يتبعونه فيما كان يأمر به الإنس والجن، وآخرون دون هؤلاء، قد يستخدمون بعض الجن في مباحات؛ كما قد يستخدمون بعض الإنس.

وقد يكون ذلك مما ينقص دينهم، لاسيما إن كان بسبب غير مباح. وآخرون شر من هؤلاء، يستخدمون الجن في أمور محرمة؛ من الظلم والفواحش، فيقتلون نفوساً بغير حق، ويعينونهم على ما يطلبونه من الفاحشة، كما يحضرون لهم امرأة أو صبياً، أو يجذبونه إليه وآخرون يستخدمونهم في الكفر،فهذه الأمور ليست من كرامات الصالحين.

فإن كرامات الصالحين، هو ما كان سببه الإيمان، والتطاعة اللهكان سببه الكفر، والفسوق، والعصيان.

وأيضاً: فالصالحون سابقوهم، لا يستخدمونهم إلا في طاعة الله ورسوله.

ومن هو دون هؤلاء، لا يستخدمهم إلا في مباح.

وأما إستخدامهم في المحرمات، فهو حرام، وإن كانوا، إنما خدموه لطاعته لله؛ كما لو خدم الإنس رجلاً صالحاً لطاعته لله، ثم استخدمهم فيما لا يجوز.

فهذا بمنزلة من أنعم عليه بطاعته نعمة، فصرفها إلى معصية الله فهو آثم بذلك.

وكثير من هؤلاء يسلب تلك النعمة، ثم قد يسلب الطاعة؛ فيصير فاسقاً ومنهم من يرتد عن دين الإسلام.

فطاعة الجن للإنسان، ليست أعظم من طاعة الإنس، بل الإنس أَجل، وأعظم، وأفضل، وطاعتهم أنفع.

وإذا كان المطاع من الإنس، قد يطاع في طاعة الله، فيكون محموداً مثاباً وقد يطاع في معصية الله، فيكون مذموماً آثماً، فكذلك المطاع من الجن الذي يطيعه الناس.

والمطاع من الإنس، قد يكون مطاعاً لصلاحه، ودينه، وقد يكون مطاعاً لملكه، وقوته.

وقد يكون مطاعاً لنفعه لمن يخدمه بالمعاوضة.

فكذلك المطاع من الجن؛ قد يطاع لصلاحه و دينه، و قد يطاع لقوة، وملك، محمود، أو مذموم.

ثم الملك، إذا سار بالعدل، حُمد، وإن سار بالظلم، فعاقبته مذمومة وقد يهلكه أعوانه.

فكذلك المطاع من لجن، إذا ظلمهم، أو ظلم الإنس بهم أو بغيرهم، كانت عاقبته مذمومة، وقد تقتله الجن، أو تسلط عليه من الإنس من يقتله.

وكل هذا واقع، نعرف من ذلك، من الوقائع ما يطول وصفه كما نعرف من ذلك، من وقائع الإنس ما يطول وصفه.وليس آيات الأنبياء، في شيء من هذا الجنس.

ونبينا صلى الله عليه وسلم لما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، إنما أسري به ليرى من آيات ربه الكبرى. وهذا هو الذي كان من خصائصه: أن مسراه كان هذا؛ كما قال تعالى (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى.وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى.عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى.إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى) (١) وقال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا) (٢) قال ابن عباس: هي رؤيا عين أُريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به (٣).

فهذا الذي كان من خصائصه، ومن أعلام نبوته.

وأما مجرد قطع تلك المسافة، فهذا يكون لمن تحمله الجن. وقد قال العفريت لسليمان (قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) (٤).

وحَمَلُ العرش، من القصر من اليمن، إلى الشام، أبلغ من ذلك.(قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (٥)

---

(١) سورة النجم: الآيات (١٢– ١٦)

(٢) سورة الإسراء: الآية (٦٠)

(٣) حديث شريف رواه البخاري في صحيحه، كتاب:التفسير،باب:قوله تعالي"وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ"

(٤) سورة النمل: الآية (٣٩)

(٥) سورة النمل: الآية (٤٠)

فهذا أبلغ من قطع المسافة، التي بين المسجدين في ليلة.

ومحمد صلى الله عليه وسلم أفضل من الذي عنده علم من الكتاب،ومن سليمان، فكأن الذي خصه الله به أفضل من ذلك؛ وهو أنه أسري به في ليلة، ليريه من آياته.

فالخاصة: أن الإسراء كان ليريه من آياته الكبرى؛ كما قال تعالى (أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى.وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى.عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى.إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى) (١)

فهذا ما حصل مثله؛ لا لسليمان، ولا لغيره.

والجن وإن قدروا على حمل بعض الناس في الهواء، فلا يقدرون على إصعاده إلى السماء، وإراءته آيات ربه الكبرى، فكأن ما آتاه الله محمداً، خارجاً عن قدرة الجن والإنس، وإنما كان الذي صَحبه في معراجه، جبريل الذي اصطفاه الله لرسالته (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (٢).

وكان المقصود من الإسراء، أن يُريَه ما رآه من آياته الكبرى ثم يخبر به الناس،.

فلما أخبر به، كذب به من كذب من المشركين، وصدق به الصديق، وأمثاله من المؤمنين.

فكان ذلك إبتلاء، ومحنة للناس؛ كما قال تعالى (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ) (٣) أي: محنة وإبتلاء للناس؛ ليتميز المؤمن عن الكافر.

وكان فيما أخبرهم به، أنه رأى الجنة والنار، وهذا مما يخوفهم به قال تعالى (وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا) (٤)

والرسول لما أخبرهم بما رآه، كذبوه في الإسراء، وأنكروا أن يكون أسري به إلى المسجد الأقصى، فلما سألوه عن صفته فوصفه لهم، وقد علموا أنه لم يَره قبل ذلك، وصدقه من رآه منهم كان ذلك دليلاً على صدقه في المسرى.

---

(١) سورة النجم: الآيات (١٢- ١٦)
(٢) سورة الحج: الآية (٧٥)
(٣) سورة الإسراء: الآية (٦٠)
(٤) سورة الإسراء: الآية (٦٠)

فلم يمكنهم مع ذلك تكذيبه فيما لم يروه، وأخبر الله تعالى بالمسرى إلى المسجد الأقصى؛ لأنهم قد علموا صدقه في ذلك بما أخبرهم به من علاماته، فلا يمكنهم تكذيبه في ذلك.

وذكر أنه رأى من آيات ربه الكبرى، ولم يعين ما رآه، وهو جبريل الذي رآه في صورته، التي خلق عليها مرتين؛ لأن رؤية جبريل هي من تمام نبوته.

ومما يبين أن الذي أتاه بالقرآن ملك، لا شيطان؛ كما قال في سورة (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) قال تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ.ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ.مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) ثم قال (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ.وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ.وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ.فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ.إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) (١)

---

(١) سورة التكوير: الآيات (١٩ – ٢٧)

فصل
المعجزات دليل على النبوة

ومما يبين ضعف طريقة هؤلاء (١) أنهم قالوا: المعجزات لا تدل بجنسها على النبوة، بل يوجد مثل المعجز من كل وجه، ولا يدل على النبوة كأشراط الساعة؛ وكما يوجد للسحرة، والكهان، والصالحين من الخوارق، التي تماثل آيات الأنبياء فيما زعمه هؤلاء.

قالوا: لكن الفرق أن هذا يدعي النبوة، ويحتج بها، ويتحداهم بالمثل فلا يقدر أحد على معارضته.

وأولئك لو ادعوا النبوة، لمنعهم الله منها، وإن كانوا قبل ذلك غير ممنوعين منها، أو لقيض لهم من يعارضهم، ولو عارضوا بها نبياً لمنعهم الله إياها، ليسلم دليل النبوة.

قالوا: والمعجز إنما يدل دلالة وضعية بالجعل، والقصد؛ كدلالة الألفاظ والعقد، والخط، والعلامات التي يجعلها الناس بينهم.

فيقال لهم: هذه الأمور كلها، إنما تدل إذا تقدم علم المدلول بها، أن الدال جعلها علامة؛ كما يوكل الرجل وكيلاً ويجعل بينه وبينه علامة؛ إما وضع يده على ترقوته، وإما وضع خنصره وإما وضع يده على رأسه، فمن جاء بهذه العلامة، عُلم أن موكله أرسله.

فأما إذا لم يتقدم ذلك، لم تكن دلالة جعلية وضعية إصطلاحية.

وآيات الأنبياء، لما لم تتقدم قبلها من الرب مواضعة بينه وبين العباد قالوا: هي تشبه ما إذا قال الرجل لموكله، والرسول لمرسله: أنك أرسلتني إلى هؤلاء القوم، فإن كنت أرسلتني، فقم، واقعد ليعلموا أنك أرسلتني.

فإذا قام وقعد، عقب طلب الرسول، عَلم الحاضرون أنه قام وقعد ليعلمهم أنه رسوله، وإن كان بدون طلبه قد يقوم ويقعد لأمور أخرى.

فيقال لهم: هنا لما علم الحاضرون إنتفاء داع يدعوه، إلا قصد التصديق علموا أنه قصد تصديقه.

---

(١) يشير هنا إلى قول الأشاعرة في المعجزات.

ولهذا:لو جوزوا قيامه لحاجة عرضت، أو لحية، أو عقرب، وقعت في ثيابه، أو لغير ذلك، لم يجعلوا ذلك دليلاً.

والسبر والتقسيم، مما يعلم به الدليل، وإن لم يقصده الدليل؛ حتى أن الرجل المشهور، إذا خرج في غير وقت خروجه المعتاد، فقد يعرف كثير من الناس، لأي شيء خرج؛ لعلمهم بانتفاء غيره وأن خروجه له مناسب.

وإن لم يكن هنا أحد طلب الإستدلال؛ فخروج الإنسان عن عادته، قد يكون لأسباب.

فإذا اقترن بسبب صالح، وعلم إنتفاء غيره، علم أنه لذاك السبب وهذا إنما يكون ممن يفعل لداع يدعوه.

والرب تعالى عندهم (١) لا يفعل لداع يدعوه،فلزمهم:

- إما إبطال أصلهم
- وإما إبطال هذه الدلالة.

وأيضاً فيقال لهم: بل الدليل دل لجنسه؛ وهو هذا الفعل، الذي لم يفعل إلا لهذا الطلب.

ومتى وجد هذا، كان جنسه دليلاً.

وليست الدعوى جزءاً من الدليل، بل طلب الإعلام بهذا الفعل مع الفعل، هو الدليل.

ولهذا لو قال: فافعل ما يدل على صدقي، وقام، وقعد،لم يدل على صدقه، بخلاف ما إذا قال: فقم واقعد.

ولو قال: فأظهر ما يدل على صدقي، فلابد أن يظهر ما يدل جنسه أنه دليل؛ كقول، أو خط، أو غير ذلك، أو خلعة تختص بمثل ذلك. ففرق بين أن يطلب فعلاً معيناً، أو دليلاً مطلقاً، وهو إذا طلب فعلاً معيناً كقيام، أو وضع يد على الرأس، أو صلاة ركعتين، أو غير ذلك من الأفعال، دل على صدقه، وإن كان ذلك معتاداً له أن يفعله فليس من شرط دلالته أن يخرج عن عادته.

لكن شرط دلالته، أن يعلم أنه فعله لأجل الإعلام؛ بحيث لا يكون هناك سبب داع غير الإعلام، وحينئذ فهو دال لجنسه.

---

(١) أي عند الأشاعرة.

وكذلك يقال: الرب إذا خرق العادة لمدعي الرسالة، عقب مطالبته بآية عُلم أن الله لم يخلق تلك الأدلة على صدقه، فهذا يدل.

وهذا إنما يتم مع كون الرب يفعل شيئاً، لأجل شيء آخر.

وحينئذ فقد يكون من شرط الدليل: مطالبة الطالب بدليل، لا أن نفس الدعوى هي جزء الدليل.

وفرق بين طلبه من الرب آية، أو طلبهم منه آية، وبين الدعوى فإظهار ما يظهره الرب عقب طلبهم، أو طلبه، قد يقال فيه: أن الطلب جزء الدليل، وأنه لو أظهره بدون الطلب، لم يدل. وأما نفس دعوى النبوة، فليست جزءاً.

وعلى هذا: فإذا قدر أنه يفعل ذلك عند طلبه، أو طلب غيره آية دل على صدقه.

لكن هذا يكون، إذا علم أنه لم يفعله إلا لإعلام أولئك بصدقه وهذا لا يكون، إلا بأن يتميز جنس ما دل به عن غيره.

ولا يجوز أن يدل مع وجود مثله من غير دلالة، بل متى قدر وجود مثله من غير دلالة، بطل كونه دليلاً.

ولو كانت الدعوى جزءاً من الدليل، لكانت المعارضة لا تكون إلا مع دعوى النبوة.

فلو أتوا بمثل القرآن، من غير دعوى النبوة، لم يكونوا عارضوه.

وهذا خلاف ما في القرآن، وخلاف ما أجمع المسلمون، بل والعقلاء، والله أعلم.

وهم يسمون ما يكون بقصد الدال، كالكلام دليلاً وضعياً.

فالأقوال والأفعال، التي يقصد بها الدلالة؛ كالعقد، وما يجعله الرجل علامة، ونحو ذلك، يسمونه: دليلاً وضعياً، ويسمون ما يدل مطلقاً: دليلاً عقلياً.

والأجود أن يقال: جميع الأدلة عقلية؛ بمعنى: أن العقل إذا تصورها، علم أنها تدل.

فإن الدليل: هو ما يكون النظر الصحيح فيه مفضياً إلى العلم بالمدلول عليه، وإنما يكون النظر الصحيح، لمن يعقل دلالة الدليل. فمن لم يعقل كون الدليل مستلزماً للمدلول، لم يستدل به. ومن عقل ذلك، استدل به؛ فهو يدل بصفة هو في نفسه عليها، لا بصفة هي في المستدل.

لكن كونه عقلياً، يرجع إلى أن المستدل علمه بعقله، وهذا صفة في المستدل لا فيه.

أو الأجود أن يقال: الدليل قد يدل بمجرده، وقد يدل بقصد الدال على دلالته.

فالأول لا يحتاج إلى قصد الدلالة؛ كما تقول النحاة: أن الأصوات تدل بالطبع، وتدل بالوضع.

فالذي يدل بالطبع: كالنحنحة، والسعال، والبكاء، ونحو ذلك من الأصوات، وهذا ليس كلاماً.

وحينئذ فما يدل بقصد الدال، أحق بالدلالة، ودلالته أكمل. ولهذا كانت دلالة الكلام على مقصود المتكلم، وهي دلالة سمعية أكمل من جميع أنواع الأدلة على مراده؛ وهو البيان الذي علمه الله الإنسان، وامتن بذلك على عباده؛ فمنها ما يدل بمجرده ومنها ما يدل بقصد الدال.

فإذا انضم إليه ما يعرف أنه قصد الدلالة، دل؛ فالدليل هنا في الحقيقة: قصد الدال للدلالة؛ وهي دلالة لا تنتقض إذا لم يجوز عليه الكذب،وإنما الذي دل به على قصده، هو دل بجعله دليلاً، لم يدل بمجرده فهو دليل بالاختيار، لا بمجرده.

فالأقوال، والأفعال التي يقصد بها الدلالة، تدل باختيار الدال بها، لا بمجردها.

ودلالتها تعلم بالعقل، وقد تفتقر من العقل إلى أكثر مما يفتقر إليه العقلي المجرد؛ لأنها تحتاج إلى أن يعلم قصد الدال.

ولكن ما يحصل بها من الدلالة أوضح وأكثر: كالكلام. وعلى هذا: فإذا أريد تقسيمها إلى: عقلي، ووضعي؛ أي إلى عقلي مجرد، والى وضعي، يحتاج مع العقل إلى قصد من الدال فهو تقسيم صحيح، فدال يعلم بمجرد العقل، وهذا لا يحتاج مع العقل إلى السمع، أو غيره.

وحينئذ: فإذا قيل في السمعيات: أنها ليست عقلية؛ أي: لا يكفي فيها مجرد العقل، بل لابد من إنضمام السمع إليه.

وعلي هذا قوله:(فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا((١)

وكذلك ذكر الرازي وغيره، أن السمع المحض لا يدل، لا بد من العقل.

وهذا صحيح؛ فإن العقل شرط في جميع العلوم، التي تختص بالعقلاء والله أعلم.

(١) سورة الحج:الآية (٤٦)

ومما يلزم أولئك، أن ما كان يظهر على يد النبي صلى الله عليه وسلم في كل وقت من الأوقات، ليس دليلاً على نبوته؛ لأنه لم يكن كلما ظهر شيء من ذلك احتج به، وتحدى الناس بالإتيان بمثله.

بل لم ينقل عنه التحدي إلا في القرآن خاصة، ولا نقل التحدي عن غيره من الأنبياء؛ مثل: موسى، والمسيح، وصالح، ولكن السحرة لما عارضوا موسى، أبطل معارضتهم.

وهذا الذي قالوه، يوجب أن لا تكون كرامات الأولياء من جملة المعجزات.

وقد ذكر غير واحد من العلماء، أن كرامات الأولياء معجزات لنبيهم وهي من آيات نبوته، وهذا هو الصواب.

كقصة أبي مسلم الخولاني، وغيره مما جرى لهذه الأُمة من الآيات ومثل ما كان يظهر على أيدي الحواريين، وعلى يد موسى وأتباعه لأنه جعل التحدي بالمثل، جزءاً من دليله وآيته، فلا يكون دليلاً حتى يتحداهم بالمثل.

بل قد علم أن نفس استدلال المستدل بالدليل، يوجب اختصاصه بالمدلول عليه، وكل من أتى بآية هي دليل وبرهان وحجة.

فقد علم أنه يقول: أنها مستلزمة للمدلول عليه، لا يوجد مع عدمه فلا يمكن أحداً أن يعارضها، فيأتي بمثلها مع عدم المدلول عليه.

وهؤلاء جعلوا من جملة الدليل: دعوى النبوة، والاحتجاج به، والتحدي بالمثل؛ ثلاثة أشياء.

وهذه الثلاثة هي أجزاء الدليل.

ودعوى النبوة هو الذي تقام عليه البينة، والذي تقام عليه الحجة ليس هو جزءاً من الحجة.

والدعوى تسمى مدلولا عليها، ونفس المدعي يسمى مدلولا عليه وثبوت المدعي يسمى مدلولاً عليه، والعلم بثبوته يسمى مدلولاً عليه.

فهنا دعوى النبوة، وهنا النبوة، وهنا النبوة المدعاة، قبل أن يعلم ثبوتها، وهنا ثبوته في نفس الأمر، وهنا علم الناس بثبوتها وكذلك سائر الدعاوي.

فمن ادعى تحريم النبيذ المتنازع فيه؛ فهنا:دعواه التحريم، ونفس التحريم هل هو ثابت أم منتف؟

وثبوت التحريم في نفس الامر، والعلم بالتحريم.

وكذلك من أدعى حقاً عند الحاكم؛ فهنا: دعواه الحق، وهنا نفس المدعي؛ وهو استحقاقه ذلك الحق، وهنا ثبوت هذا الاستحقاق في نفس الأمر، وهنا العلم بإستحقاقه.

فالبينة والحجة، يجب أن يقارن المدلول عليه؛ الذي هو المدعي وثبوته في نفس الأمر؛ سواء إدعاه مدع، أو لم يدعه؛ وسواء علمه عالم،أو لم يعلمه؛ فإن الدليل مستلزم للمدلول عليه ؛ مستلزم لحرمة النبيذ واستحقاق الحق.

وثبوت الحرمة في نفس الأمر، يستلزم للحرمة.

وأما مجرد الحرمة المتصورة: فليست مستلزمة لوجودها في نفس الأمر بل قد يتصور في الأذهان، مالا يوجد في الأعيان. والله أعلم.

فصل
أقوال الباقلاني في المعجزات

وقد ذكر القاضي أبو بكر، أن من المثبتة المجيزين للكرامات، من أجاب عن حجة النفاة، بأن قال: الأدلة على ضربين: عقلية، ووضعية فالعقلي: يدل لنفسه وجنسه.

والوضعي: يدل مع المواطأة، ولا يدل مثله مع عدمها؛ كالمعجزات تجريضعف أبو بكر هذا، بأن قال لهم أن يقولوا: إذا كانت المعجزات تجري مجرى القول، فحيث قصدت دلت، وعنده أن الأمر ليس كذلك.

قلت: بل هذا القائل أحسن؛ لأنها تدل إذا قصدت بها الدلالة مثل قيام الأمر، وقعوده إذا طلب ذلك منه.

ومثل العلامة التي تكون للشخص، إذا جعلها علامة؛ فحيث قصد الدلالة به دل.

لكن لازم هذا، أن لا يكون إلا إذا طلب الاستدلال بها، لا نفس الدعوى.

ثم أنه ذكر أن الخارق للعادة، لابد أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسل إليهم.

ثم جوز أن يكون مما اعتاده كثير منهم، بشرط أن يمنعهم عن المعارضة، فيكون ذلك خرق عادة.

ثم قال في الكرامات: لا يجوز أن تكثر حتى تصير عادة؛ لأن من حق المعجز على قولنا وقولهم، أن يكون خارقاً للعادة، فلا تجوز إدامة ظهوره، فيصير عادة، بل يقع نادراً.

وقد جوزوا في السحر والكهانة، أن يكون عادة، لكن عند دعوى النبوة يمنعهم من المعارضة، فكانت الكرامات أولى بذلك، هي عادة للصالحين وإذا ادعى النبوة صادق، منع من المعارضة، فهذا اضطراب آخر.

وادعى إجماع الأمة، على أنها لا تظهر على فاسق، ولولا الإجماع لجوز ذلك؛ لأنه لا ينقض دليل النبوة، فصارت تدل على الولاية بالإجماع، على أنها لا تظهر إلا على يد نبي أو ولي فبهذا الإجماع يعلم أن من ظهرت على يده هو ولي.

وهذا تناقض من وجهين:

أحدهما: أنهم قد قالوا: إنها لا تدل على الولاية؛ لأن الولي من مات على الإيمان، وهذا غير معلوم.

الثاني: أنه يقال: إذا جوزت أن يظهر على يد الساحر، والكاهن ونحوهما من الكفار، ما هو من جنس المعجزات والكرامات، وقلت: يجب أن لا يستثنى من السحر شيء لا يفعل عنده، إلا ما ورد اوعارضه معارضيف، على أنه لا يكون بضرب من السحر، ولا يفعل عنده؛ كفلق البحر ونحوه.

فيكون الفرق بين السحر وغيره، إنما يعلم بهذا الإجماع، إن ثبت وإلا فعندك يجوز أن يظهر على يد الساحر، كل ما يظهر على يد النبي إذا لم يدع النبوة، ولا يحتج بذلك إذا ادعى النبوة، وعارضه معارض بالمثل.

فكيف تقول مع هذا: إن الخوارق تدل على الولاية بالإجماع، وأنت تجوز ظهورها على أيدي الكفار؛ من السحرة، والكهان.

فإن قال: السحر والكهانة كانا قبل الرسول، فلما جاء بطلا.

قيل: أنت قد أثبت أن نفسه سحر بعد النبوة، وأن السحر كان على عهد الصحابة، وقتلوا الساحر، وذكرت إجماع الفقهاء على أن السحر يكون من المسلمين، وأهل الكتاب، والساحر ليس بولي لله والسحر عندك هو من جنس الكرامات، الجميع خارق للعادة، لم يستدل به على النبوة.

فكيف تقول مع هذا: إن الخوارق لا تكون إلا لنبي، أو ولي، وأنت أثبتها للكفار.

وهذا كله من جهة، أنه أخذ جنس الخوارق مشتركا؛ فجوز أن يكون للنبي، وغير النبي، مع قوله: إن الخارق لابد أن يكون خارقاً لعادة جميع المرسل إليهم.

ولكن عنده هذا يحصل بعدم المعارضة، وحينئذ فاشتراط كونه خارقاً ومختصاً بمقدور الرب باطل.

وهو قد حكى أن الإجماع، على أن المعجز لابد أن يكون خارقاً للعادة، فقال: اعلموا رحمكم الله، أن الكل من سائر الأمم قد شرطوا في صفة المعجز أن يكون خارقاً للعادة.

ثم قال (١) في فصول الكرامات:

ويقال لهم: إن من الناس من لا يشترط في الآية المعجزة، أن تكون خارقا للعادة.

(١) يشير هنا إلى الإمام الباقلاني.

وهذا كما ذكر إجماع الناس، على أنه لا يدل على صدق النبي إلا المعجزات، فقال في الاستدلال على أنها لو لم تدل، لزم عجز القديم؛ إذ لا دليل بقول كل أحد أثبت النبوة، على نبوة الرسل وصدقهم إلا ظهور المعجزة.

فهذا إجماع لا خلاف فيه، فلو ظهرت على يد المتنبي، لبطلت دلالة النبوة ولوجب عجز القديم عن دليل يدل على نبوتهم، وهو نفسه قد ذكر في ذلك عدة أقوال في غير هذا الكتاب.

وأيضاً: فالاستدلال بالإجماع إنما يكون بعد ثبوت النبوة، فلا يحتج على مقدمات دليل النبوة بمجرد الإجماع.

وهؤلاء إنما أوقعهم في هذه المناقضات، أن القدرية يجعلون لربهم شريعة بالقياس على خلقه، ويقولون: لا يجوز أن يفعل كذا، ولا أن يفعل كذا كقولهم: لا يجوز أن يضل هذا، فإنا لو جوزنا عليه الإضلال، لجاز أن يظهر المعجزات على أيدي الكذابين؛ فإن غاية ذلك أنه إضلال.

وإذا جاز ذلك، لم يبق دليل على صدق الأنبياء، ولم يفرق بين الصادق والكاذب.

فعارضهم هؤلاء بأن قالوا: يجوز أن يفعل كل ممكن مقدور، ليس يجب أن ينزه عن فعل من الأفعال، وليس في الممكنات ما هو قبيح، أو ظلم أو سيء، بل كل ذلك حسن وعدل، فله أن يفعله.

فقيل لهم: فجوزوا إظهار المعجزات على أيدي الكذابين، ففتقوا لهم فتقاً فقالوا: هذا يلزم منه عجز الرب عن أن ينصب دليلاً يدل على صدق النبي وإن كان يمكنه أن يعرف صدقهم بالضرورة، فذاك يوجب أن يعرفوا نفسه بالضرورة، وهو يرفع التكليف.

والتحقيق: أن إظهار المعجزات، الدالة على صدق الأنبياء على يد الكاذب لا يجوز، لكن قيل لامتناع ذلك في نفسه؛ كما قاله الأشعري.

وقيل: لأن ذلك يمتنع في حكمة الرب وعدله.

وهذا أصح؛ فإنه قادر على ذلك، لكن لو فعله، بطلت دلالة المعجز على الصدق.

وهذا كما أنه قادر على سلب العقول، ولو فعل ذلك لبطلت العلوم.

وهو سبحانه لو فعل ذلك قادر على تعريف الصدق بالضرورة، وقادر على أن لا يعرف بذلك، ولا يميز للناس بين الصادق والكاذب، لكنه لا يفعل هذا المقدور.

ونحن نعلم بالإضطرار أنه لا يفعل ذلك، وأنه لا يبعث أنبياء صادقين يبلغون رسالته ويأمر الناس باتباعهم، ويتوعد من كذبهم، فيقوم آخرون كذابون يدعون مثل ذلك، وهو يسوي بين هؤلاء وهؤلاء في جميع ما يفرق به بين الصادق والكاذب.

بل قد علمنا من سنته، أنه لا يسوي في دلائل الصدق والكذب، بين المحدث الصادق، والكاذب، والشاهد الصادق، والكاذب، وبين الذي يعامل الناس بالصدق، والكذب، وبين الذي يظهر الإسلام صادقاً، والذي يظهره نفاقاً وكذباً.

بل يميز هذا من هذا بالدلائل الكثيرة؛ كما يميز بين العادل،وبين الظالم،وبين الأمين،وبين الخائن؛ فإن هذا مقتضى سنته التي لا تتبدل، وحكمته التي هو منزه عن نقيضها، وعدله سبحانه بتسويته بين المتماثلات، وتفريقه بين المختلفات.

فكيف يسوي بين أفضل الناس وأكملهم صدقاً، وبين أكذب الناس وشرهم كذباً، فيما يعود إلى فساد العالم في العقول، والأديان، والأبضاع والأموال، والدنيا، والآخرة.

وقول القدري: إذا جاز عليه إضلال من أضله، جاز عليه إضلال بعض الناس.

يقال له:أولاً: ليس إظهار المعجزة على أيدي الكذابين من باب الإضلال، بل لو ظهرت على يده، لكانت لا تدل على الصدق، فلم يكن دليلاً يفرق بين الصدق والكذب.

وعدم الدليل، يوجب عدم العلم بذلك الدليل، لا يوجب إعتقاد نقيضه.

ولو كان لا يظهرها إلا على يد كاذب، لكانت إنما تدل على الكذب فالإشتراك بين الصنفين، يرفع دلالتها، واختصاص أحدهما بها يوجب دلالتها على المختص.

ويقال ثانياً: تجويز إضلال طائفة معينة؛ بمعنى: أنه حصل لهم الضلال لعدم نظرهم، واستدلالهم، وقصدهم الحق، وجعل قلوبهم معرضة عن طلب الحق وقصده، وأنها تكذب الصادق، ليس هو مثل إضلال العالم كله، ورفع ما يعرف به الحق من الباطل.

بل مثل هذا: مثل من قال: إذا جاز أن يعمي طائفة من الناس، جاز أن يعمي جميع الناس، فلا يرى أحد شيئا، وإذا جاز أن يصم بعض الناس جاز أن يصم جميعهم، فلا يسمع أحد شيئا.

وإذا جاز أن يزمن بعض الناس، أو يشل يديه، جاز إزمان جميع الناس وإشلال أيديهم؛ حتى لا يقدر أحد في العالم على شيء، ولا بطش بيده.

وإذا جاز أن يجن بعض الناس، جاز أن يجن جميعهم؛ حتى لا يبقى في الأرض إلا مجنون، لا عاقل.

وإذا جاز أن يميت بعض الناس، جاز أن يميتهم كلهم في ساعة واحدة، مع بقاء العالم على ما هو عليه.

وأن يقال: إذا جاز أن يضل بعض الناس عن قبول بعض الحق، جاز أن يضله عن قبول لكل حق؛ حتى لا يصدق أحداً في شيء، ولا يقبل شيئاً لما يقال له؛ فلا يأكل، ولا يشرب، ولا يلبس، ولا ينام.

وأن كل من أضل، جاز أن يفعل به هذا كله.

وهذا كله مما يعرف بضرورة العقل، الفرق بينهما، ومن سوى بين هذا وهذا (١)، كان مصاباً في عقله.

وآيات الأنبياء هي من هذا الباب؛ فلو لم يميز بين الصادق والكاذب لكان قد بعث أنبياء يبلغون رسالته، ويأمرون بما أمر به؛ من أطاعهم سعد في الدنيا والآخرة، ومن كذبهم شقي في الدنيا والآخرة.

وآخرين كذابين، يبلغون عنه ما لم يقله، ويأمرون بما نهى عنه، وينهون عما أمر به، ومن اتبعهم، شقي في الدنيا والآخرة، ولم يجعل لأحد سبيلاً إلى التمييز بين هؤلاء وهؤلاء.

وهذا أعظم من أن يقال: أنه خلق أطعمة نافعة، وسموماً قاتلة، ولم يميز بينهما، بل كل ما أكله الناس،جاز أن يكون من هذا وهذا،ومعلوم أن من جوز مثل هذا على الله، فهو مصاب في عقله.

ثم إن الله جعل الأشياء متلازمة، وكل ملزوم هو دليل على لازمه؛ فالصدق له لوازم كثيرة؛ فإن من كان يصدق، ويتحرى الصدق، كان من لوازمه أنه لا يتعمد الكذب، ولا يخبر بخبرين متناقضين عمداً، ولا يبطن خلاف ما يظهر، ولا يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه، ولا يخون أمانته، ولا يجحد حقاً هو عليه.

إلى أمثال هذه الأمور، التي يمتنع أن تكون لازمة إلا لصادق؛ فإذا انتفت انتفى الصدق، وإذا وجدت، كانت مستلزمة لصدقه.

(١) أي: بين النبي والمتنبي الكاذب.

والكاذب بالعكس؛ لوازمه بخلاف ذلك؛ وهذا لأن الإنسان حي ناطق والنطق من لوازمه الظاهرة لبني جنسه.

ومن لوازم النطق: الخبر؛ فإنه ألزم له من الأمر، والطلب؛ حتى قد قيل: إن جميع أنواع الكلام يعود إلى الخبر.

فلزم أن يكون من لوازم الإنسان أخباره، وظهور أخباره، وكثرته، وإن هذا لابد من وجوده حيث كان.

وحينئذ: فإذا كان كذاباً، عرف الناس كذبه؛ لكثرة ما يظهر منه من الخبر عن الشيء، بخلاف ما هو عليه، من أحوال نفسه وغيره، ومما رآه وسمعه، وقيل له في الشهادة والغيب.

ولهذا كل من كان كاذباً، ظهر عليه كذبه بعد مدة؛ سواء كان مدعياً للنبوة، أو كان كاذباً في العلم ونقله، أو في الشهادة، أو في غير ذلك وإن كان مطاعاً، كان ظهور كذبه أكثر، لما فيه من الفساد.

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: ملك كذاب وشيخ زان، وعائل مستكبر- ويروى – وفقير مختال " (١).

ولهذا كثير من أهل الدول، كانوا يتواصون بالكذب، وكتمان أمورهم، ثم يظهر؛ كالقرامطة.

ولهذا امتنع اتفاق الناس على الكذاب، والكتمان، من غير تواطؤ؛ لما جعل الله في النفوس من الداعي إلى الصدق والبيان، وجعل الله في القلوب هداية ومعرفة بين هذا وهذا.

ولم يعرف قط في بني آدم، أنه اشتبه صادق بكاذب، إلا مدة قليلة، ثم يظهر الأمر.

وليس هذا كالضلال في أمور خفية، ومشتبهة على أكثر الناس؛ فإن التمييز بين الصادق والكاذب، يظهر لجمهور الناس وعامتهم بعد مدة، ولا يطول اشتباه ذلك عليهم، وإنما يشتبه الأمر عليهم فيما لم يتعمد فيه الكذب بل أخطأ أصحابه؛ فأخذ عنهم تقليداً لهم.

وأما مع كون أصحابه يتعمدون الكذب، فهذا لا يخفى على عامة الناس.

---

(١) حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان.

فصل

الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين آيات الأنبياء وغيرهم، وبينها وبين غيرها من الفروق مالا يكاد يحصى.

الأول: أن النبي صادق فيما يخبر به عن الكتب، لا يكذب قط، ومن خالفهم من السحرة، والكهان، لابد أن يكذب.

كما قال(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)(١)

الثاني: من جهة ما يأمر به هذا ويفعله، ومن جهة ما يأمر به هذا ويفعله فإن الأنبياء لا يأمرون إلا بالعدل، وطلب الآخرة، وعبادة الله وحده وأعمالهم البر والتقوى.

ومخالفوهم يأمرون بالشرك، والظلم، ويعظمون الدنيا، وفي أعمالهم الإثم والعدوان.

الثالث: أن السحر، والكهانة، ونحوهما أمور معتادة معروفة لأصحابها ليست خارقة لعادتهم، وآيات الأنبياء لا تكون إلا لهم، ولمن اتبعهم.

الرابع: أن الكهانة والسحر، يناله الإنسان بتعلمه، وسعيه، واكتسابه وهذا مجرب عند الناس.

بخلاف النبوة؛ فإنه لا ينالها أحد باكتسابه.

الخامس: أن النبوة لو قدر أنها تنال بالكسب، فإنما تنال بالإعمال الصالحة، والصدق، والعدل، والتوحيد، لا تحصل مع الكذب على من دون الله، فضلاً عن أن تحصل مع الكذب على الله.

فالطريق الذي تحصل به، لو حصلت بالكسب، مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به.

السادس: أن ما يأتي به الكهان، والسحرة، لا يخرج عن كونه مقدور للجن والإنس، وهم مأمورون بطاعة الرسل، وآيات الرسل لا يقدر عليها لا جن، ولا إنس، بل هي خارقة لعادة كل من أرسل النبي إليه.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٢٢١-٢٢٢)

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١).

السابع: أن هذه يمكن أن تعارض بمثلها، وآيات الأنبياء لا يمكن أحداً أن يعارضها بمثلها.

الثامن: أن تلك ليست خارقة لعادات بني آدم، بل كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء، فليست معتادة لغير الصادقين على الله، ولمن صدقهم.

التاسع: أن هذه لا يقدر عليها مخلوق؛ لا الملائكة، ولا غيرهم؛ كإنزال القرآن، وتكليم موسى، وتلك تقدر عليها الجن والشياطين.

العاشر: أنه إذا كان من الآيات ما يقدر عليه الملائكة؛ فإن الملائكة لا تكذب على الله، ولا تقول لبشر أن الله أرسلك، ولم يرسله، وإنما يفعل ذلك الشياطين.

والكرامات معتادة في الصالحين منا، ومن قبلنا، ليست خارقة لعادة الصالحين وهذه (٢) تنال بالصلاح؛ بدعائهم، وعبادتهم.

ومعجزات الأنبياء لا تنال بذلك، ولو طلبها الناس؛ حتى يأذن الله فيها ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾(٣) ﴿قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

الحادي عشر: أن النبي قد تقدمه أنبياء؛ فهو لا يأمر إلا بجنس ما أمرت به الرسل قبله؛ فله نظراء يعتبر بهم، وكذلك الساحر، والكاهن له نظراء يعتبر بهم.

والثاني عشر: أن النبي لا يأمر إلا بمصالح العباد في المعاش والمعاد؛ فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر؛ فيأمر بالتوحيد، والإخلاص، والصدق وينهى عن الشرك، والكذب، والظلم، فالعقول، والفطر توافقه؛ كما توافقه الأنبياء قبله؛ فيصدقه صريح المعقول، وصحيح المنقول، الخارج عما جاء به. والله أعلم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية (٨٨)
(٢) يشير هنا إلى الكرامات.
(٣) سورة الأنعام: الآية (١٠٩)
(٤) سورة الأنعام: الآية (٣٧)

فصل
ما يخالف الكتاب والسنة فهو باطل

ومن تدبر هذا، وغيره، تبين له أن جميع ما ابتدعه المتكلمون، وغيرهم؛ مما يخالف الكتاب والسنة، فإنه باطل.

ولا ريب أن المؤمن يعلم من حيث الجملة، أن ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل.

لكن كثير من الناس، لا يعلم ذلك في المسائل المفصلة؛ لا يعرف ما الذي يوافق الكتاب والسنة، وما الذي يخالفه؛ كما قد أصاب كثير من الناس في الكتب المصنفة في الكلام؛ في أصول الدين، وفي الرأي والتصوف، وغير ذلك؛ فكثير منهم قد اتبع طائفة، يظن أن ما يقولونه هو الحق، وكلهم على خطأ وضلال.

ولقد أحسن الإمام أحمد في قوله في خطبته، وإن كانت مأثورة عمن تقدم: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة؛ فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب.

يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين.

فهؤلاء أهل البدع، من أهل الكلام وغيرهم، كما قال: مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مفارقة الكتاب.

وتصديق ما ذكره: أنك لا تجد طائفة منهم توافق الكتاب والسنة فيما جعلوه أصول دينهم، بل لكل طائفة أصول دين لهم؛ فهي أصول دينهم الذي هم عليه، ليس هي أصول الدين، الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه.

وما هم عليه من الدين، ليس كله موافقاً للرسول، ولا كله مخالفاً له؛ بل بعضه موافق، وبعضه مخالف؛ بمنزلة أهل الكتاب الذين لبسوا الحق بالباطل كما قال تعالى (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ.وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (١)

وقال تعالى (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) (٢).

لكن بعض الطوائف، أكثر مخالفة للرسول من بعض، وبعضها أظهر مخالفة ولكن الظهور أمر نسبي؛ فمن عرف السنة، ظهرت له مخالفة من خالفها فقد تظهر مخالفة بعضهم للسنة لبعض الناس؛ لعلمه بالسنة دون من لا يعلم منها ما يعلمه هو.

وقد تكون السنة في ذلك معلومة عند جمهور الأمة؛ فتظهر مخالفة من خالفها، كما تظهر للجمهور مخالفة الرافضة للسنة، وعند الجمهور هم المخالفون للسنة، فيقولون: أنت سنى، أو رافضي؟

وكذلك الخوارج: لما كانوا أهل سيف وقتال، ظهرت مخالفتهم للجماعة حين كانوا يقاتلون الناس، وأما اليوم فلا يعرفهم أكثر الناس.

وبدع القدرية، والمرجئة، ونحوهم: لا تظهر مخالفتها بظهور هذين.

وهاتان البدعتان، ظهرتا لما قتل عثمان رضى الله عنه؛ في الفتنة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه.

وظهرت الخوارق بمفارقة أهل الجماعة، واستحلال دمائهم وأموالهم؛ حتى قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، متبعاً في ذلك لأمر النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام أحمد بن حنبل: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه.

وهذه قد رواها صاحبه مسلم بن الحجاج في صحيحه (٣)، وروى البخاري قطعة منها (٤).

---

١ سورة البقرة الآية: ٤، -٤٢

٢ سورة آل عمران الآية:٧١

(٣) أنظر صحيح مسلم، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم.

(٤) أنظر صحيح البخاري، كتاب: الخمس، باب: ما كان النبي صلي الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم، كتاب: الأنبياء.

واتفقت الصحابة على قتال الخوارج، حتى أن ابن عمر مع امتناعه عن الدخول في فرقة؛ كسعد (١)، وغيره من السابقين (٢) ولهذا لم يبايعوا لأحد إلا في الجماعة قال (٣) عند الموت: ما آسى على شيء إلا على، أني لم أقاتل الطائفة الباغية مع علي رضى الله عنه.

يريد بذلك قتال الخوارج، وإلا فهو لم يبايع؛ لا لعلي، ولا غيره، ولم يبايع معاوية إلا بعد أن اجتمع الناس عليه، فكيف يقاتل إحدى الطائفتين؟ وإنما أراد المارقة، التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم: " تمرق مارقة على حين فرقة من الناس، يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق " (٤). وهذا حدث به أبو سعيد، فلما بلغ ابن عمر قول النبي صلى الله عليه وسلم في الخوارج، وأمره بقتالهم، تحسر على ترك قتالهم.

فكان قتالهم ثابتا بالسنة الصحيحة الصريحة، وباتفاق الصحابة؛ بخلاف فتنة الجمل وصفين؛ فإن أكثر السابقين الأولين، كرهوا القتال في هذا وهذا. وكثير من الصحابة قاتلوا، إما من هذا الجانب، وإما من هذا الجانب فكانت الصحابة في ذلك على ثلاثة أقوال.

لكن الذي دلت عليه السنة الصحيحة، أن علي بن أبي طالب كان أولى بالحق، وأن ترك القتال بالكلية، كان خيراً وأولى.

ففي الصحيحين عن أبي سعيد، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " تمرق مارقة على حين فرقة من الإسلام، يقتلهم أولى الطائفتين بالحق ". وقد ثبت عنه، أنه جعل القاعد فيها، خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي (٥)، وانه أثنى على من صالح ولم يثن على من قاتل.

---

(١) يشير هنا إلى سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) اعتزل كثير من الصحابة الفتنة التي وقعت بعد مقتل عثمان رضي الله عنه فلم يقاتلوا لا مع علي ولا مع معاوية، ومن هؤلاء: سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبدالله بن عمر، وأكثر السابقين الأولين.انظر: منهاج السنة النبوية

(٣) القائل: هو عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

(٤) حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاقم، والإمام احمد في مسنده.

(٥) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم " ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ أو معاذاً فليعذ به " الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب باب: علامات النبوة.

ففي البخاري، وغيره، عن أبي بكرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: عن الحسن: " إن ابني هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين " (١)

فأثنى على الحسن في إصلاح الله به بين الفئتين.

وفي صحيح مسلم، وبعض نسخ البخاري: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمار: " تقتلك الفئة الباغية " (٢).

وفي الصحيحين أيضاً أنه قال: " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة " (٣)

قال معاذ: وهم بالشام.

وفي صحيح مسلم عنه أنه قال " لا يزال أهل المغرب ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم " (٤).

قال أحمد بن حنبل، وغيره: أهل المغرب: أهل الشام؛ أي أنها أول المغرب؛ فإن التغريب والتشريق أمر نسبي؛ فلكل بلد غرب وشرق وهو صلى الله عليه وسلم تكلم بمدينته؛ فما تغرب عنها فهو غرب، وما تشرق عنها فهو شرق، وهي مسامته أول الشام من ناحية الفرات؛ كما أن مكة مسامته لحران، وسميساط ونحوهما.

وتصويب قتالهم أن كان بعد الإصلاح، فلم يقع الإصلاح، وإن كان عند بغيهم في الاقتتال.

وإن لم يكن إصلاح، فهؤلاء البغاة لم يكن في أصحاب علي من يقاتلهم بل تركوا قتالهم؛ إما عجزاً، وإما تفريطاً؛ فترك الإصلاح المأمور به.

وعلى هذا قوتلوا إبتداءً قتالاً غير مأمور به، ولما صار قتالهم مأمورا به لم يقاتلوا القتال المأمور به، بل نكل أصحاب علي عن القتال؛ إما عجزاً وإما تفريطاً.

---

(١) حديث شريف رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلح.

(٢) حديث شريف رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: مسح الغبار عن الرأس في سبيل الله، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن باب: لا تقوم الساعة حتي يمر الرجل بقبر الرجل.

(٣) حديث شريف أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب:علامات النبوة.

(٤) حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الأمارة، باب: قوله صلي الله عليه وسلم " لاتزال طائفة من امتي ظاهرين علي الحق لا يضرهم من خالفهم "

والبغاة المأمور بقتالهم: هم الذين بغوا بعد الاقتتال، وامتنعوا من الإصلاح المأمور به، فصاروا بغاة مقاتلين.

والبغاة إذا ابتدأوا بالقتال، جاز قتالهم بالاتفاق؛ كما يجوز قتال الغواة قطاع الطريق إذا قاتلوا باتفاق الناس.

فأما الباغي من غير قتال، فليس في النص أن الله أمر بقتاله، بل الكفار إنما يقاتلون بشرط الحراب؛ كما ذهب إليه جمهور العلماء، وكما دل عليه الكتاب والسنة؛ كما هو مبسوط في موضعه.

والصديق قاتل المرتدين الذين ارتدوا عما كانوا فيه على عهد الرسول من دينه وهم أنواع: منهم من آمن بمتنبئ كذاب.

ومنهم من لم يقر ببعض فرائض الإسلام التي أقر بها مع الرسول.

ومنهم من ترك الإسلام بالكلية.

ولهذا تسمى هذه وأمثالها، من الحروب بين المسلمين فتناً؛ كما سماها النبي صلى الله عليه وسلم.

والملاحم: ما كان بين المسلمين والكفار.

وبسط هذا له موضعا آخر.

والمقصود هنا: أن الخوارج ظهروا في الفتنة، وكفروا عثمان وعلياً رضى الله عنهما، ومن والاهما، وباينوا المسلمين في الدار، وسموا دارهم دار الهجرة، وكانوا كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم: يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان.

وكانوا أعظم الناس صلاة وصياماً وقراءة؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم؛ يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية.

ومروقهم منه: خروجهم؛ بإستحلالهم دماء المسلمين، وأموالهم؛ فإنه قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه " (١) وهم بسطوا في المسلمين أيديهم وألسنتهم؛ فخرجوا منه.

ولم يحكم علي رضى الله عنه، وأئمة الصحابة فيهم بحكمهم في المرتدين بل جعلوهم مسلمين.

وسعد بن أبي وقاص، وهو أفضل من كان قد بقي بعد علي رضى الله عنه وهو من أهل الشورى، واعتزل في الفتنة؛ فلم يقاتل، لا مع علي، ولا مع معاوية، ولكنه ممن تكلم في الخوارج، وتأول فيهم قوله (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ.الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (٢).

وحدث أيضاً طوائف الشيعة الإلهية الغلاة، فَرُفع إلى علي رضى الله عنه منهم طائفة ادعوا فيه الإلهية، فأمرهم بالرجوع، فأصروا، فأمهلهم ثلاثاً ثم أمر بأخاديد من نار فخدت، وألقاهم فيها؛ فرأى قتلهم بالنار.

وأما ابن عباس فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم بالنار؛ لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعذب بعذاب الله، ولضربت أعناقهم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " من بدل دينه فاقتلوه " (٣).

وأكثر الفقهاء على قول ابن عباس.

وروي أنه بلغه أن ابن السوداء (٤) يسب أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فطلب قتله، فهرب منه.

فإما قتله على السب، أو لأنه كان متهماً بالزندقة.

وقيل: إنه هو الذي ابتدع بدعة الرافضة، وأنه كان قصده إفساد دين الإسلام، وهذا يستحق القتل باتفاق المسلمين.

---

(١) حديث شريف رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

(٢) سورة البقرة: الآيتان (٢٦-٢٧)

(٣) حديث شريف رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: لا يعذب بعذاب الله، وكتاب: استتابة المرتدين، باب: حكم المرتد والمرتدة.

(٤) هو عبدالله بن سبأ، رأس الطائفة السبئية.

والذين يسبون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فيهم تزندق؛ كالإسماعيلية والنصيرية؛ فهؤلاء يستحقون القتل بالاتفاق.

وفيهم من يعتقد بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ كالإمامية؛ فهؤلاء في قتلهم نزاع، وتفصيل ذلك مذكور في غير هذا الموضع.

وتواتر عن علي بن أبي طالب أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.

وهذا متفق عليه بين قدماء الشيعة، وكلهم كانوا يفضلوا أبا بكر وعمر رضى الله عنهما

وإنما كان النزاع في علي وعثمان رضى الله عنهما، حين صار لهذا شيعة ولهذا شيعة.

وأما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما: فلم يكن أحد يتشيع لهما، بل جميع الأمة كانت متفقة عليهما؛ حتى الخوارج، فانإهم يتولونهما، وإنما يتبرءون من علي وعثمان رضى الله عنهما.

وروي أن معاوية قال: لابن عباس: أنت على ملة علي، أم عثمان؟ قال: لا على ملة علي، ولا عثمان، أنا على ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان كل من الشيعتين يذم الآخر بما برأه الله منه؛ فكان بعض شيعة عثمان يتكلمون في علي بالباطل، وبعض شيعة علي يتكلمون في عثمان بالباطل والشيعتان مع سائر الأمة متفقة على تقديم أبي بكر وعمر.

قيل لشريك بن عبد الله القاضي: أنت من شيعة علي، وأنت تفضل أبا بكر وعمر؟!

فقال: كل شيعة علي، على هذا؛ هو يقول على أعواد هذا المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، ثم عمر، أفكنا نكذبه؟ والله ما كان كذابا.

وقد روى البخاري في صحيحه (١) من حديث محمد بن الحنفية، أنه قال له: يا أبت من خير الناس بعد رسول الله؟ فقال: يا بني أو ما تعرف؟ قال: لا.

قال: أبو بكر.

قال: ثم من؟ قال: ثم عمر.

وهو مروي من حديث الهمدانيين؛ شيعة علي؛ عن أبيه.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي صلي الله عليه وسلم باب: قول النبي صلي الله عليه وسلم " لوكنت متخذا خليلا..."

وروي عن علي أنه قال:

ولو كنت بواباً على باب الجنة لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وقد روي عنه أنه قال: لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري.

وقد ثبت عن علي رضي الله عنه بالأحاديث الثابتة، بل المتواترة أنه قتل الغالية؛ كالذين يعتقدون إلهيته، بعد أن استتابهم ثلاثاً كسائر المرتدين وأنه كان يبالغ في عقوبة من يسب أبا بكر وعمر، وأنه كان يقول أنهما خير هذه الأمة بعد نبيها، وهذا مبسوط في مواضع.

والمقصود هنا: أن هاتين حدثتا في ذلك الوقت.

ثم في آخر عصر الصحابة: حدثت القدرية، وتكلم فيهم من بقي من الصحابة؛ كابن عمر، وابن عباس، ووائلة بن الأسقع، وغيرهم وحدثت أيضاً بدعة المرجئة في الإيمان.

والآثار عن الصحابة ثابتة بمخالفتهم، وأنهم قالوا: الإيمان يزيد وينقص كما ثبت ذلك عن الصحابة؛ كما هو مذكور في موضعه.

وأما الجهمية، نفاة الأسماء والصفات: فإنما حدثوا في أواخر الدولة الأموية، وكثير من السلف لم يدخلهم في الثنتين والسبعين فرقة؛ منهم: يوسف ابن أسباط، وعبد الله بن المبارك.

قالوا: أصول البدع أربع: الخوارج، والشيعة، والقدرية، والمرجئة. فقيل لهم: الجهمية؟ فقالوا: ليس هؤلاء من أمة محمد.

ولهذا تنازع من بعدهم من أصحاب أحمد، وغيرهم: هل هم من الثنتين والسبعين؟

على قولين؛ ذكرهما عن أصحاب أحمد: أبو عبد الله بن حامد في كتابه في " الأصول ".

والتحقيق: أن التجهم المحض؛ وهو نفي الأسماء والصفات؛ كما يحكي عن جهم، والغالية من الملاحدة، ونحوهم من نفي أسماء الله الحسنى كفر بَين مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول.

وأما نفي الصفات، مع إثبات الأسماء؛ كقول المعتزلة: فهو دون هذا لكنه عظيم أيضاً.

وأما من أثبت الصفات المعلومات بالعقل والسمع، وإنما نازع في قيام الأمور الإختيارية به؛ كابن كلاب، ومن اتبعه.

فهؤلاء ليسوا جهمية، بل وافقوا جهماً في بعض قوله، وإن كانوا خالفوه في بعضه، وهؤلاء من أقرب الطوائف إلى السلف وأهل السنة والحديث.

وكذلك السالمية، والكرامية، ونحو هؤلاء، يوافقون في جملة أقوالهم المشهورة؛ فيثبتون: الأسماء، والصفات، والقضاء، والقدر في الجملة ليسوا من الجهمية والمعتزلة النفاة للصفات.

وهم أيضاً يخالفون الخوارج والشيعة؛ فيقولون بإثبات خلافة الأربعة وتقديم أبي بكر وعمر، ولا يقولون بخلود أحد من أهل القبلة في النار.

لكن الكرامية، والكلابية، وأكثر الأشعرية: مرجئة، وأقربهم الكلابية يقولون: الإيمان: هو التصديق بالقلب، والقول باللسان، والإعمال ليست منه؛ كما يحكى هذا عن كثير من فقهاء الكوفة؛ مثل أبي حنيفة، وأصحابه.

وأما الأشعري: فالمعروف عنه، وعن أصحابه: أنهم يوافقون جهماً في قوله في الإيمان، وأنه مجرد تصديق القلب، أو معرفة القلب.

لكن قد يُظهرون مع ذلك قول أهل الحديث، ويتأولونه، ويقولون بالاستثناء على الموافاة.

فليسوا موافقين لجهم من كل وجه، وإن كانوا أقرب الطوائف إليه في الإيمان، وفي القدر أيضاً؛ فإنه رأس الجبرية؛ يقول: ليس للعبد فعل البتة.

والأشعري يوافقه على أن العبد ليس بفاعل، ولا له قدرة مؤثرة في الفعل ولكن يقول: هو كاسب.

وجهم لا يثبت له شيئاً، لكن هذا الكسب؛ يقول أكثر الناس: أنه لا يعقل فرق بين الفعل الذي نفاه، والكسب الذي أثبته.

وقالوا: عجائب الكلام ثلاثة: طفرة النظام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، وأنشدوا:

مما يقال ولا حقيقة عنده معقوله تدنو إلى الإفهام

الكسب عند الأشعري والحال عند البهشمي وطفرة النظام

وأما الكرامية: فلهم في الإيمان قول ما سبقهم إليه أحد؛ قالوا: هو الإقرار باللسان، وإن لم يعتقد بقلبه.

وقالوا: المنافق هو مؤمن، ولكنه مخلد في النار.

وبعض الناس يحكي عنهم: أن المنافق في الجنة.

وهذا غلط عليهم، بل هم يجعلونه مؤمناً، مع كونه مخلداً في النار فينازعون في الاسم، لا في الحكم.

وقد بسط القول على منشأ الغلط؛ حيث ظنوا أن الإيمان لا يكون إلا شيئاً متماثلاً عند جميع الناس؛ إذا ذهب بعضه، ذهب سائرة.

ثم قالت الخوارج والمعتزلة: وهو أداء الواجبات، واجتناب المحرمات فاسم المؤمن، مثل اسم البر، والتقى؛ وهو المستحق للثواب، فإذا ترك بعض ذلك، زال عنه اسم الإيمان والإسلام.

ثم قالت الخوارج: ومن لم يستحق هذا، ولا هذا، فهو كافر.

وقالت المعتزلة: بل ينزل منزلة بين المنزلتين؛ فنسميه فاسقاً، لا مسلماً ولا كافراً.

ونقول: أنه مخلد في النار.

وهذا هو الذي إمتازت به المعتزلة، وإلا فسائر بدعهم قد قالها غيرهم فهم وافقوا الخوارج في حكمه، ونازعوهم، ونازعوا غيرهم في الاسم.

وقالت الجهمية والمرجئة: بل الأعمال ليست من الإيمان، لكنه شيئان أو ثلاثة، يتفق فيها جميع الناس: التصديق بالقلب، والقول باللسان أو المحبة، والخضوع مع ذلك.

وقالت الجهمية والشاعرية والكرامية: بل ليس إلا شيئاً واحداً يتماثل فيه الناس.

وهؤلاء الطوائف أصل غلطهم: ظنهم أن الإيمان يتماثل فيه الناس وأنه إذا ذهب بعضه، ذهب كله.

وكلا الأمرين غلط، فإن الناس لا يتماثلون؛ لا فيما وجب منه، ولا فيما يقع منهم، بل الإيمان الذي وجب على بعض الناس، قد لا يكون مثل الذي يجب على غيره.

كما كان الإيمان بمكة، لم يكن الواجب منه، كالواجب بالمدينة ولا كان في آخر الأمر كما كان في أوله، ولا يجب على أهل الضعف والعجز من الإيمان، ما يجب على أهل القوة والقدرة في العقول والأبدان.

بل أهل العلم بالقرآن، والسنة، ومعاني ذلك: يجب عليهم من تفصيل الإيمان، مالا يجب على من لم يعرف ما عرفوا.

وأهل الجهاد: يجب عليهم من الإيمان في تفصيل الجهاد، مالا يجب على غيرهم.

وكذلك ولاة الأمر، وأهل الأموال، يجب على كل؛ من معرفة ما أمر الله به، ونهى عنه، وأخبر به، مالا يجب على غيره، والإقرار بذلك من الإيمان.

ومعلوم أنه، وإن كان الناس كلهم يشتركون في الإقرار بالخالق، وتصديق الرسول جملة، فالتفصيل لا يحصل بالجملة، ومن عرف ذلك مفصلاً، لم يكن ما أمر به، ووجب عليه، مثل من لم يعرف ذلك.

وأيضاً: فليس الناس متماثلين في فعل ما أمروا به؛ من اليقين، والمعرفة والتوحيد، وحب الله، وخشية الله، والتوكل على الله، والصبر لحكم الله وغير ذلك مما هو من إيمان القلوب، ولا في لوازم ذلك التي تظهر على الأبدان.

وإذا قدر أن بعض ذلك زال، لم يزل سائرة، بل يزيد الإيمان تارة وينقص تارة.

كما ثبت ذلك عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثل عمر بن حبيب الخطمي، وغيره؛ أنهم قالوا: الإيمان يزيد وينقص؛ كما قد بسط في غير هذا الموضع.

إذ المقصود هنا: أن طوائف أهل البدع من أهل الكلام، وغيرهم ليس فيهم من يوافق الرسول في أصول دينه، لا فيما اشتركوا فيه ولا فيما انفرد به بعضهم، فإنهم وإن اشتركوا في مقالات، فليس إجماعهم حجة، ولا هم معصومون من الإجتماع على خطأ.

وقد زعم طائفة، أن إجماع المتكلمين في المسائل الكلامية، كإجماع الفقهاء وهذا غلط، بل السلف قد استفاض عنهم ذم المتكلمين، وذم أهل الكلام مطلقا.

ونفس ما اشتركوا فيه؛ من إثبات الصانع بطريقة الأعراض، وأنها لازمة للجسم، أو متعاقبة عليه، فلا يخلو منها، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، لإمتناع حوادث لا أول لها، وأن الله يمتنع أن يقال: أنه لم يزل متكلماً بمشيئته، بعد أن لم يكن بلا حدوث حادث وما يتبع هذا، هو أصل مبتدع في الإسلام؛ أول ما عرف أنه قاله الجهم بن صفوان مقدم الجهمية، وأبو الهذيل العلاف مقدم المعتزلة.

ولهذا طرداه؛ فقالا بامتناع الحوادث في المستقبل، وقال الجهم بفناء الجنة والنار.

وقال أبو الهذيل بانقطاع حركاتهما؛ كما قد بسط فروع هذا الأصل الذي اشتركوا فيه.

ثم افترقوا بعد ذلك في فروعه؛ فأئمتهم كانوا يقولون كلام الله؛ القرآن وغيره مخلوق، وكذلك سائر ما يوصف به الرب ليس له صفة قامت به لأن ذلك عرض عندهم، لا يقوم إلا

بجسم، والجسم حادث فقالوا: القرآن وغيره من كلام الله مخلوق، وكذلك سائر ما يوصف به الرب.

فجاء بعدهم؛ مثل ابن كلاب، وابن كرام، والأشعري، وغيرهم من شاركهم في أصل قولهم.

لكن قالوا بثبوت الصفات لله، وأنها قديمة.

لكن منهم من قال: لا تسمى أعراضا؛ لأن العرض لا يبقى زمانين وصفات الرب باقية؛ كما يقوله الأشعري وغيره.

ومنهم من قال: تسمى أعراضا، وهي قديمة، وليس كل عرض حادثا كابن كرام، وغيره.

ثم افترقوا في القرآن، وغيره من كلام الله.

فقال ابن كلاب ومن اتبعه: هو صفة من الصفات، قديمة كسائر الصفات.

ثم قال: ولا يجوز أن يكون صوتاً؛ لأنه لا يبقى، ولا معاني متعددة فإنها إن كان لها عدد مقدر، فليس قدر بأولى من قدر، وإن كانت غير متناهية، لزم ثبوت معان في آن واحد لا نهاية لها، وهذا ممتنع.

فقال: أنه معنى واحد، وهو معنى آية الكرسي، وآية الدين، والتوراة والإنجيل.

وقال جمهور العقلاء: إن تصور هذا القول تصوراً تاماً، يوجب العلم بفساده.

وقال طائفة: بل كلامه قديم العين، وهو حروف، أو حروف وأصوات قديمة أزلية، مع أنها مترتبة في نفسها، وأن تلك الحروف والأصوات باقية أزلاً وأبداً.

وجمهور العقلاء يقولون: إن فساد هذا معلوم بالضرورة.

وهاتان الطائفتان تقولان: إنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته.

وقال آخرون كالهشامية، والكرامية: بل هو متكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه قائم بذاته، ولا يمتنع قيام الحوادث به، لكن يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً فإن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها، وهو ممتنع.

فهذه الأربعة في القرآن، وكلام الله، هي أقوال المشركين، في امتناع دوام كون الرب فعالاً بمشيئته، أو متكلماً بمشيئته.

وأما أئمة السنة والحديث؛ كعبد الله بن المبارك، واحمد بن حنبل وغيرهما؛ فقالوا: لم يزل الرب متكلماً إذا شاء، وكيف شاء؛ فذكروا أنه يتكلم بمشيئته وقدرته، وأنه لم يزل كذلك.

وهذا يناقض الأصل الذي اشترك فيه المتكلمون؛ من الجهمية، والمعتزلة ومن تلقى عنهم؛ فلا هم موافقون للكتاب والسنة وكلام السلف؛ لا فيما اتفقوا عليه، ولا فيما تنازعوا فيه.

ولهذا يوجد في عامة أصول الدين، لكل منهم قول، وليس في أقوالهم ما يوافق الكتاب والسنة؛ كأقوالهم في كلام الله، وأقوالهم في إرادته ومشيئته وفي علمه، وفي قدرته، وفي غير ذلك من صفاته، وإن كان بعضهم أقرب إلى السنة والسلف من بعض.

ولكن قد شاع ذلك بين أهل العلم والدين منهم؛ فكثير من أهل العلم والدين، المنتسبين إلى السنة والجماعة، من قد يوافقهم على بعض أقوالهم في مسألة القرآن، أو غيرهما، إذ كان لا يعرف إلا ذلك القول أو ما هو أبعد عن السنة منه؛ إذ كانوا في كتبهم لا يحكون غير ذلك إذ كانوا لا يعرفون السنة، وأقوال الصحابة، وما دل عليه الكتاب والسنة لا يعرفون إلا قولهم، وقول من يخالفهم من أهل الكلام، ويظنون أنه ليس للأمة إلا هذان القولان، أو الثلاثة.

وهم يعتمدون في السمعيات على ما يظنونه من الإجماع، وليس لهم معرفة بالكتاب والسنة، بل يعتمدون على القياس العقلي؛ الذي هو أصل كلامهم وعلى الإجماع.

وأصل كلامهم العقلي باطل، والإجماع الذين يظنونه إنما هو إجماعهم وإجماع نظرائهم من أهل الكلام، ليس هو إجماع أمة محمد، ولا علمائها.

والله تعالى إنما جعل العصمة للمؤمنين من أمة محمد؛ فهم الذين لا يجتمعون على ضلالة ولا خطأ؛ كما ذكر على ذلك الدلائل الكثيرة (١). وكل ما اجتمعوا عليه فهو مأثور عن الرسول؛ فإن الرسول بين الدين كله وهم معصومون أن يخطئوا كلهم، ويضلوا عما جاء به محمد.

بل هم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر؛ فلا يبقى معروف إلا أمروا به، ولا منكر إلا نهوا عنه.

---

(١) من الأدلة علي الإجماع من القرأن الكريم قوله تعالي " وَمَن يُشَاقِقِالرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَسَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَوَسَاءَتْ مَصِيرًا " (النساء:١١٥) وكذلك قوله تعالي " وَكَذَلِكَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِوَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا " (البقرة: ١٤٣)

وهم أمة وسط، عدل، خيار، شهداء الله في الأرض؛ فلا يشهدون إلا بحق، فإجماعهم هو على علم موروث عن الرسول، جاء من عند الله وذلك لا يكون إلا حقاً.

وأما من كان إجماعهم على ما ابتدعه رأس من رءوسهم؛ فيجوز أن يكون إجماعهم خطأ؛ إذ ليسوا هم المؤمنين، ولا أمة محمد، وإنما هم فرقة منهم.

وإذا قيل: المعتبر من أمة محمد بعلمائها.

قيل: إذا اتفقت علماؤها على شيء، فالباقون يسلمون لهم ما اتفقوا عليه لا ينازعونهم فيه؛ فصار هذا إجماعاً من المؤمنين.

ومن نازعهم بعلم، فهذا لا يثبت الإجماع دونه كائناً من كان. وأما من ليس من أهل العلم فيما تكلموا فيه، فذاك وجوده كعدمه.

وقول من قال: الإعتبار بالمجتهدين دون غيرهم، وأنه لا يعتبر بخلاف أهل الحديث، أو أهل الأصول، ونحوهم: كلام لا حقيقة له.

فإن المجتهدين إن أريد بهم من له قدرة على معرفة جميع الأحكام بأدلتها فليس في الأمة من هو كذلك، بل أفضل الأمة كان يتعلم ممن هو دونه شيئاً من السنة ليس عنده.

وإن عني به من يقدر على معرفة الإستدلال على الأحكام في الجملة فهذا موجود في كثير من أهل الحديث، والأصول، والكلام.

وإن كان بعض الفقهاء أمهر منهم بكثير من الفروع، أو بأدلتها الخاصة أو بنقل الأقوال فيها، فقد يكون أمهر منه في معرفة أعيان الأدلة كالأحاديث، والفرق بين صحيحها وضعيفها، ودلالات الألفاظ عليها والتمييز بين ما هو دليل شرعي، وما ليس بدليل.

وباجملة: العصمة إنما هي للمؤمنين لأمة محمد، لا لبعضهم.

لكن إذا اتفق علماؤهم على شيء، فسائرهم موافقون للعلماء. وإذا تنازعوا، ولو كان المنازع واحداً، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول.

وما أحد شذ بقول فاسد عن الجمهور، إلا وفي الكتاب والسنة ما يبين فساد قوله، وإن كان القائل كثيراً؛ كقول سعيد في أن المطلقة ثلاثاً تباح بالعقد.

فحديث عائشة في الصحيحين يدل على خلافه (١)؛ مع دلالة القرآن أيضاً (٢) وكذلك غيره.

وأما القول الذي يدل عليه الكتاب والسنة، فلا يكون شاذاً، وأن القائل به أقل من القائل بذاك القول، فلا عبرة بكثرة القائل باتفاق الناس.

ولهذا كان السلف؛ من الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، يردون على من أخطأ بالكتاب والسنة، لا يحتجون بالإجماع إلا علامة.

وقد يبعث معه نشابه، أو سيفه، أو شيئاً من السلاح المختص به، أو يركبه دابته المختصة به، ونحو ذلك مما يعلم الناس أنه قصد به تخصيصه. وإن كانت تلك الأفعال تفعل مع أمثاله، وقد تفعل لغير الرسول ممن يقصد إكرامه وتشريفه، لكن هي خارقة لعادته.

بمعنى أنه لم يعتد أن يفعل ذلك مع عموم الناس، ولا يفعله إلا مع من ميزه بولاية، أو رسالة، أو وكالة.

والولاية، والوكالة، تتضمن الرسالة.

فكل من هؤلاء، هو في معنى رسوله إلى من ولاه: أني قد وليتُه، وإلى من أرسله: بأني أرسلته.

فهذه عادة معروفة في العلامات، والدلائل التي يبين بها المرسل أن هذا رسولي.

وجنس خرق العادة، لا يستلزم الإكرام، بل تخرق عادته بالإهانة تارة وبالإكرام أخرى؛ فقد يخرج ويركب في وقت لم تجر عادته به، بل لعقوبة قوم.

وآيات الرب – تعالى – قد تكون تخويفاً لعبادة؛ كما قال (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا) (٣)

---

(١) أنظر إلى ما رواه البخاري في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: من أجاز طلاق الثلاث، ومسلم في صحيحه، كتاب: النكاح، باب: لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتي تنكح زوج غيره، ويطأها ويفارقها وتنقضي عدتها.

(٢) قال تعالي " الطَّلاقُمَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ " إلي قوله " فَإِن طَلَّقَهَافَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنطَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا " (البقرة: ٢٢٩-٢٣٠) قال تعالي " يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ " (الطلاق: ١)

(١) سورة الإسراء: الآية (٥٩)

وقد يهلك بها، كما أهلك أمماً مكذبين، وإذا قص قصصهم قال (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ) (١)

وكان إهلاكهم خرقاً للعادة، دل بها على أنه عاقبهم بذنوبهم وتكذيبهم للرسل، وأن ما فعلوه من الذنوب مما ينهى عنه، ويعاقب فاعله بمثل تلك العقوبة.

فهذه خرق عادات، لإهانة قوم وعقوبتهم لما فعلوه من الذنوب، تجري مجرى قوله: عاقبتهم لأنهم كذبوا رسولي وعصوه.

ولهذا يقول سبحانه كلما قص قصة من كذب رسله، وعقوبته إياهم يقول (فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ.وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) (٢)

كما يقول في موضع آخر (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ) (٣) وقوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) (٤)

وقوله تعالى (وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (٥).

وإذا كانت تلك العلامات، مما جرت عادته، أنه يفعلها مع من أرسله ويهلك بها من كذب رسله، كانت أبلغ في الدلالة، وكانت معتادة في هذا النوع.

---

(١) ولقد تعددت النصوص في القرأن الكريم، ومن أمثلة ذلك:
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ " (سورة يونس الآية: ٦٧) (سورة الروم الآية: ٢٣)
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " (سورة الرعد الآية: ٣) (سورة الروم الآية: ١٠)(سورة الزمر الآية: ٤٢)
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " (سورة الرعد الآية: ٤) (سورة الروم الآية: ٢٤)
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ " (سورة إبراهيم الآية: ٥) (سورة سبأ الآية: ١٩)
إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى " (سورة إبراهيم الآيتان: ٥٤-١٢٨)
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ " (سورة المؤمنون الآية: ٣٠)
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة العنكبوت الآية: ٢٤) (سورة الزمر الآية: ٥٢) " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " (سورة الروم الآية: ٣٧)
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ " (سورة الروم الآية: ٢٢)
قوله تعالي " إِنَّ فِي ذَٰلِكَلَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ " (سورة السجدة الآية: ٢٦)
(٢) سورة القمر: الآيات (١٦-١٧ ، ٢١-٢٢)
(٣) سورة المؤمنون: الآية (٣٠)
(٢) سورة الشعراء: الآية (٨)
(٣) سورة الذاريات: الآية (٣٧)

وهؤلاء تكلموا بلفظ لم يحققوا معناه؛ وهو لفظة خرق العادة وقالوا: العادات تنقسم إلى: عامة، وخاصة.

فمنها ما يشترك فيه جميع الناس، في جميع الأعصار؛ كالأكل والشرب، وإتقاء الحر والبرد.

والخاص منها: ما يكون كعادة للملائكة فقط، أو للجن فقط، أو للإنس دون غيرهم.

قالوا: ولهذا صح أن يكون لكل قبيل منهم ضرب من التحدي وخرق لما هو عادة لهم دون غيرهم، وحجة عليهم دون ما سواهم.

ومنها ما يكون عادة لبعض البشر؛ نحو اعتياد بعضهم صناعة، أو تجارة، أو رياضة في ركوب الخيل، والعمل بالسلاح.

لكن هذه كلها مقدورات للبشر.

قالوا: وآية الرسل لا تكون مقدورة لمخلوق، بل لا تكون إلا مما ينفرد الله بالقدرة عليه.

فإذا قالوا: هذا ظن الظان، أنهم إشترطوا أمراً عظيماً.

ولم يشترطوا شيئاً؛ فإنهم قالوا في جنس الأفعال التي لا تقدر الناس إلا على اليسير منها؛ كحمل الجبال، ونقلها: أن المعجزة هنا: إقدارهم على الفعل، لا نفس الفعل.

ورجحوا هذا على قول من يقول: نفس الفعل آية؛ لأن جنس الفعل مقدور.

وليس هذا بفرق طائل؛ فإنه لا فرق بين تخصيصهم بالفعل، أو بالقدرة عليه.

فإذا كان إقدارهم على الكثير، الذي لم تجر به العادة معجزة كان نفس الكثير، الذي لم تجر به العادة معجزة.

وهؤلاء عندهم: أن قدرة العباد لا تؤثر في وجود شيء، ولا يكون مقدورها إلا في محلها؛ فهم في الحقيقة لم يثبتوا قدرة؛ فكل ما في الوجود هو مقدور لله عندهم.

ولهذا عدل أبو المعالي، ومن اتبعه؛ كالرازي، عن هذا الفرق فلم يشترطوا: أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه، وإذ كانت جميع الحوادث عندهم كذلك.

وقالوا: إن ما يحصل على يد الساحر، والكاهن، وعامل الطلسمات وعند الطبيعة الغريبة، هو مما ينفرد الرب بالقدرة عليه، ويكون آية للنبي.

وهذا معتاد لغير الأنبياء، فلم يبق لقولهم خرق للعادة معنى معقول.

بل قالوا- واللفظ للقاضي أبي بكر-: الواجب على هذا الأصل أن يكون خرق العادة، الذي يفعله الله، مما يخرق عادة جميع القبيل، الذين تحداهم الرسول بمثله، ويحتج به على نبوته فإن أرسل ملكاً إلى الملائكة، أظهر على يده ما هو خرق لعادتهم وإن أرسل بشراً، أرسله بما يخرق عادة البشر؛ وإن أرسل جنياً أظهر على يديه ما هو خارق لعادة الجن.

فيقال: السحر، والكهانة، معتاد للبشر.

وأنتم تقولون: يجوز أن يكون ما يأتي به الساحر والكاهن آية بشرط أن لا يمكن معارضته.

فلم يبق لكونه خارقاً للعادة معنى يعقل عندكم.

ولهذا قال محققوهم: أنه لا يشترط في الآيات، أن تكون خارقة للعادة كما قد حكينا لفظهم في غير هذا الموضع؛ كما تقدم.

وإنما الشرط: أنها لا تعارض، وأن تقترن بدعوى النبوة هذان الشرطان هما المعتبران.

وقد بينا في غير موضع، أن كلا من الشرطين باطل.

والأول: يقتضي أن يكون المدلول عليه، جزءاً من الدليل.

وآيات النبوة أنواع متعددة: منها ما يكون قبل وجوده؛ ومنها ما يكون بعد موته؛ ومنها ما يكون في غيبته.

والمقصود هنا: كان هو الكلام على المثال الذي ذكروه، وأن ما ضرب من الأمثلة على الوجه الصحيح، فانه – ولله الحمد – يدل على صدق الرسول، وعلى فساد أصولهم.

ولكن هم ضربوا مثالاً، إذا اعتبر على الوجه الصحيح، كان حجة ولله الحمد على صدق النبي، وعلى فساد ما ذكروه في المعجزات حيث قالوا: هي الفعل الخارق للعادة، المقترن بدعوى النبوة والإستدلال به، وتحدي النبي من دعاهم أن يأتوا بمثله.

وشرط بعضهم: أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه.

وهذه الأربعة، هي التي شَرطَ القاضي أبو بكر، ومن سلك مسلكه كابن اللبان، وابن شاذان، والقاضي أبي يعلى، وغيرهم.

أن يكون مما ينفرد الرب بالقدرة عليه، على أحد القولين، أو منه ومن الجنس الآخر، إذا وقع على وجه يخرق العادة، وطريق متعذر على غيرهم مثله – على القول الآخر –.

قالوا: وهذا لفظ القاضي أبي بكر.

والثاني: أن يكون ذلك الشيء، الذي يظهر على أيديهم، مما يخرق العادة، وينقضها، ومتى لم يكن كذلك، لم يكن معجزاً.

والثالث: أن يكون غير النبي، ممنوعاً من إظهار ذلك على يده على الوجه الذي ظهر عليه، ودعا إلى معارضته، مع كونه خارقاً للعادة.

والرابع: أن يكون واقعاً مفعولاً عند تحدي الرسول بمثله، وإدعائه آية لنبوته، وتقريعه بالعجز عنه من خالفه وكذبه.

قالوا: فهذه هي الشرائط، والأوصاف التي تختص بها المعجزات.

فيقال لهم: الشرط الأول، قد عرف أنه لا حقيقة له، ولهذا أعرض عنه أكثرهم.

والثاني: أيضاً لا حقيقة له؛ فإنهم لم يميزوا ما يخرق العادة مما لا يخرقها.

ولهذا ذهب من ذهب من محققيهم، إلى إلغاء هذا الشرط؛ فهم لا يعتبرون خرق عادة جميع البشر، بل ما اعتاده السحرة، والكهان وأهل الطلاسم عندهم، يجوز أن يكون آية إذا لم يعارض، وما اعتاده أهل صناعة، أو علم، أو شجاعة ليس هو عندهم آية وإن لم يعارض.

فالامور العجيبة، التي خص الله بالأقدار عليها بعض الناس،لم يجعلوها خرق عادة.

والأمور المحرمة، أو هي كفر؛ كالسحر، والكهانة، والطلمسات:جعلوها خرق عادة، وجعلوها آية، بشرط أن لا يعارض، وهو الشرط الثالث، وهو في الحقيقة، خاصة المعجزة عندهم.

لكن كون غير الرسول ممنوعاً منه: أن اعتبروا أنه ممنوع مطلقاً فهذا لا يعلم.

وإن اعتبروا أنه ممنوع من المرسل إليهم؛ فهذا لا يكفي، بل يمكن كل ساحر، وكاهن أن يدعي النبوة، ويقول أنني كذا.

قالوا: لو فعل هذا، لكان الله يمنعه فعل ذلك، أو يقيض له من يعارضه

قلنا: من أين لكم ذلك؟ ومن أين يعلم الناس ذلك؟ ويعلمون أن كل كاذب، فلابد أن يمنع من فعل الأمر الذي اعتاده هو وغيره قبل ذلك؟ أو أن يعارض؟

والواقع خلاف ذلك؛ فما أكثر من ادعى النبوة، أو الإستغناء عن الأنبياء، وأن طريقه فوق طريق الأنبياء، وأن الرب يخاطبه بلا رسالة، وأتى بخوارق من جنس ما تأتي السحرة، والكهان، ولم يكن فيمن دعاه من يعارضه.

وأما الرابع: وهو أن يكون عند تحدي الرسول، فبه يحترزون عن الكرامات، وهو شرط باطل.

بل آيات الأنبياء آيات، وإن لم ينطقوا بالتحدي بالمثل، وهي دلائل على النبوة، وصدق المخبر بها، والدليل مغاير للمدلول عليه، ليس المدلول عليه جزءاً من الدليل.

لكن إذا قالوا: الدليل هو دعاء الرسول، لزمه أن يريهم آية وخلق تلك الآية عقب سؤاله.

وإن كان ذلك قد يخلقه بغير سؤاله لحكمة أخرى، فهذا متوجه فالدليل هو مجموع طلب العلامة، مع فعل ما جعله علامة.

كما أن العباد إذا دعوا الله فأجابهم، كان ما فعله إجابة لدعائهم،ودليلا على أن الله سمع دعاءهم، وأجابهم.

كما أنهم إذا استسقوه فسقاهم، واستنصروه فنصرهم، وإن كان قد يفعل ذلك بلا دعاء، فلا يكون هناك دليل على إجابة دعاء فهو دليل على إجابة الدعاء، إذا وقع عقب الدعاء، ولا يكون دليلاً إذا وقع على غير هذا الوجه.

وكذلك الرسول:إذا قال لمرسله:أعطني علامة،فأعطاه ما شرفه به، كان دليلاً على رسالته،وإن كان قد يفعل ذلك لحكمة أخرى،لكن فعل ذلك عقب سؤاله،آية لنبوته هو الذي يختص به.

وكذلك إذا علم أنه فعله إكراماً له، مع دعواه النبوة، علم أنه قد أكرمه بما يكرم به الصادقين عليه، فعلم أنه صادق؛ لأن ما فعله به مختص بالصادقين الأبرار، دون الكاذبين عليه الفجار.

وعلى هذا: فكرامات الأولياء، هي من آيات الأنبياء، فإنها مختصة بمن شهد لهم بالرسالة، وكل ما استلزم صدق الشهادة بنبوتهم فهو دليل على صدق هذه الشهادة؛ سواء كان الشاهد بنبوتهم المخبر بها هم، أو غيرهم.

بل غيرهم إذا أخبر بنبوتهم، وأظهر الله على يديه ما يدل على صدق هذا الخبر، كان هذا أبلغ في الدلالة على صدقهم من أن يظهر على أيديهم.

فقد تبين أنه ليس من شرط دلائل النبوة؛ لا إقترانه بدعوى النبوة ولا الاحتجاج به، ولا التحدي بالمثل، ولا تقريع من يخالفه. بل كل هذه الأمور قد تقع في بعض الآيات، لكن لا

يجب أن ما لا يقع معه لا يكون آية، بل هذا إبطال لأكثر آيات الأنبياء، لخلوها عن هذا الشرط.

ثم هو شرط بلا حجة؛ فإن الدليل على المدلول عليه، هو ما استلزم وجوده.

وهذا لا يكون الا عند عدم المعارض المساوي، أو الراجح وما كان كذلك، فهو دليل؛ سواء قال المستدل به: أئتوا بمثله، وأنتم لا تقدرون على الإتيان بمثله، وقرعهم وعجزهم، أو لم يقل ذلك.

فهو إذا كان في نفسه مما لا يقدرون على الإتيان بمثله؛ سواء ذكر المستدل هذا، أو لم يذكره؛ لا بذكره يصير دليلاً، ولا بعدم ذكره تنتفي دلالته.

وهؤلاء قالوا: لا يكون دليلاً إلا إذا ذكره المستدل، وهذا باطل.

وكذلك الدليل، هو دليل؛ سواء استدل به مستدل، أو لم يستدل.

وهؤلاء قالوا: لا يكون دليل النبوة دليلاً، إلا إذا استدل به النبي حين إدعى النبوة؛ فجعل نفس دعواه، واستدلاله، والمطالبة بالمعارضة، وتقريعهم بالعجز عنها؛ كلها جزءا من الدليل.

وهذا غلط عظيم، بل السكوت عن هذه الأمور، أبلع في الدلالة والنطق بها لا يقوي الدليل.

والله تعالى لم يقل (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) (١) إلا حين قالوا: إفتراه؛ لم يجعل هذا القول شرطاً في الدليل، بل نفس عجزهم عن المعارضة، هو من تمام الدليل.

وهم أنما شرطوا ذلك؛ لأن كرامات الأولياء عندهم، متى اقترن بها دعوى النبوة، كانت آية للنبوة؛ وجنس السحر.

والكهانة: متى إقترن به دعوى النبوة، كان دليلاً على النبوة عندهم لكن قالوا: الساحر والكاهن لو إدعى النبوة، لكان يمتنع من ذلك أو يعارض بمثله.

وأما الصالح: فلا يدعي.

---

(١) سورة الطور: الآية (٣٤)

فكان أصلهم: أن ما يأتي به النبي، والساحر، والكاهن، والولي: من جنس واحد، لا يتميز بعضه عن بعض بوصف.

لكن خاصة النبي: إقتران الدعوى، والاستدلال، والتحدي بالمثل بما يأتي به.

فلم يجعلوا لآيات الأنبياء خاصة تتميز بها عن السحر، والكهانة وعما يكون لآحاد المؤمنين، ولم يجعلوا للنبي مزية على عموم المؤمنين، ولا على السحرة، والكهان من جهة الآيات، التي يدل الله بها العباد على صدقه.

وهذا إفتراء عظيم على الأنبياء، وعلى آياتهم، وتسوية بين أفضل الخلق، وشرار الخلق.

بل تسوية بين ما يدل على النبوة، وما يدل على نقيضها؛ فإن ما يأتي به السحرة، والكهان، لا يكون الا لكذاب، فاجر، عدو لله؛ فهو مناقض للنبوة.

فلم يفرقوا بين ما يدل على النبوة وعلى نقيضها، وبين مالا يدل عليها ولا على نقيضها.

فإن آيات الأنبياء تدل على النبوة، وعجائب السحرة، والكهان تدل على نقيض النبوة؛ وأن صاحبها ليس ببر، ولا عدل، ولا ولي لله، فضلاً عن أن يكون نبياً.

بل يمتنع أن يكون الساحر، والكاهن نبياً، بل هو من أعداء الله.

والأنبياء أفضل خلق الله، وإيمان المؤمنين وصلاحهم، لا يناقض النبوة، ولا يستلزمها.

فهؤلاء سووا بين الأجناس الثلاثة، فكانوا بمنزلة من سوى بين عبادة الرحمن، وعبادة الشيطان والأوثان.

فإن الكهان، والسحرة: يأمرون بالشرك، وعبادة الأوثان، وما فيه طاعة للشيطان.

والأنبياء: لا يأمرون إلا بعبادة الله وحده، وينهون عن عبادة ما سوى الله وطاعة الشياطين.

فسَوىَ هؤلاء بين هذا وهذا، ولم يبق الفرق إلا مجرد تلفظ المدعي بأني نبي، فإن تلفظ به، كان نبياً، وإن لم يتلفظ به، لم يكن نبياً.فالكذاب المتنبي، إذا أتى بما يأتي الساحر، والكاهن، وقال: أنا نبي كان نبياً. وقولهم: أنه إذا فعل ذلك منع منه، وعورض:دعوى مجردة فهي لا تقبل،لو لم يعلم بطلانها.فكيف وقد علم بطلانها، وإن كثيراً ادعوا ذلك، ولم يعارضهم ممن ادعوه أحد، ولا منعوا من ذلك.فلزم على قول هؤلاء: التسوية بين النبي الصادق، والمتنبي الكاذب.

وقد قال تعالى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ.وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (١).

ولم يفرق هؤلاء (٢) بين هؤلاء (٣) وهؤلاء(٤) ولا بين آيات هؤلاء وآيات هؤلاء.

وقال تعالى (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ.وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) (٥)

فنسأل الله العظيم: أن يهدينا إلى الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعم عليهم؛ من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ الذين عبدوه وحده، لا شريك له، وآمنوا بما أرسل به رسله، وبما جاءوا به من الآيات، وفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال والغي والرشاد، وطريق أولياء الله المتقين، وأعداء الله الضالين والمغضوب عليهم؛ فكان ممن صدق الرسل فيما أخبروا به، وأطاعهم فيما أمروا به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهؤلاء يجوزون أن يأمر الله بكل شيء، وأن ينهى عن كل شيء فلا يبقى عندهم فرق بين النبي الصادق، والمتنبي الكاذب؛ لا من جهة نفسه؛ فإنهم لا يشترطون فيه إلا مجرد كونه في الباطن مقراً بالصانع.

وهذا موجود في عامة الخلق؛ ولا من جهة آياته؛ ولا من جهة ما يأمر به.

---

(١) سورة الزمر: الآيتان (٣٢-٣٣)

(٢) الأشاعرة.

(٣)الأنبياء عليهم السلام.

(٤)السحرة والكهان.

(١) سورة الأنعام: الآيات (٩١-٩٤)

والفلاسفة من هذا الوجه، أجود قولاً في الأنبياء؛ فإنهم يشترطون في النبي اختصاصه بالعلم من غير تعلم، وبالقدرة على التأثير الغريب والتخييل، ويفرقون بين الساحر، والنبي: بأن النبي يقصد العدل ويأمر به، بخلاف الساحر.

ولهذا عدل الغزالي في النبوة، عن طريق أولئك المتكلمين، إلى طريق الفلاسفة؛ فاستدل بما يفعله النبي ويأمر به على نبوته.

وهي طريق صحيحة، لكن إنما أثبت بها نبوة مثل نبوة الفلاسفة.

وأولئك (١) خير من الفلاسفة؛ من جهة أنهم لما أقروا بنبوة محمد صدقوه فيما أخبر به من أمور الأنبياء، وغيرهم، وكان عندهم معصوماً من الكذب فيما يبلغه عن الله؛ فانتفعوا بالشرع، والسمعيات. وبها صار فيهم من الإسلام، ما تميزوا به على أولئك (٢)؛ فإن أولئك لا ينتفعون بأخبار الأنبياء؛ إذ كانوا عندهم يخاطبون الجمهور بالتخييل؛ فهم يكذبون عندهم للمصلحة.

ولكن آخرون سلكوا مسلك التأويل، وقالوا: أنهم لا يكذبون ولكن أسرفوا فيه.

ففي الجملة: ظهور الفلاسفة، والملاحدة، والباطنية على هؤلاء تارة، ومقاومتهم لهم تارة: لابد له من أسباب في حكمة الرب وعدله.

ومن أعظم أسبابه: تفريط أولئك وجهلهم بما جاء به الأنبياء،فالنبوة التي ينتسبون إلى نصرها، لم يعرفوها، ولم يعرفوا دليلها، ولا قدروها قدرها، وهذا يظهر من جهات متعددة.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) يشير هنا إلى الأشاعرة.

(١) يشير هنا إلى الفلاسفة.

فصل
أصول الدين وأصول أهل الأهواء

قد ذكرنا في غير موضع، أن أصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم، قد بينها الله في القرآن أحسن بيان، وبين دلائل الربوبية والوحدانية، ودلائل أسماء الرب وصفاته، وبين دلائل نبوة أنبيائه وبين المعاد، وبين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع، وبين وقوعة بالأدلة السمعية والعقلية.

فكان في بيان الله، أصول الدين الحق، وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة، فتضمن بيان العلم النافع، والعمل الصالح، الهدى ودين الحق.

وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك، ليس فيما ابتدعوه لا هدى، ولا دين حق.

فابتدعوا ما زعموا أنه أدلة وبراهين، على إثبات الصانع، وصدق الرسول وإمكان المعاد أو وقوعه.

وفيما ابتدعوه ما خالفوا به الشرع، وكل ما خالفوه من الشرع، فقد خالفوا فيه العقل أيضاً، فإن الذي بعث الله به محمداً، وغيره من الأنبياء، هو حق وصدق، وتدل عليه الأدلة العقلية، فهو ثابت بالسمع والعقل.

والذين خالفوا الرسل، ليس معهم لا سمع ولا عقل، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ.قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ.فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ)[1]

وقال تعالى لمكذبي الرسل (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[2]

---

(١)سورة الملك: أية رقم (٨ – ١١).
(٢) سورة الحج: أية رقم (٤٦)

ذكر ذلك بعد قوله (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ.وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ.وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ)(١)

ثم قال تعالى (أ(أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ) (٢)

ثم قال (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) (٣)

فذكر إهلاك من أهلك، وإملاءه لمن أملى، لئلا يغتر المغتر، فيقول نحن لم يهلكنا، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن ما جاء به الرسول يدل عليه السمع والعقل، وهو حق في نفسه كالحكم الذي يحكم به، فإنه يحكم بالعدل، وهو الشرع.

فالعدل: هو الشرع، والشرع: هو العدل.

ولهذا يأمر نبيه أن يحكم بالقسط، وأن يحكم بما أنزل الله.

والذي أنزل الله هو القسط، والقسط هو الذي أنزله الله.

وكذلك الحق والصدق هو ما أخبرت به الرسل، وما أخبرت به فهو الحق والصدق والسلف والأئمة ذموا أهل الكلام المبتدعين الذين خالفوا الكتاب والسنة، ومن خالف الكتاب والسنة، لم يكن كلامه إلا باطلاً.

فالكلام الذي ذمه السلف، يذم لأنه باطل، ولأنه يخالف الشرع.

ولكن لفظ الكلام لما كان مجملاً، لم يعرف كثير من الناس الفرق بين الكلام الذي ذموه وغيره.

فمن الناس من يظن أنهم إنما أنكروا كلام القدرية فقط، كما ذكره البيهقي وابن عساكر في تفسير كلام الشافعي ونحوه ليخرجوا أصحابهم عن الذم وليس كذلك.

بل الشافعي أنكر كلام الجهمية، كلام حفص الفرد وأمثاله وهؤلاء كانت منازعتهم في الصفات، والقرآن، والرؤية، لا في القدر.

---

(١) سورة الحج:أية رقم (٤٢- ٤٥)

(٢) سورة يوسف: أية رقم (١٠٩).

(٣) سورة الحج: أية رقم (٤٨).

وكذلك أحمد بن حنبل، خصومه من أهل الكلام هم الجهمية الذين ناظروه في القرآن، مثل: أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث، صاحب حسين النجار وأمثاله، ولم يكونوا قدرية ولا كان النزاع في مسائل القدر.

ولهذا يصرح أحمد،وأمثاله من السلف:بذم الجهمية،بل يكفرونهم، أعظم من سائر الطوائف.

وقال عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط، وغيرهما: أصول أهل الأهواء أربع: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والقدرية.

فقيل لهم: الجهمية؟.

فقالوا: الجهمية ليسوا من أمة محمد.

ولهذا ذكر أبو عبد الله بن حامد عن أصحاب أحمد في الجهمية: هل هم من الثنتين والسبعين فرقة؟

وجهين:

أحدهما: أنهم ليسوا منهم لخروجهم عن الإسلام.

وطائفة: تظن أن الكلام الذي ذمه السلف، هو مطلق النظر والاحتجاج والمناظرة

ويزعم من يزعم من هؤلاء، أن قوله (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(١)

و(وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(٢) منسوخ بآية السيف.

وهؤلاء أيضاً غالطون، فان الله تعالى قد أخبر عن قوم نوح وإبراهيم بمجادلتهم للكفار حتى (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)(٣)

وقال عن قوم إبراهيم (وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ.وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

---

(١) سورة العنكبوت: أية رقم (٤٦)

(٢) سورة النحل: أية رقم (١٢٥)

(٣) سورة هود: أية رقم (٣٢)

الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ.وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (١) وذكر محاجة إبراهيم للكافر.

والقرآن فيه من مناظرة الكفار والاحتجاج عليهم ما فيه شفاء وكفاية.

وقوله تعالى (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ) (٢)

وقوله تعالى (وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)(٣) ليس في القرآن ما ينسخهما، ولكن بعض الناس، يظن أن من المجادلة ترك الجهاد بالسيف.

وكل ما كان متضمنا لترك الجهاد المأمور به، فهو منسوخ بآيات السيف والجهاد.

والمجادلة: قد تكون مع أهل الذمة والهدنة والأمان، ومن لا يجوز قتاله بالسيف.

وقد تكون في ابتداء الدعوة، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجاهد الكفار بالقرآن.

وقد تكون لبيان الحق، وشفاء القلوب من الشبه، مع من يطلب الاستهداء والبيان، وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن المبتدعين الذين ابتدعوا كلاماً وأصولاً تخالف الكتاب.

وهي أيضاً مخالفة للميزان، وهو العدل، فهي مخالفة للسمع والعقل.

كما ابتدعوا في إثبات الصانع، إثباته بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض، لا تنفك عنها.

قالوا: وما لايخلوا عن الحوادث، فهو حادث، لامتناع لا أول لها.

فهؤلاء: إذا حقق عليهم ما قالوه، لم يوجدوا، قد أثبتوا العلم بالصانع ولا أثبتوا النبوة، ولا أثبتوا المعاد.

وهذه هي أصول الدين والإيمان.

بل كلامهم في الخلق، والبعث، المبدأ والمعاد، وفي إثبات الصانع، ليس فيه تحقيق العلم، لا عقلاً ولا نقلاً.

---

(١) سورة الأنعام: أية رقم (٨٠- ٨٣)

(٢) سورة العنكبوت: أية رقم (٤٦)

(٣) سورة النحل: أية رقم (١٢٥)

وهم معترفون بذلك، كما قال الرازي: لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق، طريقة القرآن، أقرأ في النفي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (١)

و قوله (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)(٢)

وأقرأ في الإثبات (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(٣)

وقوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُه)(٤)

وقوله (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ) (٥) ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي.

وكذلك الغزالي، وابن عقيل، وغيرهما، يقولون ما يشبه هذا.

وهو كما قالوا.

فان الرازي قد جمع ما جمعه من طرق المتكلمين والفلاسفة، ومع هذا فليس في كتبه إثبات الصانع، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين جميع ما ذكره في إثبات الصانع، وأنه ليس فيه ذلك، وليس فيه أيضا إثبات النبوة.

فان النبوة مبناها على أن الله قادر، وأنه يحدث الآيات لتصدق بها الرسل.

وليس في كتبه إثبات إن الله قادر، ولا مريد، بل كلامه فيه تقرير حجج، من نفي قدرته وإرادته، دون الجانب الآخر.

كما قد بينا ذلك في الكلام على ما ذكره في مسألة القدرة والإرادة.

مع أنه ولله الحمد، الأدلة الدالة على إثبات الصانع واثبات قدرته، ومشيئته تفوق الإحصاء، لكن (وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ) (٦)

---

(١) سورة الشورى: أية رقم (١١)
(٢) سورة طه: أية رقم (١١٠)
(٣) سورة طه: أية رقم (٥)
(٤) سورة فاطر: أية رقم (١٠)
(٥) سورة الملك: أية رقم (١٠)
(٦) سورة النور: أية رقم (٤٠)

وسبب ذلك: إعراضهم عن الفطرة العقلية، والشرعة النبوية، بما ابتدعه المبتدعون، مما أفسدوا به الفطرة والشرعة، فصاروا يسفسطون في العقليات، ويقرمطون في السمعيات، كما قد بين هذا في مواضع.

وأيضاً: فإذا عرف أن الله قادر، كما قد عرفه غيره فليس عنده في النبوة إلا طريق أصحابه الأشعرية، الذين سلكوا مسلك الجهمية في أفعال الله تعالى، أو طريق الفلاسفة.

ولهذا يقول من يقول من علماء الزيدية، وهم يميلون إلى الاعتزال، مع تشيع الزيدية يقولون: نحن لا نتكلم في الشافعي، فإنه إمام.

لكن هؤلاء صاروا جهمية، يعني القدر فلاسفة، والشافعي لم يكن جهمياً ولا فيلسوفاً.

وهؤلاء لم يعرفوا آيات الأنبياء، والفرق بينها وبين غيرها لكن ادعوا أن، ما يأتي به الكهان والسحرة وغيرهم، قد يكون من آيات الأنبياء.

لكن بشرط: أن لا يقدر أحد من المرسل إليهم على معارضته.

وهذه خاصة المعجز عندهم، وهذا فاسد من وجوه كثيرة كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وأما كلامه في المعاد، فأبعد من هذا وهذا، كما قد بين أيضاً.

وكذلك كلام من تقدمه من الجهمية، وأتباعهم من الأشعرية، وغيرهم، ومن المعتزلة، فإنك لا تجد في كلامهم الذي ابتدعوه، لا إثبات الربوبية، ولا النبوة، ولا المعاد.

والأشعري نفسه وأتباعه، ليس في كتبهم إثبات الربوبية، ولا المعاد.

وكذلك من سلك سبيلهم في أدلتهم، من أتباع الفقهاء كالقاضي أبي يعلى، وابن عقيل، وابن الزاغوني، وغيرهم.

والمعتزلة كذلك أيضاً، وكذلك الكرامية.

وقد تأملت كلام أئمة هؤلاء الطوائف، كأبي الحسين البصري ونحوه من المعتزلة، وكابن الهيضم من الكرامية، وكأبي الحسن نفسه، والقاضي أبي بكر وأبي المعالي الجويني وأبي اسحاق الأسفراييني، وأبي بكر بن فورك وأبي القاسم القشيري، وأبي الحسن التميمي والقاضي أبي يعلى، وابن عقيل وابن الزاغوني (غفر الله لهم ورحمهم أجمعين)

وتأملت ما وجدته في الصفات من المقالات، مثل: كتاب " الملل والنحل " للشهرستاني، وكتاب " مقالات الإسلاميين " للأشعري، وهو أجمع كتاب رأيته في هذا الفن.

وقد ذكر فيه ما ذكر، أنه مقالة أهل السنة والحديث، وأنه يختارها.

وهي أقرب ما ذكره من المقالات إلى السنة والحديث.

لكن فيه أمور لم يقلها أحد من أهل السنة والحديث؟

ونفس مقالة أهل السنة والحديث، لم يكن يعرفها، ولا هو خبير بها.

فالكتب المصنفة في مقالات الطوائف، التي صنفها هؤلاء، ليس فيها ما جاء به الرسول، وما دل عليه القرآن، لا في المقالات المجردة، ولا في المقالات التي يذكر فيها الأدلة.

فإن جميع هؤلاء، دخلوا في الكلام المذموم، الذي عابه السلف وذموه ولكن بعضهم أقرب إلى السنة من بعض، وقد يكون هذا أقرب في بعض وهذا أقرب في مواضع.

وهذا لكون أصل اعتمادهم لم يكن على القرآن والحديث، بخلاف الفقهاء فإنهم في كثير مما يقولونه، إنما يعتمدون على القرآن والحديث، فلهذا كانوا أكثر متابعة.

لكن ما تكلم فيه أولئك أجل، ولهذا يعظمون من وجه ويذمون من وجه فإن لهم حسنات وفضائل، وسعيا مشكورا وخطأهم بعد الاجتهاد مغفور.

والأشعري: أعلم بمقالات المختلفين من الشهرستاني، ولهذا ذكر عشر طوائف، وذكر مقالات لم يذكرها الشهرستاني.

وهو أعلم بمقالات أهل السنة، وأقرب إليهم، وأوسع علماً من الشهرستاني.

والشهرستاني: أعلم باختلاف المختلفين ومقالاتهم من الغزالي.

ولهذا ذكر لهم في القرآن أربع مقالات، وعدد طوائف من أهل القبلة.

والغزالي: حصر أهل العلم الآلهي في أربعة أصناف، في:

الفلاسفة....... والباطنية...... والمتكلمين........والصوفية.

فلم يعرف مقالات أهل الحديث والسنة، ولا مقالات الفقهاء، ولا مقالات أئمة الصوفية ولكن ذكر عنهم العمل، وذكر عن بعضهم اعتقاداً يخالفهم فيه أئمتهم.

وأبو طالب: أعلم منهما بأقوال الصوفية، ومع هذا فلم يعرف مقالة الأكابر كالفضيل بن عياض، ونحوه.

وأبو الوليد بن رشد الحفيد: حصر أهل العلم الآلهي في ثلاثة:

في الحشوية......... والباطنية......... والأشعرية.

والباطنية عنده يدخل فيهم: باطنية الصوفية، وباطنية الفلاسفة.

ومن هنا دخل ابن سبعين وابن عربي، فأخذوا مذاهب الفلاسفة، وادخلوها في التصوف، وأبو حامد يدخل في بعض هذا، فإن ابن سينا تكلم في مقالات العارفين بتصوف فاسد.

ثم إن هؤلاء مع هذا، لما لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم.

بل ولا نقل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم، صار منهم من يقول: كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب، وأنهم هم حققوا ما لم يحققه الصحابة.

ويقولون أيضاً: إن الرسول لم يعلمهم هذا، لئلا يشتغلوا به عن الجهاد، فإنه كان محتاجاً إليهم في الجهاد.

وهكذا يقول من يقول، من مبتدعة أهل الزهد والتصوف إذا دخلوا في عبادات منهي عنها، ومذمومة في الشرع.

قالوا: كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد.

وأهل السيف، قد يظن من يظن منهم، أن لهم من الجهاد وقتال الأعداء، ما لم يكن مثله للصحابة، وأن الصحابة كانوا مشغولين بالعلم والعبادة عن مثل جهادهم.

ومن أهل الكلام من يقول: بل الصحابة كانوا على عقائدهم وأصولهم، لكن لم يتكلموا بذلك، لعدم حاجتهم إليه.

فهؤلاء جمعوا بين أمرين: بين أن ابتدعوا أقوالاً باطلة، ظنوا أنها هي أصول الدين، لا يكون عالماً بالدين الا من وافقهم عليها، وأنهم علموا وبينوا من الحق، ما لم يبينه الرسول والصحابة.

وإذا تدبر الخبير حقيقة ما هم عليه، تبين له، أنه ليس عند القوم فيما ابتدعوه، لا علم، ولا دين، ولا شرع، ولا عقل.

وآخرون لما رأوا ابتداع هؤلاء، وأن الصحابة والتابعين لم يكونوا يقولون مثل قولهم، ظنوا أنهم كانوا كالعامة الذين لا يعرفون الأدلة والحجج، وأنهم كانوا لا يفهمون ما في القرآن، مما تشابه على من تشابه عليه.

وتوهمو أنه إذا كان الوقف على قوله (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ) (١) كان المراد أنه لا يفهم معناه إلا الله، لا الرسول، ولا الصحابة.

فصاروا ينسبون الصحابة، بل والرسول، إلى عدم العلم بالسمع والعقل وجعلوهم مثل أنفسهم، لا يسمعون، ولا يعقلون.

وظنوا أن هذه طريقة السلف، وهي الجهل البسيط، التي لا يعقل صاحبها ولا يسمع، وهذا وصف أهل النار، لا وصف افضل الخلق بعد الأنبياء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: من كان منكم مستناً، فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا يؤمن عليه الفتنة.

أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً.

قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقال أيضاً: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته.

ثم نظر في قلوب العباد، بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه، خير قلوب العباد بعد قلبه، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه.

فما رآه المسلمون حسنا، فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون قبيحا فهو عند الله قبيح.

وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه، عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: " خير القرون، القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ".

وقد قال تعالى (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (٢)

---

(١) سورة آل عمران: أية رقم (٧)

(٢) سورة التوبة: أية رقم (١٠٠)

فرضي الله عن السابقين مطلقاً، ورضي عمن اتبعهم بإحسان وذلك متناول لكل من اتبعهم إلى يوم القيامة، كما ذكر ذلك أهل العلم.

قال ابن أبي حاتم: قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب حدثني عبدالرحمن ابن زيد بن أسلم في قوله: " والذين اتبعوهم بإحسان "

قال: من بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة، وبسط هذا له موضعا آخر.

والمقصود هنا: أن الهدى، والبيان، والأدلة، والبراهين: في القرآن.

فإن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى، ودين الحق، وأرسله بالآيات البينات وهي الأدلة البينة، الدالة على الحق، وكذلك سائر الرسل.

ومن الممتنع أن يرسل الله رسولاً يأمر الناس بتصديقه ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه، وكذلك من قال إني رسول الله.

فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلاً له، وحجة على الناس، هذا لا يظن بأجهل الخلق، فكيف بأفضل الناس؟

وفي الصحيحين: عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ) (١)

فالبينات: جمع بينة، وهي الأدلة والبراهين، التي هي بينة في نفسها، وبها يتبين غيرها.

يقال: بين الأمر، أي تبين في نفسه.

ويقال: بين غيره.

فالبين: اسم لما ظهر في نفسه، ولما أظهر غيره.

وكذلك: المبين، كقوله: فاحشة مبينة، أي: متبينة.

---

(١) سورة البقرة: أية رقم (١٥٩)

فهذا شأن الأدلة، فان مقدماتها تكون معلومة بنفسها كالمقدمات الحسية والبديهية، وبها يتبين غيرها، فيستدل على الخفي بالجلي.

والهدى: مصدر هداه هدى.

والهدى: هو بيان ما ينتفع به الناس ويحتاجون إليه.

وهو ضد الضلالة، فالضال يضل عن مقصوده، وطريق مقصوده.

وهو سبحانه بين في كتبه ما يهدي الناس، فعرفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق، عرفهم أن الله هو المقصود،المعبود وحده،وأنه لا يجوز عبادة غيره،وعرفهم الطريق وهو ما يعبدونه به.

ففي الهدى: بيان المعبود، وما يعبد به.

والبينات: فيها بيان الأدلة والبراهين على ذلك.

فليس ما يخبر به، ويأمر به من الهدى، قولاً مجرداً عن دليله، ليؤخذ تقليداً، واتباعاً للظن.

بل هو مبين بالآيات البينات، وهي الأدلة اليقينية، والبراهين القطعية.

وكان عند أهل الكتاب، من البينات الدالة على نبوة محمد، وصحة ما جاء به أمور متعددة: كبشارات كتبهم، وغير ذلك، فكانوا يكتمونه.

قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (١)

فإنه كان عندهم شهادة من الله، تشهد بما جاء به محمد وبمثله، فكتموها.

وقال تعالى (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ)(٢)

فانزله هادياً للناس، وبينات من الهدى والفرقان.

فهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم، يهديهم إلى صراط العزيز الحميد الذي له ما في السماوات وما في الأرض، بما فيه من الخبر والأمر.

وهو بينات دلالات، وبراهين من الهدى، من الأدلة الهادية المبينة للحق ومن الفرقان، المفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والصدق والكذب والمأمور والمحظور، والحلال والحرام.

---

(١) سورة البقرة: أية رقم (١٤٠)

(٢) سورة البقرة: أية رقم (١٨٥)

وذلك أن الدليل لا يتم إلا بالجواب عن المعارض، فالأدلة تشتبه كثيراً بما يعارضها، فلا بد من الفرق، بين الدليل الدال على الحق، وبين ما عارضه، ليتبين أن الذي عارضه باطل.

فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق، لكن لا بد مع ذلك من الفرقان، وهو الفرق بين ذلك الدليل، وبين ما عارضه والفرق بين خبر الرب، والخبر الذي يخالفه.

فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات، ومن لم يحصل له الفرقان كان في اشتباه وحيرة.

والهدى التام، لا يكون إلا مع الفرقان، فلهذا قال أو لا:"هدى للناس"

ثم قال: "وبينات من الهدى والفرقان" فالبينات: الأدلة على ما تقدم من الهدى، وهي بينات من الهدى، الذي هو دليل على أن الأول هدى، ومن الفرقان الذي يفرق بين البينات والشبهات، والحجج الصحيحة والفاسدة.

فالهدى مثل: أن يؤمر بسلوك الطريق إلى الله، كما يؤمر قاصد الحج، بسلوك طريق مكة، مع دليل يوصله.

والبينات: ما يدل ويبين أن ذلك هو الطريق، وأن سالكه سالك للطريق، لا ضال.

والفرقان: أن يفرق بين ذاك الطريق وغيره، وبين الدليل الذي يسلكه، ويدل الناس عليه، وبين غيرهم، ممن يدعي الدلالة وهو جاهل مضل.

وهذا وأمثاله، مما يبين أن في القرآن، الأدلة الدالة للناس، على تحقيق ما فيه، من الأخبار والأوامر كثير، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: الكلام على النبوة، فإن المتكلمين المبتدعين تكلموا في النبوات بكلام كثير، لبسوا فيه الحق بالباطل كما فعلوا مثل ذلك في غير النبوات، كالإلهيات، وكالمعاد(١).

وعند التحقيق لم يعرفوا النبوة، ولم يثبتوا ما يدل عليها، فليس عندهم لا هدى ولا بينات، والله سبحانه أنزل في كتبه البينات والهدى.

فمن تصور الشيء على وجهه، فقد اهتدى إليه، ومن عرف دليل ثبوته، فقد عرف البينات.

فالتصور الصحيح: اهتداء.

والدليل الذي يبين التصديق بذلك التصور: بينات.

---

(١) تلميح من شيخ الإسلام ابن تيمية بردوده على بعض المتكلمين.

والله أنزل الكتاب هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل، ونفي عنها التمثيل.

وهي طريقة الرسل، جاءوا بإثبات مفصل، ونفي مجمل وأعداؤهم جاءوا بنفي مفصل، وإثبات مجمل،فلو لم يكن الحق فيما بينه الرسول للناس، وأظهر لهم، بل كان الحق في نقيضه، للزم أن يكون عدم الرسول خيراً من وجوده، إذ كان وجوده لم يفدهم عند هؤلاء، علماً ولا هدى.

بل ذكر أقوالاً تدل على الباطل، وطلب منهم أن يتعلموا الهدى بعقولهم ونظرهم، ثم ينظروا فيما جاء به، فإما أن يتأولوه، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، وإما أن يعوضوه.

فذكرنا هذا ونحوه، مما يبين أن الهدى مأخوذ عن الرسول وأنه قد بين للأمة، ما يجب اعتقاده من أصول الدين، في الصفات وغيرها.

فكان الجواب خطاباً مع من يقر بنبوته، ويشهد له بأنه رسول الله فلم يذكر فيه دلائل النبوة. وذكر أن الشبهات العقلية،التي تعارض خبر الرسول باطلة وذكر فيذلك، ما هو موجود في هذا الجواب.ثم بعد ذلك حدثت أمور،أوجبت أن يبسط الكلام في هذا الباب(١)ويتكلم على حجج النفاة، ويبين بطلانها، ويتكلم على ما أثبتوه،من أنه يجب تقديم ما يزعمون أنه معقول،على ما علم بخبر الرسول، وبسط في ذلك من الكلام والقواعد، ما ليس هذا موضعه.

وتكلم مع الفلاسفة والملاحدة، الذين يقولون أن الرسل خاطبوا خطاباً،قصدوا به التخييل إلى العامة ما ينفعهم،لا أنهم قصدوا الإخبار بالحقائق.

وهؤلاء لم يكن وقت الجواب قصد مخاطبتهم،إذ كان هؤلاء في الحقيقة،مكذبين للرسل يقولون: أنهم كذبوا لما رأوه مصلحة، بل كان الخطاب مع من يقر بأن الرسول لا يقول إلا الحق، باطناً وظاهراً. ثم بعد هذا، طلب الكلام على تقرير أصول الدين، بإدلتها العقلية، وإن كانت مستفادة من تعليم الرسول،وذكر فيها ما ذكر من دلائل النبوة،في مصنف يتضمن شرح عقيدة صنفها شيخ النظار بمصر " شمس الدين الاصبهاني " (٢).

---

(١)يشير ابن تيمية إلى سبب تأليفه كتاب " درء تعارض العقل والنقل ".

(٢)الأصبهاني: هو أبو عبدالله محمد بن محمود بن عباد الاصبهاني، تولى القضاء في مصر، ثم استقر بها، ولد سنة ٦١٦هـ وتوفي في سنة ٦٨٨هـ، انظر " طبقات السبكي ".

فطلب مني شرحها، فشرحتها،وذكرت فيها من الدلائل العقلية،ما يعلم به أصول الدين(١).

وبعدها جاء كتاب من النصارى،يتضمن الإحتجاج لدينهم بالعقل والسمع، واحتجوا بما ذكروه من القرآن، فأوجب ذلك أن يُرد عليهم(٢)، ويُبين فساد ما احتجوا به من الأدلة السمعية من القرآن،ومن كلام الأنبياء المتقدمين وما احتجوا به من العقل، وأنهم مخالفون للأنبياء وللعقل.

خالفوا المسيح، ومن قبله، وحرفوا كلامهم، كما خالفوا العقل، وبين ما يحتجون به من نصوص الأنبياء، وأنها هي، وغيرها من نصوص الأنبياء التي عندهم، حجة عليهم، لا لهم وبين الجواب الصحيح لمن حرف دين المسيح.

وهم لم يطالبوا ببيان دلائل نبوة نبينا، لكن اقتضت المصلحة أن يذكر من هذا ما يناسبه، ويبسط الكلام في ذلك بسطاً أكثر من غيره.

وقلوب كثير من الناس، يجول فيها أمر النبوات، وما جاءت به الرسل وهم وإن أظهروا تصديقهم، والشهادة لهم، ففي قلوبهم مرض ونفاق.

إذ كان ما جعلوه أصولاً لدينهم، معارض لما جاءت به الأنبياء، وهم لم يتعلموا ما جاءت به الأنبياء، ولم يأخذوا عنهم الدلائل والأصول والبينات والبراهين.

وإذا وجب أن يؤخذ عن الأنبياء، ما أخبروا به من أصول الدين، ومن تصديق خبرهم، مع وجود ما يعارضه.

فلأن يؤخذ عنهم ما بينوا به تلك العقائد،من الآيات والبراهين، أولى وأحرى،فإنه بهذا يتبين ذاك.

وإلا فتصديق الخبر متوقف على دليل صحته، أو على صدق المخبر به وتصديقه، بدون أن يعلم أنه في نفسه حق، أو أن المخبر به صادق، قول بلا علم.

والرسول صلوات الله عليه وسلامه، قد أرسل بالبينات والهدى، بَين الأحكام الخبرية والطلبية،وأدلتها الدالة عليها.

بَين المسائل والوسائل، بَين الدين، ما يقال وما يعمل وبين أصوله التي بها يعلم أنه دين حق.

---

(١)يبين ابن تيمية سبب شرحه " للعقيدة الأصبهانية " وضمنها الكلام عن النبوة بالاستدلال عليها بدلائل عقلية.
(٢)يشير ابن تيمية إلى تأليفه كتاب " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ".

وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع، وبَين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ذكر هذا في سورة " التوبة والفتح والصف " [(١)].

والهدى:هو هدى الخلق إلى الحق،وتعريفهم ذلك، وإرشادهم إليه.

وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة، والآيات الدالة على أن هذا هدى، وإلا فمجرد خبر، لم يعلم أنه حق، ولم يقم دليل على أنه حق، ليس بهدي.

وهو سبحانه إذا ذكر الأنبياء، نبينا وغيره،ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات، وهي الأدلة والبراهين، البينة المعلومة،علماً يقينياً.

إذ كان كل دليل،لا بد أن ينتهي إلى مقدمات،بينة بنفسها،قد تسمى بديهيات،وقد تسمى ضروريات، وقد تسمى أوليات، وقد يقال: هي معلومة بأنفسها.

فالرسل صلوات الله عليهم،بعثوا بالآيات البينات.

وفي الصحيحين: عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما من نبي من الأنبياء،إلا وقد أوتي من الآيات، ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ".

وهو سبحانه إذا خاطب جنس الإنس، ذكر جنس الأنبياء، وأثبت جنس ما جاءوا به.

وإذا خاطب أهل الكتاب، المقرين بنبوة موسى، خاطبهم بإثبات نبي بعده كما قال في سورة " البقرة " في خطابه لبني إسرائيل، لما ذكر ما ذكره من أحوالهم مع موسى، وذكرهم بإنعامه عليهم، وبما فعلوه من السيئات، ومغفرته لها.

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ) [(٢)]

---

(١)قال تعالى (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (٣٣) سورة التوبة وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) (٢٨) سورة الفتح وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (٩) سورة الصف

(٢)سورة البقرة: أية رقم (٨٧)

ثم ذكر محمداً، فقال(وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ.بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (١)

فذكر سبحانه أنه أرسل المسيح إليهم بالبينات، بعد ما أرسل قبله الرسل وأنهم تارة يكذبون الرسل، وتارة يقتلونهم.

وذكر أنه أرسل عيسى بالبينات، لأنه جاء بنسخ بعض شرع التوراة بخلاف من قبله، ولهذا لم يذكر ذلك عنهم.

وقال في موسى: إنه أتاه الكتاب،لأنهم كانوا مقرين بنبوته ولكن حرفوا كتابه في المعنى، باتفاق الناس، وحرفوا اللفظ أحياناً، وفي بعض المواضع.

وهو تعالى قد ذكر في غير موضع،أنه أرسل موسى بالآيات البينات فقال لما ناجاه:(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ.إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ.وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (٢)

وقال في سورة القصص (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ.اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (٣)

وقال تعالى (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (٤)

وقد قال تعالى لما قص قصص الرسل:نوح،وهود،وصالح وشعيب،ونصره لهم،وإهلاك أعدائهم.

---

(١)سورة القرة: أية رقم (٨٩- ٩٠)
(٢)سورة النمل: أية رقم (١٠- ١٢)
(٣)سورة القصص: أية رقم (٣١-٣٢)
(٤)سورة الأعراف: أية رقم (١٣٣)

ثم ذكر الأنبياء عموماً، فقال(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)(١)

إلى قوله (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ.تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ.وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (٢)

فقد أخبر أن أهل القرى كلهم،الذين أهلكهم،جاءتهم رسلهم بالبينات ولكن شابه متأخروهم متقدميهم، فما كان هؤلاء ليؤمنوا بما كذب به أشباههم، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين،

وهذا كقوله تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)(٣)

قال تعالى (ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (٤) فبين سبحانه أنه بعث موسى بآياته.

وقال في أثناء القصة (إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ.حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (٥)

فأخبر أنه جاء ببينة من الله،أي بآية بينة من الله،بدليل من الله وبرهان، فهي آية منه، وعلامة منه على صدقي،واني رسول منه،فإن قوله (من ربكم) متعلق بالرسول،وبالآية.

يقال: فلان قد جاء بعلامة من فلان، فالعلامة منه،والرسول منه،والآية منه،كما قال تعالى(فذانك برهانان من ربك) فدل على أن كل واحد،من الرسول،ومن آيات الرسول،هو من الله تعالى.

قال له فرعون(إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)(٦)

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (٩٤)
(٢)سورة الأعراف: أية رقم (١٠٠-١٠٢)
(٣)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢)
(٤)سورة الأعراف: أية رقم (١٠٣)
(٥)سورة الأعراف: أية رقم (١٠٤-١٠٥)
(٦)سورة الأعراف: أية رقم (١٠٦)

وذكر القصة،ومعارضة السحرة له، الى أن قال (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ.وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ.قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ.قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ.وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) (١)

فذكر السحرة أنهم آمنوا بآيات ربهم لما جاءتهم،وهم من أعلم الناس بالسحر لما علموا أن هذه الآيات، آيات من الله كما قال موسى (قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ)(٢)

إلى قوله (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (٣) إلى قوله تعالى (فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ) (٤)

وليس المراد بالآيات هنا كتاباً منزلاً، فان موسى لما ذهب إلى فرعون لم تكن التوراة قد نزلت، وإنما أنزلت التوراة بعد أن غرق فرعون، وخلص ببني إسرائيل، فاحتاجوا إلى شريعة يعملون بها.

قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)(٥)

ولكن تكذيبهم بآياته:إنكارهم أن تكون آية من الله.

وقولهم:إنها سحر، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله (وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ) (٦)

(وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ) (٧)

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (١١٧-١٢٦)
(٢)سورة الأعراف: أية رقم (١٠٥)
(٣)سورة الأعراف: أية رقم (١٣٣)
(٤)سورة الأعراف: أية رقم (١٣٦)
(٥)سورة القصص: أية رقم (٤٣)
(٦)سورة الأعراف: أية رقم (١٣٢)
(٧)سورة الأعراف: أية رقم (١٣٦)

لم يذكروها، ويتأملوا ما دلت عليه من صدق موسى، وانه مرسل من الله فالتكذيب: ضد التصديق.

والغفلة عنها: ضد النظر فيها.

ولهذا قيل:النظر تجريد العقل عن الغفلات.

وقيل:هو تحديق العقل نحو المرئي.

والأول:هو النظر الطلبي، وهو طلب ما يدله على الحق.

والثاني:هو النظر الاستدلالي، وهو النظر في الدليل الذي يوصله إلى الحق وهذا الثاني، هو الذي يوجب العلم.

فذمهم على الغفلة عن آياته، يتضمن النوعين: النظر فيها، والتأمل لها والتذكر لها ضد الغفلة عنها.

وهي آيات معينة، فإذا جرد العقل عن الغفلة عنها، وصدقه للنظر فيها حصل له العلم بها.

وقد يحصل العلم بها،ولكن يمتنع عن إتباعها لهواه،كما قال الله عن قوم فرعون (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (١)

فإن الحق إذا ظهر،صار معلوماً بالضرورة،والآيات والدلائل الظاهرة تدل على لوازمها بالضرورة.

لكن إتباع الهوى، يصد عن التصديق بها، وإتباعا ما أوجبه العلم بها.

وهذه حال عامة المكذبين، مثل:مكذبي محمد، وموسى، وغيرهما (على جميع رسل الله أفضل الصلاة والسلام)فإنهم علموا صدقهما، علماً يقينياً، لما ظهر من آيات الصدق ودلائله الكثيرة، لكن إتباع الهوى صد.

قال تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ) (٢)

---

(١)سورة النمل: أية رقم (١٤)

(٢)سورة الأنعام: أية رقم (٣٣)

وقال تعالى عن قوم فرعون (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (١)

وقال موسى لفرعون (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا) (٢)

ولهذا قال (وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ) (٣)

فعلموا أنها حق، وغفلوا عنها، كما يغفل الإنسان عما يعلمه.

ومنه الغفلة عن ذكر الله تعالى، قال تعالى (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (٤)

وقال تعالى (وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ) (٥)

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ.أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)(٦)

فذكر الذين هم عن آياته غافلون هنا، كما ذكرهم هناك.

وهناك وصفهم بالتكذيب بها، مع الغفلة عنها.

وضد الغفلة: التذكر.

والتذكر لآياته سبحانه، يوجب العلم بها، وحضورها في القلب، وهو موجب لإتباعها، ألا أن يمنعه هوى.

---

(١)سورة النمل: أية رقم (١٤)
(٢)سورة الإسراء: أية رقم (١٠٢)
(٣)سورة الأعراف: أية رقم (١٣٦)
(٤)سورة الكهف: أية رقم (٢٨)
(٥)سورة الأعراف: أية رقم (٢٠٥)
(٦)سورة يونس: أية رقم (٧-٨)

قال تعالى (أن شَرَّ الدَّوَابَّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ.وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)(١)

فهو سبحانه لو علم فيهم خيراً، وهو قصد الحق، لأفهمهم، لكنهم لا خير فيهم، فلو أفهمهم لتولوا وهم معرضون.

وقال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ.وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (٢)

وقد ذكر أن الآيات، التي هي دلائل النبوة منه، في غير موضع غير ما تقدم كقوله تعالى (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى.قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى.قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى.قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى.الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى.كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَىمِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى. وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى.قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى.فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُولَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى)

إلى قوله عن السحرة:(قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)(٣)

وقال تعالى (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (٤)

---

(١)سورة الأنفال: أية رقم (٢٢-٢٣)

(٢)سورة الزخرف: أية رقم (٤٦-٤٨)

(٣)سورة طه: أية رقم (٤٧-٧٢)

(٤)سورة آل عمران: أية رقم (٤٩)

وقال تعالى (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)(١)

فالآيات التي هي دلائل النبوة وبراهينها، هي آيات من الله وعلامات منه أنه أرسل الرسول.

وكما أن الآيات، التي هي كلامه، تتضمن إخباره لعباده وأمره لهم، ففيها الإعلام والإلزام.

فكذلك دلائل النبوة، هي آيات منه، تتضمن إخباره لعباده بأن هذا رسوله، وأمره لهم بطاعته، ففيها الإعلام والإلزام.

وكما أن آياته القولية، زعم المكذبون أنها ليست كلامه، ولا منه، بل هي من قول البشر.

وزعموا أن الرسول افتراها، أو من معه، أو تعلمها من غيره.

فكذلك الآيات الفعلية، زعم المكذبون أنها ليست آية منه وعلامة ودلالة، منه، على أن الرسول رسوله، بل مما يفعله الرسول فيكذب.

وهذه من فعل المخلوقين، لكنها عجيبة، فهي سحرٌ سَحر بها الناس، فلم يكن من المكذبين من قال: إنها من الله ولكن لم يخلقها لنصدقك بها، بل خلقها لا لشيء، أو خلقها.

وإن كنت كاذباً، فإنه قد يخلق مثل هذه على أيدي الكذابين ليضل بها الناس.

فإن هذا، وإن كان يقال: إنه قبيح، فإنه لا يقبح منه شيء.

كما أنه لم يكن في المكذبين من قال: إن الكلام كلام الله، لكنه كذب إذ الكذب وإن كان قبيحاً من المخلوق، فالخالق لا يقبح منه شيء.

وهذا لأنه من المعلوم بالفطرة الضرورية، لجميع بني آدم، أن الله لا يكذب ولا يفعل القبائح، فلا يؤيد الكذاب بآيته ليضل بها الناس.

لكن قالوا: ليست آية من الله، بل هي سحر من عندك.

وهم وإن كانوا قد يعلمون أن الله خالق كل شيء، ففرق بين ما يفعله البشر ويتوصلون إليه بالاكتساب، وبين مالا قدرة لهم على التوصل إليه بسبب من الأسباب.

وفرق بين ما قد علموا أنه يخلقه لغير تصديق الرسل، كالسحر، فإنه لم يزل معروفاً في بني آدم.

---

(١)سورة طه: أية رقم (١٣٣)

فقد علموا انه لا يخلقه آية وعلامة لنبي، إذ كان موجوداً لغير الأنبياء معتاداً منهم، وإن كان عجيباً خارجاً عن العادة عند من لم يعرفه، بل كان المكذبون يطالبون الرسل بالآيات، كقول فرعون (فأت بآية إن كنت من الصادقين)(١)

وقول قوم صالح له (إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)(٢)

وكانت الأنبياء تأتي بالآيات، وهي آيات بينات فيكذبون بها، كما يكذب المعاند بالحق الظاهر المعلوم، كما قال فرعون: إنه ساحر.

ولما غلب السحرة، وآمنوا واعترفوا، بأن هذه آية من الله قال لهم فرعون (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى) (٣)

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (٤)

وهذا كذب ظاهر، فإن موسى جاء من الشام، ولم يجتمع بالسحرة، إنما فرعون جمعهم، ولم يكن دين موسى دين السحرة، ولا مقصودة مقصودهم، بل هم، وهو في غاية التعادي والتباين، وكذلك سائر السحرة والكهنة مع الأنبياء، من أعظم الناس ذماً لهم وأمراً بقتلهم، مع تصديق الأنبياء بعضهم ببعض، وإيجاب بعضهم الإيمان ببعض، وهم يأمرون بقتل من يكذب نبياً، ويأمرون بقتل السحرة، ومن آمن بهم، والسحرة يذم بعضهم بعضاً، والأنبياء يصدق بعضهم بعضاً.

وهؤلاء (أى الأنبياء) يأمرون بعبادة الله وحده، والصدق والعدل ويتبرءون من الشرك وأهله.

وهؤلاء (أى السحرة والكهان) يحبون أهل الشرك ويوالونهم، ويبغضون أهل التوحيد والعدل.

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (١٠٦)
(٢)سورة الشعراء: أية رقم (١٥٣-١٥٤)
(٣)سورة طه: أية رقم (٧١)
(٤)سورة الأعراف: أية رقم (١٢٣)

فهذان جنسان متعاديان، كتعادي الملائكة والشياطين، كما قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ) (١)

فمن جعل النبي ساحراً، أو مجنوناً، هو بمنزلة من جعل الساحر أو المجنون نبياً.

وهذا من أعظم الفرية، والتسوية بين الأضداد المختلفة.

وهو شر من قول من يجعل العاقل مجنوناً، والمجنون عاقلاً، أو يجعل الجاهل عالماً، والعالم جاهلاً، فإن الفرق بين النبي، وبين الساحر، والمجنون، أعظم من الفرق بين العاقل والمجنون، والعالم والجاهل.

وموسى صلوات الله عليه، أمر بتصديق من يأتي بعده من الأنبياء الصادقين كما أمر بتكذيب الكذابين.

وأما السحرة: فإنه أمر بقتلهم.

وفي التوراة: "سأقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبياً مثلك أجعل كلامي على فمه، كلكم يسمعون ".

وهذا يقتضي: طاعة من يقوم بعده من الأنبياء.

ثم من الناس من يُعين هذا:

فاليهود يقولون: هو يوشع.

والنصارى يقولون: هو المسيح.

وبعض المسلمين يقولون: هو محمد صلى الله عليه وسلم، يحتجون على ذلك بحجج كثيرة، قد ذُكرت في غير هذا الموضع.

ومنهم من يقول: بل هذا اسم جنس، وهو عام في كل نبي يأتي بعده لئلا يكذبوه، كما فعلت اليهود، وأنكروا النسخ.

وهذا القول أقرب، فيدخل في هذا: المسيح، ومحمد، ومن قبلهما من أنبياء بني إسرائيل.

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (١١٢-١١٣)

فان المقصود: أمرهم بتصديق الأنبياء وطاعتهم، وأن الله سبحانه ينزل على الأنبياء كلامه.

فالذي يقولونه: هو كلام الله ما سمعوا منه، وبسط هذا له موضع آخر.

وقد بسط القول: في أن الناس يعلمون بالضرورة، أن الآيات التي يأتي بها الأنبياء، آيات من الله، وعلامة أعلم بها عباده، أنه أرسلهم وأمرهم بطاعتهم.

والذين كذبوا بها، كانوا يقولون: ليست من الله، بل هي سحر، أو كهانة، أو نحو ذلك، لا يقرون بأنها آية من الله.

ويقولون مع ذلك: قد يخلقها الله لغير التصديق، أو يخلقها ليضل بها الخلق أو نحو ذلك، فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن الرسول بين للناس، الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها.

كما قد ذكر سبحانه هذا في مواضع كقوله(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)(١)

وقوله (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (٢)

ومن ذلك قوله تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ) (٣)

وقد وصف الرسول بذلك في مواضع، فذكر هذا في " البقرة " في دعوة إبراهيم.

وفي قوله تعالى (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ) (٤)

---

(١)سورة البقرة: أية رقم (١٥٩)
(٢)سورة البقرة: أية رقم (١٨٥)
(٣)سورة آل عمران: أية رقم (١٦٤)
(٤)سورة البقرة: أية رقم (١٥١)

وفي قوله (وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)(١)

وهنا لم يذكر (يتلو عليهم آياته ويزكيهم)لحكمة تختص بذلك.

وذكر هذا في " آل عمران " في قوله (لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)(٢)

وقد قال تعالى (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا)(٣)

وهذا يشبه الموضع الثالث في " البقرة ".

فأخبر في غير موضع عن الرسول أنه:(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)(٤)

فالتلاوة والتزكية، عامة لجميع المؤمنين.

فتلاوة الآيات يحصل بها العلم، فإن الآيات، هي العلامات والدلالات فإذا سمعوها دلتهم على المطلوب، من تصديق الرسول فيما أخبر، والإقرار بوجوب طاعته.

وأما التزكية: فهي تحصل بطاعته، فيما يأمرهم به، من عبادة الله وحده وطاعته.

فالتزكية: تكون بطاعة أمرة، كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم.

وسميت آيات القرآن: آيات.

وقيل: إنها آيات الله، كقوله (تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)(٥)

لأنها علامات، ودلالات على الله، وعلى ما أراد.

فهي تدل على ما أخبر به، وعلى ما أمر به، ونهى عنه.

---

(١)سورة البقرة: أية رقم (٢٣١)
(٢)سورة آل عمران: أية رقم (١٦٤)
(٣)سورة الأحزاب: أية رقم (٣٤)
(٤)سورة آل عمران: أية رقم (١٦٤)
(٥)سورة البقرة: أية رقم (٢٥٢)

وتدل أيضاً: على أن الرسول صادق، إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحداهم بذلك، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وأيضاً: فهي نفسها فيها من بينات الأدلة والبراهين ما يبين الحق، فهي آيات من وجوه متعددة.

ثم قال (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)(١)

وهذا لمن يعلم ذلك منهم، وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة فالكتاب: هو الكلام المنزل، الذي يكتب.

والحكمة: هي السنة، وهي معرفة الدين، والعمل به، وقد قال تعالى (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ)(٢)

وقال تعالى (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا) (٣)

ففرق بين الآيات الدالة على العلم، التي يعلم بالعقل أنها دلائل للرب، وبين النذر، وهو الإخبار عن المخوف كإخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب، فهذا يعلم بالخبر والنذر.

ولهذا قال تعالى (مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)(٤)

وأما الآيات: فتعلم دلالتها بالعقل، والأنبياء جاءوا بالآيات والنذر.

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ.بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)(٥)

وقال تعالى(فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)(٦) ومثل هذا كثير، يذكر أن جميع الأنبياء جاءوا بالآيات، التي تعلم دلالتها بالعقل.

---

(١)سورة آل عمران: أية رقم (١٦٤)
(٢)سورة يونس: أية رقم (١٠١)
(٣)سورة الكهف: أية رقم (٥٦)
(٤)سورة الإسراء: أية رقم (١٥)
(٥)سورة النحل: أية رقم (٤٣-٤٤)
(٦)سورة آل عمران: أية رقم (١٨٤)

ولما كان كثير من الناس مقصرين، فيما جاء به الرسول، قد أخرجوا ما تعلم دلالته بالعقل، عن مسمى الشرع، تنازع الناس في معرفة الله وتوحيده، وأصول الدين:

هل يجب ويحصل بالشرع؟

أو يجب بالشرع، ويحصل بالعقل؟

أو يجب ويحصل بالعقل؟

على ثلاثة أقوال، مشهورة لأصحاب الإمام أحمد، وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة:-

فطائفة يقولون: يجب بالشرع، ويحصل به، وهو قول السالمية وغيرهم مثل: الشيخ أبي الفرج المقدسي، وهذا هو الذي حكاه عن أهل السنة من أصحاب أحمد وغيرهم.

وكذلك من شابههم، مثل: ابن درباس، وابن شكر، وغيرهما من أصحاب الشافعي، وهو المشهور عن أهل الحديث والفقه، الذين يذمون الكلام، وهذا مما وقع فيه النزاع بين صدقة بن الحسين الحنبلي المتكلم، وبين طائفة من أصحاب أحمد.

وكذلك بين أبي الفرج بن الجوزي، وطائفة منهم، أولئك يقولون الوجوب والحصول بالشرع، وهؤلاء يقولون الحصول بالعقل، والوجوب بالشرع.

وقد ذكر الآمدي ثلاثة أقوال في طرق العلم:

قيل: بالعقل فقط، والسمع لا يحصل به، كقول الرازي.

وقيل: بالسمع فقط، وهو الكتاب والسنة.

وقيل: بكل منهما، ورجح هذا، وهو الصحيح.

والقول الثاني: أنها لا تجب إلا بالشرع، لكن يحصل بالعقل، وهو قول الأشعري وأصحابه، ومن وافقهم، كالقاضي أبي يعلى وابن الزاغوني، وابن عقيل، وغيرهم.

والقول الثالث: أنها تحصل بالعقل، وتجب به، وهو قول من يوجب بالعقل، كالمعتزلة، والكرامية، وغيرهم من أتباع الأئمة كأبي الحسن الآمدي، وأبي الخطاب، وغيرهم.

وهو قول طائفة من المالكية، والشافعية، وعليه أكثر الحنفية، ونقلوه عن أبي حنيفة نفسه.

وقد صرح هؤلاء، قبل المعتزلة، وقبل أبي بكر الرازي، وأبي الخطاب وغيرهم: أن من لم يأته رسول، يستحق العقوبة في الآخرة، لمخالفته موجب العقل.

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع، أن أعدل الأقوال: أن الأفعال مشتملة على أوصاف، تقتضي حسنها ووجوبها، وتقتضي قبحها وتحريمها وأن ذلك قد يعلم بالعقل.

لكن الله لا يعذب أحداً إلا بعد بلوغ الرسالة، كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) [(١)] ولم يفرق سبحانه بين نوع ونوع.

وذكرنا: أن هذه الآية، يحتج بها الأشعري وأصحابه، ومن وافقهم كالقاضي أبي يعلى وأتباعه، وهم يجوزون أن الله يعذب في الآخرة بلا ذنب، حتى قالوا: يعذب أطفال الآخرة، فاحتجوا بها على المعتزلة، والآية حجة على الطائفتين، كما قد بسط في غير هذا الموضع

---

(١)سورة الإسراء: أية رقم (١٥)

فصل

الحكمة من جعل الرسول من البشر

وقد ذكر الله تعالى في القرآن، الحجة على من أنكر قدرته، وعلى من أنكر حكمته.

فأول ما أنزل الله تعالى (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ.الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)(١)

فذكر أنه الأكرم، وهو أبلغ من الكريم، وهو المحسن غاية الإحسان.

ومن كرمه أنه علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه، وأن يكتب ذلك بالقلم.

فذكر التعليم بالقلم، يتناول: علم العبارة، والنطق، وعبارة المعاني، والعلوم فإذا كان قد علمه هذه العلوم، فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يخبره به؟.

وبيان ذلك، أنه قال في أول السورة (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ)(٢)

ومعلوم أن من رأى العلقة قطعة من دم، فقيل له: هذه العلقة يصير منها إنسان بعلم كذا وكذا، لكان يتعجب من هذا غاية التعجب، وينكره أعظم الإنكار.

ومعلوم أن نقل الإنسان من كونه علقة، إلى أن يصير أنسانا عالماً قادراً كاتباً، أعظم من جعل مثل هذا الإنسان يعلم ما أمر الله به، وما أخبر به.

فمن قدر على أن ينقله من الصغر، إلى أن يجعله عالماً، قارئاً، كاتباً كان أن يقدر على جعله عالماً بما أمر به، وبما أخبر به أولى وأحرى.

وهذا كما استدل على قدرته، على إعادة الخلق، بقدرته على الابتداء.

وقد أخبر الله تعالى عن الكفار، أنهم تعجبوا من التوحيد، ومن النبوة ومن المعاد.

فقال تعالى (ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ.بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ. وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)(٣)

---

(١)سورة العلق: أية رقم (١-٥)

(٢)سورة العلق: أية رقم (١-٢)

(٣)سورة ص: أية رقم (١-٥)

فذكر تعجبهم من التوحيد والنبوة.

وقال تعالى (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ) (١)

وهذا أيضاً تعجب، من أن أرسل إليهم رجل منهم.

وقوله (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ)(٢)دل على أنه منذر لجنس الناس، وأنه من جنس الناس، لا يختص به العرب دون غيرهم، وان كان أول ما أرسل إليهم، وبلسانهم.

وقال تعالى(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ. أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ) (٣)

وقال تعالى (وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ)(٤)

وقال تعالى (بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ. وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ.وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ)(٥)

فالرسول كان يعجب من تكذيبهم، لما جاءهم به من آيات الأنبياء وهم يعجبون مما جاء به، لكونه خارجاً عما اعتادوه من النظائر،فإنهم لم يعرفوا قبل مجيئه، لا توحيدا، ولا نبوة، ولا معادا.

قال تعالى (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)(٦)

وأما حكمته في إرسال بشر، فقد ذكر أنه من جنسهم، وأنه بلسانهم، فهو أتم في الحكمة والرحمة، وذكر أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملك، وأنه لو نزل ملكاً، لكان يجعله في صورة بشر،

(١)سورة يونس: أية رقم (٢)
(٢)سورة يونس: أية رقم (٢)
(٣)سورة ق: أية رقم (١-٣)
(٤)سورة الرعد: أية رقم (٥)
(٥)سورة الصافات: أية رقم (١٢-١٤)
(٦)سورة الأنعام: أية رقم (١٥٠)

ليأخذوا عنه، ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة، إلا في صورة الآدميين، كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي، وكما أتى مرة في صورة أعرابي، ولما جاءوا إبراهيم وامرأته حاضرة، كانوا في صورة بشر، وبشروها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

قال تعالى (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً .قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً)(١)

وأما قدرته على تعريف الخلق، بأنه نبيه، فكما تقدم، فإنه إذا كان قادراً على أن يهدي الإنسان، الذي كان علقة ومضغة، إلى أنواع العلوم بأنواع من الطرق، انعاماً عليه، وفي ذلك من بيان قدرته، وحكمته ورحمته ما فيه.

فكيف لا يقدر أن يعرفه صدق من أرسله إليه؟

وهذا أعظم النعم عليه، والإحسان إليه، والتعريف بهذا، دون تعريف الإنسان ما عرفه به من أنواع العلوم.

فإنه إذا كان هداهم، إلى أن يعلم بعضهم، صدق رسول من أرسله إليه بشر مثله، بعلامات يأتي بها الرسول.

وان كان لم تتقدم مواطأة وموافقة، بين المرسل والمرسل إليهم، فمن هدى عباده، إلى أن يرسلوا رسولاً بعلامة، ويعلم المرسل إليه أنها علامة تدل على صدقه قطعاً.

فكيف لا يقدر هو أن يرسل رسولاً، ويجعل معه علامات يعرف بها عباده أنه قد أرسله؟

وهذا كمن جعل غيره: قديراً، عليماً، حكيماً، فهو أولى أن يكون قديراً عليماً حكيماً.

فمن جعل الناس، يعلمون صدق رسول يرسله بعض خلقه، بعلامات يعلم بها المرسل صدق رسوله، فمن هدى العباد الى هذا، فهو أقدر على أن يعلمهم صدق رسوله، بعلامات يعرفون بها صدقه، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم بينهم وبينه مواطأة.

---

(١)سورة الإسراء: أية رقم (٩٤-٩٥)

فصل

دلالة المعجزة على صدق الرسول

وللناس طرق في دلالة المعجزة على صدق الرسول:

- طريق الحكمة.
- وطريق القدرة.
- وطريق العلم والضرورة.
- وطريق سنته وعادته، التي بها يعرف أيضاً ما يفعل، وهو جنس المواطأة.
- وطريق العدل.
- وطريق الرحمة.

وكلها طرق صحيحة، وكلما كان الناس إلى الشيء أحوج، كان الرب به أجود.

وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج، كان به أجود، فإنه سبحانه (الْأَكْرَمُ.الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[1] وهو الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فكيف لا يقدر أن يهدي عباده، إلى أن يعلموا أن هذا رسوله، وأن ما جاء به من الآيات، أنة من الله، وهي شهادة من الله له بصدقه؟

وكيف تقتضي حكمته أن يسوي بين الصادق والكاذب؟ فيؤيد الكاذب من آيات الصدق، بمثل ما يؤيد به الصادق، حتى لا يعرف هذا من هذا.

وأن يرسل رسولاً يأمر الخلق بالإيمان به وطاعته، ولا يجعل لهم طريقاً إلى معرفة صدقه.

وهذا كتكليفهم بما لا يقدرون عليه، ومالا يقدرون على أن يعلموه وهذا ممتنع في صفة الرب، وهو منزه عنه سبحانه، فإنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وقد علم من سنته وعادته، أنه لا يؤيد الكذاب، بمثل ما أيد به الصادق قط، بل لابد أن يفضحه ولا ينصره، بل لا بد أن يهلكه.

---

(١)سورة العلق: أية رقم (٣-٥)

وإذا نصر ملكا ظالماً مسلطاً، فهو لم يدع النبوة، ولا كذب عليه بل هو ظالم سلطهُ على ظالم، كما قال تعالى (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) (١)

بخلاف من قال: أنه أرسله، فهذا لا يؤيده تأييداً مستمراً، إلا مع الصدق، لكنه قد يمهله مدة، ثم يهلكه، كما فعل بمن كذب الرسل (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا. وَأَكِيدُ كَيْدًا. فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)(٢)ولفظ النبي: كلفظ الرسول هو في الأصل.

إنما قيل: مضافاً إلى الله.

فيقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم عرف باللام، فكانت اللام تعاقب الإضافة، كقوله (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا.فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)(٣)

وقوله (لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٤)

وكذلك اسم النبي، يقال: نبي الله، كما قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(٥)وقيل لهم (لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا)(٦) فتقولون: يا محمد، بل قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله.

ورسول: فعول، بمعنى: مفعول.

أي: مرسل، فرسول الله، الذي أرسله الله.

فكذلك نبي الله، هو بمعنى: مفعول، أي منبأ الله، الذي نبأه الله.

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (١٢٩)
(٢)سورة الطارق: أية رقم (١٥-١٧)
(٣)سورة المزمل: أية رقم (١٥-١٦)
(٤)سورة النور: أية رقم (٦٣)
(٥)سورة البقرة: أية رقم (٩١)
(٦)سورة النور: أية رقم (٦٣)

وهذا أجود من أن يقال: إنه بمعنى فاعل، أي: منبئ.

فإنه إذا نبأه الله، فهو نبي الله، سواء أنبأ بذلك غيره، أو لم ينبئه فالذي صار به النبي نبياً، أن ينبئه الله.

وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره، فإنه إذا كان الذي ينبئه الله كما أن الرسول هو الذي يرسله الله، فما نبأ الله حق وصدق، ليس فيه كذب، لا خطأ ولا عمدا.

وما يوحيه الشيطان، هو من إيحائه، ليس من إنباء الله.

فالذي اصطفاه الله لإنبائه، وجعله نبياً له، كالذي اصطفاه لرسالته وجعله رسولاً له.

فكما أن رسول الله لا يكون رسولاً لغيره، فلا يقبل أمر غير الله فكذلك نبي الله، لا يكون نبيا لغير الله.

فلا يقبل أنباء أحد إلا أنباء الله، وإذا أخبر بما أنبأ الله وجب الإيمان به فإنه صادق مصدوق، ليس في شيء مما أنبأه الله به شيء من وحي الشيطان.

وهذا بخلاف غير النبي، فإنه وإن كان قد يلهم، ويحدث، ويوحى إليه أشياء من الله، ويكون حقاً، فقد يلقي إليه الشيطان أشياء ويشتبه هذا بهذا، فإنه ليس نبياً لله.

كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول، وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله، فقد يغلط، ويأمر بغير طاعة الله، بخلاف الرسول المبلغ عن الله، فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله.

قال تعالى (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) [(١)]

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا)[(٢)]

فنبي الله هو الذي ينبئه الله، لا غيره، ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون، فقال تعالى (قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)[(٣)]

---

(١)سورة النساء: أية رقم (٨٠)

(٢)سورة النساء: أية رقم (٦٤)

(٣)سورة البقرة: أية رقم (١٣٦)

وقال تعالى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(١)

وقال تعالى (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (٢)

وليس كل ما أوحي إليه الوحي العام يكون نبياً، فإنه قد يوحي الى غير الناس قال تعالى (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)(٣)

وقال تعالى (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)(٤)

وقال تعالى عن يوسف وهو صغير (فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ)(٥)

وقال تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)(٦)

وقال تعالى (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)(٧)

وقوله تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)(٨)

---

(١)سورة البقرة: أية رقم (٢٨٥)
(٢)سورة البقرة: أية رقم (١٧٧)
(٣)سورة النحل: أية رقم (٦٨)
(٤)سورة فصلت: أية رقم (١٢)
(٥)سورة يوسف: أية رقم (١٥)
(٦)سورة القصص: أية رقم (٧)
(٧)سورة المائدة: أية رقم (١١١)
(٨)سورة الشورى: أية رقم (٥١)

يتناول وحي الأنبياء، وغيرهم، كالمحدثين الملهمين، كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فان يكن في أمتي أحد فعمر منهم " [١].

وقال عبادة بن الصامت τ: رؤيا المؤمن، كلام يكلم به الرب عبده في منامه، فهؤلاء المحدثون الملهمون المخاطبون، يوحى إليهم هذا الحديث، الذي هو لهم خطاب وإلهام.

وليسوا بأنبياء معصومين مصدقين في كل ما يقع لهم، فإنه قد يوسوس لهم الشيطان بأشياء، لا تكون من إيحاء الرب، بل من إيحاء الشيطان، وإنما يحصل الفرقان بما جاءت به الأنبياء، فهم الذين يفرقون بين وحي الرحمن، ووحي الشيطان.

فإن الشياطين أعداؤهم، وهم يوحون بخلاف وحي الأنبياء، قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)[٢]

وقال تعالى (وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)[٣]

وقد غلط في النبوة طوائف، غير الذين كذبوا بها، إما ظاهراً وباطناً وإما باطناً، كالمنافق المحض.

بل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول، وإلى من قبله وهم خلق كثير، فيهم شعبة نفاق، وان لم يكونوا مكذبين للرسول من كل وجه.

بل قد يعظمونه بقلوبهم، ويعتقدون وجوب طاعته في أمور دون أمور وأبعد هؤلاء عن النبوة: المتفلسفة... والباطنية.... والملاحدة فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة، إلا من جهة القدر المشترك، بين بني آدم، وهو المنام.

---

(١) حديث شريف أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر بن الخطاب τ وفضائله.

(٢)سورة الأنعام: أية رقم (١١٢)

(٣)سورة الأنعام: أية رقم (١٢١)

وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي.

وابن سينا عظمها أكثر من ذلك، فجعل للنبي ثلاث خصائص:-

أحدها: أن ينال العلم بلا تعلم، ويسميها القوة القدسية، وهي القوة الحدسية عنده.

والثاني: أن يتخيل في نفسه ما يعلمه، فيرى في نفسه صوراً نورانية ويسمع في نفسه أصواتاً، كما يرى النائم في نومه صوراً تكلمه ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه، لا في الخارج.

فهكذا عند هؤلاء، جميع ما يختص به النبي، مما يراه ويسمعه دون الحاضرين، إنما يراه في نفسه، ويسمعه في نفسه، وكذلك الممرور عندهم.

والثالث: أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولي العالم، بإحداث أمور غريبة، وهي عندهم آيات الأنبياء.

وعندهم: ليس في العالم حادث، إلا عن قوة نفسانية، أو ملكية أو طبعية، كالنفس الفلكية، والإنسانية، والأشكال الفلكية والطبائع التي للعناصر الأربعة، والمولدات، لا يقرون بأن فوق الفلك نفسه شيء يفعل، ويحدث شيئاً.

فلا يتكلم، ولا يتحرك بوجه من الوجوه، لا ملك، ولا غير ملك فضلاً عن رب العالم.

والعقول التي يثبتونها عندهم، ليس فيها تحول من حال إلى حال البتة لا بإرادة، ولا قول، ولا عمل، ولا غير ذلك، وكذلك المبدأ الأول وهؤلاء: عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء، إنما هو من فيض العقل الفعال.

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء، أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء، فيضعونها على معانيهم، ويسمون تلك المعاني: الألفاظ المنقولة عن الأنبياء.

ثم يتكلمون، ويصفون الكتب، بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء، ومرادهم، أنهم عنوا بها ما عنته الأنبياء، وضل بذلك طوائف.

وهذا موجود في كلام ابن سينا، ومن أخذ عنه.

وقد ذكر الغزالي ذلك عنهم، تعريفاً بمذهبهم، وربما حذر عنه ووقع في كلامه طائفة من هذا، في الكتب المضنون بها على غير أهلها وفي غير ذلك.

حتى في كتابه "الإحياء" يقول: الملك، والملكوت، والجبروت ومقصوده: الجسم، والنفس، والعقل الذي أثبتته الفلاسفة.

ويذكر اللوح المحفوظ، ومراده به:النفس الفلكية،إلى غير ذلك مما قد بسط في غير هذا الموضع.

وهو في "التهافت" وغيره: يكفرهم.

وفي " المضنون به " [١]: يذكر ما هو حقيقة مذهبهم، حتى يذكر في النبوات عين ما قالوه، وكذلك في الإلهيات.

وهذه الصفات الثلاث، التي جعلوها خاصة الأنبياء، توجد لعموم الناس، بل توجد لكثير من الكفار، من المشركين وأهل الكتاب.

فإنه قد يكون لأحدهم من العلم والعبادة، ما يتميز به على غيره من الكفار، ويحصل له بذلك حدس وفراسة، يكون أفضل من غيره.

وأما التخييل في نفسه: فهذا حاصل لجميع الناس، الذين يرون في مناماتهم ما يرون.

لكن هو يقول [٢]: أن خاصة النبي، أن يحصل له في اليقظة ما حصل لغيره في المنام.

وهذا موجود لكثير من الناس، قد يحصل له في اليقظة، ما يحصل لغيره في المنام.

ويكفيك أنهم [٣]جعلوا مثل هذا يحصل للممرور وللساحر.

ولكن قالوا:– الساحر: قصده فاسد، والممرور: ناقص العقل.

---

(١)ويقصد به كتاب الإمام الغزالي " المضنون به على غير أهله " وأنظر من كتب الغزالي:"مشكاة الأنوار" و "ومعارج القدس" وأشهرها:تهافت الفلاسفة،وإحياء علوم الدين،والمنقذ من الضلال.

(٢)أي الإمام الغزالي.

(٣)يشير هنا إلى الفلاسفة.

فجعلوا ما يحصل للأنبياء، من جنس ما يحصل للمجانين والسحرة وهذا قول الكفار في الأنبياء، كما قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ.أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) (١)

وهؤلاء عندهم ما يحصل للنبي من المكاشفة والخطاب، هو من جنس ما يحصل للساحر والمجنون، لكن الفرق بينه وبين الساحر: أنه يأمر بالخير، وذاك يأمر بالشر والمجنون ماله عقل.

وهذا القدر الذي فرقوا به، موجود في عامة الناس، فلم يكن عندهم للأنبياء مزية على السحرة والمجانين، إلا ما يشاركهم فيه عموم المؤمنين. وكذلك ما أثبتوه من القوة الفعالة المتصرفة، هي عندهم تحصل للساحر وغيره، وذلك أنهم لا يعرفون الجن والشياطين.

وقد أخبروا بأمور عجيبة في العالم، فأحالوا ذلك على قوة نفس الإنسان.

فما يأتي به الأنبياء من الآيات، والسحرة والكهان، وما يخبر به المصروع والممرور، هو عندهم كله من قوة نفس الإنسان.

فالخبر بالغيب: هو لاتصالها بالنفس الفلكية.

ويسمونها: اللوح المحفوظ.

والتصرف: هو بالقوة النفسانية.

وهذا حذق ابن سينا وتصرفه، لما أخبر بأمور في العالم غريبة،لم يمكنه التكذيب بها، فأراد إخراجها على أصولهم، وصرح بذلك في إشارته، وقال: هذه الأمور لم نثبتها ابتداء، بل لما تحققنا أن في العالم أموراً من هذا الجنس، أردنا أن نبين أسبابها.

وأما أرسطو وأتباعه، فلم يعرفوا هذه الأمور الغريبة، ولم يتكلموا عليها، ولا على آيات الأنبياء، ولكن كان السحر موجوداً فيهم.

وهؤلاء من أبعد الأمم، عن العلوم الكلية والإلهية، فان حدوث هذه الغرائب من الجن، واقترانهم بالسحرة والكهان، مما قد عرفة عامة الأمم، وذكروه في كتبهم، غير العرب، مثل: الهند، والترك وغيرهم من المشركين، وعباد الأصنام، وأصحاب الطلاسم والعزائم وعرفوا أن كثيرا من هذه الخوارق، هو من الجن والشياطين.

(١)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢-٥٣)

وهؤلاء الجهال، لم يعرفوا ذلك، ولهذا كان من أصلهم أن النبوة مكتسبة، وكان السهر وردي المقتول، يطلب أن يكون نبياً، وكذلك ابن سبعين، وغيره.

والنبوة الحق، هي إنباء الله لعبده، ونبي الله: من كان الله هو الذي ينبئه، ووحيه من الله.

وهؤلاء: وحيهم من الشياطين، فهم من جنس المتنبئين الكذابين كمسيلمة الكذاب وأمثاله.

بل أولئك أحذق منهم، فإنهم كانت تأتيهم أرواح، فتكلمهم وتخبرهم بأمور غائبة، وهي موجودة في الخارج، لا في أنفسهم.

وهؤلاء لا يعرفون مثل هذا ووجود الجن والشياطين في الخارج وسماع كلامهم، أكثر من أن يمكن سطر عشره هنا، وكذلك صرعهم للإنس، وتكلمهم على ألسنتهم.

والفرق بين النبي والساحر، أعظم من الفرق بين الليل والنهار والنبي: يأتيه ملك كريم من عند الله، ينبئه عن الله.

والساحر والكاهن: إنما معه شيطان، يأمره ويخبره.

قال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(١)

فلا الخبر كالخبر، ولا الأمر كالأمر، ولا مخبر هذا كمخبر هذا ولا آمر هذا كآمر هذا.

كما أنه ليس هذا مثل هذا، ولهذا قال تعالى، لما ذكر الذي جاء بالقرآن إلى محمد، وأنه ملك منفصل، ليس خيالاً في نفسه، كما يقوله هؤلاء.

قال تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ.وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ.فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ أن هُوَ إِلَّا ذكرا لِّلْعَالَمِينَ.لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ.وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)(٢)

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٣)

(٢)سورة التكوير: أية رقم (١٩-٢٩)

فالقرآن قول رسول أرسله الله، لم يرسله الشيطان، وهو ملك كريم (ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ.مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)(١) فهو مطاع عند ذي العرش في الملأ الأعلى.

والشياطين لا يطاعون في السماوات، بل ولا يصعدون إليها، وإبليس من حين أهبط منها، لم يصعد إليها.

ولهذا كان أصح القولين: أن جنة آدم، جنة التكليف، لم تكن في السماء، فإن إبليس دخل إلى جنة التكليف، جنة آدم، بعد إهباطه من السماء.

وقول الله له (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ.وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ)(٢)

وقوله تعالى (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ)(٣)

لكن كانت في مكان عال في الأرض، من ناحية المشرق، ثم لما أكل من الشجرة، أهبط منها إلى الأرض، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع.

ولفظ الجنة في غير موضع من القرآن، يراد به بستان في الأرض كقوله تعالى (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ)(٤)

وقوله تعالى (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا. كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا.وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا. وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا)(٥)

وقوله تعالى (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن

---

(١)سورة التكوير: أية رقم (٢٠-٢١)
(٢)سورة ص: أية رقم (٧٧-٧٨)
(٣)سورة الأعراف: أية رقم (١٨)
(٤)سورة القلم: أية رقم (١٧)
(٥)سورة الكهف: أية رقم (٣٢-٣٥)

كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتفَكَّرُونَ)(١)

وقوله تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ)(٢)

وقوله تعالى (كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)(٣)

وقوله تعالى (أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ.فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)(٤)

وجنة الجزاء والثواب التي في السماء، لم يدخلها الشيطان، بعد أن أهبط من السماء.

وهو أهبط من السماء، لما امتنع من السجود لآدم، قبل أن يدخل آدم إلى جنة التكليف،التي وسوس له وأخرجه منها.

وجنة الجزاء مخلوقة أيضاً، وقد أنكر بعض أهل البدع أن تكون مخلوقة وقال: إن آدم لم يدخلها، لكونها لم تخلق بعد.

فأنكر ذلك من أنكره من علماء السنة.

وقد ذكر أبو العالية وغيره من السلف، أن الشجرة التي نهي عنها آدم كان لها غائط، فلما أكل احتاج إلى الغائط، وجنة الجزاء ليس فيها هذا، لكن الله أعلم بصحة هذا النقل.

وإنما المقصود: أن بعض السلف كان يقول: إنها في السماء.

وبعضهم يقول: إنها في مكان عال من الأرض.

ولفظ الجنة في القرآن، قد ذكر فيما شاء الله من المواضع، وأريد به جنة في الأرض، وجنة الجزاء مخصوصة بمماتهم، كقوله تعالى (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)(٥)

(١)سورة البقرة: أية رقم (٢٦٥-٢٦٦)
(٢)سورة سبأ: أية رقم (١٥-١٦)
(٣)سورة الدخان: أية رقم (٢٥)
(٤)سورة الشعراء: أية رقم (١٤٦-١٤٧)
(٥)سورة يس: أية رقم (٢٦-٢٧)

فإن أرواح المؤمنين تدخل الجنة من حين الموت، كما في هذه الآية (قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ.بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ)(١)

قال تعالى (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ.إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)(٢)

وقال تعالى (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)(٣)

وقال تعالى لما ذكر أحوال الموتى عند الموت (فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ.وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ.وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ)(٤)

وهذا غير ما ذكره في أول السورة، من انقسامهم يوم القيامة الكبرى إلى سابقين، وأصحاب يمين، ومكذبين.

فإنه سبحانه ذكر في أول السورة، إنقسامهم يوم القيامة الكبرى وذكر في آخرها، إنقسامهم عند الموت، وهو القيامة الصغرى.

كما قال المغيرة بن شعبة: من مات فقد قامت قيامته.

وكذلك قال علقمة وسعيد بن جبير عن ميت.

أما هذا: فقد قامت قيامته، أي صار إلى الجنة أو النار، وإن كان بعد هذا تعاد الروح إلى البدن، ويقعد بقبره.

ومقصودهم: أن الشخص لا يستبطئ الثواب والعقاب، فهو اذا مات يكون في الجنة أو في النار.

قال تعالى عن قوم نوح (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا)(٥)

---

(١)سورة يس: أية رقم (٢٦-٢٧)

(٢)سورة يس: أية رقم (٢٨-٢٩)

(٣)سورة آل عمران: أية رقم (١٦٩)

(٤)سورة الواقعة: أية رقم (٨٨-٩٤)

(٥)سورة نوح: أية رقم (٢٥)

وقال عن آل فرعون (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)(١)

وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: الكلام على النبوة.

فهؤلاء المتفلسفة، ما قدروا النبوة حق قدرها، وقد ضل بهم طوائف من المتصوفة، المدعين للتحقيق وغيرهم.

وابن عربي وابن سبعين ضلوا بهم، فإنهم اعتقدوا مذهبهم، وتصوفوا عليه.

ولهذا يقول ابن عربي: إن الأولياء أفضل من الأنبياء، وسائر الأولياء يأخذون عن خاتم الأنبياء علم التوحيد، وإنه هو يأخذ من المعدن، الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحي به إلى الرسول.

فإن الملك عنده هو الخيال، الذي في النفس، وهو جبريل عندهم وذلك الخيال تابع للعقل.

فالنبي عندهم، يأخذ عن هذا الخيال ما يسمعه من الصوت في نفسه ولهذا يقولون: أن موسى كلم من سماء عقله، والصوت الذي سمعه كان في نفسه، لا في الخارج.

ويدعي أحدهم: أنه أفضل من موسى، وكما ادعى ابن عربي أنه أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم.

فإنه يأخذ عن العقل، الذي يأخذ منه الخيال، والخيال عنده هو الملك الذي يأخذ منه النبي.

فلهذا قال: فإنه يأخذ من المعدن، الذي يأخذ منه الملك، الذي يوحى به الى النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: فإن عرفت هذا، فقد حصل لك العلم النافع.

وبسط الكلام على هؤلاء له مواضع أخرى.

والمقصود هنا: الكلام على النبوة.

---

(١)سورة غافر: أية رقم (٤٦)

فالنبي: هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأ الله به.

فإن أرسل مع ذلك، إلى من خالف أمر الله، ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله، ولم يرسل هو إلى أحد، يبلغه عن الله رسالة، فهو نبي، وليس برسول.

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (١)

وقوله (مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ)(٢) فذكر إرسالاً يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول.

فإن هذا هو الرسول المطلق، الذي أمره بتبليغ رسالته، إلى من خالف الله، كنوح (عليه السلام).

وقد ثبت في الصحيح: أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض (٣).

وقد كان قبله أنبياء، كشيث، وإدريس، وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً (على جميع رسل الله وأنبيائه أفضل الصلاة والسلام)

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام فأولئك الأنبياء، يأتيهم وحي من الله بما يفعلونه، ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم، لكونهم مؤمنين بهم.

كما يكون أهل الشريعة الواحدة، يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول

وكذلك أنبياء بني إسرائيل، يأمرون بشريعة التوراة.

وقد يوحى إلى أحدهم وحي خاص، في قصة معينة، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم، الذي يُفهمه الله في قضية، معنى يطابق القرآن كما فهم الله سليمان حكم القضية، التي حكم فيها هو وداود (٤).

---

(١)سورة الحج: أية رقم (٥٢)

(٢)سورة الحج: أية رقم (٥٢)

(٣)وهو يشير إلى ما ورد في حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: " فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض.... "

(٤) قال تعالى عن سيدنا داود وسليمان(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ) (٧٨-٧٩) سورة الأنبياء

فالأنبياء ينبئهم الله، فيخبرهم: بأمره، وبنهيه، وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر، والأمر، والنهي.

فإن أرسلوا إلى كفار، يدعونهم إلى توحيد الله، وعبادته وحده لا شريك له، ولا بد أن يكذب الرسل قوم، قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)(١)

وقال (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)(٢)

فإن الرسل ترسل إلى مخالفين، فيكذبهم بعضهم.

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ. حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)(٣)

وقال تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)(٤)

فقوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) (٥) دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولاً عند الإطلاق، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق، كالعلم.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: " العلماء ورثة الأنبياء " (٦).

وليس من شرط الرسول،أن يأتي بشريعة جديدة،فإن يوسف كان رسولاً،وكان على ملة إبراهيم، وداود، وسليمان، كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة. قال تعالى عن مؤمن

(١)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢)
(٢)سورة فصلت: أية رقم (٤٣)
(٣)سورة يوسف: أية رقم (١٠٩-١١٠)
(٤)سورة غافر: أية رقم (٥١)
(٥)سورة الحج: أية رقم (٥٢)
(٦)أخرجه الترمذي في جامعه، وأبو داود في سننه، كتاب العلم

آل فرعون (وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ)(١)

وقال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا.وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا)(٢)

والإرسال: اسم عام، يتناول إرسال الملائكة، وإرسال الرياح وإرسال الشياطين، وإرسال النار.

قال تعالى (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ)(٣)

وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(٤)

فهنا: جعل الملائكة كلهم رسلاً.

والملك في اللغة: هو حامل الألوكة، وهي الرسالة.

وقد قال في موضع آخر (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(٥) فهؤلاء الذين يرسلهم بالوحي.

كما قال تعالى (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)(٦)وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)(٧)

(١)سورة غافر: أية رقم (٣٤)
(٢)سورة النساء: أية رقم (١٦٣-١٦٤)
(٣)سورة الرحمن: أية رقم (٣٥)
(٤)سورة فاطر: أية رقم (١)
(٥)سورة الحج: أية رقم (٧٥)
(٦)سورة الشورى: أية رقم (٥١)
(٧)سورة الأعراف: أية رقم (٥٧)

وقال تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)(١)

لكن الرسول المضاف إلى الله،إذا قيل:رسول الله، فهم من يأتي برسالة الله من الملائكة والبشر.

كما قال تعالى (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(٢)

وقالت الملائكة (قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)(٣)

وأما عموم الملائكة، والرياح، والجن، فإن إرسالها لتفعل فعلاً لا لتبلغ رسالة.

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)(٤)

فرسل الله الذين يبلغون عن الله أمره ونهيه، هم رسل الله عند الإطلاق وأما من أرسله الله، ليفعل فعلاً، بمشيئة الله وقدرته، فهذا عام يتناول كل الخلق.

كما أنهم كلهم يفعلون بمشيئته، وإذنه المتضمن لمشيئته، لكن أهل الإيمان: يفعلون بأمره ما يحبه ويرضاه، ويعبدونه وحده، ويطيعون رسله.

والشياطين: يفعلون بأهوائهم، وهم عاصون لأمره، متبعون لما يسخطه، وإن كانوا يفعلون بمشيئته وقدرته.

وهذا كلفظ البعث، يتناول البعث الشرعي، كما قال (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)(٥)

---

(١)سورة مريم: أية رقم (٨٣)
(٢)سورة الحج: أية رقم (٧٥)
(٣)سورة هود: أية رقم (٨١)
(٤)سورة الأحزاب: أية رقم (٩)
(٥)سورة الجمعة: أية رقم (٢)

ويتناول البعث العام الكوني، كقوله (فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً)(١)

وقال تعالى (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)(٢)

فالعام: بحكم مشيئته وقدرته.

والخاص: هو أيضاً بحكم مشيئته وقدرته، وهو مع ذلك بحكم أمره ورضاه ومحبته.

وصاحب الخاص: من أولياء الله، يكرمه، ويثبته.

وأما من خالف أمره: فإنه يستحق العقوبة، ولو كان فاعلاً بحكم المشيئة، فإن ذلك لا يغني عنه من الله شيئاً، ولا يحتج بالمشيئة على المعاصي، إلا من تكون حجته داحضة، ويكون متناقضاً متبعاً لهواه، ليس عنده علم بما هو عليه، كالمشركين الذين قالوا:(لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ)(٣)

كما قد بسط في غير هذا الموضع، والله أعلم

---

(١)سورة الإسراء: أية رقم (٥)
(٢)سورة الأعراف: أية رقم (١٦٧)
(٣)سورة الأنعام: أية رقم (١٤٨)

فصل

العلامة والدليل هما الآية والبرهان

الدليل: الذي هو الآية والبرهان، يجب طرده كما تقدم، فإنه لو كان تارة يتحقق، مع وجود المدلول عليه، وتارة يتحقق مع عدمه فإذا تحقق،لم يعلم، هل وجد المدلول، أم لا؟

فإنه كما يوجد مع وجوده، يوجد مع عدمه.

ولهذا كان الدليل:إما مساوياً للمدلول عليه،وإما أخص منه،لا يكون أعم من المدلول.

ولهذا لم يكن للأمور المعتادة، دلالة على ما هو أخص، كطلوع الشمس، والقمر، والكواكب، لا يدل على صدق أحد، ولا كذبه لا مدعي النبوة، ولا غيره.

فإنها توجد مع كذب الكاذب، كما توجد مع صدق الصادق.

لكن يدل على ما هو أعم منها، وهو وجود الرب، وقدرته، ومشيئته وحكمته، فإن وجود ذاته وصفاته ثابت، سواء كانت هذه المخلوقات موجودة، أو لم تكن.

فيلزم من وجود المخلوق، وجود خالقه، ولا يلزم من عدمه عدم خالقه.

فلهذا كانت المخلوقات كلها، آيات للرب، فما من مخلوق إلا وهو آية له.

هو: دليل، وبرهان، وعلامة على ذاته، وصفاته، ووحدانيته وإذا عدم، كان غيره من المخلوقات يدل على ما دل عليه.

ويجتمع على المعلوم الواحد، من الأدلة ما لا يحصيه إلا الله، وقد يكون الشيء مستلزماً لدليل معين، فإذا عدم، عرف انتفاؤه.

وهذا مما يكون لازماً ملزوماً، فتكون الملازمة من الطرفين، فيكون كل منهما دليلاً.

وإذا قُدر انتفاؤه، كان دليلاً على انتفاء الآخر، كالأدلة على الأحكام الشرعية، فما من حكم، إلا جعل الله عليه دليلاً، وإذا قُدر انتفاء جميع الأدلة الشرعية على حكم، عُلم أنه ليس حكما شرعياً.

وكذلك ما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، فإنه إذا نقل دل التواتر على وجوده.

وإذا لم ينقل، مع توفر الهمم والدواعي على نقله، لو كان موجوداً علم أنه لم يوجد، كالأمور الظاهرة، التي يشترك فيها الناس، مثل: موت ملك، وتبدل ملك بملك، وبناء مدينة ظاهرة، وحدوث حادث عظيم في المسجد أو البلد.

فمثل هذه الأمور، لا بد أن ينقلها الناس إذا وقعت، فإذا لم تنقل نقلاً عاماً، بل نقلها واحد، علم أنه قد كذب.

وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

وقد بسط في غير هذا الموضع:

– الفرق بين الآية: التي هي علامة تدل على نفس المعلوم.

– وبين القياس الشمولي: الذي لا يدل إلا على قدر كلي مشترك لا يدل على شيء معين، إذ كان لا بد فيه من قضية كلية، وأن ذلك القياس، لا يفيد العلم بأعيان الأمور الموجودة، ولا يفيد معرفة شيء، لا الخالق، ولا نبي من أنبيائه، ولا نحو ذلك.

بل إذا قيل: كل محدث، فلا بد له من محدث، دل على محدث مطلق لا يدل على عينه، بخلاف آيات الله، فإنها تدل على عينه.

وبينا: أن القرآن ذكر الاستدلال بآيات الله، وقد يستدل بالقياس الشمولي والتمثيلي.

لكن دلالة الآيات، أكمل وأتم، وتبين غلط من عَظم دلالة القياس الشمولي المنطقي، وأنهم من أبعد الناس عن العلم والبيان.

وذكرنا أيضاً: غَلط من فضل الشمولي على التمثيلي، وأنهما من جنس واحد والتمثيلي أنفع، وإنما الآيات تكون أحسن.

وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي، ما ذكره أبو بكر بن الأنباري، وغيره في الآيات، آيات القرآن، مثل قوله (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ)(١)

ثلاثة أقوال:– قال، في معنى الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها العلامة، فمعنى آية: علامة، لانقطاع الكلام الذي قبلها وبعدها.

قال الشاعر: ألا أبلغ لديك بني تميم بآية ما يحبون الطعام.

(١)سورة المؤمنون: أية رقم (٦٦)

وقال النابغة: توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع. قال: وهذا إختيار أبي عبيد.

قلت: أما أن الآية هي: العلامة في اللغة، فهذا صحيح، وما استشهد به من الشعر يشهد لذلك.

وأما تسمية الآية من القرآن: آية، لأنها علامة، صحيح.

لكن قول القائل: إنها علامة لإنقطاع الكلام الذي قبلها وبعدها ليس بطائل.

فإن هذا المعنى: الحد والفصل، فالآية مفصولة عما قبلها، وعما بعدها وليس معنى كونها آية هو هذا.

وكيف وآخر الآيات آية، مثل آخر سورة الناس؟

وكذلك آخر آية من السورة، وليس بعدها شيء، وأول الآيات آية وليس قبلها شيء، مثل أول آية من القرآن ومن السورة.

وإذا قرئت الآية وحدها كانت آية، وليس معها غيرها، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية يرددها حتى أصبح [1](إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[2]

فهي آية في نفسها، لا لكونها منقطعة مما قبلها وما بعدها.

وأيضاً: فكونه علامة على هذا الإنقطاع، قدر مشترك بين جميع الأشياء التي يتميز بعضها عن بعض، ولا تسمى آيات.

والسورة متميزة عما قبلها وما بعدها، وهي آيات كثيرة.

وأيضاً: فالكلام الذي قبلها منقطع، وما قبلها آية، فليست دلالة الثانية على الإنقطاع، بأولى من دلالة الأولى عليه.

وأيضاً: فكيف يكون كونها آية، علامة للتمييز بينها وبين غيرها والله سماها آياته، فقال تعالى (تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)[3]

---

(١)حديث شريف رواه الإمام أحمد في مسنده، والنسائي في سننه: كتاب الزهد.
(٢)سورة المائدة: أية رقم (١١٨)
(٣)سورة البقرة: أية رقم (٢٥٢)

والصواب:أنها آية من آيات الله،أي علامة من علاماته، ودلالة من أدلة الله، وبيان من بيانه.

فإن كل آية قد بين فيها من أمره وخبره، ما هي دليل عليه، وعلامة عليه، فهي آية من آياته.

وهي أيضاً دالة على كلام الله، المباين لكلام المخلوقين، فهي دلالة على الله سبحانه، وعلى ما أرسل بها رسوله.

ولما كانت كل آية مفصولة بمقاطع الآي التي يختم بها كل آية، صارت كل جملة مفصولة بمقاطع الآي آية.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقف على رءوس الآي، كما نعتت قراءته (الحمد لله رب العالمين) ويقف (الرحمن الرحيم) ويقف (مالك يوم الدين) ويقف. (١)

ويسمى أصحاب الوقف: وقف السنة، لأن كل آية لها فصل، ومقطع تتميز به عن الأخرى.

قال: والوجه الثاني: أنها سميت آية، لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه.

قال أبو عمر الشيباني: يقال: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم.

وأنشدوا: خرجنا من النقبين لاحي مثلنا بآياتنا نزجي اللقاح المطافلا.

قلت: هذا فيه نظر، فإن قولهم: خرج القوم بآيتهم، قد يراد به: بالعلامة التي تجمعهم، مثل: الراية، واللواء.

فإن العادة: أن كل قوم لهم أمير: تكون له آية يعرفون بها، فإذا أخرج الأمير آيتهم، اجتمعوا إليه، ولهذا سمى ذلك علماً.

والعلم: هي العلامة والآية، ويسمى راية، لأنه يرى، فخروجهم بآيتهم أي بالعلم، والآية التي تجمعهم، فيستدل به على خروجهم جميعهم.

فإن الأمير المطاع، إذا خرج لم يتخلف أحد، بخلاف ما إذا خرج بعض أمرائه، وإلا فلفظ الآية هي العلامة.

---

(١)حديث شريف رواه الإمام الترمذي في جامعه الصحيح، كتاب القراءات، باب فاتحة الكتاب.

وهذا معلوم بالاضطرار من اللغة، والاشتراك في اللفظ لا يثبت بأمر محتمل.

قال: والثالث: أنها سميت آية، لأنها عجب، وذلك أن قارئها يستدل إذا قرأها، على مباينتها لكلام المخلوقين.

وهذا كما يقول: فلان آية من الآيات، أي: عجب من العجائب ذكره ابن الأنباري.

قلت: هذا القول هو داخل في معنى كونها آية من آيات الله، فإن آيات الله كلها عجيبة، فإنها خارجة عن قدرة البشر، وعما قد يُشبه بها من مقدور البشر.

والقرآن كله عجب، تعجبت به الجن، كما حكى عنهم الله تعالى أنهم قالوا (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا)(١)

فإنه كلام خارج عن المعهود من الكلام، وهو كما في الحديث: " لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد. (٢)

وكل آية لله خرجت عن المعتاد، فهي عجب، كما قال الله تعالى (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)(٣)

فالآيات: العلامات، والدلالة.

ومنها مألوف معتاد، ومنها خارج عن المألوف المعتاد، وآيات القرآن من هذا الباب.

فالقرآن عجب، لا لأن مسمى الآية هو مسمى العجب، بل مسمى الآية أعم، ولهذا قال الله تعالى (كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا)

ولكن لفظ الآية، قد يخص في العرف: بما يحدثه الله، وإنها غير المعتاد دائماً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وأنهما لا تخسفان لموت أحد، ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله يخوف بهما عباده ". (٤)

---

(١)سورة الجن: أية رقم (١-٢)

(٢)حديث شريف رواه الترمذي في سننه، كتاب فضائل القرآن، وأخرجه الدارمي في سننه، باب فضل من قرأ القرآن.

(٣)سورة الكهف: أية رقم (٩)

(٤)حديث شريف رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، كتاب صلاة الكسوف.

وقد قال تعالى (وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا)(١)

وفي الحديث الصحيح: لما دخلت أسماء على عائشة وهي في الصلاة فسألتها فقالت: سبحان الله، فقالت: آية، فأشارت: أي نعم. (٢)

وتسمى صلاة الكسوف: صلاة الآيات، وهي مشروعة في أحد القولين في مذهب أحمد، في جميع الآيات التي يحصل بها التخويف، كانتثار الكواكب، والظلمة الشديدة، وتصلى للزلزلة.

نص عليه كما جاء الأثر بذلك، فهذه الآيات، أخص من مطلق الآيات وقد قال تعالى (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ)(٣)وقال صلى الله عليه وسلم: " ثلاث آيات يتعلمهن خير له من ثلاث خلفات سمان ".(٤)

---

(١)سورة الإسراء: أية رقم (٥٩)

(٢)حديث شريف رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما، كتاب صلاة الكسوف

(٣)سورة الأنعام: أية رقم (٤)

(٤)حديث شريف رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: المسافرين، والإمام أحمد في مسنده، والدارمي في سننه، كتاب: فضائل القرآن

فصل
أقسام الدليل وأجناسه

والدليل: الذي هو الآية والعلامة، ينقسم إلى:

- ما يدل بنفسه.

- وإلى ما يدل بدلالة الدال به.

فيكون الدليل في الحقيقة، هو الدال به، الذي قصد أن يدل به، وقد جعل ذلك علامة، وآية، ودليلاً.

والذي يدل بنفسه: يعلم أنه يدل بنفسه، وإن لم يعلم أن أحداً جعله دليلاً وإن كان في نفس الأمر، كل مخلوق قد جعله الله آية ودلالة.

وهو سبحانه عليم مريد، فلا يمكن أن يقال:لم يرد بالمخلوقات أن تكون أدلة له، ولا أنها ليست دليلاً، يجعلها أدلة، كما قد يطلقه طائفة من النظار.

ولكن يستدل بها، مع عدم النظر في كونها جعلت أدلة، كما قد يطلقه إذ كان فيها مقاصد كثيرة، غير الدلالة.

والذي جعلها دليلاً، وهو الله، جعل ذاتها يستدل بها، مع قطع النظر عن كونها هي دليلاً.

فما من مخلوق، إلا ويمكن الاستدلال به على الخالق، والمحدث نفسه يعلم بصريح العقل، أن له محدثاً.

وهذه الأدلة، التي تدل بنفسها، قد تسمى: الأدلة العقلية، ويسمى النوع الآخر: الأدلة الوضعية، لكونها إنما دلت بوضع واضع.

والتحقيق: أن كلاهما عقلي، إذا نظر فيه العقل علم مدلوله، لكن هذه تدل بنفسها، وتلك تدل بقصد الدال بها، فيعلم بها قصده.

وقصده هو الدال بها، كالكلام، فإنه يدل بقصد المتكلم به وإرادته وهو يدل على مراده، وهو يدلنا بالكلام على ما أراد.

ثم يستدل بإرادته على لوازمها، فإن اللازم، أبدا مدلول عليه بملزومه.

والآيات التي تدل بنفسها مجردة، نوعان:

- منها ما هو ملزوم، مدلول عليه بذاته، لا يمكن وجود ذاته دون وجود لازمه المدلول عليه، مثل: دلالة المخلوقات على الخالق.

- ومنها ما هو مستلزم له مدة طويلة أو قصيرة، فتدل عليه تلك المدة مثل: نجوم السماوات، فإنه يستدل بها على الجهات، والأمكنة، وعلى غيرها من النجوم، وعلى الزمان، ماضيه وغابره، ما دام العالم على هذه الصورة.

قال تعالى (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)(١)

وقال تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (٢)

ثم قال (وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) (٣)

ثم قال (وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٤)

وقوله (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)(٥) هي علامات ألقاها في الأرض، وهذا قول الأكثرين.

قالت طائفة: هي معالم الطرق، يستدل بها بالنهار، ويستدل بالنجم بالليل.

وقالت طائفة: هي الجبال، وهي أيضاً مما يستدل به، ولهذا سماها الله أعلاماً في قوله تعالى (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ.فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)(٦) أي: كالجبال.

---

(١)سورة النحل: أية رقم (١٥-١٦)
(٢)سورة الأنعام: أية رقم (٩٧)
(٣)سورة الأنعام: أية رقم (٩٨)
(٤)سورة الأنعام: أية رقم (٩٩)
(٥)سورة النحل: أية رقم (١٥-١٦)
(٦)سورة الشورى: أية رقم (٣٢)

والأعلام: جمع علم.

والعلم: ما يعلم به، كالعلامة، ومنه: أعلام الطرق المنصوبة.

ومنه يقال لدلائل النبوة: أعلام النبوة.

ويقال للراية المرفوعة: أنها علم، وإنها جعلت علامة لصاحبها وأتباعه.

والعالم (بالفتح) مثل: الخاتم، ما يعلم به، كما أن الخاتم ما يختم به وهو بمعنى العالم.

ويسمى كل صنف من المخلوقات عالماً، لأنه علم وبرهان على الخالق تعالى بخلاف العالم بالكسر، فإنه الذي يعلم، كالخاتم بالكسر، فإنه الذي يختم قال تعالى (وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)(١) لأنه ختمهم.

كما يسمى: الماحي، والحاشر، والعاقب. (٢)

وقد قرئ: وخاتم، أي ختموا به، فالجبال أعلام، وهي علامات لمن في البر والبحر، يستدل بها على ما يقاربها من الأمكنة.

فإنه يلزم من وجودها وجوده، وهي لا تزال دالة، ما دامت موجودة ومدلولها موجوداً.

وهي أثبت من غيرها، فقد يكون عندها قرية وسكان، فيكون علماً عليهم، ثم قد تخرب القرية، ويذهب السكان، فتزول الدلالة لزوال الملزوم.

وهذا كله مما يبين،أن الدليل قد يكون معيناً،بل الآيات كلها معينة،وأن يكون مطابقاً، ملازما لمدلوله، ليس أحدهما أعم من الآخر كالثريا مع الدبران، وكالجدي مع بنات نعش، ونحو ذلك.

فتبين غلط من ذكر أنه يحصر الأدلة، فيقال: إما أن يستدل بالعام على الخاص، أو بالخاص على العام، أو بأحد الخاصين على الآخر.

والأول: هو القياس الشمولي.

والثاني: هو الاستقراء.

---

(١)سورة الأحزاب: أية رقم (٤٠)

(٢)روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، كتاب الفضائل، باب أسمائه صلى الله عليه وسلم عن محمد بن جبير، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنا محمد، وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد "

والثالث: هو التمثيل.

وقد بينا ما في هذا الكلام من الغلط، في حصره، وفي حكم أقسامه فإن هؤلاء المقسمون للأمور العامة، كثيراً ما يغلطون في هذا وهذا إذ كان المقسم يجب أن يستوفي جميع الأقسام، ولا يدخل فيها ما ليس منها، كالحاد.

وهم يغلطون فيها كثيراً، لعدم إحاطتهم بأقسام المقسوم، كما يقسمون أقسام الموجودات، أو أقسام مدارك العلم، أو أقسام العلوم، أو غير ذلك وليس معهم دليل على الحصر، إلا عدم العلم.

وحصر الأقسام في المقسوم، هو من الاستقراء، ثم إذا حكموا على تلك الأقسام بأحكام، فقد يغلطون أيضاً، كما قد ذكر هذا في غير هذا الموضع، مثل: غلط من حصر الأدلة في هذه الأنواع، من أهل المنطق، ومن تبعهم.

وقد بسط هذا في مواضع، وذلك مثل قولهم: الدليل إما أن يستدل بالعام على الخاص، أو بالخاص على العام، أو بأحد الخاصين على الآخر.

فإن الدليل أولاً، لا يكون قط أعم من المدلول عليه، إما مساوياً له وإما أخص منه.

فإن الدليل ملزوم للمدلول عليه، والملزوم حيث تحقق، تحقق اللازم وإذا انتفى اللازم، انتفى الملزوم.

فحيث تحقق الدليل،تحقق المدلول عليه،فإذا كان مساوياً له،أو أخص كان حيث تحقق المدلول.

كما أنه حيث تحقق ما هو ناطق، النطق الذي يختص الإنسان، تحقق الإنسان، وتحقق أيضاً ما هو أعم من الإنسان، وهو ثبوت حيوان وجسم حساس، تام متحرك بالإرادة.

بمعنى: أنه تحقق مطلق هذا الجنس، وإلا فلم يوجد شيء أعم من الإنسان بمجرد وجوده.

لكن وجد من صفاته ما يشبه به غيره، ويصح إطلاقه عليه، وعلى غيره وهو مسمى الجسم والحيوان، ونحو ذلك.

وكذلك إذا وجد آية، أو خبر يدل على الإيجاب، أو التحريم، لزم ثبوت الإيجاب أو التحريم، وقد ثبت الإيجاب والتحريم بآية أخرى أو خبر آخر.

فلهذا قيل: الدليل يجب طرده، ولا يجب عكسه.

وإذا كان الدليل، لا يكون أعم من المدلول عليه، فقولهم: إما أن يستدل بالعام على الخاص، إنما أرادوا به القياس الشمولي، الذي هو مقدمتان، صغرى وكبرى، كقولنا: النبيذ المتنازع فيه مسكر وكل مسكر حرام، أو كل مسكر خمر.

كما ثبت في صحيح مسلم، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام " (١).

بين أن المسكر موصوف، بأنه خمر، وبأنه حرام، ولم يقصد القياس الشمولي، وهو أن يستدل على أن المسكر حرام.

فالرسول أجل من هذا شرعاً وعقلاً " صلى الله عليه وسلم ".

فإنه بكلامه، تثبت الأحكام وغيره، إذا قال: كل مسكر خمر أو حرام، أحتاج أن يستدل عليه، وأما هو، فيستدل بنفس كلامه.

والنظم الشمولي المنطقي، لا يوجد في كلام فصيح، بل هو طويل لا يحتاج إليه، كما قد بسط في مواضع.

وبين أن الدليل، قد يكون مقدمة واحدة، وقد يكون مقدمتين، وقد يكون ثلاث مقدمات، وأربعاً، وأكثر، بحسب ما يحتاج إليه المستدل الطالب، لدلالة نفسه، أو الطالب، ليدل غيره.

فإنه قد لا يحتاج إلا إلى مقدمة واحدة، مثل: من عرف أن الخمر حرام لكن لم يعرف أن كل مسكر هو خمر.

فإذا عرف بالنص، أن كل مسكر خمر، عرف أن كل مسكر حرام وكان علمه موقوفاً على مقدمة واحدة.

بخلاف من لم يكن عرف بعد، أن الخمر حرام، فيحتاج إلى مقدمة ثانية ثم إن كان عرف أن محمداً رسول الله، بنصوصه المتواترة، كفاه ذلك.

وإن كان لم يقر بنبوته، إحتاج إلى مقدمة ثالثة، وهو الإيمان بأنه رسول الله لا يقول على الله إلا الحق، ويذكر له من دلائل النبوة وأعلامها ما يعرف به ذلك، فيهتدي إن كان طالب علم، وتقوم عليه الحجة إن لم يكن كذلك.

---

(١)حديث شريف رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، باب:بيان أن كل مسكر خمر، وأن كل خمر حرام.

فقول هؤلاء في مثل هذا، أنا استدللنا بالعام على الخاص، لبس عظيم فإن المدلول عليه، وهو تحريم النبيذ المتنازع فيه مثلا، وإن كان أخص من تحريم المسكر والخمر.

فالدليل ليس هو القضية العامة، بل الدليل: أن النبيذ المتنازع فيه مسكر.

وهو إحدى المقدمتين، وهذه قضية خاصة، أخص من مسمى المسكر فإن المسكر، يتناول المتفق على تحريمه، والمتنازع فيه.

وهذا هو الحد الأوسط، وهو المتكرر في المقدمتين، الذي هو محمول في الصغرى، موضوع في الكبرى.

فالإستدلال وقع بإسكاره، على أنه خمر، ومحرم.

ومسكر النبيذ المتنازع فيه، أخص من مسمى المسكر، والخمر والمقدمة على تحريمهبرى، وهي قولنا: وكل مسكر خمر، ليست هي الدليل، بل لابد من الصغرى معها، وهي خاصة.

فالمدلول عليه، إن كان تحريم النبيذ المتنازع فيه، فهذا إنما يدل على تحريمه أنه مسكر.

وليس إسكاره أعم منه، بل يلزم من ثبوت إسكاره ثبوته، فإن ثبوت الموصوف، بدون الصفة ممتنع.

فإسكاره دل على تحريمه، وليس تحريمه أعم من إسكاره، بل جنس الإسكار، والحرام، أعم من هذا المسكر.

فهذا المحرم، لكن هذا العام ليس هو الدليل بدون الخاص.

بل قوله: كل مسكر حرام، يدل على تحريم كل مسكر مطلقاً، من غير تعيين، فيكون الإسكار مستلزماً للتحريم.

والمسكر أخص من الحرام، وهذا إستدلال بالخاص على العام، فوجود المسكر، أخص من وجود الحرام، حيث كان مسكر، كان الحرام موجوداً.

وليس إذا كان الحرام موجوداً، يجب وجود المسكر، لأن المحرمات كثيرات، كالدم، والميتة، ولحم الخنزير.

فالحد الأوسط، وهو المسكر، دل على ثبوت الأعم، وهو التحريم ممعيناً فهوالأخص، وهو النبيذ المتنازع فيه.

فالمدلول عليه: التحريم، وهو أعم من المسكر، فهو إستدلال بالخاص على العام.

لكن المعنى العام الكلي، لا يوجد في الخارج عاماً كلياً، بل معيناً فهو استدلال على نوع من أنواعه، وهو التحريم الثابت، في النبيذ المتنازع فيه، وهذا أخص من مطلق التحريم.

كما أن مسكره أخص من مطلق المسكر، ومن هنا ظنوا أنهم استدلوا بالعام على الخاص، حيث استدلوا بتحريم كل مسكر، على تحريم هذا المسكر.

وليس الأمر كذلك، بل الذي دل على تحريم هذا المسكر، ليس هو مجرد القضية العامة الكلية، بل لا بد معها من قضية أخص منها جزئية مثل قولنا: هذا النبيذ مسكر.

وبهذا الخاص، يعلم ثبوت ذلك، لا بمجرد العام.

والدليل هنا، ليس هو أعم من المدلول عليه، ولا يمكن ذلك قط. وأما قولهم: أن الإستدلال بالخاص على العام، هو: الاستقراء فمجرد الخاص، إن لم يستلزم العام، لا يدل عليه.

والمستقرئ إن لم يحصر الأفراد، لا يعلم أن ذلك المعنى شاكذلك فإنما إستدل بخاص على عام، بل بعام مثله، مطابق له.

وقولهم في قياس التمثيل: إنه استدلال بخاص على خاص، ليس كذلك فإن مجرد ثبوت الحكم في صورة، لا يستلزم ثبوته في أخرى، إن لم يكن بينهما قدر مشترك.

ولا يثبت بذلك حتى يقوم دليل، على أن ذلك المشترك مستلزم للحكم والمشترك: هو الذي يسمى في قياس التمثيل: الجامع، والوصف والعلة، والمناط، ونحو ذلك.

فإن لم يقم دليل، على أن الحكم متعلق به، لازم له، لم يصح الإستدلال. وهذا المشترك في قياس التمثيل، هو الحد الأوسط في قياس الشمول بعينه فالمعنى في القياسين واحد.

ولكن التأليف والنظم متنوع، إذا أراد أن يثبت تحريم النبيذ بقياس الشمول قال: هذا هو حرام، لأنه شراب مسكر، فيكون حراماً، قياساً على المسكر من العنب.

فالدليل: هو المسكر، وهو المشترك، وهو الحد الأوسط.

ثم لا يكفي ذلك، حتى يبين أن العلة في الأصل، هي المشترك فيقول: وعصير العنب حرم، لكونه مسكراً.

وهذا الوصف موجود في الفرع، الذي هو صورة النزاقوله: إشتراكهما في التحريم.

وقوله: إنه حرام لكونه مسكراً، هي المقدمة الكبرى في قياس الشمول وهي قولنا: كل مسكر حرام.

فثبت أن علة التحريم هي السكر: إما بالنص، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "كل مسكر حرام " (١).

وإما بدلالة القرآن، وهو أنه يوقع العداوة والبغضاء، ويصد عن ذكر الله، وعن الصلاة.(٢)

وإما بالمناسبة، وإما بالدوران، قد عرف لسبر والتقسيم، كما قد عرف في موضعه.

وهو نظير ما يستدل به على ثبوت القضية الكبرى.

ثم الدليل: قد يكون قطعياً، وقد يكون ظنياً، لخصوص المادة، لا تعلق لذلك بصورة القياس.

فمن جعل قياس الشمول: هو القطعي، دون قياس التمثيل فقط، غلط. كما أن من جعل مسمى القياس: هو التمثيل، دون الشمول، فلم يفهم معناه.

والذي عليه جمهور العلماء: أن كلاً منهما قياس، قد يكون قطعياً وقد يكون ظنياً.

وطائفة يقولون: اسم القياس لا يستعمل إلا في الشمول، كما يقوله ابن حزم، ومن يقوله من المنطقيين.

وطائفة يقولون: لا يستعمل حقيقة إلا في التمثيل.

ومن هؤلاء من يقول: ليس في العقليات قياس، وهذا مبسوط في مواليس أعمقصود هنا: التنبيه على جنس الأدلة.

وأيضاً: فالدليل قد يكون مطابقاً للمدلول عليه، ملازماً له، ليس أعم منه، كالكواكب التي في السماء، المتلازمة، التي يستدل بكل منها على الآخر.

وكالناطقية، والإنسانية، التي يستدل بثبوت كل منهما على ثبوت الآخر. وهذا خارج عن تقسيمهم، فإن هذا ليس استدلالاً بعام على خاص ولا بخاص على عام، ولا بخاص على نظيره بطريق التمثيل، بل هو إستدلال بأحد المتلازمين على الآخر.

---

(١)جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة.

(٢) قال تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) (٩١) سورة المائدة

قد يكونان عامين، وخاصين، فالكواكب خاصة، والعام كالإستدلال بالحيوانية على الحس، والحركة، إلا أنه استدلال بعام على عام ملازم له.

وكذلك الإستدلال بكونه جسماً، على وجود جنس العرض والاستدلال بوجود جنس العرض، على وجود جنس الجسم، هو استدلال بأحد العامين المتلازمين على الآخر.

والمقصود هنا: أن هذه المعينات، كالنجوم، والجبال، والطرق كلها آيات، وأعلام، وعلامات، على ما هو لازم لها في العادة.

وكذلك قد يستدل على منزل الشخص، بما هو ملازم، من دور الجيران والباب، وغير ذلك، وشجرة هناك، وغير ذلك، من العلامات التي يذكرها الناس، يستدلون بها، ويدلون غيرهم بها.

وسميت الجبال أعلاماً: لأنها مرتفعة عالية، والعالي يظهر، وأنت الظاهر،فقبل الشيء المنخفض، ولهذا يوصف العالي بالظهور، كقوله تعالى (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا) (١)

ويقال: ظهر الخطيب على المنبر، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: " وأنت الظاهر فليس فوقك شيء " (٢).

فأدخل معنى العلو في اسمه الظاهر،لأن الظاهر يعلو،والعالي يظهر وكذلك العالي يعرف قبل غيره.

ومنه قيل: عرف الديك، أصله: فعل، بمعنى: مفعول، أي معروف.

كما يقال: كره، بمعنى: مكروهه.

ومنه الأعراف: وهي أمكنة عالية بين الجنة والنار.

وقد قيل في قوله (وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ) (٣)

---

(١)سورة الكهف: أية رقم (٩٧)

(٢)جزء من حديث شريف: رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الذكر والدعاء والتبة والإستغفار، باب: ما يقول عند النوم / وأبو داود في سننه، كتاب: الأدب / والترمذي في جامعه، كتاب: الدعاء، باب: الدعاء إذا أوى إلى فراشه

(٣) تعددت الآراء في المراد بالنجم: ذكرها القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) وابن الجوزي في تفسيره (زاد المسير) نجمل منها أربعة:

أنه الثريا، والفرقدان، وبنات نعش، والجدي، قاله السدي.

أن العلامات: هي النجوم، منها ما يكون علامة لا يهتدى به، ومنها ما يهتدى به.

وقول الأكثرين أصح، فإن العلامات كلها يهتدى بها، ولأنه قال (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)(١)

وهذا كله مما ألقاه في الأرض، وهو منصوب بألقى، أو بفعل من جنسه. كما قال بعضهم: أي وجعل في الأرض أنهاراً، لأن الإلقاء من جنس الجعل.

وبسط ما في هذا، من إعراب، ومعان، له مقام آخر.

والمقصود هنا: ذكر العلامات، والعلامات يدخل فيها ما تقدم من الرواسي، والسبل.

فإن كونها رواسي، وسبلاً يسلكها الناس، غير كونها علامات.

والعطف قد يكون لتغاير الصفات، مع اتحاد الذات، كقوله (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)(٢) وأمثاله.

فكيف إذا كانت العلامات، تتناول هذا وغيره، فأن الجبال أعلام وهي علامات.

وكذلك الطرق، يستدل بها السالك فيها، ولهذا يسمى الطريق إماماً لأن السالك يأتم به.

وكذلك يسمون ما يستَدِل به المُستدل، طريقاً، ومسلكاً.

ويقال لإصحاب هذا القول، عدة طرق، ومسالك، حتى أطلقوا على ما يصنف من الإحتجاج على مسائل النزاع: طريقة، لأنه فيه أدلة المصنف على موارد النزاع.

ومن هذا الباب، الإستدلال على المرض بعلامات له، والإستدلال بالأصوات.

فإن كانت كلاماً، كانت الدلالة قصدية إرادية، قصد المتكلم أن يدل بها، وهي دلالة وضعية عقلية.

أنه الجدي، والفرقدان، قاله بن السائب.

أنه الجدي وحده، لأنه أثبت النجوم كلها في مكانه، ذكره الماوردي.

أنه اسم جنس، والمراد جميع النجوم.

(١)سورة النحل: أية رقم (١٥-١٦)

(٢)سورة الأعلى: أية رقم (٢-٣)

وإن كانت غير كلام، كانت الدلالة عقلية طبعية.

كما يستدل بالأصوات، التي هي بكاء، وانتحاب، وضحك، وقهقهة ونحنحة، وتنخم، ونحو ذلك، على أحوال المصوت.

ومن الدلائل الشعائر، مثل: شعائر الإسلام الظاهرة، التي تدل على أن الدار دار الإسلام، كالأذان، والجُمَع، والأعياد.

وفي الصحيحين: عن أنس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوماً، لم يغز حتى يصبح، فإن سمع أذاناً أمسك وإن لم يسمع أذاناً أغار بعدما يصبح " (١).

هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: كان صلى الله عليه وسلم يغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الأذان، فإن سمع أذاناً أمسك، وإلا أغار.

فسمع رجلا يقول: الله اكبر.فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: على الفطرة.

ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله.فقال صلى الله عليه وسلم: خرجت من النار.

وعن عصام المزني، قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بعث السرية، يقول: إذا رأيتم مسجداً أو سمعتم منادياً فلا تقتلوا أحداً " رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

ومن هذا النوع: دلائل الجهات، ومنه: دلائل القبلة، يستدل عليها بالنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والطرق، وغير ذلك من الدلائل، كما قد ذكر الناس ما ذكروه من دلائل القبلة.

---

(١)حديث شريف رواه البخاري في كتاب: الأذان، ومسلم في كتاب: الصلاة، باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان.

فصل
الدلالة القصدية

والنوع الثاني: ما يدل بقصد الدال به، كالكلام، وكالعقد باليد والإشارة بها، أو بالعين، أو الحاجب، أو غير ذلك من الأعضاء.

وقد يسمى ذلك: رمزاً، ووحياً.

وكذلك الخط، خط الكتابة، بخلاف الإستدلال بآثار خطى الإنسان فإن هذا من النوع الأول.

وكذلك القيافة، وهي من النوع الأول، وهو الاستدلال بالشبه على النسب.

وكذلك القائف، قد يعرف بالأثر، من هو الواطئ، وأين ذهب ومن هذا النوع، الأميال، التي جعلت علامات على حدود الحرم والأميال تجعل في الطرقات، فإنه قصد بها الدلالة على الطريق، أي قصد الناس بها ذلك.

وهذا النوع قسمان:

– منه ما يكون بالاتفاق، والمواطأة بين اثنين فصاعدا، كما يتفق الرجل مع وكيله، على علامة لمن يرسله إليه.

مثل: وضع خنصره في خنصره.

ومثل: وضع يده على ترقوته.

كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم، جعل ذلك علامة مع بعض الناس.

وكما يجعل الملوك، وغيرهم، لهم علامات عند بعض الناس، من جاء بها، عرفوا أنه مرسل من جهته.

ومن هذا الباب، شعائر الناس في الحرب، كل طائفة يعرف أصحابها بشعارها.

ولهذا قال الفقهاء: ويجعل لكل طائفة شعاراً، يتداعون به كما كان للمهاجرين شعار، وللأنصار شعار.

ومن هذا الباب: الأعلام، والرايات للمقدمين، فان الراية ترى فيعلم صاحبها.

وكذلك العلم يُعلم، فيُعلم صاحبه، وقد تميز رأية عن رأية، لما يختص به صاحبها، ويسمى ذلك رنكاً.

وقد يكون ذلك اسم الشخص، وقد يكون غير ذلك، لكن قد اتفق مع غيره، على أن هذا علامة، وآية له، فمتى رؤي، استدل به على أنه هو المضاف إليه ذلك العلم.

ويجعل هذا على الدور، والثياب، والدواب.

– ومنه الوسم: الذي تُعَلم به إبل الصدقة، وإبل الجزية، فإن الوسم علامة مقصودة للواسم.

وأما السيما: فهي علامة بنفسها،لم يقصدها، مثل: سيما المؤمنين وسيما المنافقين.

قال تعالى في المؤمنين (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (١)

وقال في المنافقين (وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ)(٢)

وقال (عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ) (٣)

قيل: له زنمة من الشر، يعرف بها.

ومنه سيما المؤمنين يوم القيامة، التي بها يعرفهم نبيهم، وهو أنهم غر محجلين من آثار الوضوء، فهذه علامة وآية، لكنها من النوع الأول، لم يقصد المسلمون أن يتوضئوا ليعرفوا بالوضوء، لكن من اللوازم لهم، الوضوء للصلاة.

---

(١)سورة الفتح: أية رقم (٢٩)
(٢)سورة محمد: أية رقم (٣٠)
(٣)سورة القلم: أية رقم (١٣)

وقد جعل الله أثر ذلك، نوراً في وجوههم وأيديهم، وليس هذا لغيرهم فإن هذا الوضوء، لم يكن لغيرهم. (١)

والحديث الذي يروى: " هذا وضوئي، ووضوء النبيين من قبلي "(٢) ضعيف بخلاف الصلاة في المواقيت الخمس، فإن الأنبياء كانوا يصلون في هذه المواقيت.

كما قال: " هذا وقتك، ووقت الأنبياء قبلك "(٣).

والوسم، والسيما: من الوسم، متفقان في الاشتقاق الأوسط.

فإن أصل سيما: سوما، فلما سكنت الواو، وانكسر ما قبلها، قلبت ياء، مثل: ميقات، وميعاد، ونحو ذلك.

والأسم أيضاً من هذا الباب، وهو علم على المسمى، ودليل عليه، وآية عليه، وهذا المعنى ظاهر فيه.

فلذلك قال الكوفيون: إنه مشتق من الوسم، والسمة: وهي العلامة.

وقال البصريون: بل هو مشتق من السمو.

فإنه يقال في تصغيره: سمي، لا وسيم.

وفي جمعه: أسماء، لا أوسام.

وفي تصريفه: سميت، لا وسمت.

وكلا القولين حق: لكن قول البصريين أتم، فإنه مشتق منه، على قولهم في الاشتقاق الأصغر، وهو إتفاق اللفظين في الحروف وتأليفها.

وعلى قول الكوفيين: هو مشتق منه، من الاشتقاق الأوسط، وهو إتفاق اللفظين في الحروف، لا في ترتيبها، كما قلنا في الوسم والسيما. والسمو: هو العلو.

---

(١)وهو يشير هنا إلى الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، حيث قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فيلفعل ".

(٢)هذا الحديث أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الطهارة / والإمام أحمد في مسنده.

(٣)هو جزء من حديث شريف أخرجه الإمامان الترمذي وأبو داود في سننهما، كتاب الصلاة، باب: ما جاء في مواقيت الصلاة.

والسامي: هو العالي.

والعلو: مستلزم للظهور، كما تقدم.

فالعالي ظاهر، والظاهر عال، فكان الاسم بعلوه يظهر، فيدل على المسمى لأنه يظهر باللسان والخط، ويظهر للسمع المسمى، فيعرف بالقلب.

وقد تقدم أنهم يسمون الجبال أعلاماً، لما فيها من الظهور.

ودلالة الاسم على مسماه، دلالة قصدية، فإن المسمى يسمى بالاسم ليعرف به المسمى، وليدل عليه.

تارة يقصد به الدلالة: على مجرد نفسه، كأسماء الأعلام للأشخاص وتارة يقصد به الدلالة: على ما في اللفظ من المعنى، كالأسماء المشتقة مثل: العالم، والحي، والقادر.

ومن هذا الباب، تسمية المعبودين آلهة، سموها بما لا تستحقه، كما يسمى الجاهل: عالماً، والعاجز: قادراً، والكذاب: نبياً.

فلهذا قال تعالى (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى) [١]

والنوع الثاني من هذه الدلالة القصدية: أن يقصد الدال الدلالة، من غير مواطأة مع المستدلين على أنه دليل، لكن هم يعلمون أنه قصد الدلالة لعلمهم بأحواله، مثل: ما يرسل الرجل شيئاً من ملابسه المختص به مع شخص، فيعلمون أنه أرسلها، علامة على أنه أرسله.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ)[٢]

قال: العلامة تكون بين الرجل وأهله، رواه ابن المنذر، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا وكيع، عن سفيان عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

ورواه ابن أبي حاتم، حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان، حدثنا أبو أسامة، حدثني سفيان، عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ)[٣]

---

(١)سورة النجم: أية رقم (٢٣)

(٢)سورة الحجر: أية رقم (٧٧)

(٣)سورة الحجر: أية رقم (٧٧)

قال: علامة، ألم تر إلى الرجل إذا أراد أن يرسل إلى أهله في حاجة، أرسل بخاتمه، أو ثبوته، فعرفوا أنه حق.

فتارة: يرسل خاتمه معه، فيعلمون أنه أرسله، ليعلموا أنه أرسله، إذ كانوا قد علموا أن الخاتم معه، وأنه ليس في إرساله مع ذلك الشخص الذي لا يعرفونه مقصود له، إلا أن يكون علامة على أنه أرسله إليهم فيصدقونه فيما أخبر عنه.

وتارة: يرسل معه عمامته،أو نعليه، وقد علموا أنه لا يخلع عمامته ويبعثها مع ذلك الشخص، إلا لتكون علامة على صدقه، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة الفتح، لما كانت راية الخزرج مع سعد بن عبادة وكان فيه حِدة، وقال: لا قريش بعد اليوم، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة.

قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنه يُخاف منه أن يضع السيف في أهل مكة فقال: قولوا له يعطى الراية لأبنه قيس.

فقيل: إنه لا يقبل منه.

فقال: هذه عمامتي، قولوا له: قد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، فلما رأى عمامته مع من جاء بها، علم أنه ليس له في إعطائه عمامته مقصود، إلا أن تكون علامة، ولم يكن قبل ذلك قد واطأه على ذلك. (١)

وكذلك لما أعطى أبا هريرة نعليه، ليخرج فيبشر الناس بما ذكره له فإنهم إذا رأوا معه نعليه، علموا أنه لم يعطه النعلين إلا علامة. (٢)

وكذلك قد يكون بين الشخص، وبين غيره، سر لم يطلع عليه المرسل فيقول له: أعطني علامة

فيقول: قل له بعلامة ما تكلمت أنت وهو في كذا وكذا، أو ما فعلت أنت وهو كذا وكذا.

---

(١)انظر: " الإصابة في تمييز الصحابة " لأبن حجر، و " الاستيعاب في معرفة الأصحاب " لابن عبد البر.

(٢)وهو جزء من حديث طويل أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة حين أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم نعليه وقال له: " اذهب بنعلى هاتين، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة " انظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، وهذا الحديث يفتح باب الرجاء والأمل في رحمة الله وعفوه ومغفرته، ويقطع دابر كلام من يكفرون الناس من الموحدين ويبدعونهم بسبب المخالفة في الآراء.

فيعلم المرسَل إليه، أن المرسِل هو أعلم هذا الرسول بهذا الأمر، إذ كان غيره لم يعلمه، ويعلم أنه ليس له في إعلامه به مقصود، إلا أن يكون علامة له على تصديقه.

ثم أكثر هذه الآيات، التي هي علامات للناس، يرسلونها مع من يرسلونه، ليُعرف صدقه: هي قطعية عند المستدل بها، المرسل إليه من الأهل، والأصدقاء، والوكلاء، والنواب، وغيرهم، يأتيهم الرجل بعلامة، وهي مستدلة على صاحبهم، فيعلمون قطعاً، أن هذا جاء من عنده، ويعلمون قطعاً، أنه لم يرسله بتلك العلامة، إلا ليعلموا صدقه.

لا يخطر لسعد بن عبادة، حين رأى عمامة النبي صلى الله عليه وسلم معهم أنهم أخذوها بغير قصده، بأن تكون سقطت منه ونحو ذلك.

بل قد علم أنها كانت على رأسه، وهو راكب في الجيش، وقد أرسلها مع هذا.

وكذلك خاتم الشخص، الذي يعلمون أنه لا ينزع خاتمه من يده، ويعطيها لغيره، ليعبث بها عنه، وهو لا يختم بها شيئاً إلا لذلك.

وقد يقع في مثل ذلك إحتمالات، فيستعمل المستدلون التقسيم، فإن الإستدلال مداره، على أنه أرسله بالعلامة، وأنه إنما أرسله بها ليبين صدقه.

فقد يعرض في المقدمة الأولى: أنه أخذها بغير اختياره، أو أن الخاتم سقط منه أو إن كان مسافراً أنه قتل، أو مات، فقد يقع مثل ذلك.

وقد يؤخذ خاتم الرجل بغير أمره، ويختم به كتابه، كما حكى أن مروان فعل مثل ذلك بعثمان.

والمقدمة الثانية: أنه قد يرسله بالخاتم، ليختم به شيئاً، أو ليصلحه ونحو ذلك.

فإذا عرض مثل هذا الإحتمال، وقوى، توقفوا.

وإن عرفوا إنتفاء ذلك، مثل: أن يكون قد ذهب من عندهم قريباً وليس له ما يختم به، ونحو ذلك، قطعوا بأنه أرسله علامة.

ثم بعد هذا، قد يعلمون أنه أرسله، لكن قد يكذب عليه، ولكن العهدة في هذا على المرسِل، فإن إرسال العلامة، هو إعلام منه لهم بأني أرسلته إليكم.

فهذا الفعل، هو مثل هذا القول، يجري مجرى إعلامهم وإخبارهم بأنه أرسله، وتصديقه في قوله: هو أرسلني.

والإخبار تارة يكون: بالقول.

وتارة يكون: بالعمل.

كما يعلم الرجل غيره: بالإشارة بيده،ورأسه، وعينه، وغير ذلك،وإن لم يتقدم بينهما مواضعة، لكن يعلم قصده ضرورة، مثل: أن يسأله عن شيء: هل كان؟ فيرفع رأسه، أو يخفضه، أو يشير بيده، أو يكون قائماً، فيشير إليه: اجلس، أو قاعداً مطلوباً، فيشير إليه: أن اهرب، فقد جاء عدوك، أو نحو ذلك من الإشارات، التي هي أعمال بالأعضاء.

وهي تدل دلالة ضرورية، تعلم من قصد الدال، كما يدل القول، وقد تكون أقوى من دلالة القول، لكن دلالة القول أعم وأوسع، فإنه يدل على الأمور الغائبة، وعلى الأمور المعضلة.

وهذه الأدلة العيانية، هي أقوى من وجه، ولكن ليس فيها من السعة للمعاني الكثيرة ما في الأقوال

فصل

الدليل مستلزم للمدلول

وخاصة الدليل أن يكون مستلزما للمدلول، فكل ما استلزم شيئاً، كان دليلاً عليه، ولا يكون دليلاً إلا إذا كان مستلزماً له.

ثم دلاله الدليل تعلم، كما يعلم لزوم اللازم للملزوم، وهذا لابد أن يعلم بالضرورة، أو بدليل ينتهي إلى الضرورة.

وعلى هذا، فآيات الأنبياء، هي أدلة صدقهم، وهي ما يستلزم صدقهم ويمتنع وجوده بدون صدقهم، فلا يمكن أن يكون ما يدل على النبوة موجوداً بدون النبوة.

ثم كونه مستلزماً للنبوة، ودليلاً عليها، يعلم بالضرورة، أو بما ينتهي إلى الضرورة.

فآيات الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، لا تحد بحدود يدخل فيها غير آياتهم كحد بعضهم، كالمعتزلة وغيرهم، بأنها خرق العادة ولم يعرف مسمى هذه العبارة.

بل ظن أن خوارق السحرة، والكهان، والصالحين، خرق للعادة فكذبها.

وحد بعضهم بأنها الخارق للعادة، إذا لم يعارضه أحد، وجعل هذا فصلاً احترز به عن تلك الأمور.

فقال: المعجزة: هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل، مع عدم المعارضة وجوز: أن يأتي غير الأنبياء بمثل ما أتوا به سواء، مع المعارضة.

وجعل ما يأتي به الساحر، والكاهن، معجزات، مع عدم المعارضة وحقيقة المعجز هذا، ما لم يعارض، ولا حاجة إلى كونه خارقاً للعادة، بل الأمور المعتادة إذا لم تعارض كانت آية.

وهذا باطل قطعاً.

ثم مسيلمة، والأسود العنسي، وغيرهما، لم يعارضوا.

ثم يقال: ما يعني بعدم المعارضة في ذلك المكان والزمان، فالسحرة والكهان، لا يعارضون، والعنسي، ومسيلمة، لم يعارضا في مكانهم ووقت إغوائهم.

وإن قال: لا يعارض البتة، فمن أين يعلم هذا العدم؟.

فإن قيل: فما آيات الأنبياء؟

قيل: هي آيات الأنبياء، التي تعلم أنها مختصة بالأنبياء، وأنها مستلزمة لصدقهم، ولا تكون إلا مع صدقهم.

وهي لا بد أن تكون خارقة للعادة، خارجة عن قدرة الإنس والجن ولا يمكن أحداً أن يعارضها.

لكن كونها خارقة للعادة، ولا تمكن معارضتها، هو من لوازمها، ليس هو حداً مطابقاً لها.

والعلم بأنها مستلزمة لصدقهم، قد يكون ضرورياً، كانشقاق القمر،وجعل العصا حية، وخروج الناقة.

فمجرد العلم بهذه الآيات، يوجب علماً ضرورياً، بأن الله جعلها آية لصدق هذا الذي استدل بها.

وذلك يستلزم أنها خارقة للعادة، وأنه لا يمكن معارضتها، فهذا من جملة صفاتها، لا أن هذا وحده كافٍ فيها.

وهذا إذا قال من قال: أن فلاناً أرسلني إليكم، فإنه يأتي بما يعلم أنه علامة.

والعلامة، والدليل، والآية، حدها: أنها تدل على المطلوب، وآيات الأنبياء تدل على صدقهم.

وهذا لا يكون إلا مع كونها مستلزمة لصدقهم، فيمتنع أن تكون معتادة لغيرهم، ويمتنع أن يأتي من يعارضهم بمثلها، ولا يمتنع أن يأتي نبي آخر بمثلها، ولا أن يأتي من يصدقهم بمثلها، فإن تصديقه لهم يتضمن صدقهم، فلم يأت إلا مع صدقهم.

وقد تكون الآيات تدل على جنس الصدق، وهو صدق صاحبها، فيلزم صدقه، إذا قال: أنا نبي، ولكن يمتنع أن يكون لكاذب.

فهذا ونحوه، مما تنكشف به حقيقة هذا الباب، وهو من أهم الأمور وإذا فسر خرق العادة، بأنها: خرق لعادات غير الأنبياء، أي لا يكون لغير جنسهم، وجنس من صدقهم، وفسر عدم المعارضة، بأنه لا يقدر أن يأتي بها من ليس بنبي، أو متبع لنبي، كان المعنى واحداً، واتحدت التفاسير الثلاثة.

فصل
دلالات الخالق لعباده

والله سبحانه، دل عباده بالدلالات العيانية المشهودة، والدلالات المسموعة، وهي كلامه.

لكن عامتهم، تعذر عليهم أن يسمعوا كلامه منه، فأرسل إليهم بكلامه رسلاً، وأنزل إليهم كتباً.

والمخلوق إذا قصد إعلام من يتعذر أن يسمع منه، أرسل إليه رسلاً وكتب إليه كتباً، كما يفعل الناس ولاة الأمور، وغيرهم، يرسلون إلى من بعد عنهم رسولاً، ويكتبون إليه كتباً.

ثم إنه سبحانه، جعل مع الرسل آيات، هن علامات، وبراهين هي أفعال يفعلها مع الرسل، يخصهم بما لا يوجد لغيرهم، فيعلم العباد لاختصاصهم بها، أن ذلك إعلام منه للعباد، وإخبار لهم، أن هؤلاء رسلي، كما يعلمهم بكلامه المسموع منه، ومن رسوله.

ولهذا قد يعلم برسالة رسول، بإخبار رسول أخبر عنه (١)، وقد يخبر عن إرساله بكلامه، لمن سمع كلامه منه، كما أخبر موسى، وغيره بالوحي الذي يوحيه إليهم.

فآيات الأنبياء، هي علامات وبراهين من الله، تتضمن إعلام الله لعباده، وإخباره.

فالدليل، وهو الآية والعلامة، لا يدل، إلا إذا كان مختصاً بالمدلول عليه، مستلزماً له.

إما مساوياً له، وإما أخص منه، لا يكون أعم منه، غير مستلزم له فلا يتصور أن يوجد الدليل بدون المدلول عليه.

فالآيات التي أعلم الله بها رسالة رسله، وصدقهم، لابد أن تكون مختصة بهم، مستلزمة لصدقهم.

فإن الإعلام، والإخبار، بأن هذا رسول، وتصديقه في قوله: إن الله أرسلني، لا يتصور أن يوجد لغير رسول.

والآيات التي جعلها الله علامات، هي أعلام بالفعل، الذي قد يكون أقوى من القول.

---

(١)وهو يشير هنا إلى بشرى سيدنا عيسى عليه السلام بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما أخبر القرآن الكريم (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (٦) سورة الصف

فلا يتصور، أن تكون آيات الرسول، إلا دالة على صدقهم، ومدلولها أنهم صادقون، لا يجوز أن توجد بدون صدق الرسل البتة.

وكون الرب أراد بها إعلام عباده بصدقهم، وصدقهم بها في إخبارهم أنه أرسلهم، وكونها آية، وعلامة على صدقهم، أمر يعلم، كما تعلم دلالة سائر الأدلة، كما يعلم من الرجل أصدقاؤه، ووكلاؤه أنه أرسل هذا بهذه العلامات.

فتارة: يعلم ذلك بالضرورة، بعد تصور الأمر.

وتارة: يحتاج إلى نظر، هل هذه العلامة منه؟ أو من غيره؟ وهل هو أرسله بها أو غيره؟ وهل قصد بها الإعلام والتصديق أم لا؟ وهل يعلم من حال الذاكر، أنه أرسله، أنه صادق؟

فقد يرسل من يعلمون هم صدقه، وأنه لا يكذب، فيعلمون صدقه بمجرد قوله: هو أرسلني من غير آية ولا علامة.

ولهذا، إذا قال من صَدقه: إنه رأى رؤيا صِدقهُ، وجزم بِصدقهِ من قد خَبَرَّ صدقه.

والرؤيا: جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة (١).

وكذلك لو أخبر بغير ذلك، كما أخبر عمران بن حصين، أن الملائكة تسلم عليه، فلم يشك الذين أخبرهم في صدقه، من غير آية.

فمن كان يعلم صدق موسى، والمسيح، ومحمد، وغيرهم، وأنهم لا يكذبون في أخف الأمور.

فكيف بالكذب على الله، إذا أخبرهم أحدهم، بما جاءه من الوحي والرسالة، وما غاب من الملائكة.

فإنه قد يجزم بصدقه، من غير آية، لاسيما إن كان ما يقوله لهم، مما يؤيد صدقه.

ولهذا لم يكن من شرط الإيمان بالأنبياء وجود الآيات، بل قد يعلم صدقهم بدون ذلك، كما قد بين في موضع آخر.

وتارة يحتاجون إلى العلامة، وتارة يعلمون كذبه، بأن يذكر عن صاحبهم، ما يعلمون هم خلافه، ويصفه بما علموا نقيضه.

---

(١)وهو يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، كتاب: التعبير، باب رؤيا الصالحين / ومسلم، كتاب: الرؤيا / والإمام أحمد في مسنده / وفيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " رؤيا المؤمن جزء من ستةٍ وأربعين جزءاً من النبوة ".

وقد يظهر لهم من قصده، أنه كذاب ملبس، طالب أغراض له، إما مال يعطونه، أو ولاية يولونه، أو امرأة يزوجونه بها، أو غير ذلك من أغراض النفوس.

فيسألونه عن مقصوده؟

فإذا عرفوا مقصوده، فقد يعلمون كذبه أو صدقه.

ومثل هذا كثير في عادات الناس، فكثيراً ما يجيء الرجل بما يزعم أنه علامة، وتكون مشتركة.

فيقال له: ما تريد؟

فيذكر مراده، فيعلمون كذبه.

فدلائل الصدق والكذب، لا تنحصر كدلائل الحب والبغض، هي كثيرة جداً.

وهذا يعرفه من جرب عادات الناس.

فصل

آيات الأنبياء دلـيل وبرهان

فالآيات التي تكون آيات للأنبياء، هي دليل وبرهان.

والله تعالى سماها برهاناً في قوله لموسى (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)(١)

وهي: العصا، واليد.

وسماها برهاناً، وآيات، في مواضع كثيرة من القرآن (٢).

فحدها: حد الدليل والبرهان.

وهي أن تكون مستلزمة لصدق النبي، فلا يتصور أن توجد، مع انتفاء صدق من أخبر أن الله أرسله، فليس له إلا حالان:

- إما أن يكون الله أرسله، فيكون صادقاً.
- أو لا يكون أرسله، فلا يكون صادقاً

فآيات الصدق، لا توجد إلا مع أحد النقيضين، وهو الصدق، لا توجد قط مع الآخر، وهو إنتفاء الصدق،كسائر الأدلة، التي هي البراهين، والآيات، والعلامة، فإنها لا توجد إلا مع تحقق المدلول عليه.

لا توجد مع عدمه قط، إذ كانت مستلزمة له، يلزم من وجود الدليل وجود المدلول عليه.

فلا يوجد الدليل، مع عدم المدلول عليه، فلا توجد آياتهم، مع عدم صدقهم.

فيجب أن يتصور هذا الموضع، فإنه حق معلوم بعد تصوره لكل العقلاء بالضرورة.

فلا يمكن أحداً كذَّب النبي، أن يأتي بمثلها، فإنه لو أتى بمثلها، مع تكذيب النبي، لكانت قد وجدت مع قوله: إني صادق، ومع قول هذا المكذب: إنه كاذب.

---

(١)سورة القصص: أية رقم (٣٢)

(٢)كما في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا)(١٧٤) سورة النساء/ وقوله تعالى (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ) (٦٤) سورة هود

فلم تختص بصدقه، ولم تستلزمه، فلا يلزم إذا قال: إني صادق أن يكون صادقاً.

وهذا قد أتى، بمثل ما أتى به، وقال: إنه كاذب.

ولا يكون إعلاماً من الله لعباده، وإخباراً لهم بأني أرسلته، ولا تصديقا له، كما لو قال رجلاً: إن فلاناً أرسلني، وجاء بعلامة، ذكر أنه خصه بها.

مثل أن يقول: العلامة أنه أعطاني خاتمه.

فيقول المكذب: وأنا أيضاً أعطاني خاتمه الأخرى لأصلحها له أو لأختم بها كذا، وأنت إنما أعطاك خاتمه لتصلحها، أو أن تختم بها. فإذا أتى المكذب له، بمثل ما أتى به، امتنع كونها آية.

ولكن لو كان قد جاء بالخاتم غيره، لأمر آخر أرسله له، لم يمتنع ذلك بل قد جرت عادته معهم، بأنه من أرسله، يرسل معه خاتمه.

فقد صار إرسال الخاتم عادة له، يدل على صدق من أرسله، فهو يميز رسله بالخاتم.

لا يخص بها واحداً منهم، وهي عادة منه لرسله، ليست لغيرهم لا عادة، ولا غير عادة.

فهذا شأن الآيات والعلامات، التي يقصد الدال بها أن يدل بها

فصل
الأقوال في الآيات والبراهين والخوارق

والله تعالى سماها: آيات، وبراهين، وهو اسم مطابق لمسماه مطرد لا ينتقض، فلا تكون قط، إلا آيات لهم وبراهين.

وأما تسميتها بخرق العادة، فللناس في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ذلك حد لها، مطرد منعكس، فكل خرق: هو معجزة للنبي فهو خرق عادة.

والثاني: أن خرق العادة شرط فيها، وليس بحد لها، فيجب أن تكون خارقة لعادة.

ولكن ليس كل خارق للعادة، يكون آية لنبي، كأشراط الساعة بل أن يقع على وجه مخصوص، مثل: دعوى النبوة، والاستدلال بها والتحدي بمثلها، مع عجز الناس عن معارضته.

والقول الثالث: إن كونها خارقة للعادة، ليس بحد، ولا شرط.

قال القاضي أبو بكر، في مناظرته في الكرامات: ويقال لهم أيضاً، إن من الناس، من لا يشترط في الآية المعجزة، أن تكون خارقة للعادة.

ويقول: إنما تكون آية، إذا كانت من فعل الله، مع التحدي بمثلها ودعوى النبوة.

فدلالتها على وجه، لا يمكن أن يشترك في إدعائه الصادق والكاذب فإذا ظهرت على هذا الوجه، كانت آية لمن فعلت على يده.

قال المجيبون بهذا: ولهذا لم تكن أشراط الساعة آية لأحد، وإن خرقت العادة، إذ لم يكن معها دعوى نبوة.

ولأن موت زيد عند قول الرسول: آيتي أن يميت الله زيداً عند دعائي موته.

فإذا مات عند دعوته، صار ذلك آية له، وإن كان فعل الموت في الإنسان وغيره من الحيوان معتاداً.

قال: إن قالوا: لو كان كذلك، لكان من قال: آيتي أن تطلع الشمس وتغرب، ويأتي الليل والنهار، والضياء والظلام، وفعل ذلك مع دعواه الرسالة، كان آية له، وإن لم يكن المفعول من ذلك خارقاً للعادة.

فلما لم يكن كذلك، وإن كان واقعاً من فعل الله، مع دعوى النبوة لكونه غير خارق للعادة، بطل ما قلتموه.

يقال لهم: قد أجبنا عن هذا، حين قلنا: ويكون الواقع من فعل الله مع دعوى النبوة، مما لا يشترك فيه الصادق والكاذب، ويستوي مع ظهوره دعوى المحق والمبطل، وطلوع الشمس وغروبها.

ولو قال النبي: آيتي أن يظلنا السحاب الساعة، وتزلزل الأرض وتحدث الأمطار، بدعوى، فحدث ذلك، لكان آية له.

وإن كان مثل ذلك، قد يحدث في العصر، ويشاهد.

فإذا قال المتنبي: إنني معارضهُ، وآيتي في كوني نبياً، ظهور مثل ذلك منع منه، ولم يحدث.

قلت: هذا الذي ذكروه، هو أيضاً خرق للعادة، فإن ظهور مثل ذلك، على هذا الوجه، مما لم تجرِ به العادة.

وهو نفسه القاضي أبو بكر، في هذا الكتاب، كتاب البيان عن الفرق بين: المعجزات، والكرامات، والحيل، والكهانة، والسحر والنيرنجيات.

قد قال: قيل: هذا باب القول في معنى العادة وانخراقها، والعادة التي إذا انخرقت، دلت على صدق الرسل، والإعتياد للأمر، وتفصيل ذلك وتنزيله.

واعلموا رحمكم الله: أن الكل من سائر الأمم، قد شرطوا في صفة المعجز: أن يكون خارقاً للعادة.

وإذا كان ذلك واجباً، وجب معرفة هذه العادة، ومعرفة إنخراقها،فقد حكي هنا الإجماع، وهناك صرح بالإختلاف، وقوى ذلك القول.

وسبب ذلك: اضطرابهم في معنى العادة، وانخراقها، فإن كل قوم يفهمون غير ما يفهمه الآخرون، والله تعالى إنما سماها آيات.

وهذا القول الذي ذكره وقواه، وهو لا يشترط فيها أن تكون خارقة للعادة، هو حقيقة قول القاضي، وأمثاله من المتكلمين الأشعرية ومن وافقهم، كالقاضي أبي يعلى، وأمثاله.

فإن المعجزات عندهم، لا تختص بجنس من الأجناس المقدورات بل خاصتها أن النبي يحتج بها، ويتحدى بمثلها، فلا يمكن معارضته.

فاشترطوا لها وصفين: أن تكون مقترنة بدعوى النبوة، وجعلوا المدلول جزءا من الدليل، وأنها لا تعارض.

وبالأول: فرقوا بينها وبين الكرامات.

وبه وبالثاني: فرقوا بينها وبين السحر والكهانة.

وصرحوا: بأن جميع خوارق السحرة، والكهان، يجوز أن تكون معجزة لنبي.

لكن إذا كانت معجزة، لم تمكن معارضتها، فلو ادعى ساحر أو كاهن، النبوة، لكان الله يعجزه عن تلك الخوارق، التي علم أن غيره من السحرة والكهان يفعل مثلها، وليس بنبي.

وما يأتي به الأنبياء من المعجزات، جوزوا أن يأتي بمثله الساحر والكاهن، إلا ما منع منه السمع، للإجماع على أن الساحر لا يقلب العصا حية.

وهذا الفرق، ليس يختص به أحد النوعين، ولا ضابط له.

وصرحوا: بأنه لا يستثنى من الخوارق، إلا ما انعقد عليه الإجماع وصرحوا: بأن العجائب الطبيعية، مثل: جذب حجر المغناطيس الحديد، يجوز أن يكون معجزة، لكن بشرط: أن لا يعارض.

وكذلك الطلاسم، وكذلك الأمور المعتادة: يجوز أن تكون معجزة بشرط: أن يمنع غيره منها، فتكون المعجزة منع المعتاد.

فالخاصة عندهم فيها: أنها لا تعارض، وأنها تقترن بدعوى النبوة وقد يشترطون: أن تكون خارقة للعادة.

لكن يكتفون بمنع المعارض، فهو وحده خرق للعادة، فلا يشترطون هذا وهذا.

وقد اشترط القاضي أبو بكر: أن يكون مما يختص الرب بالقدرة عليه.

ولا حقيقة له، فإن جميع الحوادث كذلك عندهم، وكل ما خرج عن محل قدرة العبد، فالرب عندهم مختص بفعله، كخوارق السحرة والكهان.

وحقيقة الأمر: أنه لا فرق عندهم بين المعجزات والكرامات، والسحر والكهانة.

لكن هذه إذا لم تقترن بدعوى النبوة: لم تكن آية.

وإذا اقترنت بها: كانت آية، بشرط: أن لا تعارض.

ثم إنه لما أثبت النبوة، قال: إنه يجوز على النبي، فعل كل شيء من الكبائر، إلا أن يمنع من ذلك سمع.

كما قال: كل ما كان معجزة للأنبياء، يجوز أن يأتي به الساحر إلا أن يمنع منه سمع، إذ كان في نفس الأمر، لا فرق بين فعل وفعل، بل يجوز من الرب كل شيء.

فيجوز أن يبعث كل أحد، ولا يقيم على نبوته دليلاً.

هذا حقيقة قولهم: أنه يجوز أن يبعث كل أحد، وإنه إذا بعثه لا يقيم دليلاً على نبوته، بل يلزم العباد بتصديقه، بلا دليل يدلهم على صدقه.

فإن غاية هذا: تكليف مالا يطاق، وهم يجوزونه.

وهذا الذي قالوه باطل، من وجوه متعددة، قد بسطت في غير هذا الموضع منها: أنهم جعلوا المدلول عليه، وهو إخبارا لنبي بنبوته وشهودها، وثبوتها، جزءاً من الدليل.

قالوا: لأنها لو كانت معجزة لجنسها، لم تقع إلا معجزة والخوارق التي تكون أمام الساعة، ليست معجزة لأحد، فعلم أن الدليل، هو مجموع دعوى النبوة والخارق.

والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن تلك من آيات الله تعالى، فالخوارق التي لا يقدر عليها العباد، كلها آيات الله تعالى، وهي دالة على ما تظهر دلالتها عليه تارة تكون تخويفا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، يخوف بهما عباده "(١).

والتخويف يتضمن: الأمر بطاعته، والنهي عن معصيته.

وأشراط الساعة آيات على قربها، وعلى جزاء الأعمال، وهو يتضمن: الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية.

والثاني: أن يقال: هي آيات على صدق الأنبياء، فإنهم أخبروا بها، وهي آية على ما اخبروا به، وعلى صدقهم.

وأيضاً: فأن عامة معجزات الرسول، لم يكن يتحدى بها، ويقول: "ائتوا بمثلها".

---

(١)حديث شريف رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، كتاب: صلاة الكسوف.

والقرآن إنما تحداهم لما قالوا:"إنه افتراه" ولم يتحداهم به إبتداءً، وسائر المعجزات لم يتحد بها.

وليس فيما نقل: تحد إلا بالقرآن، لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء، فهذا لازم لها، لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره.

وأيضا: فمن آيات الأنبياء: ما كان قبل ولادتهم، وقبل إنبائهم وما يكون بعد موتهم، فإن الآية دليل على صدق الخبر بأنه رسول الله. وهذا الدليل لا يختص لا بمكان، ولا زمان، ولا يكون هذا الدليل إلا من جنسٍ لا يقدر عليه الإنس كلهم، ولا الجن.

فلابد أن يكون جنسه معجزاً، أعجز الأنس والجن.

وأما قولهم: خاصة المعجز عدم المعارضة، فهذا باطل.

وإن كان عدم المعارضة لازماً له، فإن هذا العدم لا يعلم، إذ يمكن أن يعارضه من ليس هناك، إذا كان مما يعلم أنه معتاد مثل: خوارق السحرة والكهان، فإنه وإن لم يمكن أن يعارض في هذا الموضع، ففي السحرة والكهان من يفعل مثلها، مع أنه ليس بنبي.

ودليل النبوة، يمتنع ثبوته بدون النبوة.

وإذا قالوا: الدليل هو: مجموع الدعوى والدليل، تبين خطأهم وأن القوم لم يعرفوا دلائل النبوة، ولا أقاموا دليلا على نبوة الأنبياء كما لم يقيموا دليلاً على وجود الرب.

فليس في كتبهم ما يدل على الرب تعالى، ولا على رسوله، مع أن هذا، هو المقصود من أصول الدين.

وأيضا: فمسيلمة، والعنسي، لم يكن عندهما من يعارضهما.

وأيضاً: فالمعارض إن اعتبروه في المدعوين، وهذا مقتضى في خرق العادة، وإن العادات تختلف، فلكل قوم عادة.

قالوا: فالمعتبر خرق عادة من أرسل إليهم.

وعلى هذا، فإذا أرسل إلى بني إسرائيل، ففعل ما لم يقدروا عليه كان آية، وإن كان ذلك مما يقدر عليه العرب، ويقدر عليه السحرة والكهان.

وصرحوا: بأن السحر الذي قال الله فيه (وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)(١)

يجوز أن يكون من معجزات الأنبياء، إذا لم يعارض.

وقد قال الرازي: أن السمعيات لا يحتج بها، لأن دلالتها مشروطة بعدم المعارض العقلي، وذلك غير معلوم.

وكذلك يقال في معجزات هؤلاء، أن خاصتها عدم المعارضة، فإن اعتبروا، أن أحداً من الخلق لا يعارض، فهذا لا يعلم.

وإن اكتفوا بأن لا يعارض في ذلك المكان والزمان، فكثير من الصناعات، والعجائب، والعلوم، من هذا الباب، وهم لا ينكرون هذا، بل يقولون المعجز: هو هذا، مع دعوى النبوة.

وقد تبين أن الشيء في نفسه، إذا لم يكن دليلاً، لم يصر دليلاً باستدلال المستدل به.

بل هو في نفسه دليل، وإن لم يستدل به، إذا كان الدليل هو المستلزم للمدلول، فدليل صدق النبي، هو يدل على أنه نبي، وأن الخبر بنبوته صدق.

وإن كان هو لا يستدل بذلك، ولا يتحدى بمثلها، وقد لا يخبر بنبوة نفسه، ويكون له دلائل تدل على نبوته، كما كانت قبل أن يولد، وفي الأمكنة البعيدة.

فتبين أن قول هؤلاء، هو أنه لا يعلم ما يستدل به على نبوة الأنبياء وهذا إذا انضم إلى أصلهم، وهو أن الرب يجوز عليه فعل كل شيء صارا شاهدين، بأنه على أصلهم، لا دليل على النبوة.

إذ كان عندهم، لا فرق بين فعل من الرب، وفعل.

وعندهم: لا فرق بين جنس وجنس، في اختصاصه بالأنبياء به فليس في أجناس المعقولات، ما يكون آية تختص بالأنبياء، فيستلزم نبوتهم.

بل ما كان لهم، قد يكون عند غيرهم، حتى السحرة والكهان وهم أعداؤهم.

---

(١)سورة البقرة: أية رقم (١٠٢)

وفرقوا بعدم المعارض، وهذا فرق غير معلوم، وهو مجرد دعوى.

قالوا: لو ادعى الساحر، والكاهن، النبوة، لكان الله ينسيه الكهانة والسحر، ولكان له من يعارضه، لأن السحر والكهانة، هي معجزة عندهم.

وفي هذه الأقوال من الفساد عقلاً وشرعاً، ومن المناقضة لدين الإسلام وللحق، ما يطول وصفه.

ولا ريب أن قول من أنكر وجود هذه الخوارق، أقل فساداً من هذا.

ولهذا يشنع عليهم ابن حزم، وغيره، بالشناعات العظيمة.

ولهذا يقيم أكابر فضلائهم مدة، يطلبون الفرق بين المعجزات والسحر فلا يجدون فرقاً، إذ لا فرق عندهم في نفس الأمر.

والتحقيق: أن آيات الأنبياء، مستلزمة للنبوة، ولصدق الخبر بالنبوة فلا يوجد إلا مع الشهادة للرسول، بأنه رسول.

لا يوجد مع التكذيب بذلك، ولا مع عدم ذلك البتة، وليست من جنس ما يقدر عليه، لا الإنس، ولا الجن.

فإن ما يقدر عليه الإنس والجن يفعلونه، فلا يكون مختصاً بالأنبياء.

ومعنى كونها خارقة للعادة: أنها لا توجد إلا للنبوة، لا مرة، ولا أقل ولا أكثر، فالعادة هنا، تثبت بمرة.

والقاضي أبو بكر يقول: إن ما فعل مرات يسيرة، لا يكون معتاداً.

وفي كلامه في هذا الباب، من الاضطراب ما يطول وصفه، وهو رأس هؤلاء الذين اتبعوه، كالقاضي أبي يعلى، وأبي المعالي والرازي، والآمدي، وغيرهم.

وما يأتي به السحرة والكهان، يمتنع أن يكون آية لنبي، بل هو آية على الكفر.

فكيف يكون آية للنبوة، وهو مقدور للشياطين؟

وآيات الأنبياء، لا يقدر عليها جن، ولا إنس.

وآيات الأنبياء، آيات لجنسها، فحيث كانت آيةً لله، تدل على مثل ما أخبرت به الأنبياء.

وإن شئت قلت: هي آيات لله، يدل بها على صدق الأنبياء تارة وعلى غير ذلك تارة.

وما يكون للسحرة والكهان، لا يكون من آيات الأنبياء، بل آيات الأنبياء مختصة بهم.

وأما كرامات الأولياء، فهي أيضاً من آيات الأنبياء، فإنها إنما تكون لمن تشهد لهم بالرسالة، فهي دليل على صدق الشاهد لهم بالنبوة. وأيضاً: فإن كرامات الأولياء، معتادة من الصالحين، ومعجزات الأنبياء فوق ذلك.

فإنشقاق القمر، والإتيان بالقرآن، وانقلاب العصا حية، وخروج الدابة من صخرة، لم يكن مثله للأولياء.

وكذلك خلق الطير من الطين.

ولكن آياتهم صغار، وكبار، كما قال تعالى (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى) (١) فلله تعالى آية كبيرة وصغيرة.وقال عن نبيه محمد:(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(٢)

فالآيات الكبرى مختصة بهم، وأما الآيات الصغرى، فقد تكون للصالحين، مثل: تكثير الطعام، فهذا قد وجد لغير واحد من الصالحين.

لكن لم يوجد كما وجد للنبي صلى الله عليه وسلم أنه أطعم الجيش من شيء يسير.

فقد يوجد لغيرهم، من جنس ما وجد لهم، لكن لا يماثلون في قدره، فهم مختصون، إما بجنس الآيات، فلا يكون لمثلهم، كالإتيان بالقرآن (٣) وانشقاق القمر(٤)، وقلب العصا حية(٥)، وانفلاق البحر (٦) وأن يخلق من الطين كهيئة الطير(٧) وإما بقدرها وكيفيتها، كنار الخليل(٨).

---

(١)سورة النازعات: أية رقم (٢٠)

(٢)سورة النجم: أية رقم (١٨)

(٣) قال تعالى (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٨٨) سورة الإسراء

(٤) قال تعالى(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ) (١) سورة القمر.

(٥) قال تعالى (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) (٣٢) سورة الشعراء.

(٦) قال تعالى (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) (٦٣) سورة الشعراء

(٧) قال تعالى (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) (٤٩) سورة آل عمران

(٨) قال تعالى (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) (٦٩) سورة الأنبياء

فإن أبا مسلم الخولاني، وغيره، صارت النار عليهم برداً وسلاماً، لكن لم تكن مثل نار إبراهيم في عظمتها، كما وصفوها.

فهو مشارك للخليل في جنس الآية، كما هو مشارك في جنس الإيمان محبة الله، وتوحيده.

ومعلوم أن الذي امتاز به الخليل من هذا، لا يماثله فيه أبو مسلم وأمثاله وكذلك الطيران في الهواء، فإن الجن لا تزال تحمل ناساً، وتطير بهم من مكان إلى مكان.

كالعفريت الذي قال لسليمان (قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)[١]

لكن قول الذي عنده علم من الكتاب (قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [٢] لا يقدر عليه العفريت.

ومسرى النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس، ليريه الله من آياته الكبرى، أمر اختص به [٣].

بخلاف من يحمل من مكان إلى مكان، لا ليريه الله من آياته الكبرى، أمر اختص به، ولا يعرج إلى السماء.

فهؤلاء كثيرون، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن هؤلاء حقيقة قولهم، أنه ليس للنبوة آية تختص بها.

كما أن حقيقة قولهم: إن الله لا يقدر أن يأتي بآية تختص بها، وإنه لو كان قادراً على ذلك، لم يلزم أن يفعله، بل ولم يفعله فهذان أمران متعلقان بالرب

إذ هو عندهم، لا يقدر أن يفعل شيئاً لشيء.

والآية إنما تكون آية، إذا فعلها، لتدل، ولو قُدر أنه قادر، فهم يجوزون عليه فعل كل شيء، فيمكن أنه لم يجعل على صدق النبي دليلاً.

---

(١)سورة النمل: أية رقم (٣٩)

(٢)سورة النمل: أية رقم (٤٠)

(٣)قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) (١) سورة الإسراء

وأما الذي ذكرناه عنهم هنا، فإنه يقتضي: أنه لا دليل عندهم على نبوة النبي، بل كل ما قُدر دليلاً، فإنه يمكن وقوعه مع عدم النبوة فلا يكون دليلاً.

فهم هناك حقيقة قولهم: إنا لا نعلم على النبوة دليلاً.

وهنا حقيقة قولهم: إنه لا دليل على النبوة.

ولهذا كان كلامهم في هذا الباب، منتهاه التعطيل.

ولهذا عدل الغزالي، وغيره، عن طريقهم في الإستدلال بالمعجزات لكون المعجزات (على أصلهم) لا تدل على نبوة نبي، وليس عندهم في نفس الأمر معجزات.

وإنما يقولون: المعجزات علم الصدق، لأنها في نفس الأمر كذلك.

وهم صادقون في هذا، لكن على أصلهم ليست دليلاً على الصدق ولا دليل على الصدق.

فآيات الأنبياء، تدل على صدقهم، دلالة معلومة بالضرورة تارة وبالنظر أخرى.

وهم قد يقولون: إنه يحصل العلم الضروري، بأن الله صدقه بها.

وهي الطريقة التي سلكها أبو المعالي، والرازي، وغيرهما.

وهي طريقة صحيحة في نفسها، لكن تناقض بعض أصولهم.

فالقدح ليس في آيات الأنبياء، لكن في الأقوال الفاسدة، التي تناقض ما هو معلوم بالضرورة عقلاً، وما هو أصل الإيمان شرعاً.

ومن عرف تناقضهم في الإستدلال، يعرف أن الآفة في فساد قولهم لا في جهة صحة الدلالة.

فقد يظهر بلسانه ما ليس في قلبه، كالمنافقين الذين يقولون في أول سورة المنافقون:(إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ)(١)

ولقد صدق الإمام أحمد في قوله: علماء الكلام زنادقة.

وطريقة القرآن، فيها الهدى، والنور، والشفاء، سماها آيات وبراهين.

---

(١)سورة المنافقون: أية رقم (١)

فآيات الأنبياء مستلزمة لصدقهم، وصدق من صدقهم، وشهد لهم بالنبوة.

والآيات التي يبعث الله بها أنبياء، قد يكون مثلها لأنبياء أُخَر مثل: إحياء الموتى، فقد كان لغير واحد من الأنبياء.

وقد يكون إحياء الموتى، على يد أتباع الأنبياء، كما قد وقع لطائفة من هذه الأمة، ومن أتباع عيسى.

فإن هؤلاء يقولون: نحن إنما أحيا الله الموتى على أيدينا، لأتباع محمد، أو المسيح.

فبإيماننا بهم، وتصديقنا لهم، أحيى الله الموتى على أيدينا. فكان إحياء الموتى، مستلزماً لتصديقه عيسى ومحمداً، لم يكن قط مع تكذيبهما، فصار آية لنبوتهم.

وهو أيضاً: آية لنبوة موسى، وغيره من أنبياء بني إسرائيل، الذين أحيى الله الموتى على أيديهم.

وليس مدلول الآيات، هو مجرد دعواه أن الله أرسلني، وإخباره عن نفسه بذلك، لأن ذلك معلوم بالحس لمن سمعه، وبالتواتر لمن لم يسمعه، بل صدقه في هذا الخبر، وهو ثبوت نبوته.

فالآية مستلزمة لصدقه، وثبوت نبوته، ومن أخبر غيره عن إرسال الله له وأتى هذا المخبر بآية، كانت أيضاً آية على صدق هذا المخبر وثبوت نبوة النبي.

فإن من أخبر عن نبوة نبي من الأنبياء، وأتى بآية على صدقه في خبره، كانت تلك آية ودليلاً على نبوة النبي، وأن إخبار المخبر بنبوته صدق، بل كون غيره هو المخبر، الآتي بالعلامة أبلغ. ولهذا كانت من أعظم آيات النبي، إخبار غيره من الأنبياء بنبوته.

فإن قال آخر: إنه كذب، وأتى بمثل تلك الآية، بطلت الدلالة المعينة. ولا يلزم من بطلان دليل معين، بطلان سائر الأدلة، فان الدليل يجب طرده، ولا يجب عكسه.

ولو جاء من قال: إن فلاناً أرسلني، ومعه شخص فصدقه.

وقال: إنه أمرني أن أخبركم بأني رسوله، بعلامة كيت وكيت، لكان ذلك أبلغ.

وكل من علم صدق النبي، فقد صدقه، أنه أن يعلم الناس أن الله يشهد له بالنبوة، ويحكم بينه وبين منازعيه بتصديقه، وتكذيبهم. وذلك بآياته وعلاماته، يبين بها أنه مصدق للرسول.

وقد يصدقه بكلامه، الذي قد بين أنه كلامه، فكونه في نفسه آية وعلامة، إذ كان لا يمكن الجن والإنس أن يأتوا بمثله، فهو من أعظم الآيات، وبغير ذلك.

فالآيات كلها شهادة بالنبوة، وإخبار بها، وتصديق للمخبر، فهي تستلزم ثبوت النبوة في نفسها، وأن صاحب الآيات قد نبأه الله وأوحى إليه، كما أوحي إلى غيره من الأنبياء.

وتستلزم أيضاً: صدق الإخبار بأنه نبي، فهو إذا قال: إني نبي كان صادقاً.

وكذلك كل من أخبر بنبوته، فإنه يكون صادقاً، وثبوت الشيء، وصدق من أخبر به، متلازمان، فكل حق ثابت إذا أخبر به مخبر، فهو صادق.

وكل خبر صادق، فقد تحقق مخبره، فالخبر الصادق: هو ومخبره متلازمان يلزم من صدق الخبر: تحقق مخبره، ومن تحقق الشيء: صدق المخبر به.

بخلاف الكذب: فإنه ومخبره ليسا متلازمين، بل الخبر الكذب يوجد مع انتفاء مخبره.

والمخبر به: يتحقق على صفة خلاف ما في الخبر الكاذب.

فلهذا كانت الآيات، والعلامات، والدلائل، ونحو هذا، كما تدل على المدلول، وأنه حق ثابت.

فهي أيضاً تدل على صدق من أخبر به، كائنا من كان، فمن قال: إني ابن فلان، وقامت بينة بنسبه، فهي تثبت صدقه، وصدق كل من قال: هو ابن فلان.

وكذلك البينة، التي تشهد برؤية الهلال، هي تشهد بصدق كل من أخبر بطلوعه.

وكذلك كل دليل دل على مدلول، فهو دليل على صدق كل من أخبر بذلك المدلول عليه.

وكذلك إذا قال الصادق: إن الله أرسلني.

فهذا خبر منه عن إرسال الله.

فالآية الدالة على صدقه، تدل على صدق كل من قال: إن الله أرسله.

فالآيات الدالة على صدق محمد، إذا قال ما أمره الله به، في قوله:(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)[١]

هي دالة على صدق كل من قال: أشهد أن محمداً رسول الله.

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (١٥٨)

فجميع آياته، وآيات الأنبياء الذين أخبروا بنبوته، كموسى، والمسيح وأنبياء بني إسرائيل، وغيرهم.

كلها آيات ومعجزات، تبين صدق كل واحد من المؤمنين به الذين يقول أحدهم: أشهد أن محمداً رسول الله، سواء قالها مجردة، أو قالها في صلاته، أو عقب طهارته، أو متى ما قالها.

ليست آيات النبوة، دالة على أنه وحده هو الصادق في قوله:(إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)(١) بل الآيات تصدقه، وتصدق كل من شهد له بالرسالة.

وهكذا سائر الأدلة، الدالة على مدلول، فإنها تدل على صدق من أخبر بذلك المدلول عليه، من جميع الخلق.

وقد عرف أن الدليل، لابد أن يكون مختصا بالمدلول عليه، مستلزما له، فآيات الأنبياء، وسائر أنواع الآيات والأدلة، لا تكون مع نقيض المدلول عليه، أي مع عدمه.

فإنها إذا كانت مع وجوده وعدمه، لم تكن دالة على وجوده ولا على عدمه.

ولم يكن الإستدلال بها على وجوده أولى به، من الإستدلال على عدمه، كالأمور المعتادة، التي توجد مع الصادق والكاذب، كطلوع الشمس وغروبها، فإن هذه لا تدل على صدق أحد، ولا كذبه.

وكذلك خوارق السحرة، والكهان، هي معتادة، مع صدق أحدهم ومع كذبه، فلا تدل على الصدق، إذ كان كذبهم أكثر من صدقهم كالذين يخبرون بكلمة صدق، وعشر كذب.

قال تعالى(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(٢) فكيف إذا كان مع الصدق، مائة كذبة.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، لما سئل عن الكهان، كما روى البخاري في صحيحه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سأل ناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليسوا بشيء.

قالوا: يا رسول الله، فإنهم يحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً.

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (١٥٨)

(٢)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٣)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلك الكلمة من الحق، يحفظها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة " (١).

فيلزم من هذا، أن آيات الأنبياء، لا يكون مثلها لمن يكذبهم، وهو الذي يخبر بكذبهم.

والناس فيهم رجلان: إما مصدق، وإما مكذب.

فالمكذب لهم: يمتنع أن يأتي بمثل آياتهم، ومتى كذب مكذب لمدعي النبوة، وأتى بمثل آيته، سواء دل على أن تلك ليست من آيات الأنبياء، ولا تدل على صدق النبي.

لكن لا يلزم أن تدل على كذبه، فإن الدليل المعين، إذا بطل، لا يستلزم إنتفاء المدلول عليه، فقد تكون له آيات أُخَر تدل على نبوته.

وصدق الصادق، وكذب الكاذب، يعرف بوجوه كثيرة جداً. وكذلك النبوة، لها آثار مستلزمة لها، بدون إخبار النبي بأنه نبي.

وكذب "المتنبي" الذي يزين له الشيطان أن يقول: إنه نبي، له آثار تستلزم إنتفاء النبوة، وأنه كاذب، إما عمداً، وإما أن الشيطان قد لبس عليه. فإن الخبر عند كثير من الناس، ينقسم إلى: صدق.... وكذب.

فالمطابق: هو الصدق.

والمخالف: هو الكذب.

وأثبت بعضهم واسطة بين الصدق والكذب، وهو ما لم يتعمده الإنسان.

قال: فهذا ليس بصدق، لأنه غير مطابق، وليس بكذب، لأن صاحبه لم يتعمد الكذب، بل أخطأ.

وليس كل من أخطأ، يقال: إنه كاذب، كالناسي في الصلاة، إذا قال: صليت أربعاً، ولم يصل إلا ثلاثاً.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، لما قال له ذو اليدين: " أقصرت الصلاة، أم نسيت.

فقال: لم أنس، ولم تقصر.

---

(١) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، وكذلك كتاب الطب، باب الكهانة / ومسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة.

فقال: بلى، قد نسيت.

فقال: أكما يقول ذو اليدين.

قالوا: نعم " (١).

والذي يدل عليه القرآن، أن كل من تكلم بلا علم، فأخطأ، فهو كاذب، كالذين حرموا، وحللوا، وأوجبوا، وإن كان الشيطان قد زين لهم ذلك، وأوهمهم أنه حق.

ولهذا قال الله تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(٢)

وهي تتنزل على من يظن أنه يصدقها.

قال تعالى (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)(٣)

وقال تعالى(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(٤)

وكذلك الذي يدل عليه الشرع: أن كل من أخبر بخبر، ليس له أن يخبر به، وهو غير مطابق، فإنه يسمى كاذباً، وإن كان لم يتعمد الكذب كقول النبي صلى الله عليه وسلم، لما قيل له: إن أبا السنابل قال: ما أنت بناكحة، حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر.

فقال: كذب أبو السنابل " (٥).

ولما قيل له: إن عامر بن الأكوع حبط عمله، لأنه قتل نفسه.

---

(١)حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة باب: السهو.

(٢)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٣)

(٣)سورة الزخرف: أية رقم (٣٦-٣٧)

(٤)سورة إبراهيم: أية رقم (٢٢)

(٥) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، والإمام مسلم، كتاب: الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفي عنها زوجها، والإمام أحمد في مسنده.

فقال: كذب من قالها، إن له لأجرين، إنه جاهد مجاهد " (١).

ولما قال سعد بن عبادة في يوم الفتح: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة.

وحكاه أبو سفيان لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة " (٢).

وكذلك قال عبادة بن الصامت، لما قيل له: إن أبا محمد يقول: الوتر واجب.

فقال: كذب أبو محمد.

وكذلك ابن عباس، لما قيل له: إن نوفاً يقول: إن موسى نبي إسرائيل ليس هو موسى الخضر.

فقال: كذب نوف.

وأيضاً: من أخبر الناس خبراً، طلب أن يصدقوه فيه، وقد نهوا عن تصديقه إلا ببينة.

فإنه أيضاً كاذب.

كما قال الله تعالى في القرآن (لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (٣)

وقال في القاذفين:(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٤)

وكذلك: أن القاذف، وإن كان قد رأى الفاحشة بعينه، لكنه إذا أخبر بها الناس، فهو يطلب منهم أن يصدقوه بمجرد خبره وليس لهم ذلك.

بل ليس لهم أن يصدقوه، حتى يأتي بأربعة شهداء، وهو لا يخبر الناس ليكذبوه.

---

(١)حديث شريف أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر / ومسلم كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة خيبر.

(٢) حديث شريف أخرجه البخاري، كتاب: المغازي، باب: أين ركز النبي صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح.

(٣)سورة النور: أية رقم (١٣)

(٤)سورة النور: أية رقم (٤-٥)

بل يخبرهم ليعتقدوا ثبوت ما أخبرهم به، ويعتقدوا أن المقذوف قد فعل الفاحشة، وهم ليس لهم أن يقولوا ذلك، إلا بأربعة شهداء.

فإذا لم يأت بأربعة شهداء، فهو عند الله كاذب، لأنه أخبر الناس بأن هذا فعل الفاحشة، وقال خبراً طلب به تصديقهم، وأن يظهر أن هذا فعلها.

فحقيقية خبره، أن هذا فعل فاحشة ظاهرة، يرتب عليها هذا.

بل إن كان فعل شيئاً، فقد فعله سراً، لم يعلم به الناس، وقد علم أن الذنب إذا كتم لم يضر إلا صاحبه، ولكن إذا أُعلن، فلم ينكر ضر الناس، وهذا لم يعلنه.

وأكثر المسلمين، إذا فعل أحدهم فاحشة باطنة، تاب منها، ومن إعلانها، يتشبه الناس بعضهم ببعض في ذلك.

فلهذا نهى الله عن فعلها، وعن التكلم بها، صدقاً، وغير صدق.

فإنها إذا فعلت، وكتمت، خف أمرها، وإذا أظهرت، كان فيها مفاسد كثيرة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " من ابتلي من هذه القاذورات بشيء فليستتر بستر الله، فإن من يُبدِ لنا صفحته، نُقم عليه كتاب الله "(١).

وقال: " كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة: أن يبيت الرجل على الذنب، قد ستره الله، فيصبح يقول: يا فلان فعلت البارحة كذا وكذا " (٢).

فقد نهى الله تعالى صاحبها أن يظهرها ويعلنها، فكيف القاذف؟

بخلاف ما إذا أقر بها عند ولي أمر، ليقيم عليه الحد، أو يشهد بها نصاب تام لإقامة الحد، فذاك فيه منفعة وصلاح،وقد يُخبر بها بعض الناس سراً، لمن يعلمه كيف يتوب، ويستفتيه ويستشيره فيما يفعل؟ فعلى ذلك المفتى، والمشير، أن يكتم عليه ذلك، ولا يشيع الفاحشة وبسط هذا له موضع آُخَر.

والمقصود هنا: أن الناس في من قال: إني رسول، قسمان:

- إما مصدق.

---

(١)حديث شريف أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب: الحدود، باب: من أعترف على نفسه بالزنا.

(٢) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الآداب، باب: ستر المؤمن على نفسه / والإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه.

- وإما غير مصدق.

فمن ليس بمصدق: لا يمكنه أن يأتي بمثل آيات الأنبياء، سواء قال: أنه كاذب، أو توقف في التصديق والتكذيب.

وكذلك المؤمنون، أتباع الأنبياء: إذا أتوا بآية، كانت دليلاً على نبوة النبي الذي اتبعوه، فلا يمكن من لا يصدق النبي، أن يعارضهم ومتى عارضهم، لم تكن من آيات الأنبياء.

ولهذا كان أبو مسلم، لما قال له الأسود العنسي: أتشهد أني رسول الله قال: ما أسمع.

قال: أتشهد أن محمداً رسول الله.

قال: نعم.

فألقاه في النار، فصارت عليه برداً وسلاماً.

فكرامات الصالحين، هي مستلزمة لصدقهم في قولهم: إن محمد رسول ولثبوت نبوته.

فهي من جملة آيات الأنبياء وآياتهم، وما خصهم الله به، لا يكون لغير الأنبياء.

وإذا قال القائل: معجزات الأنبياء، وآياتهم، وما خصهم الله به فهذا كلام مجمل، فإنه لا ريب، أن الله خص الأنبياء بخصائص لا توجد لغيرهم.

ولا ريب أن من آياتهم، ما لا يقدر أن يأتي به غير الأنبياء.

بل النبي الواحد، له آيات لم يأت بها غيره من الأنبياء،وغير ذلك، واليد لموسى، وفرق البحر، فإن هذا لم يكن لغير موسى.

وكانشقاق القمر، والقرآن، وتفجير الماء من بين الأصابع، وغير ذلك من الآيات، التي لم تكن لغير محمد من الأنبياء.

وكالناقة التي لصالح، فإن تلك الآية، لم يكن مثلها لغيره، وهو خروج ناقة من الأرض.

بخلاف إحياء الموتى، فإنه اشترك فيه كثير من الأنبياء، بل ومن الصالحين. وملك سليمان، لم يكن لغيره، كما قال (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ)(١)

---

(١)سورة ص: أية رقم (٣٥)

فطاعة الجن، والطير، وتسخير الريح، تحمله من مكان إلى مكان له ولمن معه، لم يكن مثل هذه الآية لغير سليمان.

وفي الصحيحين: عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " ما من نبي من الأنبياء، إلا وقد أوتي من الآيات، ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً، أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة " (١).

وهو من حين أتى بالقرآن، وهو بمكة، يقرأ على الناس:(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)(٢)

فقد ظهر: أن من آيات الأنبياء، ما يختص به النبي.ومنها: ما يأتي به عدد من الأنبياء.ومنها:ما يشترك فيه الأنبياء كلهم، ويختصون به، وهو الإخبار عن الله بغيبه، الذي لا يعلمه إلا الله، قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا.إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا. لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَبهم فيهِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)(٣)لكن ما يظهر على المؤمنين بهم من الآيات، بسبب الإيمان بهم فيه قولان:–قال طائفة: ليس ذلك من آياتهم، وهذا قول من يقول: من شرط المعجزة: أن تقارن دعوى النبوة، لا تقدم عليها ولا تتأخر عنها،كما قاله هؤلاء، الذين يجعلون خاصة المعجزة، التحدي بالمثل وعدم المعارضة، ولا تكون إلا مع الدعوى، كما تقدم، وهو قول قد عرف فساده من وجوه.

والقول الثاني:وهو القول الصحيح،أن آيات الأولياء،هي من جملة آيات الأنبياء،فإنها مستلزمة لنبوتهم، ولصدق الخبر بنبوتهم فإنه لولا ذلك، لما كان هؤلاء أولياء، ولم تكن لهم كرامات.لكن يحتاج أن يفرق بين كرامات الأولياء، وبين خوارق السحرة والكهان، وما يكون للكفار، والفساق، وأهل الضلال والغي بإعانة الشياطين لهم.كما يفرق بين ذلك، وبين آيات الأنبياء، والفروق بين ذلك كثيرة، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

---

(١) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: أول ما أنزل من الوحي / والإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: وجوب الإيمان برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

(٢)سورة الإسراء: أية رقم (٨٨)

(٣)سورة الجن: أية رقم (٢٦–٢٨)

فصل
حـد الدليل

فقد تبين أن من آيات الأنبياء، ما يظهر مثله على أتباعهم، ويكون ما يظهر على أتباعهم من آياتهم، فان ذلك مختصا بمن يشهد بنبوتهم، فهو مستلزم له.

لا تكون بنبوتهم إلا لمن أخبر بنبوتهم، وإذا لم يخبر بنبوتهم لم تكن له تلك الآيات.

وهذا حد الدليل:وهو أن يكون مستلزماً للمدلول عليه،فإذا عدم المدلول عليه، عدم الدليل.

ولهذا من السلف من يأتي بالآيات، دلالة على صحة الإسلام وصدق الرسول.

كما ذُكر: أن خالد بن الوليد، شرب السم لما طلب منه آية، ولم يضره

فصل
معنى خرق العادة

في معنى خرق العادة، وأن الإعتبار، أن تكون خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً، بحيث تختص بالأنبياء، فلا توجد إلا مع الإخبار بنبوتهم.

وأما إخبار الكهان ببعض الأمور الغائبة، لإخبار الشياطين لهم بذلك، وسحر السحرة، بحيث يموت الإنسان من السحر أو يمرض، ويمنع من النكاح، ونحو ذلك مما هو بإعانة الشياطين.

فهذا أمر موجود في العالم، كثير معتاد، يعرفه الناس.

ليس هذا من خرق العادة، بل هو من العجائب الغريبة، التي يختص بها بعض الناس، كما يختص قوم بخفة اليد، والشعوذة وقوم بالسباحة الغريبة، حتى يضطجع أحدهم على الماء.

وكما يختص قوم بالقيافة، حتى يباينوا بها غيرهم.

وكما يختص قوم بالعيافة، ونحو ذلك، مما هو موجود.

ولو هذا مستقر، والرسل يجعلون آياتهم من جنس السحر، وهذا مستقر في نفوسهم، أن الساحر ليس برسول، ولا نبي.

كما في قصة موسى، لما قالوا:(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ.يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) (١)

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)(٢)

وهذا لحيرتهم، وضلالتهم.

تارة ينسبون إلى الجنون وعدم العقل، وتارة إلى الحذق والخبرة التي ينال بها السحر.

فإن السحر لا يقدر عليه، ولا يحسنه كل أحد.

لكن العجائب، والخوارق المقدورة للناس، منها ما سببه من الناس بحذقهم في ذلك الفن.

كما يحذق الرجل في صناعة من الصناعات.

وكما يحذق الشاعر، والخطيب، والعالم، في شعره وخطابته وعلمه.

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (١٠٩-١١٠).

(٢)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢).

وكما يحذق بعض الناس في رمي النشاب، وحمل الرمح وركوب الخيل.

فهذه كلها، قد يأتي الشخص منها بما لا يقدر عليه أهل البلد بل أهل الإقليم.

لكنها مع ذلك مقدورة، مكتسبة، معتاده، بدون النبوة، قد فعل مثلها ناس آخرون قبلهم، أو في مكان آخر.

فليست هي خارقة لعادة غير الأنبياء مطلقاً، بل توجد معتادة لطائفة من الناس، وهم لا يقولون أنهم أنبياء، ولا يخبر أحد عنهم بأنهم أنبياء.

ومن هنا دخل الغلط على كثير من الناس، فإنهم لما رأوا آيات الأنبياء خارقة للعادة، لم يعتد الناس مثلها، أخذوا مسمى خرق العادة، ولم يميزوا بين ما يختص به الأنبياء، ومن أخبر بنبوتهم وبين ما يوجد معتاداً لغيرهم.

واضطربوا في مسمى هذا الاسم، كما اضطربوا في مسمى المعجزات، ولهذا لم يسمها الله في كتابه إلا آيات وبراهين.

فإن ذلك اسم يدل على مقصودها، ويختص بها، لا يقع على غيرها.

لم يسمها معجزة، ولا خرق عادة، وإن كان ذلك من بعض صفاتها، فهي لا تكون آية وبرهاناً، حتى تكون قد خرقت العادة، وعجز الناس عن الإتيان بمثلها.

لكن هذا بعض صفاتها، وشرط فيها، وهو من لوازمها، لكن شرط الشيء ولازمه، قد يكون أعم منه.

وهؤلاء جعلوا مسمى المعجزة، وخرق العادة: هو الحد المطابق لها، طرداً وعسكاً.

كما أن بعض الناس يجعل إسمها: أنها عجائب.

وآيات الأنبياء إذا وصفت بذلك، فينبغي أن تقيد بما يختص بها فيقال: العجائب التي أتت بها الأنبياء، وخوارق العادات والمعجزات التي ظهرت على أيديهم.

أو التي لا يقدر عليها البشر، أو لا يقدر عليها الإنس والجن أو لا يقدر عليها إلا الله.

بمعنى: أنه لا يقدر عليها أحد بحيلة واكتساب، كما يقدرون على السحر والكهانة، فبذلك تتميز آياتهم، عما ليس من آياتهم.

وإلا فلفظ العجائب، قد يدخل فيه بعض الناس الشعبذة ونحوها.

والتعجب في اللغة: يكون من أمر خرج عن نظائره، وما خرج عن نظائره، فقد خرق تلك العادة المعينة في نظائره، فهو أيضاً خارق للعادة.

وهذا شرط في آيات الأنبياء، أن لا يكون لها نظير لغير الأنبياء ومن يصدقهم.

فإذا وجد نظيرها من كل وجه لغير الأنبياء، ومن شهد لهم بالنبوة لم تكن تلك من آياتهم، بل كانت مشتركة: بين من يخبر بنبوتهم ومن لا يخبر بنبوتهم.

كما يشترك هؤلاء وهؤلاء: في الطب، والصناعات.

وأما السحر والكهانة: فهو من إعانة الشياطين لبني آدم، فإن الكاهن يخبره الجن.

وكذلك الساحر، إنما يقتل، ويمرض، ويصعد في الهواء ونحو ذلك، بإعانة الشياطين له.

فأمورهم خارجة عما اعتاده الإنس بإعانة الشياطين لهم.

قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(١)

فالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض، فاستخدم هؤلاء وهؤلاء، وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة، كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه ليعينه على غرضه.

والسحر والكهانة من هذا الباب.

وكذلك ما يوجد لعباد الكفار من المشركين، وأهل الكتاب ولعباد المنافقين، والملحدين من المظهرين للإسلام، والمبتدعين منهم، كلها بإعانة الجن والشياطين.

لكن الشياطين تظهر عند كل قوم بما لا ينكرونه، فإذا كان القوم كفاراً، لا ينكرون السحر والكهانة، كما كانت العرب.

وكالهند والترك المشركين، ظهروا بهذا الوصف، لأن هذا مُعَظم عند تلك الأمة.

وإن كان هذا مذموماً عند أولئك، كما قد ظهر، ذم هؤلاء عند أهل الملل، من المسلمين، واليهود، والنصارى، أظهرته الشياطين فيمن يظهر العبادة، ولا يكون مخلصاً لله في عبادته، متبعاً للأنبياء بل يكون فيه شرك، ونفاق، وبدعة.

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (١٢٨).

فتظهر له هذه الأمور، التي ظهرت للكهان والسحرة، حتى يظن أولئك، أن هذه من كرامات الصالحين، وأن ما هو عليه هذا الشخص من العبادة، هو طريق أولياء الله، وإن كان مخالفاً لطريق الأنبياء، حتى يعتقد من يعتقد، أن لله طريقاً يسلكها إليه أولياؤه، غير الإيمان بالأنبياء وتصديقهم.

وقد يعتقد بعض هؤلاء: أن في هؤلاء من هو أفضل من الأنبياء.

وحقيقة الأمر: أن هؤلاء عارضوا الأنبياء، كما كانت تعارضهم السحرة والكهان، كما عارضت السحرة لموسى.

وكما كان كثير من المنافقين يتحاكمون إلى بعض الكهان، دون النبي صلى الله عليه وسلم، ويجعلونه نظير النبي.

وكان في العرب عدة من هؤلاء، وكان بالمدينة، منهم أبو برزة الأسلمي قبل أن يسلم، كان كاهناً.

وقد قيل: إنه الذي أنزل الله تعالى فيه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا)(١)

وقد ذكر قصته غير واحد من المفسرين.

ولما كان الذين يعارضون آيات الأنبياء من السحرة والكهان لا يأتون بمثل آياتهم، بل يكون بينهما شبه، كشبه الشعر بالقرآن.

ولهذا قالوا في النبي: إنه ساحر، وكاهن، وشاعر مجنون.

قال تعالى (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)(٢)

فجعلوا له مثلاً لا يماثله، بل بينهما شبه، مع وجود الفارق المبين.

وهذا هو القياس الفاسد.

فلما كان الشعر كلاماً، له فواصل ومقاطع، والقرآن آيات له فواصل ومقاطع.

---

(١)سورة النساء: أية رقم (٦٠).

(٢)سورة الفرقان: أية رقم (٩).

قالوا: شاعر.

ولكن شتان.

وكذلك الكاهن، يخبر ببعض المغيبات، ولكن يكذب كثيراً، وهو يخبر بذلك عن الشياطين، وعليه من آثارهم ما يدل على أنه أفاك أثيم.

كما قال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(١)

ثم قال تعالى (وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)(٢)

فذكر سبحانه الفرق: بين النبي... وبين الكاهن... والشاعر.

وكذلك الساحر: لما كان يتصرف في العقول والنفوس بما يغيرها وكان من سمع القرآن، وكلام الرسول، خضع له عقله ولبه وانقادت له نفسه وقلبه، صاروا يقولون: ساحر،... وشتان.

وكذلك مجنون: لما كان المجنون يخالف عادات الكفار وغيرهم لكن بما فيه فساد، لا صلاح.

والأنبياء: جاءوا بما يخالف عادات الكفار، لكن بما فيه صلاح لا فساد، قالوا: مجنون..

قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)(٣)

فتارة: يصفونه بغاية الحذر، والخبرة، والمعرفة، فيقولون: ساحر وتارة: بغاية الجهل، والغباوة، والحمق، فيقولون: مجنون.

وقد ضلوا في هذا وهذا، كما قال تعالى (انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا)(٤)

فهم بمنزلة السائر في الطريق، وقد ضل عنها، يأخذ يمينا وشمالاً، ولا يهتدي إلى السبيل التي تسلك، والسبيل التي يجب سلوكها قول الصدق، والعمل بالعدل.

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٣)

(٢)سورة الشعراء: أية رقم (٢٤-٢٦).

(٣)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢-٥٣).

(٤)سورة الفرقان: أية رقم (٩).

والكهانة، والسحر: يناقض النبوة.

فإن هؤلاء: تعينهم الشياطين،تخبرهم،وتعاونهم بتصرفات خارقة ومقصودهم:الكفر،والفسوق، والعصيان.

والأنبياء: تعينهم الملائكة، هم الذين يأتونهم فيخبرونهم بالغيب ويعاونونهم بتصرفات خارقة.

كما كانت الملائكة تعين النبي صلى الله عليه وسلم في مغازيه، مثل:يوم بدر أمده الله بألف من الملائكة [(١)]، ويوم حنين.

قال تعالى (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[(٢)]

وقال تعالى (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[(٣)]

وقال تعالى (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ)[(٤)]

وقد بين سبحانه أن الذي جاء بالقرآن ملك كريم، ليس بشيطان فقال تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ.وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ. وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ.وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ.فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)[(٥)]

---

(١) وهو يشير إلى قول الله تعالى (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ)(٩) سورة الأنفال.

(٢)سورة التوبة: أية رقم (٢٥-٢٧).

(٣)سورة التوبة: أية رقم (٤٠).

(٤)سورة الأنفال: أية رقم (١٢).

(٥)سورة التكوير: أية رقم (١٩-٢٦).

ولما كانت الأنبياء مؤيدة بالملائكة، والسحرة والكهان تقترن بهم الشياطين، كان من الفروق التي بينهم: الفروق التي بين الملائكة والشياطين. والمتفلسفة الذين لم يعرفوا الملائكة والجن، كابن سينا وأمثاله ظنوا أن هذه الخوارق من قوى النفس

قالوا: والفرق بين النبي والساحر:

- أن النبي: يأمر بالخير.

- والساحر: يأمر بالشر.

وجعلوا ما يحصل للممرور، من هذا الجنس، إذ لم يعرفوا صرع الجن للإنسان، وأن الجني يتكلم على لسان الإنسان، كما قد عرف ذلك الخاصة والعامة، وعرفه علماء الأمة وأئمتها، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والجهمية المجبرة، الذين قالوا: إن الله قد يفعل كل ممكن مقدور لا ينزهونه عن فعل شيء.

ويقولون: إنه يفعل بلا سبب، ولا حكمة، وهو الخالق بجميع الحوادث.

لم يفرقوا بين ما تأتي به الملائكة، ولا ما تأتي به الشياطين، بل الجميع يضيفونه إلى الله على حد واحد، ليس في ذلك حسن ولا قبيح عندهم، حتى يأتي الرسول.

فقبل ثبوت الرسالة، لا يميزون بين شيء من الخير والشر، والحسن والقبيح.

فلهذا لم يفرقوا بين آيات الأنبياء، وخوارق السحرة والكهان.

بل قالوا: ما يأتي به السحرة والكهان، يجوز أن يكون من آيات الأنبياء، وما ياتي به الأنبياء، يجوز أن يظهر على أيدي السحرة والكهان.

لكن إن دل على إنتفاء ذلك نص، أو إجماع، نفوه، مع أنه جائز عندهم، أن يفعله الله، لكن بالخبر علموا أنه لم يفعله.

فهؤلاء لما رأوا ما جاءت به الأنبياء، وعلموا أن آياتهم تدل على صدقهم، وعلموا ذلك: إما بضرورة، وإما بنظر، واحتاجوا إلى بيان دلائل النبوة على أصلهم.

كان غاية ما قالوا: إن كل شيء يمكن أن يكون آية للنبي بشرط: أن يقترن بدعواه، وبشرط: أن يتحدى بالإتيان بالمثل فلا يعارض.

ومعنى التحدي بالمثل: أن يقول لمن دعاهم: ائتوا بمثله.

وزعموا: أنه إذا كان هناك سحرة وكهان، وكانت معجزته من جنس ما يظهر على أيديهم، من السحر والكهانة، فإن الله لابد أن يمنعهم، عن مثل ما كانوا يفعلونه.

وأن من ادعى منهم النبوة، فإنه يمنعه من تلك الخوارق، أو يقيض له من يعارضه بمثلها.

فهذا غاية تحقيقهم، وفيه من الفساد ما يطول وصفه.

وطاعة الجن والشياطين لسليمان صلوات الله عليه، لم تكن من جنس معاونتهم للسحرة، والكهان، والكفار، وأهل الضلال والغي ولم تكن الآية، والمعجزة، والكرامة، التي أكرمه الله بها، هي ما كانوا يعتادونه مع الإنس.

فإن ذلك إنما كان يكون في أمور معتادة، مثل: إخبارهم أحياناً ببعض الغائبات.

ومثل: إمراضهم، وقتلهم لبعض الإنس.

كما أن الإنسي قد يمرض، ويقتل غيره.

ثم هم إنما يعاونون الإنس على الإثم والعدوان، إذا كانت الأناسي من أهل الإثم والعدوان، يفعلون ما تهواه الشياطين، فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه.

قال تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ)(١)

وأما التسخير الذي سخروه لسليمان، فلم يكن لغيره من الأنبياء فضلاً عمن ليس بنبي.

وقد سأل ربه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فقال (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ)(٢)

قال تعالى (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٣)

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (١٢٨).
(٢)سورة ص: أية رقم (٣٥).
(٣)سورة ص: أية رقم (٣٦-٣٩).

وقال تعالى (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ)(١)

وقال تعالى (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ. فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ)(٢) وكذلك ما ذكره من قول العفريت له:(قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ)(٣)

فهذه الطاعة من التسخير، بغير اختيارهم في مثل هذه الأعمال الظاهرة العظيمة، ليس مما فعلته بأحد من الإنس.

وكان ذلك بغير أن يفعل شيئاً، مما يهوونه من العزائم، والأقسام والطلاسم الشركية، كما يزعم الكفار أن سليمان سخرهم بهذا فنزهه الله عن ذلك بقوله (وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ)(٤)

وأما طاعة الجن لنبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الرسل، كموسى، فهذا نوع آخر فإن هذا طاعتهم فيما أمرهم الله به من عبادته.

وطاعته كطاعة الإنس لنبينا صلى الله عليه وسلم حيث أرسل إلى الطائفتين، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعته، ونهاهم عن معصيته، التي بها يستحقون العذاب في الآخرة.

---

(١)سورة الأنبياء: أية رقم (٨١-٨٢).
(٢)سورة سبأ: أية رقم (١٢-١٤).
(٣)سورة النمل: أية رقم (٣٩).
(٤)سورة البقرة: أية رقم (١٠٢).

وكذلك الرسل، دعوهم إلى ذلك، وسليمان منهم.

لكن هذا إنما ينتفع به منهم، من آمن طوعاً، ومن لم يؤمن، فإنه يكون بحسب شريعة ذلك الرسول، هل يترك، حتى يكون الله هو الذي ينتقم منه، أو يُجَاهد؟

وسليمان كان على شريعة التوراة، واستخدامه لمن لم يؤمن منهم هو مثل: استخدام الأسير الكافر.

فحال نبينا صلى الله عليه وسلم مع الجن والإنس، أكمل من حال سليمان، وغيره فإن طاعتهم لسليمان، كانت طاعة ملكية فيما يشاء.

وأما طاعتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم فطاعة نبوة ورسالة، فيما يأمرهم به من عبادة الله، وطاعة الله، واجتناب معصية الله.

فإن سليمان كان نبياً ملكا، ومحمد صلى الله عليه وسلم كان عبداً رسولاً، مثل إبراهيم، وموسى.

وسليمان مثل: داود، ويوسف، وغيرهما.

مع أن داود، وسليمان، ويوسف، هم رسل أيضاً، دعوا إلى توحيد الله وعبادته.

كما أخبر الله، أن يوسف دعا أهل مصر، لكن بغير معاداة لمن لم يؤمن ولا إظهار مناوأة بالذم، والعيب، والطعن، لما هم عليه.

كما كان نبينا صلى الله عليه وسلم أول ما أُنزل عليه الوحي، وكانت قريش إذ ذاك تقره، ولا تنكر عليه، إلى أن أظهر عيب آلهتهم، ودينهم، وعيب ما كانت عليه آباؤهم، وسفه أحلامهم، فهنالك عادوه وآذوه. وكان ذلك جهاداً باللسان، قبل أن يؤمر بجهاد اليد.

قال تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا.فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)(١) وكذلك موسى مع فرعون، أمره أن يؤمن بالله، وأن يرسل معه بني إسرائيل، وإن كره ذلك (٢).وجاهد فرعون، بإلزامه بذلك بالآيات، التي كان الله يعاقبهم بها إلى أن أهلكه الله وقومه على يديه

---

(١)سورة الفرقان: أية رقم (٥١-٥٢).

(٢) يشير إلى قول الله تعالى (وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) سورة الأعراف (١٠٤-١٠٥).

فصل

التمييز بين آيات الأنبياء وخوارق غيرهم

فالذين سموا هذه الآيات: خوارق العادات، وعجائب، ومعجزات إذا جعلوا ذلك شرطاً فيها، وصفة لازمة لها، بحيث لا تكون الآيات إلا كذلك، فهذا صحيح.

وإن كانت هذه الأمور، قد تجعل أمراً عاماً، فتكون متناولة لآيات الأنبياء، وغيرها.

كالحيوان الذي ينقسم: إلى إنسان..... وغير إنسان.

وأما إذا جعلوا ذلك حداً لها، وضابطاً، فلابد أن يقيدوا كلامهم مثل أن يقولوا: خوارق للعادات، التي تختص الأنبياء.

أو يقولوا: خوارق عادات الناس كلهم، غير الأنبياء، فإن آياتهم لابد أن تخرق عادة كل أمة من الأمم.

وكل طائفة من الطوائف، لا تختص آياتهم بخرق عادة بلد معين ولا من أرسلوا إليه.

بل تخرق عادة جميع الخلق، إلا الأنبياء، فإنها إذا كانت معتادة للأنبياء، مثل: الخبر الصادق بغيب الله تعالى، الذي لا يعرف إلا من جهتهم.

فما كان معتاداً للأنبياء دون غيرهم، فهو من أعظم آياتهم وبراهينهم، وإن كان معتادا لهم.

فإن الدليل: هو ما يستلزم المدلول عليه.

فإذا لم يكن ذلك معتاداً إلا لنبي، كان مستلزماً للنبوة، وكان من أتى به لا يكون إلا نبياً، وهو المطلوب.

بل لو كان مستلزماً للصدق، ولا يأتي به إلا صادق، لكان المخبر عن نبوة نبي: إما نبوة نفسه، أو نبوة غيرها.

إذا كان كاذباً، لم يحصل له مثل ذلك الدليل، الذي هو مستلزم للصدق.

ولا يحصل أيضاً لمن كذب بنبوة نبي صادق، إذ هو أيضاً كاذب وإنما يحصل لمن أخبر بنبوة نبي صادق.

وحينئذ: فيكون ذلك الدليل مستلزماً للخبر الصادق بنبوة النبي وهذا هو المطلوب.

فإن مدلول الآيات، سواء سميت معجزات أو غيرها، هو الخبر الصادق بنبوة النبي.

ومدلولها: إخبار الله، وشهادته بأنه نبي، وأن الله أرسله فقول الله:(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ)(١) وقوله: (إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (٢) وقول كل مؤمن: أنه رسول الله.

كل ذلك خبر عن رسالته، وهذا هو مدلول الآيات.

وقد يكون مدلول الآيات، نفس النبوة، التي هي مخبر هذا الخبر ويكون الدليل مثل: خبر من الأخبار، وهذا من جنس الأول.

فما دل على نفس النبوة، دل على صدق المخبر بها، وما دل على صدق المخبر بها، دل عليها.

وأما نفس إخبار الرب بالنبوة، وإعلامه بها، وشهادته بها قولاً وعملاً، فهو إخبار منه بها، وهو الصادق في خبره.

فإخباره: هو دليل عليها.

فإنه لا يقول إلا الحق، ولا يخبر إلا بالصدق.

وأيضاً: فهو الذي أنشأ الرسالة، وإرساله بكلامه قد يكون إنشاء للرسالة، وقد يكون إخباراً عن إرساله،كالذي يرسل رسولاً من البشر، قد يرسله، والناس يسمعون فيقول له: إذهب إلى فلان، فقل له: كذا وكذا.

وقد يرسله بينه وبينه، ثم يقول للناس: إني قد أرسلته.

ويرسله بعلامات وآيات، يعرف بها المرسل إليه صدقه.

وكذلك إذا وصفت بأنها معجزات، فلابد أن يعجز كل من ليس بنبي، ولم يشهد للنبي بالنبوة، فَيُعجز جميع المكذبين للرسول والشاكين في نبوته، من الجن والإنس.

وكذلك إذا قيل: هي عجائب.

والعجب: ما خرج عن نظيره، فلم يكن له نظير.

فلابد أن يكون من العجائب، التي لا نظير لها أصلاً، عند غير الأنبياء، لا من الجن، ولا من الإنس.

---

(١) سورة الفتح: أية رقم (٢٩).

(٢) سورة الأعراف: أية رقم (١٥٨).

فإذا كان ليس لها نظير في شيء آخر، فهذا يؤيد أنها من خصائص الأنبياء، ومن آياتهم.

فهذا الموضع، من فهمه فهماً جيداً، تبين له الفَرقان في هذا النوع فإن كثيراً من الناس يصفها: بأنها خوارق، ومعجزات، وعجائب ونحو ذلك.

ولا يحقق الفرق: بين من يجب أن يخرق عادته، ومعجزه، ومن لا يجب أن يكون في حقه كذلك.

فالواجب: أن يخرق عادة كل من لم يقر بنبوة الأنبياء، فلا يكون لمكذب بنبوتهم، ولا لشاك.

وقولنا: يخرق عادتهم، هو من باب: العادة، التي تثبت بمرة ليس من شرط فسادها، أن تقع غير مرة، مع انتفاء الشهادة بالنبوة.

بل متى وقعت مرة واحدة، مع انتفاء الشهادة بالنبوة، لم تكن مختصة بشهادة النبوة، ولا بالنبوة، فلا يجب أن تكون آية.

وقولنا: ولا يجب أن تخرق عادات الأنبياء، ولم نقل: ولا يجوز أن تخرق عادات الأنبياء، بل قد تكون خارقة أيضاً لعادات الأنبياء.

وقد خص بها نبي واحد، مثل أكثر آيات الأنبياء، فإن كل نبي، خص بآيات.

لكن لا يجب في آيات الأنبياء، أن تكون مختصة بنبي، بل ولا يجب أن يختص ظهورها على يد النبي.

بل متى اختصت به، وهي من خصائصه، كانت آية له، سواء وجدت قبل ولادته، أو بعد موته، أو على يد أحد من الشاهدين له بالنبوة.

فكل هذه من آيات الأنبياء.

والذين قالوا: من شرط الآيات، أن تقارن دعوى النبوة غلطوا غلطاً عظيماً.

وسبب غلطهم: أنهم لم يعرفوا ما يخص بالآيات، ولم يضبطوا خارق العادة بضابط، يميز بينها وبين غيرها.

بل جعلوا ما للسحرة والكهان، هو أيضاً من آيات الأنبياء إذا اقترن بدعوى النبوة، ولم يعارضه معارض،وجعلوا عدم المعارض، هو الفارق بين النبي وغيره.

وجعلوا دعواه النبوة، جزءاً من الآية، فقالوا: هذا الخارق إن وجد مع دعوى النبوة، كان معجزة، وإن وجد بدون دعوى النبوة، لم يكن معجزة.

فاحتاجوا لذلك، أن يجعلوه مقارناً للدعوى.

قالوا: والدليل على ذلك: أن مثل آيات الأنبياء يأتي في آخر الزمان، إذا جاءت أشراط الساعة، ومع ذلك ليس هو من آياتهم.

وكذلك قالوا في كرامات الأولياء.

وليس الأمر كذلك، بل أشراط الساعة هي من آيات الأنبياء من وجوه

منها: أنهم أخبروا بها قبل وقوعها، فإذا جاءت كما أخبروا كان ذلك من آياتهم.

ومنها: أنهم أخبروا بالساعة.

فهذه الأشراط، مصدقة لخبرهم بالساعة، وكل من آمن بالساعة آمن بالأنبياء، وكل من كذب الأنبياء، كذب الساعة.

قال تعالى(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ. وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)(١)

وقال (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ)(٢)

فكل من آمن بالآخرة، فقد آمن بالقرآن، فإذا جاءت أشراط الساعة، كانت دليلاً على صدق خبرهم أن الساعة حق، وأن القرآن حق.

وكان هذا من الآيات، الدالة على صدق ما جاء به الرسول من القرآن، وهو المطلوب.

فلا يوجد خرق عادة لجميع الناس، إلا وهو من آيات الأنبياء. وكذلك الذي يقتله الدجال، ثم يحييه، فيقوم، فيقول: أنت الأعور الكذاب، الذي أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما ازددت فيك إلا بصيرة.

---

(١) سورة الأنعام: أية رقم (١١٢-١١٣).

(٢) سورة الأنعام: أية رقم (٩٢).

فيريد الدجال أن يقتله، فلا يقدر على ذلك.

فهذا الرجل بعد أن قتل، وقام، يقول للدجال: أنت الأعور الكذاب، الذي أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله ما ازددت فيك بهذا القتل إلا بصيرة، ثم يريد الدجال أن يقتله، فلا يقدر عليه (١).

فعجزه عن قتله ثانياً، مع تكذيب الرجل له بعد أن قتله، وشهادته للرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة، هو من خوارق العادات، التي لا توجد، إلا لمن شهد للأنبياء بالرسالة.

وهذا الرجل هو من خيار أهل الأرض المسلمين، فهذا الخارق الذي جرى فيه، هو من خصائص من شهد لمحمد بالنبوة.

فهو من أعلام النبوة ودلائلها، وكونه قتل أولاً، أبلغ في الدلالة فإن ذلك لم يزغه، ولم يؤثر فيه، وعلم أنه لا يسلط عليه مرة ثانية.

فكان هذا اليقين والإيمان، مع عجزه عنه، هو من خوارق الآيات.

ومعلوم أن قتله ممكن في العادة، فعجزه عن قتله ثانياً، هو الخارق للعادة.

ودل ذلك: على أن إحياء الله له، لم يكن معجزة للدجال، ولا ليبين بها صدقه.

لكن أحياه ليكذب الدجال، وليبين أن محمداً رسول الله، وأن الدجال كذاب، وأنه هو الأعور الكذاب، الذي أنذر به النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال: " ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الدجال، وسأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لأمته إنه أعور، وإن الله ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر، يقرأه كل مؤمن، قارئ وغير قارئ " (٢).

وفي بعض الأحاديث الصحيحة: " واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت " (٣).

فذكر لهم آيات ظاهرة، يشترك فيها الناس، تبين لهم كذبه فيما يدعيه من الربوبية.

إذ كان كثير من الناس، يجوزون ظهور الإله في البشر، النصارى وغير النصارى.

---

(١) وهو يشير إلى نص الحديث الشريف الذي رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما كتاب: الفتن، باب: صفة الجال وتحريم المدينة عليه.

(٢) حديث شريف رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما كتاب: الفتن باب: صفة الجال وتحريم المدينة عليه.

(٣)حديث شريف رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما كتاب: الفتن، باب: صفة الجال وتحريم المدينة عليه / والإمام الترمذي في جامعه، كتاب: الفتن.

وما يأتي به الدجال، إنما يحار فيه، ويراه معارضاً لآيات الأنبياء من لم يحكم الفرقان.

فقوم يكذبون أن يأتي بعجيب، ويقولون: ما معه إلا التمويه، كما قالوا في السحر والكهانة، مثل كثير من المعتزلة، والظاهرية، كابن حزم. وقوم يقولون: لما ادعى الإلهية، كانت الدعوى معلومة البطلان فلم يظهر الخارق.

كما يقول ذلك القاضي أبو بكر، وطائفة ويدعون أن النصارى اعتقدت في المسيح الإلهية، لكونه أتى بالخوارق، مع إقراره بالعبودية، فكيف بمن يدعي الإلهية؟

ولكن هذا الخارق، الذي يظهره الله، في هذا الرجل الصالح، الذي طلب منه الدجال أن يؤمن به، فلم يفعل، بل كذبه، وقال: أنت الأعور الدجال، الذي أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم، فقتله ثم أحياه الله.

فقال له: أنت الأعور الدجال، فكذبه قبل أن قُتل.

وبعد ما أحياه الله، وأراد الدجال قتله ثانية، فلم يُمكن.

فعجزه عن قتله ثانياً، من أعظم الخوارق، مع تكذيبه.

وأما إحياؤه، مع تكذيبه له أولاً، وعجزه ثانياً عن قتله، فليس بخارق، فهذا إحياء معين، معه دلائل معدودة، تبين أنه من الآيات الدالة على صدق الرسول، لا على صدق الدجال.

وتبين بذلك: أن الآيات جميعها، تدل على صدق الأنبياء.

فإن آيات الله مرة، أو مرتين، أو ثلاثاً، لا يشترط في ذلك تكرار بل شرطها: أن لا يكون لها نظير في العالم لغير الأنبياء، ومن يشهد بالنبوة، ولم يوجد لغيرهم، كان هذا دليلاً، على أنها مختصة بالأنبياء.

ومن أطلق خرق العادة، ولم يفسره ويبينه، فلم يعرف خاصتها بل ظن أن ما وجد من السحر والكهانة، خرق عادة.

أو ظن أن خرق العادة، أن لا يعارضها معارض من المرسل إليهم.

وكثير من المتنبئين الكذابين، أتوا بخوارق من جنس خوارق السحرة والكهان.

ولم يكن من أولئك القوم، من أتى بمثلها، لكن قد علم أن في العالم مثلها، في غير ذلك المكان، أو في غير ذلك الزمان.

وإنما الخارق كما قال في القرآن (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)(١)

ولهذا قال في آيات التحدي (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)(٢)

وقال في تلك الآية (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)(٣)

فلم يكتف بعجز المدعوين، بل أمرهم أن يدعوا إلى معاونتهم، كل من استطاعوا أن يدعوه من دون الله.

وهذا تعجيز لجميع الخلق: الإنس، والجن، والملائكة.

وقال في البقرة (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٤)

أي ادعوا كل من يشهد لكم، فيوافقكم على أن هذا ليس من عند الله، ادعوا كل من لم يقر بأن هذا منزل من الله.

فهذا تعجيز لكل من لم يؤمن به، ومن آمن به وبقي في ريب بل قد علم أنه من عند الله.

وهذا التحدي في البقرة، وهي مدنية بعد يونس، وهود.

ولهذا قال (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ)(٥)

وهناك قال (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)(٦)

فهذا تحد لكل مرتاب، وذاك تحد لكل مثل مكذب.

ولهذا قيل في ذلك (مَنِ اسْتَطَعْتُم)(٧) فإنه أبلغ.

---

(١)سورة الإسراء: أية رقم (٨٨).

(٢)سورة هود: أية رقم (١٣).

(٣) سورة هود: أية رقم (١٤).

(٤) سورة البقرة: أية رقم (٢٣).

(٥) سورة البقرة: أية رقم (٢٣).

(٦) سورة هود: أية رقم (١٣).

(٧) سورة هود: أية رقم (١٣).

وقيل في هذا (شُهَدَاءكُم)

وقد قال بعض المفسرين:(شُهَدَاءكُم) آلهتكم.

وقال بعضهم: من يشهد أن الذي جئتم به مثل القرآن.

والصواب: أن شهداءهم، الذين يشهدون لهم، كما ذكره ابن اسحاق بإسناده المعروف.

عن ابن عباس قال:(شهداءكم): من استطعتم من أعوانكم على ما أنتم عليه.

وقال السدي، عن أبي مالك:(شهداءكم من دون الله)(١) أي: شركاءكم، فإن هؤلاء هم الذين يتصور منهم المعارضة إذا كانوا في ريب منه.

أما من أيقن أنه من عند الله، فإنه يمتنع أن يقصد معارضته لعلمه بأن الخلق عاجزون عن ذلك.

والله تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات، فادعوا من يشهد لكم. وهؤلاء يشهدون من دون الله، لا يشهدون بما شهد الله به فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله.

كما قال الله تعالى (لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا)(٢)

وقال تعالى (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)(٣)

كما قال تعالى (شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)(٤)

وقد قلنا: يجوز أن تكون آياتهم، خارقة لعادة جميع الخلق، إلا للنبي، لكن لا يجب هذا فيها.

---

(١) سورة البقرة: أية رقم (٢٣).

(٢) سورة النساء: أية رقم (١٦٦).

(٣) سورة الرعد: أية رقم (٤٣).

(٤) سورة آل عمران: أية رقم (١٨).

فإن قيل: قد ذكرتم أن آيات الأنبياء هي الخوارق، التي تخرق عادة جميع الثقلين، فلا تكون لغير الأنبياء، ولغير من شهد لهم بالنبوة.

وهذا كلام صحيح، فصلتم به بين آيات الأنبياء وغيرهم بفصل مطرد منعكس.

بخلاف من قال: هي خرق العادة.

ولم يميز بينها وبين غيرها، وتكلم في خرق العادة، بكلام متناقض تارة: يمنع وجود السحر والكهانة.

وتارة: يجعل هذا الجنس من الآيات، ولكن الفرق عدم المعارضة. لكن لم يذكروا الفرق في نفس الأمر، ونفس كونها معجزة وخارقاً، وآية.

لماذا كان؟ وما هو الوصف الذي امتازت به، حتى صارت آية ودليلاً، دون غيرها؟

فذكرتم الدليل، لكن لم تذكروا الحقيقة، التي بها صار الدليل دليلاً.

قيل: لابد أن تكون مما يعجز عنها الإنس والجن، فإن هذين الثقلين، بعث إليهم الرسل، كما قال تعالى (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)(١)

وقال تعالى (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)(٢)

والإنس والجن: منهم من آمن بالرسل، ومنهم من كذبهم.

فلابد أن يكون مما لا يقدر عليها جنس الإنس والجن.

ثم الكرامات: يخص بها المؤمنين من الطائفتين.

وأما آيات الأنبياء، التي بها تثبت نبوتهم، وبها وجب على الناس الإيمان بهم، فهي أمر يخص الأنبياء، لا يكون للأولياء، ولا لغيرهم.

---

(١) سورة الأنعام: أية رقم (١٣٠).

(٢) سورة الزمر: أية رقم (٧١).

بل يكون من المعجزات، الخارقة للعادات، الناقضة لعادات جميع الإنس والجن، غير الأنبياء.

فما كان الإنس أو الجن يقدرون عليه، فلا يكون وحده آية للنبي وما تقدر عليه الملائكة، فذاك قد يكون من آياتهم، لأنهم لم يرسلوا إلى الملائكة.

والملائكة لا تفعل شيئاً إلا بإذن الله، فما تفعله الملائكة معهم فهو بإذن الله، وهو ما خص به الأنبياء، بخلاف الإنس والجن. وخاصتها التي تمتاز بها عن غيرها: أن تكون آية، ودليلاً على نبوتهم.

فكل ما استلزم نبوتهم فهو آية لهم، وما لا يستلزم نبوتهم فليس بآية، وليست مختصة بجنس من الموجودات.

بل تكون في جنس العلم، والإخبار بغيب الرب، الذي اختص به وتكون في جنس القدرة، والتصرف، والتأثير في العالم.

وهي مقدورة للرب، فله سبحانه أن يجعلها في أي جنس كان من المقدورات.

ولهذا تنوعت آيات الأنبياء، بل النبي الواحد تتنوع آياته، فليس القرآن الذي هو قول الله وكلامه، من جنس انشقاق القمر، ولا هذا. وهذا من جنس تكثير الطعام، والشراب، كنبع الماء من بين الأصابع. وهذا كما أن آيات الرب، الدالة على قدرته، ومشيئته، وحكمته وأمره، ونهيه، لا تختص بنوع، فكذلك آيات أنبيائه، فهذا مما ينبغي أن يعرف.

ولكن خاصتها: أنها لا تكون إلا مستلزمة لصدق النبي، وصدق الخبر بأنه من نبي.

فلا تكون لمن يكذبه قط، ولا يقدر أحد من مكذبي الأنبياء أن يأتي بمثل آيات الأنبياء.

وأما مصدقوهم، فهم معترفون، بأن ما يأتون به، هو من آيات الأنبياء، مع أنه لا تصل آيات الأتباع، إلى مثل آيات المتبوع مطلقاً.

وإن كانوا قد يشاركونه في بعضها، كإحياء الموتى، وتكثير الطعام، والشراب.

فلا يشركونه في القرآن، وفلق البحر، وانشقاق القمر، لأن الله فضل الأنبياء على غيرهم، وفضل بعض النبيين على بعض فلابد أن يمتاز الفاضل، بما لا يقدر المفضول على مثله، إذ لو أتى بمثل ما أتى، لكان مثله، لا دونه.

فصل
الاختلاف في مسمى العادة

وكثير من هؤلاء، مضطربون في مسمى العادة التي تخرق.

والتحقيق: أن العادة أمر إضافي، فقد يعتاد قوم ما لم يعتده غيرهم فهذه إذا خرقت، فليست إلا لصدق النبي، لا توجد بدون صدقه.

والرب تعالى في الحقيقة، لا ينقض عادته، التي هي سنته، التي قال فيها (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)(١)

وقال (فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)(٢)

وهي التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات، بصفات يمتاز بها عن غيره، ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز به عن غيره، ويختص به.

ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء، ويختصون بها والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلاً، ومن الناس (٣)، وهو أعلم حيث يجعل رسالته (٤).

فمن خصه بذلك، كان له من الخصائص، التي لا تكون لغيره ما يناسب ذلك، فيستدل بتلك الخصائص، على أنه من أهل الإختصاص بالنبوة وتلك سنته، وعادته في أمثاله.

يميزهم بخصائص يمتازون بها عن غيرهم، ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص، الذين هم الأنبياء مثلاً.

ولم تكن له سبحانه عادة، بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقال: إنه خرق عادته، ونقضها.

بل عادته، وسنته المطردة، أن تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة والإخبار بها، لا مع التكذيب بها، أو الشك فيها.

---

(١)سورة الفتح: أية رقم (٢٣).

(٢)سورة فاطر: أية رقم (٤٣).

(٣) قال تعالى (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (٧٥) سورة الحج.

(٤) قال تعالى(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (١٢٤) سورة الأنعام.

كما أن سنته وعادته: أن محبته، ورضاه، وثوابه، لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه.

وأن سنته وعادته: أن يجعل العاقبة للمتقين (١).

وسنته وعادته: أنه ينصر رسله والذين آمنوا (٢).

كما قال تعالى (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)(٣)

وكل ما يظن، أنه خرقه من العادات، فله أسباب انخرقت فيها تلك العادات.

فعادته وسنته لا تتبدل، إذ أفعاله جارية على وجه الحكمة والعدل هذا قول الجمهور.

وأما من لا يثبت سبباً، ولا حكمة، ولا عدلا، فإنهم يقولون: إنه يخرق عادات، لا لسبب، ولا لحكمة.

ويجوزون: أن يقلب الجبل ياقوتاً، والبحر لبناً، والحجارة آدميين ونحو ذلك، مع بقاء العالم على حاله.

ثم يقولون مع هذا: ولكن نعلم بالضرورة، أنه لم يفعل ذلك. ويقولون العقل: هو علوم ضرورية، كالعلوم بجاري العادات وهذا تناقض بَين، فإنهم إذا جوزوا هذا، ولم يعلموا فرقاً بين ما يقع منه، وما لا يقع، كان الجزم بوقوع هذا، دون هذا جهلاً.

وغاية ما عندهم أن قالوا: يخلق في قلوبنا علم ضروري، بأن هذا لم يقع، ويخلق في قلوبنا علم ضروري، بأن الله خرق العادة لتصديق هذا النبي.

---

(١) قال تعالى (إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) (١٢٨) سورة الأعراف.
(فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (٤٩) سورة هود.
(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (١٣٢) سورة طه
(٢) قال تعالى (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ) (٢١٤) سورة البقرة.
(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) (١١٦) سورة الصافات
(وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) (٤٠) سورة الحج
(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (٥١) سورة غافر
(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ) (١٠٣) سورة يونس
(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) (٤٧) سورة الروم
(٣)سورة الفتح: أية رقم (٢٢-٢٣).

فيقال: إذا كان قد جعل الله في قلوبكم علماً ضرورياً، كما جعله في قلوب أمثالكم، فأنتم صادقون فيما تخبرون به عن أنفسكم من العلم الضروري.

لكن خطأكم: إعتقادكم أن العادات، قد ينقضها الله بلا سبب ولا لحكمة، فهذا ليس معلوماً لكم بالضرورة.

وخطأكم: من حيث جوزتم أن يكون شيئان متساويان من كل وجه ثم يعلم بضرورة، أو نظر، ثبوت أحدهما، وانتفاء الآخر.

فإن هذا تفريق بين المتماثلين، وهذا قدح في البديهيات، فإن أصل العلوم العقلية النظرية، إعتبار الشيء بمثله، وأن حكمه حكم مثله. فإذا جوزتم أن يكون الشيئان متماثلين، من كل وجه، وأن العقل يجزم بثبوت أحدهما، وانتفاء الآخر، كان هذا قدحاً في أصل كل علم وعقل.

وإذا قلتم: إن العادات جميعها سواء، وأن الله يفعل ما يفعل بلا سبب، ولا حكمة، بل محض المشيئة مع القدرة، رجحتم هذا على هذا.

وقلتم: لا فرق بين قلب الجبال يواقيت، والبحار لبناً، وبين غير ذلك من العادات.

وجوزتم: أن يجعل الله الحجارة آدميين علماء، من غير سبب تغير به المخلوقات، كان هذا قدحاً في العقل.

فلا أنتم عرفتم سنة الله المعتادة في خلقه، ولا عرفتم خاصة العقل وهو التسوية بين المتماثلين.فإنه سبحانه لم يخرق عادة قط، إلا لسبب يناسب ذلك، مثل: فلق البحر لموسى، وغير ذلك من الآيات، التي بعث بها، فإن ذلك خَلَقَهُ ليكون آية وعلامة، وكان ذلك بسبب نبوة موسى وانجائه قومه، وبسبب تكذيب فرعون.

ومن جوز أن ذلك البحر، أو غيره، ينفلق كما انفلق لموسى، من غير أن يكون هناك سبب إلهي يناسب ذلك، فهو مصاب في عقله. ولهذا اضطرب أصحاب هذا القول، ولم يكن عندهم ما يفرقون بين دلائل النبوة وغيرها.وكانت آيات الأنبياء، والعلم بأنها آيات، إن حققوها على وجهها فسدت أصولهم.

وإن طردوا أصولهم، كذبوا العقل والسمع، ولم يمكنهم لا تصديق الأنبياء، ولا العلم بغير ذلك من أفعال الله تعالى، التي يفعلها بأسباب وحكم، كما قد بسط هذا في موضع آخر

فصل

ارتباط الدليل بالمدلول عليه

ودليل الشيء: مشروط بتصور المدلول عليه.

فلا يعرف آيات الأنبياء، إلا من عرف ما اختُص به الأنبياء وامتازوا به عمن سواهم.

والنبوة: مشتقة من الإنباء.

والنبي: فعيل.

وفعيل: قد يكون بمعنى فاعل، أي: منبئ.

وبمعنى: مفعول، أي: منبأ، وهما هنا متلازمان.

فالنبي: الذي ينبئ بما أنبأه الله به.

والنبي: الذي نبأه الله، وهو منبأ بما أنبأه الله به.

وما أنبأه الله به لا يكون كذباً، وما أنبأ به النبي عن الله، لا يكون يطابق كذباً، لا خطأ، ولا عمداً.

فلابد أن يكون صادقاً فيما يخبر به عن الله، يطابق خبره مخبره لا تكون فيه مخالفة، لا عمداً، ولا خطأ.

وهذا معنى قول من قال: هم معصومون فيما يبلغونه عن الله.

لكن لفظ: الصادق، وأن النبي صادق، مصدوق: نطق به القرآن وهو مدلول الآيات والبراهين.

ولفظ العصمة في القرآن، جاء في قوله (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (١) أي: من أذاهم.

فمعنى هذا اللفظ في القرآن: هو الذي يحفظه الله عن الكذب خطأ وعمداً.

---

(١)سورة المائدة: أية رقم (٦٧).

والتعبير عن حقائق الإيمان، بعبارات القرآن، أولى من التعبير عنها بغيرها، فإن ألفاظ القرآن، يجب الإيمان بها، وهي تنزيل من حكيم حميد.

والأمة متفقة عليها، ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم وفيها من الحكم والمعاني، مالا تنقضي عجائبه.

والألفاظ المحدثة، فيها: إجمال، واشتباه، ونزاع.

ثم قد يُجعل اللفظ حجة بمجرده، وليس هو قول الرسول الصادق المصدوق وقد يضطرب في معناه، وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس فالإعتصام بحبل الله، يكون بالإعتصام بالقرآن والإسلام.

كما قال تعالى (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(١)

ومتى ذكرت ألفاظ القرآن والحديث، وبُين معناها، بيانا شافيا فإنها تنظم جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة.

وفيها زيادات عظيمة، لا توجد في كلام الناس، وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل، كما قال (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (٢)

وقال تعالى(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ.لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)(٣)

وقال تعالى (الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)(٤)

وقال تعالى (الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) (٥)

وفيه من دلائل الربوبية، والنبوة، والمعاد، مالا يوجد في كلام أحد من العباد.

---

(١)سورة آل عمران: أية رقم (١٠٣).

(٢)سورة الحجر: أية رقم (٩).

(٣)سورة فصلت: أية رقم (٤١-٤٢).

(٤)سورة هود: أية رقم (١-٢).

(٥)سورة يونس: أية رقم (١).

ففيه أصول الدين المفيدة لليقين، وهي أصول دين الله ورسوله لا أصول دين محدث، ورأي مبتدع، وقد يكون معصوماً على لغة القرآن.

بمعنى: أن الله عصمه من الشياطين، شياطين الإنس والجن وأن يغيروا ما بعث به، أو يمنعوه عن تبليغه، فلا يكتم، ولا يكذب. كما قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا.لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)(١)

فهو يسلك الوحي، من بين يدي الرسول، ومن خلفه.

وهذا في معنى عصمته من الناس، فهو المؤيد المعصوم، بما يحفظه الله من الإنس والجن، حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر فلا يكون فيها كذب، ولا كتمان.

ولفظ الإنباء، يتضمن معنى: الإعلام، والإخبار.

لكنه في عامة موارد إستعماله، أخص من مطلق الإخبار، فهو يستعمل في الإخبار بالأمور الغائبة المختصة، دون المشاهدة المشتركة. كما قال تعالى (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(٢)

وقال تعالى (وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)(٣)

وقال تعالى (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)(٤)

وقال تعالى (عَمَّ يَتَسَاءلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ)(٥)

---

(١)سورة الجن: أية رقم (٢٦-٢٨).
(٢)سورة آل عمران: أية رقم (٤٩).
(٣)سورة التحريم: أية رقم (٣).
(٤)سورة ص: أية رقم (٦٧-٦٨).
(٥)سورة النبأ: أية رقم (١-٣).

وقال تعالى (يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا)(١)وقال تعالى (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)(٢) وقال تعالى (لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)(٣)

وقال تعالى (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ.قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)(٤)

وقوله تعالى (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)(٥)

فهذا في خطاب المنافقين، ولم يقل: والمؤمنون، لأنهم لم يكونوا يطلعون المؤمنين على ما في بطونهم، وهذا بخلاف قوله (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)(٦)

فإنها أمور مشهودة، يعرفها الناس، لكن العجب، كون الأرض تخبر بذلك.

فالعجب في المخبر، لا في الخبر، كشهادة الأعضاء.

وقال تعالى (قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (٧)

وجمع النبي: أنبياء.

مثل: ولي... وأولياء، ووصي... وأوصياء، وقوي... وأقوياء ويشبهه: حبيب... وأحباء.

---

(١)سورة الأحزاب: أية رقم (٢٠).
(٢)سورة ص: أية رقم (٨٨).
(٣)سورة الأنعام: أية رقم (٦٧).
(٤)سورة البقرة: أية رقم (٣١).
(٥)سورة التوبة: أية رقم (٩٤).
(٦)سورة الزلزلة: أية رقم (٤-٥).
(٧) سورة الأنعام: أية رقم (١٤٣).

كما قال تعالى (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)(١)

ففعيل: إذا كان معتلاً، أو مضاعفاً، جمع على أفعلاء.

بخلاف: حكيم.... وحكماء، وعليم... وعلماء.

وهو من النبأ، وأصله الهمزة، وقد قرئ به، وهي قراءة نافع يقرأ: النبئ.

لكن لما كثر استعماله، لينت همزته، كما فعل مثل ذلك في الذرية، وفي البرية.

وقد قيل: هو من النبوة، وهو العلو.

فمعنى النبي: المُعْلَى، الرفيع المنزلة.

والتحقيق: أن هذا المعنى داخل في الأول، فمن أنبأه الله، وجعله منبئاً عنه، فلا يكون إلا رفيع القدر علياً.

وأما لفظ العلو، والرفعة، فلا يدل على خصوص النبوة، إذ كان هذا يوصف به من ليس بنبي.

بل يوصف بأنه الأعلى، كما قال تعالى (وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(٢)

وقراءة الهمز، قاطعة بأنه مهموز.

وما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أنا نبي الله ولست بنبئ الله ".

فما رأيت له إسناداً، لا مسنداً، ولا مرسلاً، ولا رأيته في شيء من كتب الحديث، ولا السير المعروفة، ومثل هذا لا يعتمد عليه. واللفظان مشتركان في الإشتقاق الأكبر، فكلاهما فيه النون والباء وفي هذا الهمزه، وفي هذا الحرف المعتل.

لكن الهمزة أشرف، فإنها أقوى.

قال سيبويه: هي نبوة من الخلق، تشبه التهوع.

---

(١) سورة المائدة: أية رقم (١٨).
(٢)سورة آل عمران: أية رقم (١٣٩).

فالمعنى الذي يدل عليه، ويمكن أن تلين فتصير حرفاً معتلاً فيعبر عنه باللفظين.

بخلاف المعتل، فإنه لا يجعل همزة، فلو كان أصله نبي، مثل: علي، ووصي، وولي، لم يجز أن يقال: بالهمز، كما لا يقال: علئ، ووصيء، ووليء، بالهمز.

وإذا كان أصله الهمز، جاز تليين الهمزة، وإن لم يكثر استعماله كما في لفظ: خبئ، وخبيئة.

وأيضاً: فإن تصريفه: أنبأ، ونبأ، وينبئ، بالهمزة، ولم يستعمل فيه: نبا، ينبو.

وإنما يقال: هذا ينبو عنه، والماء ينبو عن القدم، إذا كان يجفو عنها. ويقال: النبوة، وفي فلان نبوة عنا، أي: مجانبة.

فيجب القطع، بأن النبي مأخوذ من: الإنباء، لا من النبوة، والله أعلم

فصل
دلالة معجزات الأنبياء

قد تقدم أن للناس في وجه دلالة المعجزات، وهي آيات الأنبياء على نبوتهم، طرقاً متعددة:-

منهم من قال: دلالتها على التصديق تعلم بالضرورة.

ومنهم من قال: تعلم بالنظر والاستدلال.

وكلا القولين صحيح، فإن كثيراً من العلوم في هذا الباب كدلالة الأخبار المتواترة.

فإنه قد يحصل بالخبر علم ضروري، وقد يحصل العلم بالاستدلال. وطائفة منهم: الكعبي، وأبو الحسين البصري، وأبو الخطاب، أنه نظري.

والتحقيق: أن كلا القولين حق، فإنه يحصل بها علم ضروري، والأدلة النظرية توافق ذلك.

وكذلك كثير من الأدلة، والعلامات، والآيات من الناس من يعرف استلزامها، للوازمها بالضرورة، ويكون اللزوم عنده بيناً لا يحتاج فيه إلى وسط ودليل.

ومنهم من يفتقر إلى دليل ووسط، يبين له أن هذا الدليل مستلزم لهذا الحكم، لازم له.

ومن تأمل معارف الناس، وجد أكثرها من هذا الضرب فقد يجيء المخبر إليهم بخبر، فيعرف كثير منهم صدقه أو كذبه بالضرورة، لأمور تقترن بخبره.

وآخرون يشُكون في هذا، ثم قد يتبين لبعضهم بأدلة، وقد لا يتبين.

وكثير من الناس، يعلم صدق المخبر بلا آية البتة، بل إذا أخبره وهو خبير بحاله، أو بحال ذلك المخبر به، أو بهما، علم بالضرورة: إما صدقه، وإما كذبه.

وموسى بن عمران، لما جاء إلى مصر، فقال لهارون وغيره: إن الله أرسلني، علموا صدقه، قبل أن يظهر لهم الآيات.

ولما قال لهارون: إن الله قد أمرك أن تؤازرني، صدقه هارون في هذا، لما يعلم من حاله قديماً، ولما رأى من تغير حاله الدال على صدقه.

وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم، لما ذكر حاله لخديجة وغيرها، وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، وكان عالماً بالكتاب الأول، فذكر له النبي صلى الله عليه وسلم ما يأتيه، علم أنه صادق،

وقال: هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم.

قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت به، إلا عودي وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزراً.

وكذلك النجاشي، لما سمع القرآن، قال: إن هذا، والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة.

وكذلك أبو بكر، وزيد بن حارثة، وغيرهما، علموا صدقه علماً ضرورياً، لما أخبرهم بما جاء به، وقرأ عليهم ما أُنزل عليه.

وبقي القرآن الذي قرأه آية، وما يعرفون من صدقه وأمانته، مع غير ذلك من القرائن، يوجب علماً ضرورياً، بأنه صادق. وخبر الواحد المجهول، من آحاد الناس، قد تقترن به القرائن يعرف بها صدقه بالضرورة.

فكيف بمن عرف صدقه وأمانته، وأخبر بمثل هذا الأمر، الذي لا يقوله إلا من هو من أصدق الناس، أو من أكذبهم، وهم يعلمون أنه من الصنف الأول، دون الثاني.

فإذا كان العلم بصدقه بلا آية، قد يكون علماً ضرورياً، فكيف بالعلم بكون الآية علامة على صدقه.

وجميع الأدلة، لابد أن تعرف دلالتها بالضرورة، فإن الأدلة النظرية، لابد أن تنتهي إلى مقدمات ضرورية.

وأكثر الخلق، إذا علموا ما جاء به موسى، والمسيح، ومحمد علموا صدقهم بالضرورة.

ولهذا لا يوجد أحد قدح في نبوتهم، إلا أحد رجلين: إما رجل جاهل، لم يعرف أحوالهم، وإما رجل معاند، متبع لهواه. وعامة من كذبهم في حياتهم، كان معانداً: فالرؤساء كذبوهم لئلا تزول رئاستهم، أو مأكلتهم، والأتباع طاعة لكبرائهم، كما أخبر الله بمثل ذلك في غير موضع من القرآن.

لم يكن التكذيب لقيام حجة تدل على الكذب، فإنه يمتنع قيام دليل يدل على الكذب.

فالمكذب: مفتر، متكلم بلا علم، ولا دليل قطعاً.

وكذلك كل من كذب بشيء من الحق، أو صدق بشيء من الباطل، يمتنع أن يكون عليه دليل صحيح، فإن الدليل الصحيح، يستلزم مدلوله.

فإذا كان المدلول منتفياً، امتنع أن يكون عليه دليل صحيح.

وكثير من الناس، قد يكون شاكاً، لعدم طلبه العلم، وإعراضه عنه.

فالمكذب: متكلم بلا علم قطعاً.

والشاك: معرض عن طلب العلم، مقصر، مفرط.

ولو طلب العلم، تبين له الحق، إذا كان متمكناً من معرفة أدلة الحق.

وأما من لم يصل إليه الدليل، ولا يتمكن من الوصول إليه فهذا عاجز.

وأما الذين سلكوا طريق الحكمة، فلهم أيضاً مسالك، مثل: أن يقال: إن الله سبحانه وتعالى، إذا بعث رسولاً، أمر الناس بتصديقه وطاعته.

فلابد أن ينصب لهم دليلاً، يدلهم على صدقه، فإن إرسال رسول، بدون علامة، وآية تعرف المرسل إليهم أنه رسول قبح وسفه في صرائح العقول، وهو نقص في جميع الفطر.

وهو سبحانه منزه عن النقائص والعيوب، ولهذا ينكر على المشركين، أنهم يصفونه بما هو عندهم عيب ونقص، لا يرضونه لأنفسهم.

مثل: كون مملوك أحدهم شريكه يساويه.

فإن هذا من النقائص والعيوب، التي ينزهون أنفسهم عنها، ويعيبون ذلك على من فعله من الناس.

فإذا كان هذا عيباً ونقصاً، لا يرضاه الخلق لأنفسهم، لمنافاته الحكمة والعدل.

فإن الحكمة والعدل، تقتضي وضع كل شيء موضعه الذي يليق به، ويصلح به.

فلا تكون العين... كالرجل، ولا الإمام الذي يؤتم به في الدين والدنيا... في آخر المراتب، والسفلة من أتباعه في أعلى المراتب.

فكذلك المالك، لا يكون مملوكه مساوياً له، فإن ذلك يناقض كون أحدهما مالكاً، والآخر مملوكا.

ولهذا جاءت الشريعة، بأن المرأة لا تتزوج عبدها، لتناقض الأحكام فإن الزوج سيد المرأة، وحاكم عليها، والمالك سيد المملوك وحاكم عليه، فإذا جعل مملوكها زوجها، الذي هو سيدها تناقضت الأحكام.

فهذا وأمثاله، مما يبين أن هذه القضية، مستقرة في فطر العقلاء ولهذا قال تعالى (ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ)(١) أي: كما يخاف بعضكم بعضاً.

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)(٢)

وكذلك كل أحد، يعلم بفطرته، أن الذكر أفضل من الأنثى. وكانت العرب أشد كراهية للبنات من غيرهم، حتى كان منهم من يئد البنات، ويدفن البنت وهي حية، حتى قال تعالى (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ)(٣)

وقال تعالى (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)(٤)

وكانوا لا يورثون الإناث، وقد قالت أم مريم (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)(٥)

وكان من الكفار، من جعل له الإناث: أولاداً، وشركاء قال تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى.أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى. إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى)(٦)

(١)سورة الروم: أية رقم (٢٨)
(٢)سورة الروم: أية رقم (٢٨-٢٩)
(٣)سورة التكوير: أية رقم (٨-٩)
(٤)سورة النحل: أية رقم (٥٨-٥٩)
(٥)سورة آل عمران: أية رقم (٣٦)
(٦)سورة النجم: أية رقم (١٩-٢٣)

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)(١)

وقال تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)(٢)

يعني: ساء الحكم حكمهم.

أي: بئس الحكم حكمهم.

كما يقال: بئسما فعل، وبئسما حكم، حيث حكموا بأن لله البنات، ولهم ما يشتهون.

فهذا حكم جائر، كما أن تلك القسمة، قسمة جائرة عوجاء فهذا حكمهم بينهم، وبين ربهم، وهذا قسمهم، يجعلون لأنفسهم أفضل النوعين، ولربهم أدنى النوعين، وهو مثل السوء ولله المثل الأعلى.

فالواجب: أن يكون أفضل الأنواع وأكملها لله، وما فيها نقص وعيب، فالمخلوق أحق بها من الخالق.

إذ كان كل كمال في المخلوق، فهو من خالقه، فيمتنع أن يكون الأنقص خلق، الأكمل.

والفلاسفة يقولون بعبارتهم: كل كمال في المعلول، فهو من العلة.

وأيضاً: فالموجود الواجب، أكمل من الممكن، والقديم أكمل من المحدث، والغني، أكمل من الفقير، فيمتنع اتصاف الأكمل بالنقائص، واتصاف الأنقص بالكمالات.

ولهذا يوصف سبحانه: بأنه الأكرم، والأكبر، والأعلى وأنه أرحم الراحمين، وخير الحاكمين، وخير الغافرين وأحسن الخالقين.

فلا يوصف قط، إلا بما يوجب إختصاصه بالكمالات، والممادح والمحاسن، التي لا يساويه فيها غيره، فضلاً عن أن يكون لغيره النوع الفاضل، وله النوع المفضول.

ولهذا عاب الله المشركين، بان جعلوا (لِلهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ

(١)سورة النجم: أية رقم (٢٧-٢٨)

(٢)سورة النحل: أية رقم (٥٧-٥٨)

سَاء مَا يَحْكُمُونَ) [١] فبئس الحكم حكمهم في هذا، كما أنه بئس الحكم حكمهم في جعل الذكور لهم، والإناث له.

وساء: بمعنى بئس، كقوله:(سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ)[٢]

أي: بئس مثلاً مثلهم.

ولهذا قالوا في قوله (سَاء مَا يَحْكُمُونَ)[٣] بئسما يقضون.

وقال تعالى (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا)[٤]

وقال تعالى (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ. وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ.أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ. وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)[٥]

فهذه الطريقة:وهي أن ما يستحقه المخلوق من الكمال، الذي لا نقص فيه، فالخالق أولى به.

وما ينزه عنه المخلوق من العيوب المذمومة، فالخالق تعالى أولى بتنزيهه عن كل عيب وذم.

وهو سبحانه القدوس، السلام، الحميد، المجيد، من أبلغ الطرق البرهانية، وهي مستعملة في القرآن في غير موضع.

فلذلك يقال: الواحد من الناس، قادر على إرسال رسول وعلى أن يرسل نشابة، وعلامة، يعرف المرسل إليهم بها صدقه، فكيف لا يقدر الرب على ذلك؟

ثم إذا أرسله إليهم، وأمرهم بتصديقه وطاعته، ولم يعرفهم أنه رسوله، كان هذا من أقبح الأمور، فكيف يجوز مثل هذا على الله؟

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (١٣٦)
(٢)سورة الأعراف: أية رقم (١٧٧)
(٣)سورة الأنعام: أية رقم (١٣٦)
(٤)سورة الإسراء: أية رقم (٤٠)
(٥)سورة الزخرف: أية رقم (١٥-١٩)

ولو بعثه بعلامة لا تدلهم على صدقه، كان ذلك عيباً مذموماً فكل ما ترك من لوازم الرسالة: إما أن يكون لعدم القدرة وإما أن يكون للجهل، والسفه، وعدم الحكمة.

والرب أحق بالتنزيه عن هذا، وهذا من المخلوق، فإذا أرسل رسولاً، فلابد أن يعرفهم أنه رسوله، ويبين ذلك.

وما جعله آية، وعلامة، ودليلاً على صدقه، امتنع أن يوجد بدون الصدق، فامتنع أن يكون للكاذب المتنبي، فان ذلك يقدح في الدلالة.

فهذا ونحوه، مما تعرف به دلالة الآيات، من جهة حكمة الرب فكيف إذا انضم إلى ذلك، أن هذه سنته وعادته؟ وأن هذا مقتضى عدله؟

وكل ذلك عند التصور التام، يوجب علماً ضرورياً، بصدق الرسول الصادق.

وأنه لا يجوز أن يسوي بين الصادق والكاذب، فيكون ما يظهره النبي من الآيات، يظهر مثله على يد الكاذب، إذ لو فعل هذا لتعذر على الخلق، التمييز بين الصادق والكاذب.

وحينئذ: فلا يجوز أن يؤمروا بتصديق الصادق، ولا يذموا على ترك تصديقه وطاعته.

إذ الأمر بذلك، بدون دَليلهِ، تكليف مالا يُطاق، وهذا لا يجوز في عدله وحكمته، ولو قدر أنه جائز عقلاً، فإنه غير واقع.

فصل

من أعظم الإفتراء على الله.. دعوى النبوة كذباً

وقد دل القرآن، على أنه سبحانه لا يؤيد الكذاب عليه، بل لابد أن يظهر كذبه، وأن ينتقم منه، فقال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)(١)

ذكر هذا بعد قوله (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ.إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ.وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)(٢)

ثم قال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ)(٣)

هذا بتقدير: أن يتقول بعض الأقاويل، فكيف بمن يتقول الرسالة كلها؟

وقوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ.ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) الوتين: عرق في الباطن، يقال: هو نياط القلب، إذا قطع مات الإنسان عاجلاً وذلك يتضمن هلاكه لو تقول على الله.

وقوله (لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)

قيل: لأخذنا بيمينه، كما يفعل بمن يهان عند القتل، فيقال: خذ بيده، فيجر بيده، ثم يقتل.

فهذا هلاك بعزةٍ وقدرةٍ من الفاعل، وإهانةٍ وتعجيلِ هلاك للمقتول. وقيل: لأخذنا منه باليمين: أي: بالقوة، والقدرة، فإن الميامن أقوى ممن يأخذ بشماله.

كما قال تعالى:(كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ)(٤)

وكما قال تعالى:(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) (٥)

---

(١)سورة الحاقة: أية رقم (٤٤-٤٧)

(٢)سورة الحاقة: أية رقم (٣٨-٤٣)

(٣)سورة الحاقة: أية رقم (٤٤-٤٧)

(٤)سورة القمر: أية رقم (٤٢)

(٥)سورة البروج: أية رقم (١٢)

لكنه قال: أخذنا منه، ولم يقل: لأخذناه، فهذا يقوي القول الأول. وقال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(١)

فقوله:(وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)

ويمحو الله الباطل: عطف جملة على جملة.

قالوا: وليس من جواب الشرط، لأنه قال (ويحق الحق) بالضم، وهو معطوف على قوله (يمحو الله الباطل).

فمحوه للباطل، وإحقاقه الحق، خبر منه لابد أن يفعله.

فقد بينَ: أنه لابد أن يمحو الباطل، ويحق الحق بكلماته، فإنه إذا أنزل كلماته، دل بها على أنه نبي صادق، إذا كانت آية له وبينَ بها الحق من الباطل.

وهو أيضاً: يحق الحق، ويبطل الباطل بكلماته، فإنه إذا أنزل كلماته، دل بها على أنه نبي صادق، إذا كانت آية له وبينَ بها الحق من الباطل.

وهو أيضاً، يحق الحق، ويبطل الباطل، بكلماته التي تكون بها الأشياء.

فيحق الحق: بما يظهره من الآيات، وما ينصر به أهل الحق كما تقدمت كلمته بذلك.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ.إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)(٢)

وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٣)

وقال تعالى (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)(٤)

وقال تعالى (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(٥)

وأمره يتضمن ما يأمر به، وهو الكائن بكلماته.

---

(١)سورة الشورى: أية رقم (٢٤)
(٢)سورة الصافات: أية رقم (١٧١-١٧٣)
(٣)سورة الأنعام: أية رقم (١١٥)
(٤)سورة التحريم: أية رقم (١٢)
(٥)سورة النحل: أية رقم (١)

وقال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(١)

وكلماته: صدق وعدل.

والعدل: وضع الأشياء مواضعها.

فمن عدله: أن يجعل الصادق عليه، المبلغ لرسالته، حيث يصلح من كرامته ونصره، وأن يجعل الكاذب عليه، حيث يليق به من إهانته وذله.

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ)(٢)

قال أبو قلابة: هي لكل مفتر إلى يوم القيامة، ومن أعظم الإفتراء عليه، دعوى النبوة والرسالة كذباً.

كما قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)(٣)

وذكر في هذا الكلام، جميع أصناف الكاذبين، الذين يعارضون رسله الصادقين.

كما ذكر فيما قبله، حال الكاذبين، في قوله تعالى (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ)(٤)

ثم قال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ

---

(١)سورة يس: أية رقم (٨٢)

(٢)سورة الأعراف: أية رقم (١٥٢)

(٣)سورة الأنعام: أية رقم (٩٣)

(٤)سورة الأنعام: أية رقم (٩١-٩٢)

أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)(١)

فإن الكاذب: إما أن يقول: إن غيري أنزل علي، وإما أن يقول: أنا أصنف مثل هذا القرآن.

وإذا قال: غيري أنزل علي، فإما أن يُعينه، فيقول: أن الله أنزله علي، وإما أن يقول: أوحي، ولا يُعين من أوحاه.

فذكر الأصناف الثلاثة، فقال:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ)(٢)

فهذان نوعان من جنس.

ثم قال: (ومن) ولم يقل:(أو قال) إذ كان هذا معارضاً لا يدعي أنه رسول.

فقال:(وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ)(٣)

وهؤلاء المعارضون، قد تحداهم في غير موضع، وقال (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)(٤)

والرسول أخبر بهذا خبراً تاماً في أول الأمر، وهذا لا يمكن إلا مع قطعه أنه على الحق.

وإلى الآن، لم يوجد أحد أنزل مثل ما أنزل الله.

وقوله (وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ) ولم يقل: أقدر أن أنزل فإن قوله: سأنزل، هو وعد بالفعل، وبه يحصل المقصود.

بخلاف قوله: أقدر، فإنه لا يحصل به غرض المعارض، وإنما يحصل إذا فعل.

فمن وعد بإنزال، مثل ما أنزل، كان من أظلم الناس وأكذبهم إذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين، الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (٩٣)
(٢)سورة الأنعام: أية رقم (٩٣)
(٣)سورة الأنعام: أية رقم (٩٣)
(٤)سورة الإسراء: أية رقم (٨٨)

وقوله:(مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ) يقتضي أن كل ما أنزله الله على أوليائه فهو معجز، لا يقدر عليه إلا الله، كالتوراة، والإنجيل والزبور.

وهذا حق، فإن في ذلك من أنباء الغيب، مالا يعلمه إلا الله.

وفيه أيضاً من تأييد الرسل بذلك، مالا يقدر على أن يرسل بتلك الرسالة إلا الله، فلا يقدر أحد أن يُنزل مثل ما أنزل الله على نبيه، فيكون به مثل الرسول، ولا أن يرسل به غيره

فصل
الاستدلال بالحكمة

والاستدلال بالحكمة: أن يعرف أولا حكمته، ثم يعرف أن من حكمته، أنه لا يسوي بين الصادق، بما يظهر به صدقه، وبأن ينصره ويعزه، ويجعل له العاقبة، ويجعل له لسان صدق في العالمين. والكاذب: عليه يبين كذبه، ويخذله، ويذله، ويجعل عاقبته عاقبة سوء، ويجعل له لسان الذم، واللعنة في العالمين، كما قد وقع، فهذا هو الواقع.

لكن المقصود: أن نبين، أن ما وقع منه، فهو واجب الوقوع في حكمته، لا يجوز أن يقع منه ضد ذلك.

فهذا استدلال ببيان، أنه يجب أن يقع منه ما يقع، ويمتنع أن يقع منه ضده.

وذلك ببيان أنه حكيم، وأن حكمته توجب أن يبين صدق الأنبياء وينصرهم، ويبين كذب الكاذبين ويذلهم (١).

كذلك يفعل بأتباع النبيين، وبأعدائهم، كما أخبر بذلك في كتابه، وبين أن هذا حق عليه، يجب أن يفعله، ويمتنع أن يفعل ضده.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)(٢)

وكما قال (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)(٣)

وقوله: لأغلبن، قسمٌ أقسم الله عليه، فهو جواب قسم تقديره: والله لأغلبن أنا ورسلي.

وهذا يتضمن إخباره بوقوع ذلك، وأنه كتب على نفسه ذلك وأمر به نفسه، وأوجبه على نفسه.

---

(١) قال تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (٥١) سورة غافر وقال تعالى (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) (١٧١-١٧٣) سورة الصافات

(٢)سورة الروم: أية رقم (٤٧)

(٣)سورة المجادلة: أية رقم (٢١)

فإن صيغة القسم، تتضمن إلتزام ما حلف عليه، إما حضاً عليه، وأمراً به، وإما منعاً منه، ونهياً عنه

ولهذا كان في شرع من قبلنا، يجب الوفاء بذلك، ولا كفارة فيه وكذلك كان في أول الإسلام.

ولهذا كان أبو بكر، لا يحنث في يمين، حتى أنزل الله كفارة اليمين، كما ذكرت ذلك عائشة.

ولهذا أُمر أيوب، أن يأخذ بيده ضغثاً، فيضرب به ولا يحنث فإن ذلك صار واجباً باليمين(١).

كوجوب المنذور، الواجب بالنذر، يحتذى به حذو الواجب بالشرع.

والضرب بالضغث، يجوز في الحدود، إذا كان المضروب لا يحتمل التفريق، كما جاء في الحديث.

ولو كان في شرعهم كفارة، لأغنت عن الضرب مطلقاً، لكن الإنسان قد يلتزم مالا يعلم عاقبته، ثم يندم عليه.

والرب تعالى عالم بعواقب الأمور، فلا يحلف على أمرٍ ليفعلنه إلا وهو يعلم عاقبته.

واليمين موجبة، ولهذا قال تعالى (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)(٢)

وكتب: مثل كتب، في قوله (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(٣)

فهي كتابة تتضمن: خبراً، وإيجاباً.

ومنه قوله تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها)(٤) وفي الحديث الصحيح الآلهي: " يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا " (٥).

---

(١)قال تعالى(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (٤٤) سورة ص

(٢)سورة المجادلة: أية رقم (٢١)

(٣)سورة الأنعام: أية رقم (٥٤)

(٤)سورة هود: أية رقم (٦)

(٥)حديث قدسي طويل أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة، باب تحريم الظلم.

وقد بسط هذا الأصل في مواضع، مثل الكلام في مسألة القدر المختار، ومسألة العدل والظلم، وغير ذلك.

فإن كثيراً من المتكلمين يقول: إن القادر المختار، لا يفعل إلا بوصف الجواز، فيفعل الفعل في حال تردده، بين أن يفعل وأن لا يفعل.

ومنهم من يقول: يفعله، مع رجحان أن يفعل، رجحاناً لا ينتهي إلى حد الوجوب، وهو قول محمد بن الهيضم الكرامي ومحمود الخوارزمي المعتزلي.

وبهذا استطال عليهم الفلاسفة، فقالوا: الرب موجب لأن الممكن، لا يقع حتى يحصل المؤثر التام، الموجب له.

والتحقيق: أن الرب يخلق بمشيئته وقدرته، وهو موجب لكل ما يخلقه بمشيئته وقدرته.

ليس موجباً بمجرد الذات، ولا موجباً بمعنى: أن موجبه يقارنه فإن هذا ممتنع، فهذان معنيان باطلان.

وهو قادر، يفعل بمشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن فما شاءه وجب كونه، وما لم يشأه امتنع كونه.

ولهذا قال كثير من النظار: إن الإرادة موجبة للمراد.

وعلى هذا، فقولنا: يجوز أن يكون، ويجوز أن لا يكون، إنما هو جواز الشيء.

بمعنى: الشك في أيهما هو الواقع، وإلا ففي نفس الأمر أحدهما هو الواقع، ليس في نفس الأمر ظنياً، مترددا بين الوقوع، وعدم الوقوع.

والإمكان الذهني، قد يراد به: عدم العلم بالإمتناع.

وقد يراد به: الشك في الواقع، وكلا النوعين عدم علم.

والإمكان الخارجي،يراد به:أن وجوده في الخارج ممكن لا ممتنع،كولادة النساء، ونبات الأرض.

وأما الجزم بالوقوع، وعدمه، فيحتاج إلى دليل.

وفي نفس الأمر: ما ثم إلا ما يقع، أو لا يقع.

والواقع: لابد من وقوعه، ووقوعه واجب لازم.

وما لا يقع: فوقوعه ممتنع، لكن واجب بغيره، وممتنع لغيره وهو واجب من جهات:

- من جهة علم الرب: من وجهين.
- ومن جهة إرادته: من وجهين.
- ومن جهة كلامه: من وجهين.
- ومن جهة كتابته: من وجهين.
- ومن جهة رحمته.
- ومن جهة عدله.

أما علمه: فما علم أنه سيكون، فلابد أن يكون، وما علم أنه لا يكون، فلا يكون.

وهذا مما يعترف به جميع الطوائف، إلا من ينكر العلم السابق كغلاة القدرية، الذين تبرأ منهم الصحابة.

ومن جهة أنه يعلم ما في ذلك الفعل من الحكمة: فيدعوه علمه إلى فعله، أو ما فيه من الفساد، فيدعوه الى تركه، وهذا يعرفه من يقر بأن العلم داع، ومن يقر بالحكمة.

ومن جهة إرادته: فإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ومن جهة حكمته: وهي الغاية المرادة لنفسها، التي يفعل لأجلها فإذا كان مريداً للغاية المطلوبة، لزم أن يريد ما يوجب حصولها.

ومن جهة كلامه من وجهين:

من جهة: أنه أخبر به، وخبره مطابق لعلمه.

ومن جهة: أنه أوجبه على نفسه، وأقسم ليفعلنه، وهذا من جهة إيجابه على نفسه، والتزامه أن يفعله.

ومن جهة كتابته إياه في اللوح: وهو يكتب ما علم أن سيكون وقد يكتب إيجابه والتزامه، كما قال:(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)(١)

---

(١)سورة المجادلة: أية رقم (٢١)

وقال (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)(١)

فهذه عشرة أوجه، تقتضي الجزم بوقوع ما سيكون، وأن ذلك واجب، حتم لابد منه.

فما في نفس الأمر، جواز يستوي فيه الطرفان: الوجود... والعدم. وإنما هذا في ذهن الإنسان، لعدم علمه بما هو الواقع.

ثم من علم بعض تلك الأسباب، علم الواقع.

فتارة: يعلم، لأنه أخبر بعلمه، وهو ما أخبرت الأنبياء بوقوعه كالقيامة، والجزاء.

وتارة: يعلم من جهة المشيئة، لأنه جرت به سننه الشاملة، التي لا تتبدل.

وتارة: يعلم من جهة حكمته، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

والحكمة، والعدل، والرحمة، والعادة، تعلم بالعقل، كما قد عرف من حكمة الرب، وعدله، وسننه، ويستدل بذلك على: العلم، والخبر، والكتاب، كما أن العلم والخبر، والكتاب، يعلم بإخبار الأنبياء، ويستدل بذلك على: العدل، والحكمة، والرحمة.

والجهمية المجبرة، لا تجزم بثبوت، ولا انتفاء، إلا من جهة الخبر أو العادة، إذ كانوا لا يثبتون الحكمة، والعدل، والرحمة في الحقيقة، كما قد بسط في غير موضع.

وحكي عن الجهم: أنه كان يخرج فينظر الجَذمَي، ثم يقول: أرحم الراحمين يفعل هذا.

يقول: إنه يفعل لمحض المشيئة، ولو كان يفعل بالرحمة، لما فعل هذا. وهذا من جهله، لم يعرف ما في الابتلاء من الحكمة والرحمة والمصلحة. والمجبرة المثبتة للقدر، المتبعون لجهم.

والقدرية النفاة، مناقضون لهم، كما قد بسط الكلام على ذلك في غير موضع.

وما زال العقلاء، يستدلون بما علموه من صفات الرب، على ما يفعله.

كقول خديجة للنبي صلى الله عليه وسلم، لما قال لها: " لقد خشيت على نفسي.

فقالت: كلا، والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتصدق الحديث، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق " (٢).

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (٥٤)

(٢)رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما، كتاب: بدء الوحي: باب: كيف كان بدء الوحي لرسول الله.

فاستدلت بما فيه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، على أن الله لا يخزيه.

ومنه قوله تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)(١)

فإن الشيطان إنما ينزل على ما يناسبه ويطلبه، وهو يريد الكذب والإثم، فينزل على من يكون، كذلك وبسط هذا له موضع آخر، والكلام في النبوة، فرع على إثبات الحكمة، التي توجب فعل ما تقتضيه الحكمة، ويمتنع فعل ما تنفيه.

فنقول: هو سبحانه وتعالى حكيم، يضع كل شيء موضعه المناسب له، فلا يجوز عليه، أن يسوي بين جنس الصادق والكاذب، والعادل، والظالم، والعالم، والجاهل، والمصلح والمفسد.

بل يفرق بين هذه الأنواع، بما يناسب الصادق، العادل العالم، المصلح، من الكرامة.

وما يناسب الكاذب، الظالم، الجاهل، المفسد، من الهوان كما قال تعالى (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)(٢)

وقال تعالى (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)(٣)

وهذا استفهام إنكار، على من ظن ذلك.

وهو يتضمن تقرير المخاطبين وإعترافهم، بأن هذا لا يجوز عليه وأن ذلك بَيِّنٌ معروف، يجب اعترافهم به، وإقرارهم به كما يقال لمن ادعى أمراً ممتنعاً، مثل: نعم كثيرة، في موضع صغير فيقال له: أهَهنا كانت هذه النعم.

أي: هذا ممتنع، فاعترف بالحق.

وإذا ادعى على من هو معروف بالصدق والأمانة، أنه نقب داره، وأخذ ماله، قيل له: أهذا فعل هذا.

ومنه قوله تعالى (وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ)(٤)

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٢)
(٢)سورة ص: أية رقم (٢٨)
(٣)سورة القلم: أية رقم (٣٥)
(٤)سورة المائدة: أية رقم (١١٦)

وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)(١)ونظائره كثيرة.

وكذلك قوله تعالى (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)(٢)

فإن هذا استفهام إنكار، على من حسب أنه يسوي بين هؤلاء وهؤلاء، فبين أن هذا الحساب باطل، وأن التسوية ممتنعة في حقه، لا يجوز أن يظن به.

بل من ظن ذلك، فقد ظن بربه ظن السوء، وذلك ظن أهل الجاهلية، الذين يظنون بالله ظن السوء، فمن جوز ذلك على الله، فقد ظن بربه ظن السوء.

وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد (ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(٣)

فسره ابن عباس، وغيره: بأنهم ظنوا أن الله لم يُقدر ما جرى، وأنه لا ينصر رسوله.

فكما أن القدر يجب الإيمان به، ويعلم أن كل ما كان، فقد سبق به علم الرب، فكذلك يعلم أنه لابد أن ينصر رسله والذين آمنوا.

وكما أنه لا يجوز أن يقع خِلاف المقدر، فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا.

ومثله قوله تعالى، فيما أنزله عام الحديبية، لما ظن ظانون أن الرسول وأتباعه لا ينصرون، فقال تعالى (وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا)(٤)

وهذا يدل: على أن هذا ظن سوء بالله، لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك.

(١)سورة سبأ: أية رقم (٤٠)
(٢)سورة الجاثية: أية رقم (٢١)
(٣)سورة آل عمران: أية رقم (١٥٤)
(٤)سورة الفتح: أية رقم (٦)

ومن ينفي الحكمة يقول: يجوز عليه فعل كل شيء، وليس عنده ظن سوء بالله.

وإن قيل: لما أخبر أنه ينصره، كان ضد ذلك ظن سوء، لأن خبره لا يقع، بخلاف مخبره.

قيل عن هذا جوابان:

أحدهما: أن هؤلاء يلزمهم تجويز إخلاف الوعد عليه، لأن هذا من باب الأفعال المقدورة، وهم يجوزون كل مقدور.

وإذا قيل: إخلاف الوعد قبيح، فهم ليس عندهم شيء قبيح ينزهون الرب عنه.

الثاني: أنه إذا علم أنه يفعله، ولو بالعلم الضروري، فإنما ذاك لأنه واقع.

ولو قدر: أن رجلاً ظن أن الله لا يفعل ما سيفعله، مما ليس فيه ذم مثل: أن يظن أنه يموت بعد شهر، لم يقل أن هذا ظن سوء وإنما يكون ظن سوء، إذا كان المظنون عيباً قبيحاً، لا يجوز أن يضاف إلى المظنون به.

ومنه قوله تعالى (إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)(١)

فهذا ذم لمن ظن بالله الظنون.

ومن ذلك قوله تعالى (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)(٢)

وهذا يقتضي: أن هذا ممتنع عليه، ومن حكم بجوازه، فقد حكم حكماً باطلاً، جائراً، ممتنعاً.

كالذين جوزوا أن تكون له بنات، وهم يكرهون أن تكون لهم بنات.

فيجوزون على الله، ما هو قبيح عندهم.

قال تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)(٣)

---

(١)سورة الأحزاب: أية رقم (١٠)
(٢)سورة القلم: أية رقم (٣٥-٣٦)
(٣)سورة النحل: أية رقم (٥٧-٥٩)

ومما يبين حكمته، أن تقول: أفعاله المحكمة المتقنة، دلت على علمه. وهذا مما وقع الإتفاق عليه من هؤلاء، فإنهم يسلمون أن الإحكام والإتقان، يدل على علم الفاعل.

وهذا أمر ضروري عندهم، وعند غيرهم، وهو من أعظم الأدلة العقلية، التي يجب ثبوت مدلولها.

والإحكام والإتقان: إنما هو أن يضع كل شيء في محله المناسب لتحصل به الحكمة المقصودة منه.

مثل: الذي يخيط قميصاً، فيجعل الطوق على قدر العنق والكمين على قدر اليدين.

وكذلك الذي يبني الدار، يجعل الحيطان متماثلة، ليعتدل السقف، والذي يصنع الإبريق، يوسع ما يدخل منه الماء ويضيق ما يخرج منه.

وحكمة الرب في جميع المخلوقات باهرة، قد بهرت العقلاء واعترفت بها جميع الطوائف.

والفلاسفة: من أعظم الناس إثباتاً لها، وهم يثبتون العناية والحكمة الغائية، وإن كان فيهم، من قصر في أمر الإرادة والعلم.

وكذلك المتكلمون: كلهم متفقون على إثبات الحكمة في مخلوقاته، وإن كانوا في الإرادة، وفعله لغاية، متنازعين وذلك مثلما في خلق الإنسان.

وأدنى ذلك: أن العين، والفم، والأذن، فيها مياه، ورطوبة فماء العين: ملح.

وماء الفم: عذب.

وماء الأذن: مر.

فإن العين شحمة، والملوحة تحفظها أن تذوب، وهذه أيضاً حكمة تمليح البحر، فإن له سبباً وحكمة.

فسببه: سبوخة أرضه وملوحتها، فهي توجب ملوحة مائه وحكمتها: أنها تمنع نتن الماء، بما يموت فيه من الحيتان العظيمة، فإنه لولا ملوحة مائه، لأنتن، ولو أنتن لفسد الهواء لملاقاته له، فهلك الناس بفساده، وإذا وقع أحياناً، قتل خلق كثير، فإنه يفسد الهواء، حتى يموت بسبب ذلك خلق كثير. وماء الأذن: مر، ليمنع دخول الهوام إلى الأذن.

وماء الفم: عذب، ليطيب به ما يأكله، فلو جعل الله ماء الفم مراً، لفسد الطعام على أكلته، ولو جعل ماء الأذن عذباً لدخل الذباب في الدماغ.

ونظائر هذا كثيرة، فلا يجوز أن يفعل بخلاف ذلك، مثل: أن يجعل العينين في القدمين، ويجعل الوجه خشناً غليظاً كالقدمين فإنه يفسد مصلحة النظر والمشي.

بل من الحكمة أنه جعل العينين، في أعلى البدن، في مقدمه ليرى بها ما أمامه، فيدري أين يمشي (١) وجعل الرجل خشنة، تصبر على ما تلاقيه من التراب وغيره.

والعين لطيفة، يفسدها أدنى شيء، فجعل لها أجفانا تغطيها وأهداباً.

فنقول: هذا ومثله، من مخلوقات الرب، دل على أنه قد أحكم ما خلقه وأتقنه، ووضع كل شيء بالموضع المناسب له. وهذا يوجب العلم الضروري، أنه عالم، فيميز بين هذا، وبين هذا، حتى خص هذا بهذا، وهذا بهذا.

وهو أيضاً يوجب العلم الضروري، بأنه أراد تخصيص هذا بهذا وهذا بهذا، فدل على علمه وإرادته، وهذا مما يسلمونه. فنقول: ودل أيضاً على أنه جعل هذا لهذا، فجعل ماء العين والبحر ملحا، للحكمة المذكورة.

وجعل العين في أعلى البدن، وجعل لها أجفاناً، للحكمة المذكورة. وكذلك إذا أنزل المطر وقت الحاجة إليه، علم أنه أنزله ليحيي به الأرض.

وكذلك إذا دعاه الناس مضطرين، فأنزل المطر(٢)، علم أنه

أنزله ليحيي الأرض لإجابة دعائهم. (٣)

فلا يتصور أن يعلم، أنه أراد هذا لهذا، ولا يتصور الإحكام والإتقان، إلا اذا فعل هذا للحكمة المطلوبة.

فكان ما علم من إحكامه وإتقانه، دليلاً على علمه، وعلى حكمته أيضاً، وأنه يفعل لحكمة.

والذين استدلوا بالإحكام على علمه، ولم يثبتوا الحكمة، وأنه يفعل هذا لهذا، متناقضون عند عامة العقلاء.

---

(١) قال تعالى (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (٤) سورة التين

(٢) قال تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) (٢٨) سورة الشورى

(٣) قال تعالى (فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (٥٠) سورة الروم

وحذاقهم معترفون بتناقضهم، فإنه لا معنى للإحكام، إلا الفعل لحكمة مقصودة.

فإذا انتفت الحكمة، ولم يكن فعله لحكمة، إنتفى الإحكام وإذا انتفى الإحكام، انتفى دليل العلم.

وإذا كان الإحكام معلوماً بالضرورة، ودلالته على العلم معلومة بالضرورة، عُلم أن حكمته ثابتة بالضرورة، وهو المطلوب. وأيضاً: فإذا ثبت أنه عالم، فنفس العلم، يوجب أنه لا يفعل قبيحاً، ولا يجوز أن يفعل القبيح، إلا من هو جاهل، كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وبُيِّن أن العالم، يعلم ما الذي يصلح أن يفعل، وأن فِعلَ هذا أولى من فعل هذا، وإذا كان مريداً للفعل، وقد علم أن الفعل على هذا الوجه هو الأصلح، امتنع أن يريد الوجه الآخر.

والإنسان لا يريد القبيح، إلا لنقص علمه، أما أن يفعل بلا علم، بل لمجرد الشهوة، أو يظن خطأ، فيظن أن هذا الفعل يصلح، وهو لا يصلح.

فإنما يقع القبيح في فعله لفعله، مع الجهل البسيط، أو المركب والرب منزه عن هذا وهذا، فيمتنع أن يفعل القبيح.

وأيضاً: فإنه قد ثبت أنه مريد، وأن الإرادة تخصص المراد عن غيره، وهذا إنما يكون، إذا كان التخصيص لرجحان المراد، إما لكونه أحب إلى المريد، وأفضل عنده.

فأما إذا ساوى غيره من كل وجه، امتنع ترجيح الإرادة له فكان إثبات الإرادة، مستلزماً إثبات الحكمة، وإلا لم تكن الإرادة.

فقد تبين ثبوت حكمته: من جهة علمه، ومن جهة نفس أفعاله، المتقنة المحكمة، التي تدل على علمه بالإتفاق.

وهذه أصول عظيمة، من تصورها تصوراً جيداً، انكشف له حقائق هذا الموضع الشريف.

وإذا ثبت أنه حكيم، وأن حكمته لازمة لعلمه، ولازمة لإرادته وهما لازمان لذاته، كانت حكمته من لوازم ذاته.

فيمتنع أن يفعل إلا لحكمة، وبحكمة، ويمتنع أن يفعل على خلاف الحكمة.

ومعلوم بصريح العقل، أن العلم خير من الجهل، والصدق خير من الكذب، والعدل خير من الظلم، والإصلاح خير من الإفساد.

ولهذا وجب اتصافه تعالى: بالرحمة، والعلم، والصدق والعدل، والإصلاح، دون نقيض ذلك.

وهذا ثابت في خلقه وأمره، فكما أنه في خلقه عادل حكيم، رحيم.

فكذلك هو في أمره، وما شرعه من الدين، فإنه لا يكون إلا عدلاً، وحكمة، ورحمة.

ليس هو كما تقول الجهمية المجبرة، ومن اتبعهم من أهل الكلام والرأي، أنه يأمر العباد بما لا مصلحة لهم فيه، إذا فعلوه، وأن ما أمر به، لا يجب أن يفعل على حكمة.

وينكرون تعليل الأحكام، أو يقولون: أن علل الشرع، أمارات محضة، فهذا كله باطل، كما قد بسط في مواضع.

بل ما يأمر به مصلحة، لا مفسدة، وحسن، لا قبيح وخير، لا فساد، وحكمة، وعدل، ورحمة، والحمد لله رب العالمين. فإذا قدر رجلان، ادعيا على الرب الرسالة، أو توليا على الناس أو كانا من عرض الناس:

أحدهما: عام، صادق، عادل، مصلح.

والآخر: جاهل، ظالم، كاذب، مفسد.

ثم قدر أن ذلك العالم العادل، عوقب في الدنيا والآخرة، فأُذل في الدنيا، وقُهر، وأُهلك، وجُعل في الآخرة في جهنم.

وذلك الظالم، الكاذب، الجاهل، أُكرم في الدنيا والآخرة وجعل في الدرجات العلى، كان معلوماً بالإضطرار، أن هذا نقيض الحكمة والعدل، وهو أعظم سفهاً وظلماً من تعذيب ماء البحر، وماء العين.

فإن هذا غايته: موت شخص، أو النوع، وهذا أقل فساداً من إهلاك خيار الخلق، وتعذيبهم، وإكرام شرار الخلق وإهانتهم. وإذا كان هذا أعظم مناقضة للحكمة والعدل من غيره، وتبين بالبراهين اليقينية، أن الرب لا يجوز عليه خلاف الحكمة والعدل.

علم بالإضطرار، أن الرب سبحانه، لا يسوي بين هؤلاء وهؤلاء فضلاً عن أن يفضل الأشرار على الأخيار.

وهو سبحانه أنكر التسوية فقال تعالى (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)(١)

وقال تعالى (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ.مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)(٢)

وقد جعل من جوز، أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، ويعذبهم في الآخرة في جهنم، وأن الفراعنة يكرمهم في الآخرة.

والمنازع عنده، لا فرق بين هذا وهذا، بالنسبة إلى الرب وإلى إرادته، وحكمته، وعلمه.

بل إنما علم وقوع أحدهما، بمجرد الخبر، لا لإمتناع أحدهما ووجوب الآخر.

والخبر: إنما هو خبر الأنبياء، وذلك موقوف على العلم بصدقهم، وهو يستلزم صدقهم.

وعلى أصله يمتنع العلم بصدقهم، فإنه يجوز أن يسوي الله بين الصادق والكاذب على أصله، إذ كان يجوز عليه عنده كل مقدور.

وعنده لا يجوز أن يفعل فعلاً لحكمة، فلا يجوز على أصله أن يخلق الله آية، ليدل به على صدقهم.

وإذا قال: تجويز ذلك يقتضى، أنه لا يقدر على خلق ما به يبين صدق الصادق، فلذلك منعت من ذلك، لأنه يقضي إلى تعجيزه.

قيل له: إنما يفضي إلى عجزه، إذا كان خلق دليل الصدق ممكناً، وعلى أصلك لا يمكن إقامة الدليل على إمكانه.

فإن الدليل يستلزم المدلول، ويمتنع ثبوته مع عدمه، وأي شيء قدرته، جاز أن يخلقه على أصلك، على يد الكاذب وأنت لا تنزهه عن فعل ممكن.

وإذا قلت: أنزهه عن فعل ممكن يستلزم عجزه، كان هذا تناقضاً فإن فعل الممكن، لا يستلزم العجز، بل إمتناع الممكن يستلزم العجز.

وبيان ذلك أن يقال: ما خلقه على يد الصادق، هو قادر على أن يخلقه على يد الكاذب، أم لا؟ فإن قلت: ليس بقادر، فقد أثبتَ عجزه.

---

(١)سورة الجاثية: أية رقم (٢١)

(٢)سورة القلم: أية رقم (٣٥-٣٦)

وإن قلت: هو قادر على ذلك، فالمقدور عندك، لا ينزه عن شيء منه. وإن قلت: هذا المقدور أنزهه عنه، لئلا يلزم عجزه، كان حقيقة قولك: أثبت عجزه، لئلا أنفي عجزه، فجعلته عاجزاً، لئلا تجعله عاجزاً، فجمعت بين النقيضين: بين إثبات العجز، ونفيه.

وإنما لزمه هذا، لأنه لا ينزه الرب عن فعل مقدور، فاستوت المقدورات كلها، في الجواز عليه عنده.

ولم يحكم بثبوت مقدور، إلا بالعادة، أو الخبر.

والعادة: يجوز انتقاضها عنده.

والخبر: موقوف على العلم بصدق المخبر، ولا طريق له إلى ذلك. فتبين أن كل من لم ينزه الرب، عن السوء والسفه، ويصفه بالحكمة والعدل، لم يمكنه أن يعلم نبوة نبي، ولا المعاد ولا صدق الرب في شيء من الإخبار.

فهذه طريقة من يجعل وجه دلالة المعجز، على صدق الأنبياء لئلا يلزم العجز.

وأما الطريقة الثانية: وهي أجود، وهي التي اختارها أبو المعالي وأمثاله، فهو أن دلالة المعجز على التصديق، معلومة بالإضطرار وهذه طريقة صحيحة، لمن اعتقد أنه يفعل لحكمة.

وأما إذا قيل: إنه لا يفعل لحكمة، انتفى العلم الإضطراري والأمثلة التي يذكرونها: كالملك، الذي جعل آية لرسوله أمراً خارجاً عن عادته، إنما دلت للعلم، بأن الملك يفعل شيئاً لشيء، فإذا نفوا هذا، بطلت الدلالة.

وكذلك دليل القدرة، هو دليل صحيح، لكن مع إثبات الحكمة، فإنه سبحانه وتعالى قادر، على أن يميز بين الصادق والكاذب، إذ كان قادراً على أن يهدي عباده، إلى ما هو أدق من هذا، فهداهم إلى أسهل.

لكن هذا يستلزم إثبات حكمته ورحمته، فمن لم يثبت له حكمة، ورحمة، امتنع عليه العلم بشيء من أفعاله الغائبة.

وأيضاً: فآيات الأنبياء تصديق بالفعل، فهي تدل إذا عُلم أن من صدقه الرب، فهو صادق.

وذلك يتضمن تنزيهه عن الكذب، وعلى أصلهم لا يعلم ذلك.

فإن ما يخلقه من الحروف، والأصوات، عندهم هو مخلوق من المخلوقات.

فيجوز أن يتكلم كلاماً، يدل على شيء، وقد أراد به شيئاً آخر فإن هذا من باب المفعولات عندهم، والكلام النفسي، لا سبيل لأحد إلى العلم به، فعلى أصلهم يجوز الكذب في الكلام المخلوق العربي، وهو الذي يستدل به الناس، فلا يبقى طريق إلى العلم، بأنه صادق فيما يخلقه من الكلام. ولهذا نجد حذاقهم في السمعيات، إنما يفرون إلى ما علم بالإضطرار من قصد الرسول، لا إلى الإستدلال بالقرآن.

فالقاضي أبو بكر، عمدته أن يقول: هذا مما وقفنا عليه الرسول وعلمنا قصده بالإضطرار.

كما يقول مثل ذلك في تخليد أهل النار، وفيما علمه من الأحكام، إذ كانوا لا يعتمدون على القول المسموع، لا خبراً ولا أمراً.

فهم لا طريق عندهم إلى التمييز، بين ما يقع، وما لا يقع مثل: التمييز بين كونه يثيب المحسن، ويعاقب المسيء، أو لا يفعله. ففي الجملة: جميع أفعاله، من إرسال الأنبياء، ومجازاة العباد وقيام القيامة، لا طريق لهم إلى العلم بذلك، إلا من جهة الخبر وطريق الخبر على أصلهم مسدود.

وهم يعلمون صدق الرسول، وصدق خبره معلوم في أنفسهم لكن يناقض أصولهم.

لكن مع هذا، هم واقفة فيما أخبرت به الرسل من الوعيد فضعف علمهم، بما أخبرت به الرسل، فصاروا في نقصٍ عظيم في علمهم، وإيمانهم بما أخبرت به الرسل، وما أمرت به، وفي أصل ثبوت الرسالة هذه: السمعيات.

وأما العقليات: فمدارها على حدوث الجسم، وقد عرف فساد أصلهم فيها.

فهذه أصولهم: العقلية..... والسمعية.

وهم لا يعلمون أيضاً، ما يفعله الرب من غير الخبر، إلا من جهة العادة.

والعادة: يجوز عندهم نقضها، بلا سبب، ولا لحكمة.

ويجوزون: أن تصبح الجبال يواقيت والبحار، زيبقاً.

فإذا احتجوا بالعادات، فقيل لهم: عندكم يجوز نقضها، بلا سبب ولا حكمة.

أجابوا: بأن الشيء قد يعلم جوازه، ويعلم بالضرورة أنه لا يقع وهذا أيضاً جمع بين النقيضين.

وهم يقولون: العقل: هو العلم بجواز الجائزات، وامتناع الممتنعات ووجوب الواجبات، كالعلم بأن الجبل لم ينقلب ياقوتاً. ثم يجعلون هذا من الجائز على أصلهم: ليس في الأفعال، لا واجب، ولا ممتنع، بل كل مقدور، فإنه جائز الوجود وجائز العدم.

لا يعلم أحد الطرفين: إلا بخبر، أو عادة، لا بسبب يقتضيه، ولا حكمة تستلزمه.

كما أن المرجح له عندهم، مجرد الإرادة، لا بسبب، ولا حكمة. وإذا علم جواز الشيء وعدمه، ولم يعلم ما يوجب أحدهما أمتنع أن يعلم بالضرورة ثبوت أحدهما.

والناس إنما يعلمون أن الجبال لم تنقلب يواقيت، لعلمهم بأن هذا ممتنع، وأن الله إذا أراد قلبها يواقيت، أحدث أسباباً تقتضي ذلك.

فأما انقلاب العادة بلا سبب، فهذا ممتنع عند العقلاء، وجميع ما خرق الله به العادة، كان لأسباب تقتضيه، ولحكم فعل لإجلها لم يكن ترجيحاً بلا مرجح، كما يقوله هؤلاء.

فهذا هذا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولو لم يتعلق هذا بالإيمان بالرسول، وبما أخبر به الرسول واحتجنا إلى أن نميز، بين الصحيح والفاسد، في الأدلة والأصول، لما ورد عليَ ما قاله هؤلاء من هذه السؤالات.

لم تكن بنا حاجة إلى كشف الأسرار، لكن لما تكلموا في إثبات النبوة، صاروا يوردون عليها أسئلة، في غاية القوة والظهور، ولا يجيبون عنها إلا بأجوبة ضعيفة، كما ذكرنا كلامهم.

فصار طالب العلم والإيمان والهدي من عندهم – لا سيما إذا اعتقد أنهم أنصار الإسلام، ونظاره، والقائمون ببراهينه وأدلته – إذا عرف حقيقة ما عندهم، لم يجد ما ذكروه، يدل على ثبوت نبوة الأنبياء.

بل وجده يقدح في الأنبياء، ويورث الشك فيها، أو الطعن فيها، وأنها حجة لمكذب الأنبياء، أعظم مما هي حجة لمصدق الأنبياء، فانسد طريق الإيمان والعلم، وانفتح طريق النفاق والجهل لاسيما على من لم يعرف إلا ما قالوه.

والذي يفهم ما قالوه، لا يكون إلا فاضلاً، قد قطع درجة الفقهاء، ودرجة من قلد المتكلمين

فيصير هؤلاء، إما منافقين، وإما في قلوبهم مرض، ويظن الظان، أنه ليس في الأمر على نبوة الأنبياء، براهين قطعية ولا يعلم أن هذا إنما هو لجهل هؤلاء، وأصولهم الفاسدة التي بنوا عليها الإستدلال، وقدحهم في الآلهية.

وأنهم لم ينزهوا الرب، عن فعل شيء من الشر، ولا أثبتوا له حكمة، ولا عدلاً، فكان ما جهلوه من آيات الأنبياء. إذ كان العلم بآيات الله، وما قصه لخلقه، من الدلائل والبراهين مستلزماً لثبوت علمه، وحكمته، ورحمته، وعدله، فإذا انتفى اللازم، انتفى الملزوم.

وهم في الأصل إنما قصدوا الرد على القدرية، الذين قالوا: إن الله لم يشأ كل شيء، ولم يخلق أفعال العباد.

وهو مقصود صحيح، لكن ظنوا، أن هذا لا يتم إلا بجحد حكمته، وعدله، ورحمته، فغلطوا في ذلك.

كما أن المعتزلة أيضاً غلطوا من جهات كثيرة، وظنوا أنه لا تثبت حكمته، وعدله، ورحمته، إن لم يجحد خلقه لكل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ويجحد اتصافه بالكلام، والإرادة، وغير ذلك من أقوال المعتزلة التي هي من أقوال هؤلاء.

فإن هؤلاء في الصفات، خير من المعتزلة، وفي الأفعال من بعض الوجوه.

ولهذا لما ظهر للغزالي ونحوه، ضعف طريق الإستدلال بالمعجزات، الذي سلكه شيوخه، وهو لا يعرف غيره أعرض عنها.

وذكر أنه: إنما علم ثبوت النبوة، بقرائن تعجز عنها العبارة وهي علوم ضرورية، حصلت له على الطول.

وجعل الدليل على النبوة: هو العلم، بأن ما جاء به حق، من غير جهته.

وهذه طريق صحيحة، قد سلك الجاحظ نحواً منها.

ولكن النبوة التي علمها أبو حامد، هي النبوة التي تثبتها الفلاسفة، وهي من جنس المنامات.

ولهذا استدل على جوازها، بمبدأ الطب والهندسة، ونحو ذلك، وأمر النبوة أعظم من هذا بكثير، وتلك النبوة، موجودة لخلق من الناس، فلهذا لا يوجد للنبوة، ما تستحقه من التصديق والإحترام،ولا يعتمدون عليها في استفادة شيء من العلم الخبري، وهي الإنباء بالغيب، وهي خاصة النبوة.

والرازي: كلامه في النبوة متردد، بين نبوة الفلاسفة، ونبوة أصحابه هؤلاء كما ترى.

وليس في واحد من الطريقين إثبات النبوة، التي خص الله بها أنبياءه.

فلهذا: ضعفت معرفة هؤلاء بالأنبياء، وضعف أخذ العلم من طريقهم، لاسيما وقد عارضوا كثيراً، مما جاء عنهم بالعقليات، ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم، من العقليات والذوقيات، التي من سلكها ضل ضلالاً بعيداً.

وإنما ينجو، من سلك منها شيئاً، إذا لطف الله، فعرفه السلوك خلف طريق الأنبياء.

فمن لم يهتد بما جاءت به الأنبياء، فهو أبعد الناس عن الهدى قال تعالى (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ. وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)(١)

وقال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ.وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)(٢)

وقال تعالى (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)(٣)

ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته، حيث قال: ولقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)(٤)

وقوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)(٥)

وأقرأ في النفي، قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)(٦) وقوله تعالى(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا)(٧) ومن جرب مثل تجربتي، عرف مثل معرفتي.

وأكثر الانتفاع بكلام هؤلاء، هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها.

---

(١)سورة الجاثية: أية رقم (٦-٩)
(٢)سورة المرسلات: أية رقم (٤٨-٥٠)
(٣)سورة آل عمران: أية رقم (١٠١)
(٤)سورة فاطر: أية رقم (١٠)
(٥)سورة طه: أية رقم (٥)
(٦)سورة الشورى: أية رقم (١١)
(٧)سورة طه: أية رقم (١١٠)

وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين، ينتفع بكلام كل طائفة، في بيان فساد قول الطائفة الأخرى، لا في معرفة ما جاء به الرسول.

فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع، من يعرف حقيقة ما جاء به الرسول، ولكن يعرف كل طائفة منه ما يعرفه فليسوا كفاراً جاحدين له، وليسوا عارفين به.

فلقد عرفت وما عرفت حقيقة ولقد جهلت وما جهلت حمولاً

وبسط هذه الأمور، له موضع آخر، ولكن نبهنا هنا على طريق الحكمة.

فصل
آيات الله تدل على صدق الأنبياء

وإذا عرفت حكمة الرب وعدله، تبين أنه: إنما يرسل من اصطفاه لرسالته، واختاره لها.

كما قال تعالى (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)(١)

وكما قال لموسى (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)(٢)

وأنه إذا أبلغ الرسالة، وقام بالواجب، وصبر على تكذيب المكذبين وأذاهم، كما مضت به سنته في الرسل، قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ.أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)(٣)

وقال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)(٤)

وقال تعالى (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ.قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ.وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ.وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ.وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍمِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)(٥)

---

(١)سورة الحج: أية رقم (٧٥)

(٢)سورة طه: أية رقم (١٣)

(٣)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢-٥٣)

(٤)سورة فصلت: أية رقم (٤٣)

(٥)سورة إبراهيم: أية رقم (٩-١٧)

إلى سائر ما أخبر به من أحوال الرسل.

والرسل صادقون، مصدقون من عند الله، يخبرون بالحق ويأمرون بالعدل، ويدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له. وأهل الكذب، المدعون للنبوة، ضد هؤلاء، كاذبون يأتيهم الشياطين.

الكاذبون: يأمرون بما نهى الله عنه، وينهون عما أمر الله به فإنهم لابد أن يأمروا بتصديقهم، واعتقاد نبوتهم، وطاعتهم. وذلك مما نهى الله عنه، ولا بد أن ينهوا عن متابعة من يكذبهم ويعاديهم، وذلك مما أمر الله به.

فإنه يمتنع في حكمة الرب وعدله، أن يسوي بين هؤلاء: خيار الخلق، وبين هؤلاء: شرار الخلق، لا في سلطان العلم، وبراهينه وأدلته، ولا في سلطان النصر والتأييد.

بل يجب في حكمته، أن يظهر الآيات والبراهين، الدالة على صدق هؤلاء، وينصرهم، ويؤيدهم، ويعزهم، ويبقى لهم سلطان الصدق، ويفعل ذلك بمن اتبعهم.

وأن يظهر الآيات، المبينة لكذب أولئك، ويذلهم، ويخزيهم ويفعل ذلك بمن اتبعهم، كما قد وقع في هؤلاء وهؤلاء. وقد دل القرآن، على الإستدلال بهذا في غير موضع.

والأدلة، والبراهين، كما تقدم نوعان:

نوع: يدل بمجرده، بحيث يمتنع وجوده، غير دال كدلالة حدوث الحادث على محدث، فهذا يدل بمجرده.

وإن قدر أن أحداً لم يقصد الدلالة به، لكن الرب بكل شيء عليم، وهو مريد لخلق ما خلقه، ولصفاته.

لكن لا يشترط في الإستدلال بهذا، أن يعلم أن دالاً قصد أن يدل به.

والنوع الثاني: ما هو دليل بقصد الدال وجعله.

فهذا لولا القصد، وجعله دليلاً، لم يكن دليلاً، فهو إنما قصد به الدلالة.

فهذا مقصوده مجرد الدلالة، وذلك بمجرده هو الدليل، وهذا كالكلام الذي يدل بقصد المتكلم، وغير ذلك، مثل: الإشارة بالرأس، والعين، والحاجب، واليد.

ومثل: الكتابة.

ومثل: العقد.

ومثل: الأعلام التي نصبت على الطرق، وجعلت علامة على حدود الأرض، وغير ذلك.

ومن ذلك: العلامات التي يبعثها الشخص مع رسوله ووكيله إلى أهله، سواء كان قد تواطأ معهم عليها، مثل: أن يقول علامته أن يضع يده على ترقوته، أو يضع خنصره في خنصره ونحو ذلك.

أو كانت علامة، قصد بها الإعلام، من غير تقدم مواطأة مثل: إعطائه عمامته، أو نعليه، كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم عمامته، علامة على ولاية قيس بن سعد، وعزل أبيه عن الإمارة يوم الفتح.

وكما أعطى أبا هريرة نعليه علامة على ما أرسله به، وكما يعطي الرجل لرسوله خاتمه، ونحو ذلك.

فهذه الدلائل، دلت بالقصد، والجعل، وقد كان يمكن أن لا تجعل دليلاً.

فإذا كانت آيات الأنبياء من هذا الجنس، فهي إنما تدل مع قصد الرب، إلى جعلها دليلاً، وجعله لها دليلاً، بأن يجعل المدلول لازماً لها.

فكل من ظهرت على يده، كان نبياً صادقاً، فإن الدليل لا يكون دليلاً، إلا مع كونه مستلزماً للمدلول.

فيمتنع أن يكون دليلاً، إذا وجد معه عدم المدلول، أو وجد ضد المدلول.

فآيات الأنبياء، الدالة على صدقهم، يمتنع وجودها بدون صدق النبي.

ووجودها مع مدعي النبوة كاذباً، أعظم استحالة، فإنها إذا كانت ممتنعة، مع عدم نبوة صادقة.

وإن لم تكن هناك نبوة كاذبة، فمع الكاذبة أشد امتناعاً فهي مستلزمة للنبوة، لا تكون مع عدم النبوة البتة. والكاذب قد عدمت في حقه النبوة، ووجد في حقه ضدها وهو الكذب في دعواها.

يمتنع كونه نبياً صادقاً، فيمتنع أن يخلق الرب ما يدل على صدق الأنبياء بدون صدقهم، لإمتناع وجود الملزوم دون لازمه ومع كذبهم لإمتناع وجود الشيء مع ضده.

والكذب ضد الصدق، فيمتنع أن يكون قوله: أنا نبي صدقاً وكذباً.

فإذا استلزم الصدق، امتنع وجود الكذب.

وخلق دليل الصدق، مع عدم الصدق، ممتنع، غير مقدور لكن الممكن المقدور، أن ما جعله دليلاً على الصدق يخلقه بدون الصدق، فيكون قد خلقه وليس بدليل حينئذ.

ويمكن أن يخلق على يد الكاذب، ما يدل أنه دليل على صدقه، وليس بدليل.

مثل: خوارق السحرة والكهان، كما كان يجري لمسيلمة والعنسي، وغيرهما.

لكن هذه ليست دليلاً على النبوة، لوجودها معتادة لغير الأنبياء، وليست خارقة لعادة غير الأنبياء، بل هي معتادة للسحرة والكهان.

فالتفريط ممن ظنها دليلاً، لاسيما ولا بد أن تكون دليلاً على كذب صاحبها، فإن الشياطين لا تقترن إلا بكاذب كما قال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ. تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)(١)

ولا يجوز أن يظهر الرب، ما جعله دليلاً للنبوة، مع عدم النبوة كما أنه لا يجوز أن يتكلم، بالكلام الذي جعله لبيان معان بدون إرادة تلك المعاني.

بل ذلك ممتنع من وجوه: من جهة حكمته، ومن جهة عادته، ومن جهة عدله ورحمته، ومن جهة علمه وإعلامه، وغير ذلك، كما قد بسط في مواضع.

ومن جهة قدرته أيضاً، فإنه قادر على هدي عبادة وتعريفهم وذلك إنما يكون بتخصيص الصادق، بما يستلزم صدقه فإذا ما سوي بين الصادق والكاذب، فإنه يمتنع التعريف.

والممتنع ليس بمقدور، فقدرته تقتضي خلق الفرق.

وقد يقال: هو قادر، لكن لا يفعل مقدوره.

فيقال: فعله له ممكن، ولا يمكن إلا على هذا الوجه، فيكون قادراً على هذا الوجه.

فإن قيل، هو قادر، ولكن لا يفعله.

قيل: إن أريد أنه يمتنع، فهذا باطل، وإن أريد أنه يمكن فعله، ولكن لا يفعله، لم يكن على هذا النفي دليل، بل وجوده يدل على أنه فعله.

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٢)

وأيضاً: فأفعال الرب:

- إما واجبة.
- وإما ممتنعة.

وإذا لم يكن ممتنعاً، تعين أنه واجب، وأنه قد فعله وهذا قد فعله، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن هذا كله يستلزم، أن الرب منزه، عن أن يفعل بعض الأمور الممكنة المقدورة، لكون ذلك يستلزم أمراً يناقض حكمته.

ولكون فعل الشيء، لا يكون إلا مع لوازمه، وانتفاء أضداده فيمتنع فعله بدون لوازمه، أو مع ضده.

كما يمتنع جعل الدليل دليلاً، مع وجوده بلا مدلول، أو مع وجود ضد المدلول معه.

والذين قالوا: يجوز منه فعل كل شيء، ولا ينزه عن شيء يتعذر على أصلهم، وجود دليل جعلي قصدي، لا الكلام ولا الفعال.

فيمتنع على أصلهم، كون كلام الرب، يدل على مراده، أو كون آياته، التي قصد بها الدلالة على صدق الأنبياء أو غيرهم تدل، لأنه يقدر أن يفعل ذلك، وغير ذلك.

كما يقدر أن يظهر على يد الكاذب، ما أظهره على يد الصادق.

وهم يقولون: المعجزة هي الخارق المقرون بالتحدي بالمثل وعدم المعارضة، وهذا يقدر على إظهاره على يد الصادق.

فمن سَوى بين جميع الأمور، وجعل إرادته لها سواء، لم يفرق بين هذا وهذا.

فقالوا: نحن نستدل على أنه لم يظهرها على يد الكاذب بأنه لو فعل ذلك، لبطلت قدرته على تصديق الصادقين بالآيات. فإنه إنما يستدل على صدقهم بالآيات، فلو أظهرها على يد الكاذب، لم يبق قادراً.

هذه عمدة أكثرهم، وعليها اعتمد القاضي أبو بكر في كتاب المعجزات.

فيقال لهم: هذا لا يبطل قدرته على ذلك، ولكن هذا يوجب أنه لم يفعل المقدور، فيلزم من ذلك أنه سوى بين الصادق والكاذب، ولم يبين صدقه.

وهذا مقدور ممكن، وكل مقدور ممكن، فهو عندكم جائز عليه، فلم يكن اللازم رفع قدرته، بل اللازم أنه لم يفعل مقدوره، وهذا جائز عندكم.

ومما يوضح هذا، أن يقال: هو قادر على إظهار ذلك على يد الكاذب أم لا؟

فإن قلتم: ليس بقادر، أبطلتم قدرته.

وإن قلتم: هو قادر، فثبت أنه قادر على إظهار ذلك، على يد الصادق والكاذب، فبقي مشتركاً لا يخص أحدهما، فلا يكون حينئذ دليلاً، فمجرد القدرة، لم يوجب اختصاص الصادق به.

وان قلتم: لا يقدر على إظهاره على يد الكاذب، فقد رفعتم القدرة.

فأنتم بين أمرين: إن أثبتم القدرة العامة، فلا اختصاص لها وإن نفيتم القدرة على أحدهما، بطل استدلالكم بشمول القدرة. وأيضاً: فالقدرة إنما تكون على ممكن، وعلى أصلكم لا يمكن تصديق الصادق.

فهم استدلوا بمقدمتين، وكلاهما باطلة.

قالوا: لو لم يكن دليلاً رفع القدرة، وهذا باطل، بل يلزم أنه لم يفعل المقدور.

وهذا جائز عندهم، فلا يجب عندهم شيء من الأفعال.

ثم قالوا: وهو قادر على ذلك.

وعلى أصلهم: ليس هو بقادر على ذلك، فإنهم قالوا: يمكنه تصديق الأنبياء بالفعل، كما يمكنه التصديق بالقول.

فيقال لهم: كلاهما يدل بالقصد والجعل، وهذا إنما يكون ممن يقصد أن يفعل الشيء ليدل، وعندكم هو لا يفعل شيئاً لشيء، فيلزم على أصلكم، أن لا يفعل شيئاً، لأجل أنه يدل به عباده، لا فعلاً، ولا كلاماً.

إذ كان هذا عندكم ممتنعاً، وهو فعل شيء لمقصود آخر غير فعله وإذا كان هذا ممتنعاً عندكم، لم يكن مقدوراً، فلا يقدر على أصلكم، أن ينصب لعباده دليلاً، ليدلهم به على شيء بل هذا عندهم فعل لغرض، وهو ممتنع عليه.

وإن قلتم: هو وإن لم يقصد أن يفعل شيئاً لحكمة، لكن قد يفعل الشيئين المتلازمين، فيستدل بأحدهما على الآخر.

قيل: هذا إنما يكون بعد أن يثبت التلازم، وأن أحدهما مستلزم للآخر، وهذا معلوم فيما يدل بمجرده، فإنه يمتنع وجوده بدون لازمه، أما ما يدل بالجعل والقصد، فيمكن وجوده بدون ما جعل مدلولاً له.

واللزوم: إنما يكون بالقصد، وهو عندكم يمتنع أن يفعل شيئاً لأجل شيء، فبطلت الأدلة القصدية على أصلكم، وهي أخص بالدلالة من غيرها.

ولهذا لا يكادون يستدلون بكلام الله، بل يعتمدون في السمعيات، إما على ما علم بالضرورة، أو الإجماع.

وحقيقة الأمر: أن الأدلة الجعلية القصدية، لابد فيها من إرادة الرب ومشيئته، أن تكون أدلة.

فلابد أن يريد أن يجعل هذا الفعل ليدل، وهم لا يجوزون أن يريد شيئاً لشيء.

بل كل مخلوق هو عندهم، مراد من نفسه، لم يرد لغيره فامتنع أن يكون يريد الرب، جعل شيء دليلاً على أصلهم. فتبين أنه على أصلهم: غير قادر، على نصب ما يقصد به دلالة العباد، وهدايتهم، وإعلامهم، لا قول، ولا فعل فبطلت المقدمة الكبرى.

وبتقدير أن يكون قادرا على ذلك: فهو إذا أظهر على يد الكاذب، ما يظهر على يد الصادق، كان لم يفعل هذا المقدور، ولم يجعل ذلك دليلاً على الصدق، لا يلزم أن لا يكون قادراً.

فهم اعتمدوا على هذه الحجة.

وقالوا: هذا هذا، وهذا هذا.

فقد تبين: أن من لم يثبت حكمة الرب، يلزمه نفي إرادته ومشيئته، كما تقدم.

ويلزمه أيضاً: نفي قدرته على أن يفعل شيئاً لشيء، فلا يمكنه أن ينصب دليلاً ليدل به عباده، على صدق صادق، ولا كذب كاذب.

وهم يقولون: من فعل شيئاً لحكمة، دليل على حاجته ونقصه لأنه فعل لغرض.

والغرض: هو الشهوة.

وذلك يتضمن الحاجة، وهذا بعينه يقال في الإرادة، أن من أراد، فإنما يريد لغرض وشهوة.

فقولهم: بنفي الحكمة، يتضمن نفي الإرادة، ونفي القدرة وقد بسط هذا في غير هذا الموضع.

وبُين أن من نفى الحكمة، يلزمه نفي الإرادة، ومن نفى الإرادة يلزمه نفي فعل الرب، ونفي الأحداث.

ومن نفى ذلك، يلزمه امتناع حدوث حادث في الوجود وأن إثبات الحكمة، لازم لكل طائفة، على أي قولٍ قالوه كما قد بسط في غير هذا الموضع.

إذ المقصود: التنبيه على أن إثبات آيات الأنبياء، والاستدلال بكلام الله وآياته، التي أراد أن يدل بها عباده، بدون إثبات حكمته، ممتنع.

ولهذا اضطرب كلام من نفى حكمته في آيات الأنبياء، وفي كلام الرب سبحانه، وهي الآيات التي بعثت بها الأنبياء القولية، والفعلية.

واضطربوا في الإستدلال على ما جاءت به الأنبياء، كما قد نبه عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل
الاستدلال بسنة الله وعادته

وأما الإستدلال بسنته وعادته، فهو أيضاً طريق برهاني ظاهر لجميع الخلق، وهم متفقون عليه، من يقول بالحكمة ومن يقول بمجرد المشيئة.

فإنه قد علم عادته سبحانه في طلوع الشمس، والقمر والكواكب، والشهور، والأعوام.

وعادته في خلق الإنسان، وغيره من المخلوقات.

وعادته فيما عرفه الناس، من المطاعم، والمشارب، والأغذية والأدوية، ولغات الأمم، كالعلم بنحو كلام العرب وتصريفه والعلم بالطب، وغير ذلك.

كذلك سنته تعالى في الأنبياء الصادقين وأتباعهم، وفيمن كذبهم، أو كذب عليهم، فأولئك ينصرهم ويعزهم،ويجعل لهم العاقبة المحمودة، والآخرون يهلكهم ويذلهم،ويجعل لهم العاقبة المذمومة.

كما فعل بقوم نوح، وبعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وفرعون وقومه.

وكما فعل بمن كذب محمداً من قومه قريش، ومن سائر العرب، وسائر الأمم غير العرب.

وكما فعل من نصر أنبيائه وأتباعهم قال تعالى (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ.وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)(١)

وقال تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)(٢)

وقال تعالى (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)(٣)

وقال تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ.وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)(٤)

---

(١)سورة الصافات: أية رقم (١٧١-١٧٣)

(٢)سورة غافر: أية رقم (٥١)

(٣)سورة هود: أية رقم (١٠٠-١٠١)

(٤)سورة الحج: أية رقم (٤٢-٤٤)

وقال تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون)(١)

وقال تعالى (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (٢)

وقال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)(٣)

وقال تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ.فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)(٤)

وقال تعالى (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا.سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)(٥)

وقال تعالى (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا.اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)(٦)

---

(١)سورة الروم: أية رقم (٩-١٠)
(٢)سورة غافر: أية رقم (٢١-٢٢)
(٣)سورة غافر: أية رقم (٥)
(٤)سورة غافر: أية رقم (٨٢-٨٥)
(٥)سورة الفتح: أية رقم (٢٢-٢٣)
(٦)سورة فاطر: أية رقم (٤٢-٤٣)

وقال تعالى (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً)(١)

وقال تعالى (وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً.وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً. إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)(٢)

وقد قيل: آية الحاقة، وآية الشورى، تبين أنه لو افترى عليه لعاقبة، فهذه سنته في الكاذبين(٣).

وحقيقة الإستدلال بسنته وعادته: هو اعتبار الشيء بنظيره وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين.

وهو الإعتبار المأمور به في القرآن، كقوله تعالى (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ)(٤)

وقال تعالى (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)(٥)

وقال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(٦)

وإنما تكون العبرة به، بالقياس والتمثيل، كما قال ابن عباس في دية الأصابع: هن سواء، واعتبروها بدية الأسنان.

---

(١)سورة الإسراء: أية رقم (٧٦)

(١)سورة الإسراء: أية رقم (٧٣-٧٥)

(٣) قال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) الحاقة (٤٤-٤٧)

(٤)سورة آل عمران: أية رقم (١٣)

(٥)سورة الحشر: أية رقم (٢)

(٦)سورة يوسف: أية رقم (١١١)

فإذا عرفت قصص الأنبياء، ومن اتبعهم، ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة، والعافية، والنصر، والسعادة ولمكذبيهم الهلاك، والبوار، جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقياً، وهذه سنة الله وعادته.

ولهذا يقول سبحانه في تحقيق عادته وسنته، وأنه لا ينقضها ولا يبدلها (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ)[١] يقول: فإذا لم يكونوا خيراً منهم، فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم.

هذا بطريق: الإعتبار، والقياس.

ثم قال (أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ)[٢]أي معكم خبر من الله، بأنه لا يعذبكم.

فنفي الدليلين: العقلي، والسمعي.

ثم ذكر قولهم (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ)[٣]وإنا نغلب من يغالبنا فقال تعالى (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)[٤]

وهذا مما أنبأه من الغيب، في حال ضعف الإسلام، واستبعاد عامة الناس ذلك، ثم كان كما أخبر.

وقد قال للمؤمنين في تحقيق سنته وعادته:(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ)[٥]

وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)[٦]

---

(١)سورة القمر: أية رقم (٤٣)
(٢)سورة القمر: أية رقم (٤٣)
(٣)سورة القمر: أية رقم (٤٤)
(٤)سورة القمر: أية رقم (٤٥)
(٥)سورة البقرة: أية رقم (٢١٤)
(٦)سورة فصلت: أية رقم (٤٣)

وقال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)(١)

وقال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)(٢)

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى، قال: نعم " (٣).

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ليأخذن أمتي ما أخذ الأمم قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع.

قالوا: يا رسول الله، فارس والروم.

قال: ومن الناس إلا هؤلاء " (٤).

وفي السنن: لما قال له بعض أصحابه: أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.

قال: الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى (قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)(٥)

ثم قال: إنه السنن، لتركبن سنن من كان قبلكم " (٦).

وقال تعالى (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(٧)

---

(١)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢-٥٣)
(٢)سورة البقرة: أية رقم (١١٨)
(٣)حديث شريف أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني اسرائيل / وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: العلم، باب: إتباع سنن اليهود والنصارى / ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب: الفتن، باب: افتراق الأمم.
(٤)حديث شريف أخرجه البخاري في كتاب: الإعتصام بالكتاب والسنة / وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: العلم، باب: اتباع اليهود والنصارى.
(٥)سورة الأعراف: أية رقم (١٣٨)
(٦)حديث شريف أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب: الفتن / وأحمد في مسنده.
(٧)سورة آل عمران: أية رقم (١٣٧)

ولهذا احتج من احتج بسنة الله وعادته، في مكذبي الرسل كقول شعيب (وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ)(١)

وقال مؤمن آل فرعون (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ.مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ)(٢)

وقال تعالى (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(٣)

والدأب: العادة في ثلاثة مواضع:

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(٤)

قال ابن قتيبة، وغيره: الدأب: العادة، ومعناه: كعادة آل فرعون، يريد كفر اليهود، كل فريق بنبيهم.

وقال الزجاج: هو الاجتهاد، أي: دأب هؤلاء، وهو اجتهادهم في كفرهم، وتظاهرهم على النبي، كتظاهر آل فرعون على موسى.

وقال عطاء، والكسائي، وأبو عبيدة: كسنة آل فرعون.

وقال النضر بن شميل: كعادة آل فرعون، يريد عادة هؤلاء الكفار في تكذيب الرسل، وجحود الحق، كعادة آل فرعون.

وقال طائفة: نظم الآية:(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم)(٥) عند حلول النقمة والعقوبة، مثل: آل فرعون وكفار الأمم الخالية، أخذناهم فلن تغني عنهم أموالهم، ولا أولادهم.

---

(١)سورة هود: أية رقم (٨٩)

(٢)سورة غافر: أية رقم (٣٠-٣١)

(٣)سورة آل عمران: أية رقم (١١)

(٤)سورة آل عمران: أية رقم (١٠-١١)

(٥)سورة آل عمران: أية رقم (١٠)

وفي تفسير أبي روق: عن الضحاك، عن ابن عباس: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ)[١] قال: كصنيع آل فرعون.

قال ابن أبي حاتم: وروى عن مجاهد، والضحاك، وأبي مالك وعكرمة، نحو ذلك، قال: وروي عن الربيع بن أنس: كشبه آل فرعون.

وعن السدي قال: ذكر الذين كفروا، كمثل الذين من قبلهم في التكذيب والجحود.

قلت: فهؤلاء جعلوا الشبيه في العمل، فإن لفظ الدأب يدل عليه. قال الجوهري: دأب فلان في عمله، أي: جد وتعب دأباً، ودءوباً، فهو دئب، وأدأبته أنا، والدائبان: الليل والنهار. قال: والدأب يعني بالتسكين: العادة والشأن، وقد يحرك. قال الفراء: أصله من دأبت، إلا أن العرب حولت معناه إلى الشأن. قلت: الزجاج جعل ما في القرآن من الدأب، الذي هو الإجتهاد. والصواب: ما قاله الجمهور، أن الدأب بالتسكين: هو العادة وهو غير الدأب بالتحريك.

إذا زاد اللفظ، زاد المعنى، والذي في القرآن مُسَكن، ما علمنا أحداً قرأه بالتحريك.

وهذا معروف في اللغة، يقال: فلان دأبه كذا وكذا، أي: هذا عادته، وعمله الملازم له، وإن لم يكن في ذلك تعب واجتهاد.

ومنه قوله تعالى (وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)[٢]

والدائب: نظير الدائم، والباء والميم متقاربان.

ومنه: اللازب، واللازم.

قال ابن عطية: دائبين، أي: متماديين، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه: " إن هذا الجمل شكا إلي أنك تُجيعه وتُدئبه " [٣].

أي: تُديمه في العمل والخدمة.

قال: وظاهر الآية، أن معناه: دائبين في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس، التي لا تحصى كثرة.

---

(١)سورة آل عمران: أية رقم (١١)

(٢)سورة إبراهيم: أية رقم (٣٣)

(٣)حديث شريف أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الجهاد، باب: ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم.

قال: وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان، يرفعه إلى ابن عباس أنه قال: معناه: دائبين في طاعة الله.

قال: وهذا قول إن كان يراد به، أن الطاعة: إنقياد منهما للتسخير، فذلك موجود في قوله: (وسخر).

وإن كان يراد: أنها طاعة مقدورة، كطاعة العبادة من البشر، فهذا بعيد.

قلت: ليس هذا ببعيد، بل عليه دلت الأدلة الكثيرة، كما هو مذكور في مواضع.

وقالت طائفة، منهم البغوي: وهذا لفظه دائبين، يجريان فيما يعود إلى مصالح عباد الله لا يفتران.

قال ابن عباس: دؤوبهما في طاعة الله.

ولفظ أبي الفرج: داءبين في إصلاح ما يصلحانه من النبات وغيره لا يفتران.

قال: ومعنى الدءوب: مرور الشيء على عادة جارية فيه.

قلت: وإذا كان دأبهم هو: عادتهم، وعملهم الذي كانوا مصرين عليه.

فالمقصود: أن هؤلاء أشبهوهم في العمل، فيشبهونهم في الجزاء فيحيق بهم ما حاق بأولئك، هذا هو المقصود.

ليس المقصود: التشبيه في الجزاء، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُممِّنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَمِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(١)

أي: فهؤلاء لا تدفع عنهم أموالهم وأولادهم عذاب الله اذا جاءهم كدأب آل فرعون.

وكذلك قوله تعالى (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ. كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. كَدَأْبِ آلِ

---

(١)سورة آل عمران: أية رقم (١٠-١١)

فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ)(١)

فهذا كله، يقتضي التشبيه في العذاب.

وأما الطائفة الأخرى: فجعلوا الدأب: نفس فعل الرب بهم وعقوبته لهم.

قال مكي بن أبي طالب: الكاف في كدأب، في موضع نصب نعت لمحذوف، تقديره: غيرناهم كما غيروا تغييراً، مثل: عادتنا في آل فرعون، ومثلها الآية الأولى.

إلا أن الأَولى: العادة في العذاب، تقديره: فعلنا بهم ذلك فعلاً، مثل: عادتنا في آل فرعون.

وقد جمع بعضهم بين المعنيين، فقال أبو الفرج: كدأب آل فرعون، أي: كعادتهم.

والمعنى: كذب أولئك، فنزل بهم العذاب، كما نزل بأولئك. قلت: الدأب: العادة، وهو مصدر يضاف إلى الفاعل تارة، وإلى المفعول أخرى.

فإذا أضيف الى الفاعل، كان المعنى: كفعل آل فرعون وإذا أضيف إلى المفعول، كان المعنى: كعادتهم في العذاب والمصائب التي نزلت بهم.

يقال: هذه عادة هؤلاء لما فعلوه، ولما يصيبهم، وهي عادة الرب وسنته فيهم.

والتحقيق: أن اللفظ يتناول الأمرين جميعاً.

وقد تقدم عن الفراء، والجوهري: أن الدأب: العادة والشأن وهذا كقوله تعالى (قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) (٢)

روى ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف، عن مجاهد:(قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ)(٣) من الكفار، والمؤمنين، في الخير والشر.

وعن أبي اسحاق: أي: قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي، والشرك في عاد، وثمود، وقوم لوط وأصحاب مدين، فرأوا مثلات قد مضت مني فيهم.

فقد فسرت السنن: بأعمالهم، وبجزائهم.

---

(١)سورة الأنفال: أية رقم (٥٠-٥٤)
(٢)سورة آل عمران: أية رقم (١٣٧)
(٣)سورة آل عمران: أية رقم (١٣٧)

قال البغوي: معنى الآية: قد مضت، وسلفت مني سنن فيمن كان قبلكم، من الأمم الماضية الكافرة، بإمهالي واستدراجي إياهم، حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي، الذي أجلته لإهلاكهم، وأدالة أنبيائي (فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(١)

أي: آخرة المكذبين منهم.

قال: وهذا في حزب واحد.

يقول الله تعالى: فأنا أمهلهم، وأستدرجهم، حتى يبلغ أجلي الذي أجلت، من نصرة النبي، وأوليائه.

قلت: ونظير هذا قوله تعالى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)(٢)

وقوله تعالى (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(٣)

وقوله في الآية الأخرى (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون.فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ.فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)(٤)

فهذا كله يبين: أن سنة الله وعادته مطردة، لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل، وإهانة مكذبيهم.

---

(١)سورة آل عمران: أية رقم (١٣٧)

(٢)سورة الحج: أية رقم (٤٦)

(٣)سورة الروم: أية رقم (٩)

(٤)سورة غافر: أية رقم (٨٢-٨٥)

فصل
آيات الأنبياء تستلزم وجود الأنبياء

آيات الأنبياء كما قد عُرف، هي مستلزمة لثبوت النبوة وصدق المخبر بها، والشاهد بها، فيلزم من وجودها وجود النبوة، وصدق المخبر بها.

ويمتنع أن تكون مع التكذيب بها، وكذب المخبر بها فلا يجوز وجودها لمن كذب الأنبياء، ولا لمن أقر بنبوةٍ كذاب سواء كان هو نفسه المدعي للنبوة، أو ادعى نبوة غيره. وهذان الصنفان، هما المذكوران في قوله تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)(١)

وهؤلاء كلهم من أظلم الكاذبين، كما قال تعالى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ)(٢)

ثم قال تعالى (وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)(٣)

فالمخبر بالنبوة، مع ثبوتها، هو الذي جاء بالصدق، وصدق به والمخبر بها، مع انتفائها، هو الذي كذب على الله.

والمكذب بها، مع ثبوتها، هو الذي كذب بالحق لما جاءه. فدلائل النبوة، هي مستلزمة لصدق من أثبت نبوة، هي نبوة حق، يمتنع أن تكون لمن نفى هذه، أو أثبت نبوة ليست بنبوة. وكذلك كل دليل، دل على إثبات الصانع، دل على صدق المؤمنين به، المخبرين بما دل عليه الدليل، على كذب من نفى ذلك.

ويمتنع أن تكون تلك الأدلة، دالة على نفي ذلك، أو على صدق الخبر بنفي ذلك، أو على صدق من جعل صفات الرب ثابتة لغيره.

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (٩٣)
(٢)سورة الزمر: أية رقم (٣٢)
(٣)سورة الزمر: أية رقم (٣٣)

وما دل على أن هذه الدار، ملك لزيد، يدل على صدق المخبر بذلك، وكذب النافي له، ويمتنع أن يدل مع انتفاء الملك. وما دل على علم شخص وعدله، فإنه مستلزم لذلك، ولصدق المخبر به.

وكذلك النافي له، يمتنع أن يدل على صدق النافي، أو يدل مع انتفاء العلم والعدل.

فإن ما استلزم ثبوت شيء وصدقه، استلزم كذب نقيضه وكان عدم اللازم، مستلزماً لعدم الملزوم.

فما كان مستلزماً لثبوت النبوة، وصدق المخبر بها، كان مستلزماً لكذب من نفاها، فامتنع أن يكون موجوداً مع من نفاها، وامتنع أن يكون موجوداً مع انتفائها، فإن ذلك يستلزم الجمع بين النقيضين.

فدليل كل مدلول عليه، يمتنع ثبوته مع عدم المدلول عليه فإنه مستلزم لثبوته، فلو وجد مع عدمه، للزم الجمع بين النقيضين. فما كان دليلاً على نبوة شخص، فهو دليل على جنس النبوة فإن نبوة الشخص، لا تثبت إلا مع ثبوت جنس النبوة فيمتنع وجود ذلك الدليل، مع عدم النبوة.

وثبوت أحد النقيضين، مستلزم لنفي الآخر، فثبوت صدق المخبر بثبوتها، مستلزم لكذب المخبر بانتفائها.

فهذا أمر عقلي مقطوع به، معلوم بالبديهة، بعد تصوره في جميع الأدلة، أدلة النبوة، وغيرها.

فلا يجوز أن يكون ما دل على النبوة، وعلى صدق المخبر بها وكذب المكذب بها، دليلاً للمكذب بها، ولا دليلاً مع انتفائها.

كالمتنبي الذي يدعي النبوة، ولا نبوة معه، فلا يتصور أن يكون معه، ولا مع المصدق بنبوته، شيء من دلائل النبوة. وأما كون دليل من دلائل النبوة، مع المصدق بها، كائناً من كان، فهذا حق، بل هذا هو الواجب.

فمن صدق بها بلا دليل، كان متكلماً بلا علم، فكل من صدق بالنبوة بعلم، فمعه دليل من أدلتها.

وإخبار أهل التواتر، بما جاءت به الأنبياء من الآيات، هو من أدلة ثبوتها.

فكل من آمن بالرسول عن بصيرة، فلابد أن يكون في قلبه علم بأنه نبي حق، إما علم ضروري، أو علم نظري بدليل من الأدلة.

والعلوم النظرية مع أدلتها، تبقى ضرورية، وقد تكون في نفس الأمر علوم ضرورية، ولا يمكنه التعبير عما يدل عليها.

كالذي يجده الإنسان في نفسه، ويعلمه من العلوم البديهية والضرورية، وغير ذلك.

فإن كثيراً من الناس، لا يمكنهم بيان الأدلة لغيرهم، على وجود ذلك عندهم.

وإذا عُرف هذا، فقولنا: دلائل النبوة مختصة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم، له معنيان:

أحدهما: أنه لا يشاركهم فيها من يكذب بنبوتهم، لا من يدعي نبوة كاذبة.

وهذا ظاهر بَين، فإن الدليل على الشيء، لا يكون دليلاً على وجوده، وعلى عدمه.

فلا يكون ما يدل النبوة، أو غيرها، وعلى صدق المخبر بذلك دليلاً على كذب المخبر بذلك، ولا دليلاً على النبوة، مع انتفاء النبوة.

والمعنى الثاني: أنها لا توجد إلا مع النبي.

فهذا إن أريد به، أنها لا توجد إلا والنبوة ثابتة، فهو صحيح وإن كانت مع ذلك دليلاً على نبي، فلا يمتنع أن يكون الشيء الواحد، دليلاً على أمور كثيرة.

لكن يمتنع أن يوجد مع انتفاء مدلوله، فما دل على النبوة، قد يدل على أمور أخرى، من أمور الرب تبارك وتعالى، لكن لا يمكن أن يدل مع انتفاء النبوة.

أي: مع كون النبوة المدلول عليها باطلة، لا حقيقة لها.

ولكن قد يدل مع موت النبي، ومع غيبته، فإن موته وغيبته لا ينفي نبوته.

وليس من شرط دليل النبي: أن يكون موجوداً في محل المدلول عليه، ولا في مكانه، ولا زمانه.

وقول من اشترط في آيات الأنبياء: أن تكون مقترنة بالدعوى في غاية الفساد والتناقض، كما قد بسط.

لاسيما والآيات قد تكون مخلوقة، نائية عن النبي، وعن مكانه وكذلك سائر الأدلة، لاسيما ما يجري مجرى الخبر.

فالأخبار الدالة على وجود المخبر به، لا يجب أن تكون مقارنة للمخبر به، لا في محله، ولا زمانه، ولا مكانه.

وآيات الأنبياء: هي شهادة من الله، وإخبار منه بنبوتهم فلا يجب أن تكون في محل النبوة، ولا زمانها، ولا مكانها لكن يجوز ذلك.

فلا يمتنع أن يكون الدليل في محل المدلول عليه، أو في مكانه لكن يجوز ذلك فيه.

فالإنسان قد تقوم به أمور، تدل على بعض الأمور التي فيه وقد تعلم أموره بخبر غيره، وببعض آثاره المنفصلة عنه.

فإذا أريد بأن آيات الأنبياء مختصة بهم، وأنها لا تكون لغيرهم: أنها لا تكون مع انتفاء النبوة المدلول عليها فهذا صحيح، لأنه يستلزم الجمع بين النقيضين.

وأما إذا أريد أنها لا توجد إلا في ذات النبي، أو مقترنة بخبره عن نبوته، أو في المكان الذي كان فيه، أو في الزمان، فهذا كله غلط، وخطأ ممن ظنه، وجهل بَين بحقائق الأدلة.

وإن كان من الأدلة، وآيات النبوة، ما يكون في ذات النبي ويكون مقترناً بقوله: إني رسول الله، ويكون في المكان الذي هو فيه، وفي زمانه، فهذا يمكن، وهو الواقع.

فإن النبي صلى الله عليه وسلم، بل وغيره من الأنبياء، كان في نفس أقوالهم، وأفعالهم، وصفاتهم، وأخلاقهم، وسيرهم أمور كثيرة تدل على نبوتهم.

وكذلك لما قال: إني رسول الله، أتى مع ذلك بآيات دلت على صدقه.

وكذلك في مكانه وزمانه، ظهر من انشقاق القمر، وغيره ما دل على نبوته.

لكن آيات الأنبياء، أعم من ذلك، كما أن دليل كل شيء، أعم من أن يختص بمعنى المدلول، وزمانه، ومكانه.

وبهذا يظهر خطأ كثير من الناس، في عدم معرفتهم بجنس آيات الأنبياء، لعدم تحقيقهم جنس الأدلة والبراهين.

وإن خاصة الدليل: أنه يلزم من تحققه، تحقق المدلول عليه فقط سواء كان مقارناً للمدلول عليه، أو كان حالاً في محله أو مجاوزاً لمحله، أو لم يكن كذلك.

والنبوة: قد قال طائفة من الناس: إنها صفة في النبي.

وقال طائفة: ليست صفة ثبوتية في النبي، بل هي مجرد تعلق الخطاب الآلهي به، بقول الرب: إني أرسلتك.

فهي عندهم: صفة إضافية.

كما يقولونه في الأحكام الشرعية: أنها صفات إضافية للأفعال، لا صفات حقيقية.

والصحيح: أن النبوة تجمع هذا وهذا، فهي تتضمن صفة ثبوتية في النبي، وصفة إضافية، هي مجرد تعلق الخطاب الآلهي به بقول الرب: إني أرسلتك.

فهي عندهم: صفة إضافية، كما يقولونه في الاحكام الشرعية إنها صفات إضافية للأفعال، لا صفات حقيقية.

لكن على الأقوال الثلاثة: ليس من شرط أدلتها، أن تكون حالة في ذات النبي، ولكن يجوز أن تكون لها أدلة، قائمة بذات النبي كما كان في محمد صلى الله عليه وسلم عدة أدلة من دلائل النبوة، كما هو مبسوط في دلائل نبوته.

إذ المقصود هنا: الكلام على جنس آيات الأنبياء، لا على شيء معين، لا دليل معين، ولا نبي معين.

فإذا عرف أن دلائل النبوة، يمتنع ثبوتها لشخص، لا نبوة فيه إذا ادعاها، أو ادعيت له كذباً.

ويمتنع ثبوتها مع المكذب بالنبوة الصادقة، وأنها لا توجد، إلا والنبوة ثابتة، وأنها دليل على صدق المخبر بالنبوة، من جميع الخلق.

فكل من آمن أن محمدا رسول الله، فقد أخبر عن نبوته، كما أخبر هو عن نبوة نفسه، بما أمره الله به، حيث قال (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)(١)

فهذا الخبر، وهو الشهادة بأنه رسول الله إلى الناس جميعا، سواء وجد منه، أو من غيره، هو مدلول عليه بجميع دلائل النبوة. فإذا وجد هذا الخبر في غير النبي، ووجد ما يدل على صدق هذا الخبر، كان ذلك من دلائل النبوة، كما وجد هذا في خلق كثير من المؤمنين.

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (١٥٨)

ومن دلائل النبوة: وجود العلم الضروري بخبر أهل التواتر الذين أخبروا بالآيات.

فهذا العلم الضروري، هو بمنزلة المشاهدة للآيات.

وكذلك ما يوجد لأهل الإيمان، مما يستلزم صدق خبرهم بأن محمداً رسول.

كما يوجد لأمته، من الآيات الكثيرة، عند تحقيق أمره ونصره، وطاعته، والجهاد عن دينه، والذب عنه، وبيان ما أرسل به، كما وجد أمثال ذلك للصحابة والتابعين وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة.

فصل

أفعال السحرة والكهان مناقض لآيات الأنبياء

فجميع ما يختص بالسحرة والكهان، هو مناقض للنبوة، فوجود ذلك يدل على أن صاحبه ليس بنبي، ويمتنع أن يكون شيء من ذلك، دليلاً على النبوة، فإن ما استلزم عدم الشيء لا يستلزم وجوده.

وكذلك ما يأتي به أهل الطلاسم، وعبادة الكواكب، ومخاطبتها كل ذلك مناقض للنبوة.

فإن النبي لا يكون إلا مؤمناً، وهؤلاء كفار، فوجود ما يناقض الإيمان، هو مناقض للنبوة بطريق الأولى، وهو آية ودليل، وبرهان، على عدم النبوة.

فيمتنع أن يكون دليلاً على وجودها، وجميع ما يختص بالسحرة والكهان، وغيرهم، ممن ليس بنبي، لا يخرج عن مقدور الإنس والجن.

وأعني بالمقدور: ما يمكنهم التوصل إليه، بطريق من الطرق فإن من الناس من يقول: إن المقدور لابد أن يكون في محل القدرة. وليس هذا هو لغة العرب، ولا غيرهم من الأمم، لا لغة القرآن والحديث، ولا غيرهما، وإنما يدعون ذلك من جهة العقل. وقولهم في ذلك، باطل من جهة العقل.

لكن المقصود هنا: التكلم باللغة المعروفة، لغة العرب، وغيرهم التي كان نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره، يخاطب بها الناس كقوله في الحديث الصحيح، لأبي مسعود لما ضرب غلامه: " اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود، لله أقدر عليك منك على هذا " (١).

فجعل نفس المملوك، مقدوراً عليه لسيده.

كما يقول الناس: القوة على الضعيف، ضعف في القوة. ويقولون: فلان قادر على فلان، وفلان عجز عن فلان. ويقولون: فلان ناسج هذا الثوب، وبنى هذه الدار.

ومنه قوله تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)(٢)

---

(١)حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب صحبة المماليك، وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الأدب، باب: حق المملوك وأخرجه الترمذي في جامعه، كتاب: البر، باب: النهي عن ضرب الخدم

(٢)سورة هود: أية رقم (٣٨)

فجعل الفلك مصنوعة لنوح.

ومنه قوله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)(١)

أي: والأصنام التي تعملونها، وتنحتونها.

فجعل ما في الأصنام من التأليف، معمولاً لهم، كما جعل تأليف السفية مصنوعاً لهم، وهذا كثير.

والمقصود هنا: أن ما يأتي به السحرة والكهان ونحوهم، هو مما يصنعه الإنس والجن، لا يخرج ذلك عنهم.

والإنس والجن قد أرسلت إليهم الرسل، فآيات الأنبياء خارجة عن قدرة الإنس والجن، لا يقدر عليها لا الإنس ولا الجن، ولله الحمد والمنة.

ومقدورات الجن، هي من جنس مقدورات الإنس، لكن تختلف في المواضع.

فإن الإنسي: يقدر على أن يضرب غيره، حتى يمرض، أو يموت بل يقدر أن يكلمه بكلام يمرض به، أو يموت.

فما يقدر عليه الساحر، من سحر بعض الناس، حتى يمرض أو يموت، هو من مقدور الجن، وهو من جنس مقدور الإنس. ومنعه من الجماع، هو من جنس المرض، المانع له من ذلك والحب والبغض لبعض الناس، كما يفعله الساحر، هو من استعانته بالشياطين، وهو من جنس مقدور الإنس.

بل شياطين الإنس، قد يؤثرون من البغض والحب، أعظم مما تؤثره شياطين الجن.

والجن: تقدر على الطيران في الهواء، وهو من الأعمال، والطيور تطير، فهو من جنس مقدور الإنس.

لكن يختلف المحل، بأن هؤلاء سيرهم في الهواء، والإنس سيرهم على الأرض.

وكذلك المشي على الماء، وطي الارض، وهو قطع المسافة البعيدة في زمان قريب، هو من هذا الجنس، هو مما تفعله الجن وهو مما تفعله الجن ببعض الناس.

---

(١)سورة الصافات: أية رقم (٩٦)

وقد أخبر الله عن العفريت، أنه قال لسليمان عن عرش بلقيس وهو باليمن، وسليمان بالشام (قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ) (١)

ولهذا يوجد كثير من الكفار، والفساق، والجهال، تطير بهم الجن في الهواء، وتمشي بهم على الماء، وتقطع بهم المسافة البعيدة، في المدة القريبة.

وليس شيء من ذلك، من آيات الأنبياء، ولله الحمد والمنة. إذ كان مقدور الإنس والجن، والإخبار ببعض الأمور الغائبة التي يأتي بها الكهان، هو أيضاً من مقدور الجن.

فإنهم تارة: يرون الغائب، فيخبرون به.

وتارة: يسترقون السمع من السماء، فيخبرون به.

وتارة: يسترقون، وهم يكذبون في ذلك، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنهم.

وما تخبر به الأنبياء من الغيب، لا يقدر عليه إنس ولا جن ولا كذب فيه.

وأخبار الكهان وغيرهم، كذبها أكثر من صدقها، وكذلك كل من تعود الإخبار عن الغائب.

فأخبار الجن، لابد أن تكذب، فإنه من طلب منهم الإخبار بالمغيب، كان من جنس الكهان، وكذبوا في بعض ما يخبرون به، وإن كانوا صادقين في البعض.

وقد ثبت في الصحيح: " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكهان، فقيل له: إن منا قوماً يأتون الكهان.

قال: فلا يأتوهم " (٢).

وثبت عنه في الصحيح: أنه قال صلى الله عليه وسلم: " من أتى عرافاً فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً " (٣).

وفي السنن: " عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم: من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد " (٤).

---

(١)سورة النمل: أية رقم (٣٩)

(٢)حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان.

(٣) حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة وإتيان الكهان.

(٤) حديث شريف أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، كتاب: الطب.

والنبي صلى الله عليه وسلم لما أسري به، من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى، لم يكن المقصود مجرد وصوله إلى الاقصى بل المقصود ما ذكره الله بقوله (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (١)

كما قال في سورة النجم (وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى.عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىعِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى.مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىلَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(٢)

وما رآه مختص بالأنبياء، لا يكون ذلك لمن خالفهم، ولا يريه الله تعالى ما أراه محمد حين أسري به.

وكذلك صلاته بالأنبياء في المسجد الاقصى، وركوبه على البراق هذا كله من خصائص الأنبياء.

والذين تحملهم الجن، وتطير بهم من مكان إلى مكان أكثرهم لا يدري كيف حمل؟.

بل يحمل الرجل إلى عرفات، ويرجع، وما يدري كيف حملته الشياطين؟

ولا يدعونه يفعل ما أمر الله به، كما أمر الله به، بل قد يقف بعرفات من غير إحرام، ولا إتمام مناسك الحج.

وقد يذهبون به إلى مكة، ويطوف بالبيت من غير إحرام إذا حاذى الميقات، وذلك واجب في أحد قولي العلماء ومستحب في الآخر.

فيفوته المشروع، أو يوقعونه في الذنب، ويغرونه بأن هذا من كرامات الصالحين، وليس هو مما يكرم الله به وليه بل هو مما أضلته به الشياطين، وأوهمته أن ما فعله قربة وطاعة أو يكون صاحبه له عند الله منزلة عظيمة.

وليس هو قربة وطاعة، وصاحبه لا يزداد بذلك منزلة عند الله فإن التقرب إلى الله، إنما يكون بواجب، أو مستحب وهذا ليس بواجب، ولا مستحب.

بل يضلون صاحبه، ويصدونه عن تكميل ما يحبه الله منه من عبادته، وطاعته، وطاعة رسوله، ويوهمونه أن هذا من أفضل الكرامات، حتى يبقى طالباً له، عاملاً عليه.

---

(١)سورة الإسراء: أية رقم (١)

(٢)سورة النجم: أية رقم (١٣-١٨)

وهم بسبب إعانتهم له على ذلك، قد استعملوه في بعض ما يريدون، مما ينقص قدره عند الله، أو وقوعه في ذنوب وإن لم يعرف أنها ذنوب.

فيكون ضالاً ناقصاً، وإن غفر له ذلك، لعدم علمه، فإنه نقص درجته، وخفض منزلته بذلك، الذي أوهموه أنه رفع درجته، وأعلى منزلته.

وهذا من جنس ما تفعله السحرة، فإن الساحر قد يصعد في الهواء، والناس ينظرونه، وقد يركب شيئاً من الجمادات إما قصبة، وإما خابية، وإما مكنسة، وإما غير ذلك، فيصعد به في الهواء، وذلك أن الشياطين تحمله.

وتفعل الشياطين هذا، ونحوه بكثير، من العباد والضلال من عباد المشركين، وأهل الكتاب، والضلال من المسلمين فتحملهم من مكان إلى مكان.

وقد يرى أحدهم بما يركبه، إما فرس، وإما غيره، وهو شيطان تصور له في صورة مركوب.

وقد يرى أنه يمشي في الهواء من غير مركوب، والشيطان قد حمله.

والحكايات في هذا كثيرة معروفة، عند من يعرف هذا الباب ونحن نعرف من هذا أموراً يطول وصفها.

وكذلك المشي على الماء، قد يجعل له الجن ما يمشي عليه وهو يظن أنه يمشي على الماء.

وقد يخيلون إليه، أنه التقى طرفا النهر ليعبر، والنهر لم يتغير في نفسه، ولكن خيلوا إليه ذلك.

وليس هذا (ولله الحمد) شيء من جنس معجزات الأنبياء. وقد يمشي على الماء، قوم بتأييد الله لهم، وإعانته إياهم بالملائكة كما يحكى عن المسيح، وكما جرى للعلاء بن الحضرمي في عبور الجيش، ولابي مسلم الخولاني، وذلك اعانة على الجهاد في سبيل الله.

كما يؤيد الله المؤمنين بالملائكة، ليس هو من فعل الشياطين والفرق بينهما:

- من جهة السبب.
- ومن جهة الغاية.

أما السبب: فإن الصالحون يسمون الله، ويذكرونه، ويفعلون ما يحبه الله، من توحيده، وطاعته، فييسر لهم بذلك ما ييسره، ومقصودهم به: نصر الدين، والاحسان إلى المحتاجين. وما

تفعله الشياطين، يحصل بسبب: الشرك، والكذب والفجور، والمقصود به: الاعانة على مثل ذلك.

والجن فيهم مسلم وكافر، فالمسلمون منهم، يعاونون الإنس المسلمين، كما يعاون المسلمون بعضهم بعضا، والكفار مع الكفار.

والجن الذين يطيعون الإنس، وتستخدمهم الإنس، ثلاثة أصناف: أعلاها: أن يأمروهم بما أمر الله به ورسله، فيأمرونهم بعبادة الله وحده، وطاعة رسله.

فإن الله أوجب على الجن طاعة الرسل، كما أوجب ذلك على الإنس.

وقال تعالى (وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌوَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ.ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ. وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)(١)

فالرسل تكون من الإنس، إلى الثقلين، والنذر من الجن باتفاق العلماء.

واختلفوا: هل يكون في الجن رسل؟

والأكثرون: على أنه لا رسل فيهم، كما قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)(٢)

وعن الحسن البصري قال: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ولا من الجن، ولا من النساء، ذكره عنه طائفة، منهم: البغوي، وابن الجوزي.

وقال قتادة: ما نعلم أن الله أرسل رسولاً قط، إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمور، رواه ابن أبي حاتم، وذكره طائفة.

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (١٢٨-١٣٢)

(٢)سورة يوسف: أية رقم (١٠٩)

إسلام الجن
واجتماعهم برسول الله صلى الله عليه وسلم

ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قد أرسل إلى الثقلين، وقد آمن به من آمن، من جن نصيبين، فسمعوا القرآن، وولوا إلى قومهم منذرين (١).

ثم أتوا فبايعوه على الإسلام، بشعب معروف بمكة، بين الأبطح، وبين جبل حراء.

وسألوه الطعام لهم ولدوابهم، فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه، أوفر ما يكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم. قال النبي صلى الله عليه وسلم: فلا تستنجوا بهما، فانهما زاد إخوانكم من الجن. (٢)

والاحاديث بذلك كثيرة مشهورة، في الصحيح، والسنن والمسند، وكتب التفسير، والفقه، وغيرها.

وقد روى الترمذي، وغيره، أنه صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم سورة الرحمن وهي خطاب للثقلين. (٣)

وقد اتفق العلماء، على أن كفارهم يدخلون النار، كما أخبر الله بذلك في قوله (قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ)(٤)

---

(١) قال تعالى (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) سورة الجن (١-٢)

(٢)سورة حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة باب: الجهر بالقراءة في الصبح.

(٣)أنظر: كتاب التفسير للترمذي، باب: سورة الرحمن.

(٤)سورة الأعراف: أية رقم (٣٨)

وقال الله تعالى (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)(١) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)(٢)وأما مؤمنوهم، فأكثر العلماء، على أنهم يدخلون الجنة. وقال طائفة: بل يصيرون تراباً كالدواب.

والأول أصح، وهو قول الأوزاعي، وابن أبي ليلى وأبي يوسف، ومحمد، ونقل ذلك عن مالك، والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول أصحابهم.

واحتج عليه الأوزاعي وغيره بقوله:(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)(٣)

بعد ذكره أهل الجنة، وأهل النار من الجن والإنس كما قال في سورة الأنعام، وفي الاحقاف (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)(٤) بعد ذكر أهل الجنة والنار.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات أهل النار تذهب سفولاً، ودرجات أهل الجنة، تذهب صعوداً.

فنبينا صلى الله عليه وسلم هو مع الجن، كما هو مع الإنس والإنس معه: إما مؤمن به، وإما مسلم له، وإما مسالم له وإما خائف منه.

وكذلك الجن: منهم المؤمن به، ومنهم المسلم له مع نفاق ومنهم المعاهد، المسالم لمؤمني الجن، ومنهم الحربي الخائف من المؤمنين.

وكان هذا أفضل مما أوتيه سليمان، فإن الله سخر الجن لسليمان، تطيعه طاعة الملوك.

فإن سليمان كان نبياً ملكاً، مثل: داود، ويوسف.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فهو عبد رسول، مثل: ابراهيم، وموسى وعيسى.

وهؤلاء أفضل من أولئك، فأولياء الله المتبعون لمحمد صلى الله عليه وسلم إنما يستخدمون الجن، كما يستخدمون الإنس في عبادة الله وطاعته، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم يستعمل الإنس لا في غرض له غير ذلك.

---

(١)سورة ص: أية رقم (٨٥)
(٢)سورة هود: أية رقم (١١٩)
(٣)سورة الأنعام: أية رقم (١٣٢)
(٤)سورة الأحقاف: أية رقم (١٩)

ومن الناس، من يستخدم من يستخدمه، من الإنس، في أمور مباحة.

كذلك فيهم من يستخدم الجن، في أمور مباحة.

لكن هؤلاء، لا يخدمهم الإنس والجن، إلا بعوض، مثل أن يخدموهم كما يخدمونهم، أو يعينونهم على بعض مقاصدهم، وإلا فليس أحد من الإنس والجن، يفعل شيئاً إلا لغرض.

والإنس والجن، إذا خدموا الرجل الصالح، في بعض أغراضه المباحة، فإما أن يكونوا مخلصين، يطلبون الأجر من الله وإلا طلبوه منه، إما دعاؤه لهم، وإما نفعه لهم بجاهه أو غير ذلك.

والقسم الثالث: أن يستخدم الجن في أمور محظورة، أو بأسباب محظورة، مثل: قتل نفس، وإمراضها بغير حق، ومثل: منع شخص من الوطء، ومثل: تبغيض شخص إلى شخص، ومثل: جلب من يهواه الشخص إليه، فهذا من السحر.

وقد يقع مثله لكثير من الناس، ولا يعرف السحر، بل يكون موافقاً للشياطين على بعض أغراضهم، مثل: شرك، أو بدعة وضلالة، أو ظلم، أو فاحشة، فيخدمونه ليفعل مايهوونه. وهذا كثير في عُباد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل الضلال من المسلمين.

وكثير من هؤلاء، لا يعرف أن ذلك من الشياطين، بل يظنه من كرامات الصالحين.

ومنهم من يعرف أنه من الشياطين، ويرى أنه بذلك حصل له ملك وطاعة، ونيل ما يشتهيه من الرياسة، والشهوات وقتل عدوه، فيدخل في ذلك، كما تدخل الملوك الظلمة في أغراضهم.

وليس أحد من الناس، تطيعه الجن طاعة مطلقة، كما كانت تطيع سليمان، بتسخير من الله، وأمر منه، من غير معارضة، كما أن الطير كانت تطيعه، والريح.

قال تعالى (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ.يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)(١)

والجن والإنس، فيهم المؤمن المطيع، والمسلم الجاهل أو المنافق، أو العاصي، وفيهم الكافر.

---

(١)سورة سبأ: أية رقم (١٢-١٣)

وكل ضرب، يميل إلى بني جنسه.

والذي أعطاه الله تعالى سليمان، خارج عن قدرة الجن والإنس، فإنه لا يستطيع أحد، أن يسخر الجن مطلقاً لطاعته، ولا يستخدم أحداً منهم، إلا بمعاوضة.

إما عمل مذموم تحبه الجن، وإما قوم تخضع له الشياطين كالأقسام، والعزائم.

فإن كل جني، فوقه من هو أعلى منه، فقد يخدمون بعض الناس، طاعة لمن فوقهم، كما يخدم بعض الإنس لمن أمرهم سلطانهم بخدمته، لكتاب معه منه، وهم كارهون طاعته.

وقد يأخذون منه ذلك الكتاب، ولا يطيعونه، وقد يقتلونه أو يمرضونه، فكثير من الناس، قتلته الجن.

كما يصرعونهم، والصرع لأجل الزنا، وتارة يقولون: إنه آذاهم، إما بصب نجاسة عليهم، وإما بغير ذلك فيصرعونه صرع عقوبة وانتقام.

وتارة يفعلون ذلك عبثاً، كما يعبث شياطين الإنس بالناس والجن أعظم شيطنة، وأقل عقلاً، وأكثر جهلاً.

والجني قد يحب الإنسي، كما يحب الإنسي الإنسي وكما يحب الرجل المرأة، والمرأة الرجل، ويغار عليه، ويخدمه بأشياء، وإذا صار مع غيره، فقد يعاقبه بالقتل، وغيره.

كل هذا واقع، ثم الذي يخدمونه، تارة يسرقون له شيئاً من أموال الناس، مما لم يذكر اسم الله عليه، ويأتونه إما بطعام وإما شراب، وإما لباس، وإما نقد، وإما غير ذلك.

وتارة يأتونه في المفاوز، بماء عذب، وطعام، وغير ذلك. وليس شيء من ذلك، من معجزات الأنبياء، ولا كرامات الصالحين، فإن ذلك إنما يفعلونه بسبب شرك، وظلم وفاحشة.

وهو لو كان مباحاً، لم يجز أن يفعل بهذا السبب، فكيف إذا كان في نفسه ظلماً محرماً، لكونه من الظلم والفواحش ونحو ذلك.

وقد يخبرون بأمور غائبة، مما رأوه وسمعوه، ويدخلون في جوف الإنسان.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم " (١).

---

(١)سحديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الاعتكاف، باب: زيارة المرأة لزوجها في اعتكافه، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: السلام.

لكن إنما سلطانهم كما قال الله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ)(١)

ولما قال الشيطان (قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)(٢)

قال الله تعالى (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)(٣) إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ

ثم قال (إلا) أي: لكن (إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ.وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ.لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)(٤)

فأهل الاخلاص والإيمان، لا سلطان له عليهم، ولهذا يهربون من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة، ويهربون من قراءة آية الكرسي، وآخر سورة البقرة، وغير ذلك من قوارع القرآن.

ومن الجن من يخبر بأمور مستقبلة، للكهان وغير الكهان مما يسرقونه من السمع.

والكهانة كانت ظاهرة كثيرة بأرض العرب، فلما ظهر التوحيد هربت الشياطين، وبطلت، أو قلت.

ثم إنها تظهر في المواضع، التي يختفي فيها أثر التوحيد.

وقد كان حول المدينة، بعد أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم كهان، يتحاكمون إليهم، وكان أبو بردة بن نيار كاهناً ثم أسلم بعد ذلك، وهو من أسلم.

والأصنام لها شياطين، كانت تتراءى للسدنة أحياناً، وتكلمهم أحياناً.

قال أبي بن كعب: مع كل صنم جنية.

وقال ابن عباس: في كل صنم شيطان، يتراءى للسدنة فيكلمهم. والشياطين، كما قال الله، تقترن بما يجانسها، بأهل الكذب والفجور.

(١)سورة النحل: أية رقم (٩٩-١٠٠)
(٢)سورة الحجر: أية رقم (٣٩-٤٠)
(٣)سورة الأسراء: أية رقم (٦٥)
(٤)سورة الحجر: أية رقم (٤٢-٤٤)

قال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(١)

فكيف يجوز أن يقال: إن مثل هذا يكون معجزة لنبي، أو كرامة لولي؟

وهذا يناقض الإيمان ويضاده، والأنبياء، والأولياء أعداء هؤلاء.

قال تعالى (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ)(٢)

وقال تعالى (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ.وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌوَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ)(٣)

وهذا يظهر الفرق، بين إخبار الأنبياء عن الغيب، ما لا سبيل لمخلوق إلى علمه، إلا منه، كما قال تعالى (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا.إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا.لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا)(٤)

فقوله:(على غيبه) هو غيبه الذي اختص به، وأما ما يعلمه بعض المخلوقين، فهو غيب عمن لم يعلمه، وهو شهادة لمن علمه.

فهذا أيضاً، تُخبر منه الأنبياء، بما لا يمكن الشياطين أن تخبر به، كما في إخبار المسيح بقوله (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)(٥)

فإن الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس، وبما يدخرونه، لكن الشياطين انما تتسلط على من لا يذكر اسم الله.

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٣)

(٢)سورة فاطر: أية رقم (٦)

(٣)سورة يس: أية رقم (٦٠-٦٢)

(٤)سورة الجن: أية رقم (٢٦-٢٨)

(٥)سورة آل عمران: أية رقم (٤٩)

كالذي لا يذكر اسم الله إذا دخل، فيدخلون معه، وإن لم يذكر اسم الله إذا أكل، فإنهم يأكلون معه.

وكذلك إذا ادخر شيئاً، ولم يذكر اسم الله عليه عرفوا به، وقد يسرقون بعضه، كما جرى هذا لكثير من الناس. وأما من يذكر اسم الله على طعامه، وعلى ما يجتازه، فلا سلطان لهم عليه، لا يعرفون ذلك، ولا يستطيعون أخذه. والمسيح عليه السلام، كان يخبر المؤمنين بما يأكلون، وما يدخرون، مما ذكر اسم الله عليه، والشياطين لا تعلم به.

ولهذا من تكون أخباره عن شياطين، تُخبره، لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد، وأهل القلوب المنورة بنور الله بل يهرب منهم، ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم.

وتعترف الجن والإنس، الذين خوارقهم بمعاونة الجن لهم أنهم لا يمكنهم، أن يظهروا هذه الخوارق بحضرة أهل الإيمان والقرآن.

ويقولون: أحوالنا لا تظهر قدام الشرع، والكتاب، والسنة وإنما تظهر عند الكفار والفجار.

وهذا لأن أولئك أولياء الشياطين، ولهم شياطين يعاونون شياطين المخدومين، ويتفقون على ما يفعلونه، من الخوارق الشيطانية، كدخول النار، مع كونها لم تصر عليهم برداً وسلاماً.

فإن الخليل لما ألقى في النار، صارت عليه برداً وسلاماً وكذلك أبو مسلم الخولاني، لما قال له الأسود العنسي المتنبي: أتشهد أني رسول الله.

قال: ما أسمع.

قال: أتشهد أن محمداً رسول الله.

قال: نعم.

فأمر بنار، فأوقدت له وألقي فيها، فجاءوا اليه، فوجدوه يصلي فيها، وقد صارت عليه برداً وسلاماً.

فقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذه عمر، فأجلسه بينه وبين أبي بكر، وقال الحمد لله الذي لم يمتني، حتى أراني في أمة محمد، من فعل به كما فعل بإبراهيم.

وأما إخوان الشياطين، فإذا دخلت فيهم الشياطين، فقد يدخلون النار ولا تحرقهم، كما يضرب أحدهم الف سوط ولا يحس بذلك، فإن الشياطين تتلقى ذلك.

وهذا أمر كثير معروف، قد رأينا من ذلك ما يطول وصفه وقد ضربنا نحن من الشياطين في الإنس ما شاء الله، حتى خرجوا من الإنس ولم يعاودوه.

وفيهم من يخرج بالذكر والقرآن، وفيهم من يخرج بالوعظ والتخويف، وفيهم من لا يخرج إلا بالعقوبة، كالإنس. فهؤلاء الشياطين، إذا كانوا مع جنسهم، الذين لا يهابونهم، فعلوا هذه الأمور.

وأما إذا كانوا عند أهل إيمان وتوحيد، وفي بيوت الله التي يذكر فيها اسمه، لم يجترئوا على ذلك، بل يخافون الرجل الصالح، أعظم مما يخافه فجار الإنس.

ولهذا لا يمكنهم عمل سماع المكاء، والتصدية، في المساجد المعمورة بذكر الله، ولا بين أهل الإيمان والشريعة المتبعين للرسول.

إنما يمكنهم ذلك، في الأماكن التي تأتيها الشياطين كالمساجد المهجورة، والمشاهد، والمقابر، والحمامات والمواخير. فالمواضع التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيها كالمقبرة، وأعطان، الابل، والحمام، وغيرها، فتكون حال هؤلا فيها أقوى، لأنها مواضع الشياطين، كالماخور والمزبلة، والحمام، ونحو ذلك.

بخلاف الأمكنة، التي ظهر فيها الإيمان، والقرآن والتوحيد، التي أثنى الله على أهلها، وقال فيهم (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِرِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُلِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)(١)

فهذه أمكنة النور، والصالحين، والملائكة، لا تتسلط عليها الشياطين بكل ما تريد.

بل كيدهم فيها ضعيف، كما أن كيدهم في شهر رمضان ضعيف، إذ كانوا فيه يسلسلون.

لكن لم يبطل فعلهم بالكلية، بل ضعف، فشرهم فيه على أهل الصوم قليل، بخلاف أهل الشراب، وأهل الظلمات، فإن الشياطين هنالك محالهم.

---

(١)سورة النور: أية رقم (٣٥-٣٨)

وهم يحبون الظلمة، ويكرهون النور، ولهذا ينتشرون بالليل كما جاء في الحديث الصحيح، ولهذا أمر الله بالتعوذ من شر غاسق اذا وقب. (١)

وخوارق الجن، كالإخبار ببعض الأمور الغائبة وكالتصرفات الموافقة لأغراض بعض الإنس، كثيرة معروفة في جميع الأمم.

فقد كانت في العرب كثيرة، وكذلك في الهند، وفي الترك والفرس، والبربر، وسائر الأمم، فهي أمور معتادة للجن والإنس. وآيات الأنبياء كما تقدم، خارجة عن مقدور الإنس والجن فإنهم مبعوثون إلى الإنس والجن، فيمتنع أن تكون آياتهم أموراً معروفة، فيمن بعثوا إليه.

إذ يقال: هذه موجودة كثيراً للإنس، فلا يختص بها الأنبياء.

بل هذه الخوارق، هي آية وعلامة، على فجور صاحبها وكذبه، فهي ضد آيات الأنبياء، التي تستلزم صدق صاحبها وعدله.

ولهذا يكون كثير من الذين تخدمهم الشياطين، من أهل الشياطين وهذا معروف لكثير، ممن تخدمه الشياطين.

بل من طوائف المخدومين، من يكونون كلهم من هذا الباب "كالبويي " الذي للترك.

وأكثر المولهين من هذا الباب، وهم يصعدون بهم في الهواء ويدخلون المدن، والحصون بالليل، والأبواب مغلقة ويدخلون على كثير من رؤساء الناس، ويظنون أن هؤلاء صالحون قد طاروا في الهواء، ولا يعرف أن الجن طارت بهم. وهذه الأحوال الشيطانية، تبطل، أو تضعف، إذا ذكر الله وتوحيده، وقرئت قوارع القرآن، لا سيما آية الكرسي فإنها تبطل عامة هذه الخوارق الشيطانية.

وأما آيات الأنبياء والأولياء، فتقوى بذكر الله وتوحيده والجن المؤمنون، قد يعينون المؤمنين بشيء من الخوارق كما يعين الإنس المؤمنون للمؤمنين، بما يمكنهم من الإعانة. وما لا يكون إلا مع الإقرار بنبوة الأنبياء، فهو من آياتهم فوجوده يؤيد آياتهم، لا يناقضها.

مع أن آيات الأنبياء، التي يدعون أعلى من هذا، وأعلى من كرامات الأولياء، فإن تلك هي الآيات الكبرى.

---

(١) قال تعالى (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِن شَرِّ مَا خَلَقَ.وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ. وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) سورة الفلق (١-٥)

والذين ذكر عنهم، إنكار كرامات الاولياء، من المعتزلة وغيرهم، كأبي اسحاق الاسفراييني، وأبي محمد بن أبي زيد وكما ذكر ذلك أبو محمد بن حزم، لا ينكرون الدعوات المجابة، ولا ينكرون الرؤيا الصادقة، فإن هذا متفق عليه بين المسلمين وهو أن الله تعالى قد يخص بعضهم بما يريه من المبشرات.

وقد كان سعد بن أبي وقاص، معروفاً بإجابة الدعاء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " اللهم سدد رميته، وأجب دعوته "(١) وحكاياته في ذلك مشهورة.

وقد ثبت في الصحيح، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لم يبق بعدي من النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح، أو ترى له " (٢).

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: " إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره " (٣).

ذكر ذلك، لما أقسم أنس بن النضر، أنه لا تكسر ثنية الربيع، فاستجاب الله ذلك.

وأيضاً: فإن منهم البراء بن مالك، أخو أنس بن مالك وكانوا إذا اشتد الحرب، يقولون: يا براء، أقسم على ربك فيقسم على ربه، فينصرون.

والقسم، قيل: هو من جنس الدعاء، لكن هو طلب مؤكد بالقسم. فالسائل يخضع، ويقول: أعطني، والمقسم يقول: أقسم عليك لتعطيني، وهو خاضع سائل.

لكن من الناس، من يدعي له من الكرامات، مالا يجوز أن يكون للأنبياء، كقول بعضهم: إن لله عباداً، لو شاءوا من الله أن لا يقيم القيامة، لما اقامها.

وقول بعضهم: إنه يعطي كن، أي: شيء أرادة، قال له: كن فيكون.

وقول بعضهم: لا يعزب عن قدرته ممكن، كما لا يعزب عن قدرة ربه محال.

فإنه لما كثر في الغلاة، من يقول: بالحلول، والاتحاد وإلهية بعض البشر، كما قاله النصارى في المسيح، صاروا يجعلون ما هو من خصائص الربوبية لبعض البشر، وهذا كفر. وأيضاً: فإن

---

(١)حديث شريف أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: المناقب، باب: مناقب سعد بن أبي وقاص.

(٢)حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: التعبير، باب: المبشرات، ومسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: النهي عن قرأة القرآن في الركوع والسجود، وابن ماجة في سننه، كتاب: التعبير باب: الرؤيا الصالحة.

(٣)حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الصلح، باب: الصلح في الدية، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة، باب: إثبات القصاص في الأسنان.

كثيراً من الناس، لا يكون من أهل الصلاح وتكون له خوارق شيطانية، كما لعباد المشركين، وأهل الكتاب، فتتجلى لهم، على أنها كرامات.

فمن الناس من يكذب بها، ومنهم من يجعل أهلها، من أولياء الله.

وذلك لأن الطائفتين، ظنت أن مثل هذه الخوارق، لا يكون إلا لأولياء الله، ولم يميزوا بين الخوارق الشيطانية، التي هي جنس ما للسحرة، والكهان، ولعباد المشركين، وأهل الكتاب، وللمتنبئين الكذابين، وبين الكرامات الرحمانية التي يكرم الله بها عباده الصالحين.

فلما لم يميزوا بين هذا وهذا، وكان كثير من الكفار والفجار، وأهل الضلال، والبدع، لهم خوارق شيطانية صار هؤلاء منهم حزبين:

حزباً: قد شاهدوا ذلك، وأخبرهم به من يعرفون صدقه فقالوا: هؤلاء اولياء الله.

وحزباً: رأوا أن أولئك خارجون عن الشريعة، وعن طاعة الله ورسوله، فقالوا: ليس هؤلاء من الأولياء، الذين لهم كرامات، فكذبوا بوجود ما رآه أولئك.

وأولئك قد عاينوا ذلك، أو تواتر عندهم، فصار تكذيب هؤلاء، مثل تكذيب من ينكر السحر، والكهانة، والجن وصرعهم للإنس، إذا كذب ذلك، عند من رأى ذلك، أو ثبت عنده.

ومن كذب بما تيقن غيره وجوده، نقصت حرمته عنه هذا المتيقن، وكان عنده إما جاهلاً، وإما معانداً، فربما رد عليه كثيراً من الحق بسبب ذلك.

ولهذا صار كثير من المنتسبين إلى زهد، أو فقر، أو تصرف أو وَله، أو غير ذلك، لا يقبلون قولهم، ولا يعبأون بخلافهم لأنهم كذبوا بحق، قد تيقنه هؤلاء، وأنكروا وجوده وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.

وقد يدخلون إنكار ذلك في الشرع، كما أدخلت المعتزلة ونحوهم، إنكار كرامات الأولياء، وإنكار السحر والكهانة في الشرع، بناءً على أن ذلك يقدح في آيات الأنبياء. فجمعوا بين التكذيب بهذه الأمور الموجودة، وبين عدم العلم بآيات الأنبياء، والفرق بينها، وبين غيرها.

حيث ظنوا أن هذه الخوارق الشيطانية، من جنس آيات الأنبياء، وأنها نظير لها، فلو وقعت، لم يكن للأنبياء ما يتميزون به.

والذين ردوا على هؤلاء، من الأشعرية ونحوهم يشاركونهم في هذا، في التسوية بين الجنسين، وأنه لا فرق.

لكن هؤلاء لما تيقنوا وجودها، جعلوا الفرق ما ليس بفرق وهو اقترانها بالدعوى، والتحدي بمثلها، وعدم المعارضة. وهم يقولون: إنا نعلم بالضرورة، أن الرب إنما خلقها لتصديق النبي.

وهذا كلام صحيح، لكنه يستلزم بطلان ما أصلوه، من أنه لا يخلق شيئاً لشيء.

وأيضاً: فاختصاصها بوجود العلم الضروري عندها، دون غيرها، لابد أن يكون لأمر أوجب التخصيص.

وهم يقولون: بل قد تستوي الأمور، ويوجد العلم الضروري ببعضها دون بعض.

كما قالوا مثل ذلك في العادات: أنه يجوز انخراقها كلها بلا سبب، على أعظم الوجوه، كجعل الجبال يواقيت، لكن يعلم بالضرورة، أن هذا لا يقع.

فكذلك قالوا في المعجزات: يجوز أن يخلقها على يد كاذب إنما خلقها على يد الصادق، بما ادعى من العلم الضروري صحيح.

وأما قولهم: إن المعلوم به يماثل غيره، فغلط عظيم. بل هم لم يعرفوا الفرق، بمنزلة العامي، الذي أوردت عليه شبهات السوفسطائية.

فهو يعلم بالضرورة، أنها باطلة، ولكن لا يعرف الفرق بينها وبين الحق.

ولكن العامي يقول: فيها فساد لا أعرفه، لا يقول: دلائل الحق، كدلائل الباطل.

وهؤلاء ادعوا الإستواء في نفس الأمر، فغلطوا غلطاً عظيماً ولو قالوا: بينهما فرق، لكنه لم يتخلص لنا، لكان قولهم حقاً وكانوا قد ذكروا عدم العلم، لا العلم بالعدم، كما يقول ذلك كثير من الناس.

يقول: ما أعرف الفرق بينهما.

وذلك أن العلم الضروري، يحصل ببعض الأخبار دون بعض. وقد قيل: إنا نعلم أنه متواتر بحصول علمنا الضروري به. والتحقيق: أنه إذا حصل له علم ضروري، كان قد حصل الخبر الذي يوجبه لهم، وقد لا يحصل لغيرهم.

والعلم يحصل بعدد المخبرين، وبصفاتهم، وبأمور أخرى تنضم إلى الخبر.

ومن جعل الإعتبار بمجرد العدد، فقد غلط.

والأكثرون يقولون: العلم الحاصل به ضروري.

وقيل: أنه نظري، وهو اختيار الكعبي، وأبي الحسين وأبي الخطاب.

والتحقيق: أنه قد يكون ضرورياً، وقد يكون نظرياً، وقد يجتمع فيه الأمران:

يكون ضروريا، ثم إذا نظر فيه، وجد أنه يوجب العلم وكذلك العلم الحاصل عقب الآيات، قد يكون ضروريا وقد يكون نظرياً، وكل نظري، فإن منتهاه أنه ضروري. ولهذا قال أبو المعالي المرتضى: عندنا أن جميع العلوم ضرورية أي بعد حصول أسبابها، ولا بد من فرق في نفس الأمر بين ما يوجبه العلم، ومالا يوجبه.

وأصل خطأ الطائفتين، أنهم لم يعرفوا آيات الأنبياء وما خصهم الله به، ولم يقدروا قدر النبوة، ولم يقدروا آيات الأنبياء قدرها، بل جعلوا هذه الخوارق الشيطانية من جنسها. فإما أن يكذبوا بوجودها، وإما أن يسووا بينهما، ويدعوا فرقاً لا حقيقة له.

ولهذا يوجد كثير ممن يكذب بهذه الخوارق الشيطانية أن تكون لبعض الأشخاص، لما يراه من نقص دينه وعلمه فإذا عاينها بعد ذلك، أو ثبتت عنده، خضع لذلك الشخص الذي كان عنده.

إما كافراً، وإما ضالاً، وإما مبتدعاً جاهلاً، وذلك لأنه أنكر وجودها، معتقداً أنها لا توجد إلا للصالحين، فلما تيقن وجودها، جعلها دليلاً على الصلاح.

وهو غالط في الأصل، بل هذه من الشياطين، من جنس ما للسحرة والكهان، ومن جنس ما للكفار، من المشركين وأهل الكتاب.

فإن لمشركي الهند، والترك، وغيرهم، ولعباد النصارى من هذه الخوارق الشيطانية، أموراً كثيرة، يطول وصفها أكثر وأعظم، من أكثر مما يوجد منها، لإهل الضلال والبدع من المسلمين، وما يوجد منها للمنافقين.

فإن الشياطين، لا تتمكن من إغواء المسلمين، وإن كان فيهم جهل وظلم، كما تتمكن من إغواء المشركين، وأهل الكتاب. ولهذا ثنى في القرآن، قصة موسى مع السحرة، وذكر ما يقولوه الكفار لأنبيائهم.

فإنه ما جاء نبي صادق قط، إلا قيل فيه إنه ساحر أو مجنون كما قال تعالى (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ.أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)(١)

(١)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢-٥٣)

وذلك أن الرسول، يأتي بما يخالف عاداتهم، ويفعل ما يرونه غير نافع، ويترك ما يرونه نافعاً.

وهذا فعل المجنون، فإن المجنون فاسد العلم والقصد، ومن كان مبلغه من العلم، إرادة الحياة الدنيا، كان عنده من ترك ذلك وطلب مالاً، يعلمه مجنوناً.

ثم النبي مع هذا، يأتي بأمور خارجة عن قدرة الناس من إعلام بالغيوب، وأمور خارقة لعاداتهم، فيقولون: هو ساحر.

وهذا موجود في المنافقين الملحدين، المتظاهرين بالإسلام من الفلاسفة ونحوهم، يقولون: إن ما أخبرت به الأنبياء من الغيوب، والجنة، والنار، هو من جنس قول المجانين.

وعندهم خوارقهم، من جنس خوارق السحرة، والممرورين المجانين، كما ذكر ابن سينا وغيره.

لكن الفرق بينهما: أن النبي: حسن القصد، بخلاف الساحر وأنه يعلم ما يقول، بخلاف المجنون.

لكن معجزات الأنبياء عندهم، قوى نفسانية، ليس مع هذا ولا هذا، شيء خارج عن قوة النفس.

والقاضيان: أبو بكر، وأبو يعلى، ومن وافقهما، متوقفون في وجود المخدوم، الذي تخدمه الجن.

قالوا: لا يقطع بوجوده.

وكذلك الكاهن، ذكروا فيه القولين:-

قول من يقول: إنه المتخرص.

وقول من يقول: إنه مخدوم.

وهم متوقفون فيه، لا يقطعون بوجود مخدوم كاهن كما يقطعون بوجود الساحر.

لأنه في زمانهم وجد الساحر، والقرآن أخبرنا بالسحر في سورة البقرة، بخلاف الكاهن، فإن القرآن ذكر اسمه ولو تدبروا، لعلموا أن الكاهن هو المذكور في قوله تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)(١)

وفي الصحيح، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قيل له: " إن منا قوماً يأتون الكهان.

قال: فلا تأتوهم " (٢).

وسُئل عن الكهان، وما يخبرون به؟

فأخبر: أن الجن تسترق السمع، وتخبرهم به. (٣)

فالكتاب والسنة، أثبتا وجود الكاهن.

و " أحمد " قد نص على أنه يقتل، كالساحر، لكن الكاهن، إنما عنده أخبار، والساحر عنده تصرف بقتل وإمراض، وغير ذلك، وهذا تطلبه النفوس أكثر. وابن صياد، كان كاهناً، ولهذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " قد خبأت لك خبيئاً.

فقال: الدُخ.

فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك، إنما أنت من إخوان الكهان(٤). ولما قضى في الجنين بغرة، قال حمل بن مالك: أيودي من لا شرب، ولا أكل، ولا نطق، ولا استهل فمثل ذلك يطل فقال: إنما أنت من إخوان الكهان " (٥).

من أجل سجعه الذي سجع، فكانوا يسجعون أساجيع. وقد رأيت من هؤلاء، شيوخاً يسجعون، أساجيع كأساجيع الكهان، ويكون كثير منها صدقاً.

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٣)

(٢) حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: السلام، باب: تحريم الكهانة.

(٣) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الأدب، باب: قول الرجل للشيء: ليس بشيء، ومسلم في صحيحه، كتاب: السلام باب: تحريم الكهانة.

(٤) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: كيف يعرض الإسلام على الصبي، ومسلم في صحيحه، كتاب: الفتن باب: ذكر ابن صياد.

(٥) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: الطب، باب: الكهانة، ومسلم في صحيحه، كتاب: القسامة، باب: دية الجنين.

ولهذا جمع الله بين الكاهن والشاعر في قوله تعالى (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ. وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَتَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)(١)

وكذلك في الشعراء، ذكر الكاهن والشاعر بعد قوله (وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ.بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ.وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَأَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ.وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ.فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ.كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)(٢)

الى قوله تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُتَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ.يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ) (٣)

والرسول في آية الحاقة " محمد " صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى ايضاً (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ.ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ.مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ.وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ.وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ.وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ.فَأَيْنَ تَذْهَبُونَإِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)(٤)

فلما أخبر به، أنه قول رسول، هو ملك من الملائكة، نفى أن يكون قول شيطان.

ولما أخبر هناك، أنه قول رسول من البشر، نفى أن يكون قول شاعر، أو كاهن.

فهذا تنزيه للقرآن نفسه، ونزه الرسول أن يكون على الغيب بظنين، أي: متهم، وأن يكون بمجنون.

فالجنون: فساد في العلم.

والتهمة: فساد في القصد، كما قالوا ساحر أو مجنون. وقال تعالى في الطور (فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ.أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِقُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ)(٥)

---

(١)سورة الحاقة: أية رقم (٤١-٤٣)
(٢)سورة الشعراء: أية رقم (١٩٢-١٩٥)
(٣)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٣)
(٤)سورة التكوير: أية رقم (١٩-٢٧)
(٥)سورة الطور: أية رقم (٢٩-٣١)

وقد أخبر عن الانبياء قبله أنه (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)(١)

ولم يقولوا كاهن، لأن الكاهن عند العرب: هو الذي يتكلم بكلام مسجوع، وله قرين من الجن.

وهذا الاسم (الكاهن) ليس بذم عند أهل الكتاب، بل يسمون أكثر العلماء بهذا الاسم، ويسمون هارون وأولاده الذين عندهم التوراة، بهذا الاسم.

والقدر المشترك: العلم بالأمور الغائبة، والحكم بها. فعلماء أهل الكتاب، يخبرون بالغيب، ويحكمون به عن الوحي الذي أوحاه الله.

وكهان العرب، كانت تفعل ذلك، عن وحي الشياطين وتمتاز بأنها تسجع الكلام.

بخلاف اسم الساحر، فإنه اسم معروف، في جميع الامم وقد يدخل في ذلك عندهم المخدوم، الذي تخبره الشياطين ببعض الأمور الغائبة.

ولكون الساحر يأتي بالخوارق، شبهوا به النبي، وقالوا: ساحر، فدل ذلك على قدر مشترك.

لكن الفَرقان بينهما أعظم، كالفرق بين الملائكة والشياطين وأهل الجنة وأهل النار، وخيار الناس وشرارهم، وهذا أعظم الفروق، بين الحق والباطل.

والكفار قالوا عن الانبياء: أنهم مجانين، وسحرة.

فكما يعلم بضرورة العقل، وجود أعظم الفرق، بينهم وبين المجانين، وأنهم أعقل الناس، وأبعدهم عن الجنون. فكذلك يعلم بضرورة العقل، أعظم الفرق بينهم وبين السحرة، وأنهم أفضل الناس، وأبعدهم عن السحر. فالساحر: يفسد الإدراك، حتى يسمع الإنسان الشيء ويراه ويتصور خلاف ما هو عليه.

والانبياء: يصححون سمع الإنسان، وبصره، وعقله والذين خالفوهم صم، بكم، عمي، فهم لا يعقلون. فالسحرة: يزيدون الناس عمى، وصمماً، وبكماً.

---

(١)سورة الذاريات: أية رقم (٥٢)

والانبياء: يرفعون عماهم، وصممهم، وبكمهم، كما في الصحيح، عن عطاء بن يسار، أنه سأل عبد الله بن عمرو وروى عبد الله بن سلام، أنه قيل له: أخبرنا ببعض صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة.

فقال: إنه لموصوف في التوراة، ببعض صفته في القرآن (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا)(١)وحرزاً للأميين، انت عبدي سميتك المتوكل، لست بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالاسواق، ولا تجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة، وتعفو، وتغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً بأن يقولوا: " لا اله الا الله " (٢).

وهذا مذكور عند أهل الكتاب، في نبوة أشعيا.

ولفظ التوراة، قد يراد به: جميع الكتب، التي نزلت قبل الإنجيل، فيقال: التوراة والانجيل.

ويراد بالتوراة: الكتاب الذي جاء به موسى، وما بعده من نبوة الأنبياء، المتبعين لكتاب موسى.

قد يسمى هذا كله: توراة.

فإن االتوراة تفسر بالشريعة، فكل من دان بشريعة التوراة قيل لنبوته أنها من التوراة.

وكثير مما يعزوه كعب الأحبار ونحوه، إلى التوراة، هو من هذا الباب، لا يختص ذلك، بالكتاب المنزل على موسى كلفظ الشريعة عند المسلمين، يتناول القرآن والاحاديث النبوية وما استخرج من ذلك، كما قد بسط هذا في موضع آخر. والمقصود هنا: أن الأنبياء يفتحون الأعين العمي، والآذان الصم، والقلوب الغلف.

والسحرة: يفسدون السمع، والبصر، والعقل، حتى يخيل للإنسان، الأشياء بخلاف ما هي عليه، فيتغير حسه وعقله. قال تعالى في قصة موسى (قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)(٣)

---

(١)سورة الأحزاب: أية رقم (٤٥)

(٢) حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: البيوع، باب: كراهية الصخب في الأسواق.

(٣)سورة الأعراف: أية رقم (١١٦)

وهذا يقتضي، أن أعين الناس قد حصل فيها تغير، ولهذا قال تعالى (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ)(١)

فقد علموا، أن السحر يغير الإحساس، كما يوجب المرض والقتل.

وهذا كله، من جنس مقدور الإنس، فإن الإنسان يقدر أن يفعل في غيره، ما يفسد إدراكه، وما يمرضه ويقتله. فهذا مع كونه ظلماً وشراً، هو من جنس مقدور البشر والجني إذا اراد أن يُرى قرينه أموراً غائبة، سَأل عنها مثَّلها له، فإذا سأل عن المسروق، أراه شكل ذلك المال وإذا سأل عن شخص، أراه صورته، ونحو ذلك.

وقد يظن الرائي، أنه رأى عينه، وإنما رأى نظيره.

وقد يتمثل الجني في صورة الإنسي، حتى يظن الظان أنه الإنسي، وهذا كثير، كما تصور لقريش في صورة سراقة ابن مالك بن جعشم، وكان من أشراف بني كنانة. قال تعالى (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّيَ أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)(٢)

فلما عاين الملائكة، ولى هارباً.

ولما رجعوا، ذكروا ذلك لسراقة، فقال: والله ما علمت بحربكم، حتى بلغني هزيمتكم.

وهذا واقع كثيراً، حتى أنه يتصور لمن يعظم شخصاً في صورته، فإذا استغاث به، أتاه، فيظن ذلك الشخص أنه شيخه الميت.

وقد يقول له: إنه بعض الأنبياء، أو بعض الصحابة الأموات، ويكون هو الشيطان.

وكثير من الناس، أهل العبادة والزهد، من يأتيه في اليقظة من يقول: إنه رسول الله، ويظن ذلك حقاً.

ومن يرى إذا زار بعض قبور الأنبياء، أو الصالحين، أن صاحب القبر، قد خرج إليه، فيظن أنه صاحب القبر ذلك، النبي، أو الرجل الصالح، وإنما هو شيطان، أتى في صورته، إن كان يعرفها، وإلا أتى في صورة إنسان وقال: إنه ذلك الميت.

وكذلك يأتي كثيراً من الناس في مواضع، ويقول: إنه الخضر، وإنما كان جنياً من الجن.

---

(١)سورة الحجر: أية رقم (١٤-١٥)

(٢)سورة الأنفال: أية رقم (٤٨)

ولهذا لم يجترئ الشيطان، على أن يقول لأحد من الصحابة إنه الخضر، ولا قال أحد من الصحابة: إني رأيت الخضر. وإنما وقع هذا بعد الصحابة، وكلما تأخر الأمر، كثر حتى إنه يأتي اليهود والنصارى ويقول: إنه الخضر.

ولليهود كنيسة، معروفة بكنيسة الخضر، وكثير من كنائس النصارى يقصدها هذا الخضر

والخضر الذي يأتي هذا الشخص، غير الخضر الذي يأتي هذا ولهذا يقول من يقول منهم: لكل ولي خضر، وإنما هو جني معه.

والذين يدعون الكواكب، تتنزل عليهم أشخاص يسمونها: روحانية الكواكب، وهو شيطان نزل عليه لما أشرك ليغويه.

كما تدخل الشياطين في الأصنام، وتتكلم أحياناً لبعض الناس وتتراءى للسدنة أحياناً، ولغيرهم أيضاً.

وقد يستغيث المشرك بشيخ له غائب، فيحكى الجني صوته لذلك الشيخ، حتى يظن أنه سمع صوت ذلك المريد، مع بعد المسافة بينهما.

ثم إن الشيخ يجيبه، فيحكي الجني صوت الشيخ للمريد حتى يظن أن شيخه سمع صوته وأجابه، وإلا فصوت الإنسان، يمتنع أن يبلغ مسيرة يوم، ويومين، وأكثر. وقد يحصل للمريد من يؤذيه، فيدفعه الجني، ويخيل للمريد أن الشيخ هو دفعه.

وقد يضرب الرجل بحجر، فيدفعه عنه الجني، ثم يصيب الشيخ بمثل ذلك، حتى يقول: إني اتقيت عنك الضرب وهذا أثره في.

وقد يكونون يأكلون طعاماً، فيصور نظيره للشيخ، ويجعل يده فيه، ويجعل الشيطان يده في طعام أولئك، حتى يتوهم الشيخ وهم، أن يد الشيخ امتدت، من الشام إلى مصر وصارت في ذلك الإناء.

وعمر بن الخطاب τ لما نادى: يا سارية الجبل.

قال: إن لله جنداً يبلغونهم صوتي.

فعُلم أن صوته، إنما يبلغ بما ييسره الله من تبليغ بعض الملائكة، أو صالحي الجن، فيهتفون بمثل صوته.

كالذي ينادي إبنه، وهو بعيد لا يسمع: يا فلان، فيسمعه من يريد إبلاغه، فينادي: يا فلان، فيسمع ذلك الصوت، وهو المقصود بصوت أبيه، وإلا فصوت البشر ليس في قوته، أن يبلغ مسافة أيام.

وقد قلنا: إن آيات الأنبياء، التي اختصوا بها، خارجة عن قدرة الجن والإنس.

قال تعالى (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (١)

وأما إذا كانت مما تقدر عليه الملائكة، فهذا مما يؤيدها فإن الملائكة لا يطيعون من يكذب على الله، ولا يؤيدونه بالخوارق.

فاذا أُيد به، كما أيد الله به نبيه، والمؤمنين يوم بدر، ويوم حنين كان هذا من أعلام صدقه، وإنه صادق على الله، في دعوى النبوة، فإنها لا تؤيد الكذاب، لكن الشياطين تؤيد الكذب والملائكة تؤيد الصدق.

والتأييد بحسب الإيمان، فمن كان إيمانه أقوى من غيره كان جنده من الملائكة أقوى، وإن كان إيمانه ضعيفاً كانت ملائكته بحسب ذلك، كملك الإنسان وشيطانه.

فإنه قد ثبت في الصحيح، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ما منكم من أحد إلا وكل به قرينه من الملائكة وقرينه من الجن.

قالوا: وبك يا رسول الله؟

قال: وبي، لكن الله أعانني عليه فأسلم " (٢).

وفي حديث آخر: " فلا يأمرني إلا بخير " (٣).

وهو في صحيح مسلم من وجهين: من حديث ابن مسعود ومن حديث عائشة.

وقال ابن مسعود: إن للقلب لمة من الملك، ولمة من الشيطان فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالحق.

ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق.

---

(١)سورة الأسراء: أية رقم (٨٨)

(٢) حديث شريف أخرجه الإمام الدارمي في سننه، كتاب: الرقائق، باب: ما من أحد إلا ومعه قرينه من الجن.

(٣) حديث شريف أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

فإذا كانت حسنات الإنسان أقوى، أُيد بالملائكة، تأييداً يقهر به الشيطان.

وإن كانت سيئاته اقوى، كان جند الشيطان معه أقوى. وقد يلتقي شيطان المؤمن، بشيطان الكافر، فشيطان المؤمن مهزول ضعيف، وشيطان الكافر سمين قوي.

فكما أن الانسان بفجوره، يؤيد شيطانه على ملكه، وبصلاحه يؤيد ملكه على شيطانه، فكذلك الشخصان، يغلب أحدهما الآخر، لأن الآخر لم يؤيد مَلَكه، فلم يؤيده، أو ضعف عنه لأنه ليس معه إيمان يعينه، كالرجل الصالح، إذا كان ابنه فاجراً، لم يمكنه الدفع عنه لفجوره.

وبسط هذه الامور له موضع آخر.

والمقصود هنا: الكلام على الفرق بين آيات الأنبياء وغيرهم وأن من قال: أن آيات الأنبياء، والسحر، والكهانة والكرامات، وغير ذلك، من جنس واحد، فقد غلط ايضاً. والطائفتان لم يعرفوا قدر آيات الأنبياء، بل جعلوها من هذا الجنس، فهؤلاء نفوه، وهؤلاء أثبتوه، وذكروا فرقاً لا حقيقة له. وإذا قال القائل: آيات الأنبياء لا يقدر عليها إلا الله، أو أن الله يخترعها، ويبتدئها بقدرته، أو أنها من فعل الفاعل المختار، ونحو ذلك.

قيل له: هذا كلام مجمل، فقد يقال عن كل ما يكون آيه لا يقدر عليه إلا الله، فإن الله خالق كل شيء، وغيره لا يستقل بإحداث شيء.

وعلى هذا: فلا فرق بين المعجزات وغيرها.

وقد يقال: لا يقدر عليها إلا الله، أي: هي خارجة عن مقدورات العباد، فإن مقدوراته على قسمين:

– منها ما يفعله بواسطة قدرة العبد، كأفعال العباد وما يصنعونه. – ومنها ما يفعله بدون ذلك، كإنزال المطر.

فإن أراد هذا القائل، أنها خارجة عن مقدور الإنس، بمعنى: أنه لا يقع منهم، لا بإعانة الجن، ولا بغير ذلك، فهذا كلام صحيح.

وإن أراد أنه خارج عن مقدورهم فقط، وإن كان مقدوراً للجن، فهذا ليس بصحيح.

فإن الرسل أرسلوا إلى الإنس، والجن، والسحر، والكهانة وغير ذلك تقدر الجن على إيصالها إلى الإنس، وهي مناقضة لآيات الأنبياء، كما قال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُتَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) (١)

وإن أراد أنها خارجة عن مقدور الملائكة، والإنس، والجن أو أن الله يفعلها بلا سبب، فهذا أيضاً باطل.

فمن أين له، أن الله يخلقها بلا سبب؟ ومن أين له، أنه لا يخلقها بواسطة الملائكة، الذين هم رسله في عامة ما يخلقه؟ فمن أين له، أن جبريل لم ينفخ في مريم حتى حملت بالمسيح وقد أخبر الله بذلك، وهو وأمه مما جعلهما آية للعالمين؟ قال تعالى (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) (٢).

وخلقُ المسيح بلا أب، من أعظم الآيات، وكان بواسطة نفخ جبريل.

قال تعالى (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا.قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا.قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّاقَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)(٣)

وقال تعالى (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) (٤)

وكذلك طَمسُ أبصار قوم لوط، كان بواسطة الملائكة. والذي عنده علم من الكتاب، لما قال عفريت من الجن لسليمان (قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ.قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)(٥) أتته به الملائكة. كذلك ذكره المفسرون، عن ابن عباس وغيره: أن الملائكة أتته به، أسرع مما كان يأتي به العفريت.

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٢)
(٢)سورة المؤمنون: أية رقم (٥٠)
(٣)سورة مريم: أية رقم (١٧-٢٠)
(٤)سورة التحريم: أية رقم (١٢)
(٥)سورة النمل: أية رقم (٣٩-٤٠)

وقد أخبر الله تعالى، أنه أيد محمداً صلى الله عليه وسلم بالملائكة، وبالريح.

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)(١)

وقال تعالى يوم حنين (ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ) (٢)

وقال تعالى يوم الغار (إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(٣)

وقال تعالى (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (٤)

وقد ثبت في الصحيح: أن الانسان يصوره ملك في الرحم بإذن الله، ويقول الملك: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا كان الخلق المعتاد، يكون بتوسط الملائكة ".
فإنه يقرر التوحيد بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(٥) الآيات.

ثم النبوة بقوله (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٦) ثم المعاد.

وكذلك في سورة الأنعام، يقرر التوحيد، ثم النبوة في وسطها، ثم يختمها بأصول الشرائع والتوحيد أيضاً، وهو ملة ابراهيم وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

---

(١)سورة الأحزاب: أية رقم (٩)
(٢)سورة التوبة: أية رقم (٢٦)
(٣)سورة التوبة: أية رقم (٤٠)
(٤)سورة الأنفال: أية رقم (١٢)
(٥)سورة البقرة: أية رقم (٢١)
(٦)سورة البقرة: أية رقم (٢٣)

والمقصود: أنه قد يبين انفراده بالخلق، والنفع، والضر والإتيان بالآيات، وغير ذلك، وإن ذلك لا يقدر عليه غيره. قال تعالى (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ)(١)

وقال تعالى (وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ. بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍوَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ. وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ.وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ.وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)(٢)

ففي هذه الآيات، تقرير التوحيد، حتى في إنزال الآيات قال تعالى (إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ)(٣)

وكذلك قوله تعالى في العنكبوت (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌأَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)(٤)

وقال تعالى أيضاً (وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)(٥)

---

(١)سورة النحل: أية رقم (١٧)

(٢)سورة الأنعام: أية رقم (١٠٠-١١٠)

(٣)سورة الأنعام: أية رقم (١٠٩)

(٤)سورة العنكبوت: أية رقم (٥٠-٥٢)

(٥)سورة الأنعام: أية رقم (٣٧)

هذا بعد قوله تعالى (وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (١)

وهو أرسله بآيات بَان بها الحق، وقامت بها الحجة، وكانوا يطلبون آيات تعنتاً، فيظن من يظن أنهم يهتدون بها، لكن لا يحصل بها المقصود. وقد تكون موجبة لعذاب الاستئصال، فتكون ضرراً بلا نفع.

وبيَّن سبحانه، أنه قادر على إنزال الآيات، وأنها ليست إلا عنده.

وغير أفعال العباد، قد اتفق الناس، على أنه لا يخلقه إلا الله، وإنما تنازعوا في أفعال العباد.

والصواب: أنها أفعال لهم، وهي مخلوقة لله، لكن آيات الأنبياء، لا تكون مما يقدر عليه العبد، كما قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ)(٢)

والملائكة إنما هي سبب من الأسباب، كما في خلق المسيح من غير أب.

فجبريل إنما كان مقدوره النفخ فيها، وهذا لا يوجب الخلق، بل هو بمنزلة الإنزال، في حق غير المسيح. وكذلك المسيح، لما خلق من الطين كهيئة الطير إنما مقدوره تصوير الطين، وإنما حصول الحياة فيه فبإذن الله يحيي ويميت، وهذا من خصائصه.

ولهذا قال الخليل (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(٣)

وفي القرآن، في غير موضع، قال تعالى (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)(٤)

وقال تعالى (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(٥)

وقال تعالى (وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)(٦)

---

(١)سورة الأنعام: أية رقم (٣٥)
(٢)سورة الأنعام: أية رقم (١٠٩)
(٣)سورة البقرة: أية رقم (٢٥٨)
(٤)سورة الروم: أية رقم (١٩)
(٥)سورة البقرة: أية رقم (٢٨)
(٦)سورة آل عمران: أية رقم (١٥٦)

وما يتولد عن أفعال الملائكة، وغيرهم، ليسوا مستقلين به، بل لهم فيه شركة، كطمس أبصار اللوطية وقلب مدينتهم.

وكذلك النصر، إنما يقدرون على القتال، كالإنس والنصر هو من عند الله، كما قال تعالى (وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(١)

والقرآن، إنما يقدرون على النزول به، لا على إحداثه ابتداءً، فهم يقدرون على الإتيان بمثله، من عند الله.

وأما الجن والإنس، فلا يقدرون على الإتيان بمثله لأن الله لا يكلم بمثله الجن والإنس ابتداءً.

ولهذا قال تعالى (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)(٢)

وقال تعالى (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(٣)

وقال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)(٤)

وقال تعالى (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ) (٥)

لم يكلفهم نفس الإحداث، بل طالبهم بالإتيان بمثله إما إحداثاً، وإما تبليغاً عن الله، أو عن مخلوق ليظهر عجزهم من جميع الجهات.

فقد يقال: فنفس أفعال العباد، ليست من الآيات إذ كانت مقدورة، ومفعولة للعبد، وإن كان ذلك بأقدار الله تعالى، ولا نفس القدرة على ذلك الفعل فإن المقصود من القدرة: هو الفعل.

بل الآيات خارجة عن مقدور جميع العباد: الملائكة والجن، والإنس.

---

(١)سورة الأنفال: أية رقم (١٠)

(٢)سورة الأسراء: أية رقم (٨٨)

(٣)سورة البقرة: أية رقم (٢٣)

(٤)سورة هود: أية رقم (١٣)

(٥)سورة الطور: أية رقم (٣٤)

وهي أيضاً: لا تُنال بالاكتساب، فإن الإنس والجن قد يقدرون بأسباب مباينة لهم، على أمور، كما يقدرون على قتل من يقتلونه، وإمراضه، ونحو ذلك. وآيات الأنبياء، لا يقدر أحد أن يتوصل إليها بسبب. والسحر والكهانة، مما يمكن التوصل إليه بسبب كالذي يأتي بأقوال وأفعال، تحدثه بها الجن. فالنبوة: لا تنال بكسب العبيد، ولا آياتها تحصل بكسب العباد.

وهذا من الفروق، بين آيات الأنبياء، وبين السحر والكهانة، وبينهما فروق كثيرة، أكثر من عشرة: أحدها: أن ما تخبر به الأنبياء، لا يكون إلا صدقاً وأما ما يخبرهم به من خالفهم من السحرة، والكهان وعباد المشركين، وأهل الكتاب، وأهل البدع والفجور من المسلمين، فإنه لا بد فيه من الكذب. الثاني: أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل، ولا تفعل إلا العدل.

وهؤلاء المخالفون لهم، لابد لهم من الظلم، فإن من خالف العدل، لا يكون إلا ظلماً، فيدخلون في العدوان على الخلق، وفعل الفواحش، والشرك، والقول على الله بلا علم.

وهي المحرمات، التي حرمها الله مطلقاً، كما قال تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)(١)

الثالث: أن ما يأتي به من يخالفهم، معتاد لغير الأنبياء كما هو معتاد للسحرة، والكهان، وعباد المشركين وأهل الكتاب، وأهل البدع، والفجور.

وآيات الأنبياء، هي معتادة أنها: تدل على خبر الله وأمره على حكمه.

فتدل على أنهم أنبياء، وعلى صدق من أخبر بنبوتهم، سواء كانوا هم المخبرين، أو غيرهم. وكرامات الأولياء، هي من هذا، فإنهم يخبرون بنبوة الأنبياء.

وكذلك أشراط الساعة: هي أيضاً تدل على صدق الأنبياء، إذ كانوا قد أخبروا بها.

فالذي جعله أولئك من كرامات الأولياء، وأشراط الساعة، ناقضاً لآيات الأنبياء، إذ هو من جنسها ولا يدل عليها.

فأولئك كذبوا بالموجود، وهؤلاء سووا بين الآيات وغيرها، فلم تكن في الحقيقة عندهم آية، وكانت الآيات عند أولئك منتقضة.

وأولئك نصروا جهلهم، بالتكذيب بالحق، وهؤلاء نصروا جهلهم أيضاً، بقول الباطل.

---

(١)سورة الأعراف: أية رقم (٣٣)

فقالوا: إن الآية هي المقرونة بالدعوى، التي لا تعارض وزعموا: أنه لا يمكن معارضة السحر والكهانة، إذا جعل آية، وأنه إذا لم يعارض، كان آية.

وهو تكذيب بالحق أيضاً، فإنه قد ادعاه غير نبي ولم يعارض.

فالطائفتان، أدخلت في الآيات ما ليس منها، وأخرجت منها ما هو منها، فكرامات الأولياء، وأشراط الساعة من آيات الأنبياء، وأخرجوها.

والسحر، والكهانة، ليس من آياتهم، وأدخلوها أو سووا بينها، وبين الآيات، بل ونوابها.

الرابع: أن آيات الأنبياء، والنبوة، لو قدر أنها تنال بالإكتساب، فهي إنما تنال بعبادة الله وطاعته. فإنه لا يقول عاقل: إن أحداً يصير نبياً بالكذب والظلم، بل بالصدق، والعدل، سواء قال: إن النبوة جزاء على العمل، أو قال: إنه إذا زكى نفسه فاض عليه، ما يفيض على الأنبياء.

فعلى القولين: هي مستلزمة لإلتزام الصدق والعدل وحينئذ: فيمتنع أن صاحبها يكذب على الله، فإن ذلك يفسدها.

بخلاف من خالف الأنبياء، من السحرة، والكهان وعباد المشركين، وأهل البدع والفجور، من أهل الملل وأهل الكتاب، والمسلمين.

فإن هؤلاء، تحصل لهم الخوارق، مع الكذب والإثم بل خوارقهم مع ذلك أشد، لأنهم يخالفون الأنبياء وما ناقض الصدق والعدل، لم يكن إلا كذباً وظلماً. فكل من خالف طريق الأنبياء، لابد له من الكذب والظلم، إما عمداً وإما جهلاً.

وقوله تعالى (تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)(١)ليس من شرطه أن يتعمد الكذب، بل من كان جاهلاً يتكلم بلا علم فيكذب.

فإن الشياطين، تنزل عليه أيضاً، إذ من أخبر عن الشيء بخلاف ما هو عليه، من غير اجتهاد يعذر به فهو كذاب.

ولهذا يصف الله المشركين بالكذب، وكثير منهم لا يتعمد ذلك.

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم، لما أفتى أبو السنابل: " بأن المتوفي عنها الحامل لا تحل بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الاجلين.

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢٢)

فقال: كذب أبو السنابل " (١) أي في قوله: بأن المتوفي عنها الحامل، لا تحل بوضع الحمل، بل تعتد أبعد الأجلين. وكذلك لما قال بعضهم: " ابن الأكوع حبط عمله قال النبي صلى الله عليه وسلم: كذب من قالها انه لجاهد مجاهد " (٢) ونظائره كثيرة.

فالأنبياء لا يقع في إخبارهم عن الله كذب، لا عمداً ولا خطأً، وكل من خالفهم، لابد أن يقع في خبره عن الله كذب ضرورة.

فإن خبره إذا لم يكن مطابقاً لخبرهم، كان مخالفاً له، فيكون كذباً.

فالذي تنزل عليه الشياطين، إذا ظن واعتقد أنهم جاءوا من عند الله، وأخبر بذلك، كان كاذباً.

وكذلك إذا قال عما أوحوه إليه، إن الله أوحاه إليه كان كاذباً.

قال تعالى (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)(٣)

ولما شاع خبر المختار بن أبي عبيد، وهو أول من ظهر في الاسلام بالكذب في هذا.

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يكون في ثقيف كذاب ومبير ".

فكان الكذاب: هو المختار بن أبي عبيد، وكان يتشيع لعلي.

ولهذا يوجد الكذب في الشيعة، أكثر مما يوجد في جميع الطوائف.

والمبير: هو الحجاج بن يوسف، وكان ظالماً معتدياً وكان يتشيع لعثمان، والمختار يتشيع لعلي.

فذكر لابن عمر، وابن عباس، أمر المختار، وقيل لأحدهما: إنه يزعم أنه يوحى إليه، فقال: صدق (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْلِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) (٤)

---

(١)حديث شريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب: الطلاق، باب: إنقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٢)حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الجهاد، باب: غزوة خيبر.

(٣)سورة الأنعام: أية رقم (١٢١)

(٤)سورة الأنعام: أية رقم (١٢١)

وقيل للآخر: إنه يزعم أنه ينزل عليه، فقال: صدق (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ.تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)(١)

الخامس: أن ما يأتي به السحرة، والكهان، والمشركون وأهل البدع، من أهل الملل، لا يخرج عن كونه مقدوراً للإنس والجن، وآيات الأنبياء، لا يقدر على مثلها، لا الإنس ولا الجن، كما قال تعالى (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىأَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (٢)

السادس: أن ما يأتي به السحرة والكهان، وكل مخالف للرسل، تُمكن معارضته بمثله، وأقوى منه كما هو الواقع، لمن عرف هذا الباب.

وآيات الأنبياء، لا يمكن أحداً أن يعارضها، لا بمثلها ولا بأقوى منها.

وكذلك كرامات الصالحين، لا تعارض لا بمثلها ولا بأقوى منها، بل قد يكون بعض آيات أكبر من بعض.

وكذلك آيات الصالحين، لكنها متصادقة متعاونة على مطلوب واحد، وهو عبادة الله، وتصديق رسله. فهي آيات، ودلائل، وبراهين، متعاضدة على مطلوب واحد، والأدلة بعضها أدل وأقوى من بعض.

ولهذا كان المشايخ، الذين يتحاسدون ويتعادون ويقهر بعضهم بعضاً بخوارقه، إما بقتل وإمراض وإما بسلب حاله، وعزله عن مرتبته، وإما غير ذلك خوارقهم شيطانية، ليست من آيات الأنبياء والأولياء. وكثير من هؤلاء، يكون في الباطن كافراً منافقاً وكثير منهم يموت على غير الإسلام.

وكثير منهم يكون مسلماً، مع ظلم يعرف أنه ظلم ومنهم من يكون جاهلاً، يحسب أن ما هو عليه مما أمر الله به ورسوله.

هذا كما يقع للملوك المتنازعين على الملك، من قهر بعضهم لبعض.

فهذا خارج عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين.

---

(١)سورة الشعراء: أية رقم (٢٢١-٢٢٢)

(٢)سورة الأسراء: أية رقم (٨٨)

السابع: أن آيات الأنبياء، هي الخارقة للعادات عادات الإنس والجن، بخلاف خوارق مخالفيهم فإن كل ضرب منها، معتاد لطائفة غير الأنبياء وآيات الأنبياء، ليست معتادة لغير الذين يصدقون على الله، ويصدقون من صدق على الله، وهم الذين جاءوا بالصدق وصدقوا.

وتلك معتادة، لمن يفتري الكذب على الله، أو يكذب بالحق لما جاءه، فتلك آيات على كذب أصحابها.

وآيات الأنبياء، آيات على صدق أصحابها، فإن الله سبحانه، لا يخلى الصادق مما يدل على صدقه، ولا يخلي الكاذب مما يدل على كذبه إذ من نعته، ما أخبر به في قوله تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(١)

ثم قال خبراً مبتدياً:(وَيَمْحُ اللَّهُالْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(٢)

فهو سبحانه، لابد أن يمحق الباطل، ويحق الحق بكلماته وقال تعالى (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَلَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَبَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)(٣)

كما أخبر في موضع: أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا سدى وإنما خلقهم بالحق وللحق.

فلابد أن يجزي هؤلاء وهؤلاء، بإظهار صدق هؤلاء وإظهار كذب هؤلاء، كما قال تعالى (بَلْ نَقْذِفُبِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِفَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)(٤)

الثامن: أن هذه لا يقدر عليها مخلوق، فلا تكون مقدورة للملائكة، ولا للجن، ولا للإنس.

وإن كانت الملائكة، قد يكون لهم فيها سبب بخلاف تلك، فإنها إما مقدورة للإنس، أو للجن أو مما يمكنهم التوصل إليها بسبب.

وأما كرامات الصالحين، فهي من آيات الأنبياء كما تقدم.

---

(١)سورة الشورى: أية رقم (٢٤)
(٢)سورة الشورى: أية رقم (٢٤)
(٣)سورة الأنبياء: أية رقم (١٦-١٨)
(٤)سورة الأنبياء: أية رقم (١٨)

ولكن ليست من آياتهم الكبرى، ولا يتوقف إثبات النبوة عليها، وليست خارقة لعادة الصالحين بل هي معتادة في الصالحين، من أهل الملل، في أهل الكتاب، والمسلمين.

وآيات الأنبياء التي يختصون بها، خارقة لعادة الصالحين. التاسع: أن خوارق غير الأنبياء، والصالحين، من السحرة، والكهان، أهل الشرك والبدع، تنال بأفعالهم، كعباداتهم، ودعائهم، وشركهم وفجورهم، ونحو ذلك.

وأما آيات الأنبياء، فلا تحصل بشيء من ذلك، بل الله يفعلها آية وعلامة لهم.

وقد يكرمهم بمثل كرامات الصالحين، وأعظم من ذلك، مما يقصد به إكرامهم.

لكن هذا النوع، يقصد به الإكرام والدلالة، بخلاف الآيات المجردة، كإنشقاق القمر، وقلب العصا حية وإخراج يده بيضاء، والإتيان بالقرآن، والإخبار بالغيب، الذي يختص الله به.

فأمر الآيات إلى الله، لا إلى اختيار المخلوق، والله يأتي بها، بحسب علمه، وحكمته، وعدله، ومشيئته ورحمته.

كما ينزل ما ينزله من آيات القرآن، وكما يخلق من يشاء من المخلوقات، بخلاف ما حصل بإختيار العبد، إما لكونه يفعل ما يوجبه، أو يدعو الله به فيجيبه.

فالخوارق التي ليست آيات، تارة تكون بدعاء العبد والله تعالى يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، وإن كان كافراً، لكن للمؤمنين من إجابة الدعاء، ما ليس لغيرهم.

وتارة تكون بسعيه في أسبابها: مثل توجهه بنفسه وأعوانه، وبمن يطيعه من الجن والإنس في حصولها. وأما آيات الأنبياء: فلا تحصل بشيء من ذلك.

العاشر: أن النبي قد خلت من قبله أنبياء، يعتبر بهم فلا يأمر إلا بما أمرت به الأنبياء، من عبادة الله وحده، والعمل بطاعته، والتصديق باليوم الآخر والايمان بجميع الكتب والرسل.

فلا يمكن خروجه، عما اتفقت عليه الأنبياء. وأما السحرة، والكهان، والمشركون، وأهل البدع من أهل الملل، فإنهم يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء.

فكلهم يشركون مع تنوعهم، ويكذبون ببعض ما جاء به الأنبياء.

والأنبياء كلهم منزهون عن الشرك، وعن التكذيب بشيء من الحق، الذي بعث الله به نبياً.

قال تعالى (وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) (١)

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)(٢)

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(٣)

وقال تعالى (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(٤)

وقال تعالى (قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٥)

وقال تعالى (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)(٦)

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاًأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا)(٧)

---

(١)سورة الزخرف: أية رقم (٤٥)
(٢)سورة الأنبياء: أية رقم (٢٥)
(٣)سورة النحل: أية رقم (٣٦)
(٤)سورة البقرة: أية رقم (٢٨٥)
(٥)سورة البقرة: أية رقم (١٣٦-١٣٧)
(٦)سورة البقرة: أية رقم (١٧٧)
(٧)سورة النساء: أية رقم (١٥٠-١٥١)

وقال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)(١)

وقال تعالى (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) (٢)

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (٣)

ثم قال (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)(٤)وقال تعالى لما ذكر الانبياء (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ.فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ) (٥)

قال تعالى (وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينبَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)(٦)

فالأنبياء: يصدق متأخرهم متقدمهم، ويبشر متقدمهم بمتأخرهم، كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد وكما صدق محمد جميع النبيين قبله.

ولهذا يقول (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً)(٧)

(١)سورة آل عمران: أية رقم (٨١)
(٢)سورة الشورى: أية رقم (١٣)
(٣)سورة المؤمنون: أية رقم (٥١-٥٢)
(٤)سورة المؤمنون: أية رقم (٥٣)
(٥)سورة الأنبياء: أية رقم (٩٢-٩٤)
(٦)سورة البقرة: أية رقم (١١-١١٢)
(٧)سورة النساء: أية رقم (٤٧)

وقال تعالى (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ. مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)(١)

وقال (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (٢)

والأنبياء وأتباعهم، كلهم مؤمنون مسلمون، يعبدون الله وحده، بما أمر، ويصدقون بجميع ما جاءت به الأنبياء، ومن خالفهم، لا يكون إلا مشركاً ومكذباً ببعض ما أنزل الله.

وبين الطائفتين فروق كثيرة، غير خوارق العادات. الحادي عشر: أن النبي، هو وسائر المؤمنين، لا يخبرون إلا بحق، ولا يأمرون إلا بعدل.

فيأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويأمرون بمصالح العباد في المعاش والمعاد.

لا يأمرون بالفواحش، ولا الظلم، ولا الشرك، ولا القول بغير علم.

فهم بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها، لا بتبديلها وتغييرها.

فلا يأمرون إلا بما يوافق المعروف في العقول الذي تتلقاه القلوب السليمة بالقبول.

فكما أنهم هم لا يختلفون، فلا يناقض بعضهم بعضاً، بل دينهم وملتهم واحد، وإن تنوعت الشرائع. فهم أيضاً موافقون لموجب الفطرة، التي فطر الله عليها عباده، موافقون للأدلة العقلية، لا يناقضونها قط، بل الأدلة العقلية الصحيحة، كلها توافق الأنبياء لا تخالفهم.

وآيات الله السمعية، والعقلية، العيانية، والسماعية كلها متوافقة، متصادقة، متعاضدة، لا يناقض بعضها بعضا، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع.

والذين يخالفون الأنبياء، من أهل الكفر، وأهل البدع، كالسحرة، والكهان، وسائر أنواع الكفار، وكالمبتدعين من أهل الملل، أهل العلم، وأهل العبادة فهؤلاء مخالفون للأدلة السمعية

(١)سورة آل عمران: أية رقم (٣)

(٢)سورة المائدة: أية رقم (٤٨)

والعقلية، للسماعية والعيانية، مخالفون لصريح المعقول، وصحيح المنقول كما أخبر الله عنهم بقوله (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)(١) الآية.

فهؤلاء يخالفون أقوال الأنبياء، إما بالتكذيب، وإما بالتحريف من التأويل، وإما بالاعراض عنها وكتمانها. فإما أن لا يذكروها، أو يذكروا ألفاظها، ويقولون: ليس لها معنى يعرفه مخلوق، كما أخبر الله عن أهل الكتاب: أن منهم من يكذب في اللفظ، ومنهم من يحرف الكلم في المعنى، ومنهم جهال لا يفقهون ما يقرأون.

قال تعالى (أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٢)

وكذلك هم مخالفون للأدلة العقلية، فالأنبياء كملوا الفطرة، وبصروا الخلق، كما تقدم في صفة محمد صلى الله عليه وسلم: أن الله يفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً.

ومخالفوهم يفسدون الحس والعقل، كما أفسدوا الأدلة السمعية.

والحس والعقل: بهما تعرف الأدلة.

والطرق ثلاثة: الحس، والعقل، والخبر.

فمخالفوا الأنبياء، أفسدوا هذا، وهذا، وهذا. أما إفسادهم لما جاء عن الأنبياء: فظاهر.

وأما إفسادهم للحس والعقل: فإنهم قسمان: قسم أصحاب خوارق حسية: كالسحرة، والكهان وضلال العباد.

وقسم أصحاب كلام، واستدلال بالقياس والمعقول. وكل منهما يفسد الحس والعقل.

أما أصحاب الحال الشيطاني، فقد عُرف أن السحر يغير الحس والعقل، حتى يخيل إلى الإنسان، الشيء بخلاف ما هو.

وكذلك سائر الخوارق الشيطانية، لا تأتي إلا مع نوع فساد في الحس أو العقل، كالمؤلهين، الذين لا تأتيهم إلا مع زوال عقولهم.

---

(١)سورة الملك: أية رقم (٨)

(٢)سورة البقرة: أية رقم (٧٥)

وآخرين لا تأتيهم إلا في الظلام، وآخرين تتمثل لهم الجن في صورة الإنس، فيظنون أنهم إنس، أو يرونهم مثال الشيء، فيظنون أن الذي رأوه هو الشيء نفسه، أو يسمعونهم صوتاً، يشبه صوت من يعرفونه، فيظنون أنه صوت ذلك المعروف عندهم.

وهذا كثير موجود، في أهل العبادات البدعية، التي فيها نوع من الشرك، ومخالفة للشريعة.

وأما أصحاب الكلام، والمقال البهتاني: فإنهم بنوا أصولهم العقلية، وأصول دينهم الذي ابتدعوه على مخالفة الحس والعقل.

فأهل الكلام، أصل كلامهم في الجواهر والأعراض مبني على مخالفة الحس والعقل.

فإنهم يقولون: إنا لا نشهد، بل ولا نعلم في زماننا حدوث شيء من الأعيان القائمة بنفسها، بل كل ما يُشهد حدوثه، بل كل ما حدث من قبل أن يخلق آدم، إنما تحدث أعراض في الجواهر، التي هي باقية، لا تستحيل قط، بل تجتمع وتتفرق. والخلق عندهم ـ الموجود في زماننا ـ: إنما هو جمع وتفريق، لا إبتداع عين، وجوهر قائم بنفسه ولا خلق لشيء قائم بنفسه، لا إنسان، ولا غيره وإنما يخلق أعراضا.

ويقولون: إن كا ما تشاهده من الأعيان، فإنها مركبة من جواهر، كل جوهر منها، لا يتميز يمينه عن شماله.

وهذا مخالفة للحس والعقل كالأول.

ويقول كثير منهم: إن الاعراض لا تبقى زمانين. ويقولون، إنه لا يفنى ويعدم في زماننا شيء من الأعيان بل كما لا يحدث شيء من الأعيان، لا يفنى شيء من الأعيان.

فهذا أصل علمهم، ودينهم، ومعقولهم الذي بنوا عليه حدوث العالم، وإثبات الصانع، وهو مخالف للحس والعقل.

ويقول الذين يثبتون الجوهر الفرد: إن الفلك، والرحاء وغيرهما يتفكك، كلما استدار.

ويقول كثير منهم: إن كل شيء، فإنه يمكن رؤيته، وسمعه، ولمسه، إلى غير ذلك من الأمور التي جعلوها أصول علمهم ودينهم، وهي مكابرة للحس والعقل.

والمتفلسفة أضل من هؤلاء، فإنهم يجعلون ما في الذهن ثابتاً في الخارج، فيدَّعون أن ما يتصوره العقل من المعاني الغائبة الكلية، موجودة في الجواهر، قائمة بأنفسها، إما مجردة عن

الاعيان، وإما مقترنة بها. وكذلك العدد، والمقدار، والخلاء، والدهر، والمادة يدعون وجود ذلك في الخارج.

وكذلك ما يثبتونه من العقول، والعلة الأولى، الذي يسميه متأخروهم: واجب الوجود.

وعامة ما يثبتونه من العقليات، إنما يوجد في الذهن فالذي لا ريب في وجوده: نفس الإنسان، وما يقوم بها. ثم ظنوا ما يقوم بها من العقليات، موجودا في الخارج، فكان إفسادهم للعقل أعظم، كما أن إفساد المتكلمين للحس أعظم.

مع أن هؤلاء المتفلسفة، عمدتهم هي العلوم العقلية والعقليات عندهم، أصح من الحسيات. وأولئك المتكلمون، أصول علمهم هي الحسيات، ثم يستدلون بها على العقليات، وبسط هذه الامور له موضع آخر.

والمقصود هنا: التنبيه على أن من خالف الأنبياء فإنه كما أنه مكذب، لما جاءوا به من النبوة والسمع، فهو مخالف للحس والعقل، فقد فسد عليه الأدلة العقلية والنقلية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(...الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ...) (الأعراف: ٤٣)